الأكثر مبيعا 1 في أمريكا

دانيال ستيل

DANIELLE STEEL



القبلة

THE KISS

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.







الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Kiss

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونيا من المؤلفة
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينها وبين الدار العربية للعلوم

ISBN 9953-29-904-8

الطبعة الأولى

1424 هـ - 2004 م



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

عين التينة، شارع ساقية الجنزير، بناية الريم
هاتف: 860138 - 785108 - 785107 (961-1)
فاكس: 786230 (961-1) ص.ب: 13-5574 - بيروت - لبنان
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تمت الطباعة في:
مطبعة المتوسط
هاتف: 860138 (961-1) - بيروت - لبنان

المحتويات

الإهْدَاء

إلى زوجتي المخلصة

وابني الحبيب

أنطوان

مقدمة بقلم المترجم

تعتبر دانييل ستيل Danielle Steel من أشهر الكتّاب وأكثرهم انتشاراً في العالم، خاصةً مع مبيع أكثر من 490 مليون نسخة من رواياتها.

إن أشهر الروايات التي ألّفتها ولاقت رواجاً هي: "وثبة إيمان"، "الرحلة"، "المنزل في شارع هوب"، "قوى لا تقاوم"، "غراي دان"، "الحلو المر"، "صورة مرآة"، "الشبح"، و"القبلة".

وكتبت دانييل ستيل أيضاً قصائدَ شعرية ونشرتها في ديوان "الحب". كما وأن لها أعمالاً غير قصصية مثل "إنجاب الطفل"، وكتاب "نوره الساطع" الذي تحكي فيه عن حياة وموت ابنها نيكولاس ترينا.

دانييل ستيل:

إن روايـــات دانيـــيل ستيل ذات طابع رومانسي وهي الأكثر رواجاً في العـــالم. وإذا أمعـــنا النظر في حياة دانييل ستيل الشخصية انطلاقاً من زوجها الأول وصـــولاً إلـــى زوجهـــا الخـــامس وإنجابها لأولادها التسعة من هؤلاء الأزواج، نجـــد أنهـــا ميالة إلى الرومانسية والخيال الجامح (الفانتازيا) إلى حد كبـــير. وهذا الميل، على ما يبدو، هو الذي قضى على كل علاقاتها الزوجية، لأن هـــذه العلاقـــات لا ترتقي إلى مستوى توقعاتها. وإذا قرأنا رواياتها بعناية نجـــد بعضـــاً من ملامح وأحداث حياتها تنعكس في صفحات رواياتها وتتخلل حـــياتها المهنـــية التي تعتبر ناجحة. وإذا نظرنا إلى حياتها وعلاقات الصداقة التـــي تربطها بمن حولها نجد أن حياتها لا تخلو من المرح والنشاط والحيوية مـــع أن هـــذا يتناقض تماماً مع الأخطار التي تعرضت لها في حياتها، وسوء الحظ الذي رافقها، خاصة بسبب أزواجها: فزوجها الأول، داني زغلدر، اعتُقل

وحُكِمَ عليه بالسجن لارتكابه جرائم اغتصاب وسلب، وزوجها الثاني، بيل توث، كان مدمن هيروين. وبعدهما تزوجت عدة زيجات باءت بالفشل والطلاق وصولاً إلى زوجها الخامس صاحب شركة سفن شحن، والذي أدانته المحكمة بجرم القتل غير العمد بعد حادث اصطدام سفن في جنوب فرنسا. والكارثة الأكبر في حياتها هي حادثة موت ابنها نيك، من زوجها بيل. ففي التاسعة عشرة من عمره أخذ جرعة زائدة من المخدرات أدت إلى وفاته.

إضافة إلى رواياتها وأعمالها غير القصصية، كتبت دانييل ستيل سلسلة كتب "ماكس ومرتا"، وهذه موجهة بشكل خاص للشباب لتساعدهم على مواجهة المشاكل وتحدي صعوبات الحياة. وكتبت أيضاً سلسلة كتب "فريدي" للأطفال. ولقد تبنى التلفزيون العديد من روايات ستيل وصنع منها مسلسلات تلفزيونية. واهتمت دانييل ستيل بقضية منع استغلال الأطفال وسوء معاملتهم، ودعت إلى إنعاش حالة الأطفال وتحسينها وتحقيق السعادة والاستقرار لهم. ونعلم أنها تعتني بأولادها التسعة جيداً، وتكثّر من اهتمامها بكتبها التي تدرّ عليها ثروات طائلة سنوياً.

وعن أسلوب عملها وطريقتها في كتابة الروايات تقول دانييل ستيل أن كتبها تبدأ بصورة أو شخصية أو حالة معينة تهتم بها وتطورها إلى رواية خلال فترة قد تستغرق أكثر من سنتين. ولا تعتمد ستيل في رواياتها على شخصيات واقعية أو على حياتها الشخصية. بل بالحري إنها تفضل أن تكون مبدعة ومبتكرة في قصصها على أن تتقيد بأناس حقيقيين في واقع الحياة.

بدأت ستيل الكتابة منذ الطفولة. وفي آخر مرحلة المراهقة صار لديها شغف بالتأليف، وكتبت الكثير من الشعر، وأكملت أول رواية لها وهي في التاسعة عشرة من عمرها.

"القبلة":

في روايتها الثالثة والخمسين التي تلاقي رواجاً كبيراً تُظهر دانييل ستيل كيف أن لحظة انكسار يمكن أن تغير حياة الناس وإلى الأبد. رواية "القبلة" هي استعراض مؤثر لهشاشة الحياة، وقصةٌ تحبس الأنفاس، تدور حول طاقة الحب القادرة على أن تشفي، وتعتق، وتحول، أو تجمع شتات النفوس المحطمة.

في مساء يوم دافئ من شهر حزيران (يونيو)، تمر حافلة حمراء ذات طبقتين ممتلئة بالركاب في شارع في لندن. وعلى مسافة ليست ببعيدة يركب رجل وامرأة سيارة ليموزين بعد أمسيةٍ ساحرة أمضياها في المرح والرقص واحتساء المشروب المفضّل. وفي خلوتهما داخل السيارة يغرقان في قبلة دافئة. وفي لحظة مطبوعة في ذاكرة الزمن ترتطم سيارتهما الليموزين وهي في أقصى سرعتها بالباص الضخم وتتحول إلى حطام من الحديد والزجاج تحت وطأة ثقل الحافلة. ويبدأ راكباها العاشقان رحلةً طويلة نحو الشفاء والأمل والحلم بمستقبل جميل.

إيزابيل فوريستر امرأة فرنسية ولطيفة وحساسة للغاية. وهي زوجة غوردون وهو مصرفي باريسي مشهور كان قد أغلق قلبه دونها منذ زمن طويل. إيزابيل جميلة وثرية وأنيقة، وغوردون طاغية عديم المشاعر. أما ابنهما تيدي Teddy فهو مريض جداً ويحتاج إلى عناية مستمرة. تعيش إيزابيل سنوات في العزلة والفراغ العاطفي فتصب كل مشاعرها في العناية بابنها الميئوس من حالته، وفي بذل الجهد لجعل منزلهم الباريسي منزلاً سعيداً قدْر الإمكان بالنسبة إلى ابنتها المراهقة صوفي. وتسمح إيزابيل لنفسها بنوع من المسرّة الخاصة السرية: ألا وهي صداقة عن بعد وعبر الهاتف مع رجل أمريكي، بيل روبنسون، سياسي نافذ غني يعيش في واشنطن، وهو على غرار إيزابيل، يعيش علاقة زواج جوفاء مع زوجة تخونه.

يعتبر بيل أن إيزابيل لُقية من السماء، امرأة ذات جمال فائق وفضول

فكري، فيشعر أنها تولّم روحه، وأنها تمسّه وتتواصل معه، رغم البعد، بدفئها وتقمصــها العاطفي[1] اللطيف. لقد كانت علاقتهما نعمةً من السماء وحبلَ نجاةٍ لكليهما في خضمّ زيجات تعيسة لا يمكنهما أن يتخلصا منها ولا أن يخوناها.

يتفق بيل وإيزابيل على اللقاء في لندن لبضعة أيام ثمينة وبريئة. فيجدان أن صداقتهما تتبدل. ويعترف كل منهما بالحب للآخر. ولكن بيل لا يستطيع أن يطلّق زوجته لأنه يخشى أن يؤثر هذا على مركزه السياسي. وإيزابيل بدورها تخشى الطلاق خوفاً من زوجها غوردون القاسي القلب الذي سيأخذ ابنها تيدي منها وقد يحرمه من العناية الطبية التي يحتاج إليها. ويتفق إيزابيل وبيل على أن يفترقا، ويودعان بعضهما بعضاً بقبلة حلوة مرة. ولكن سيارتهما تصطدم بالباص بشكل مروّع ويتأذيان بشكل رهيب. ويُنقلان إلى المشفى حيث يشقان طريقاً جديدة في الحياة، طريقاً محفوفة بالألم وأيضاً بالأمل.

وفي أجنحة المشفى الباردة المعقّمة في لندن يتشبث بيل وإيزابيل بأهداب الحياة في حين أن جسديهما تبعثرا إلى أشلاء مهشمة يصعب شفاؤها. وخلال الأيام والأسابيع التالية يبدأ بيل وإيزابيل بالتماثل للشفاء ببطء وقد تملّك التحدي منهما الجسد والروح والفؤاد. فيجب عليهما معاً، لا أن يعتنقا الحياة من جديد فحسب، بل أن يواجها ما خلّفاه وراءهما. فبالنسبة لإيزابيل، يتحول زواجها الخالي من الحب إلى صراع قاسٍ مع زوجها. وأما بالنسبة لبيل فإن فترة الاستشفاء كشفت عن جراح أعمق من الجراح التي أحدثها الفولاذ في جسده، والوقائع والأحداث سوف تهز كيانه حتى الصميم.

وتتعقد طبيعة العلاقة المتنامية بينهما، ويظهر في الأفق خطر يهدّد علاقتهما بالانفصال. وهذه المرة قد يخسر كل منهما الآخر نهائياً.

فــي هذه الرواية المؤثرة والعاطفية، تنسج دانييل ستيل قصة شجاعة في

(1) التقمص العاطفي (empathy): أو التوحد العاطفي: حالة نفسية يشعر المصاب بها بنفس شعور شخص آخر أو جماعة ويوحّد بين ذاته وذات الشخص أو الجماعة الأخرى.

مواجهــة خطر خسارة لا تعوّض. وبموهبتها كقصّاصة محترفة تسبر أغوار القــوة التــي نحتاج إليها لنتغلب على مخاوفنا، وتظهر لنا كيف أن الخيارات الصــعبة القاســية تعود علينا بمكافآت وجوائز غير متوقعة، وكيف أن أطول الرحلات وأشدها خطراً قد تبدأ بمجرد قبلة.

أخيراً:

ورغــم أن روايــة "القبلة" غير محررة بشكل كامل[1]، ورغم أن بعض الــنقاد يجــدون شوائبَ في هذه الرواية من جهة التكرار، والأسلوب اللغوي الطفولي، ومثالية بعض الشخصيات، إلا أنها رواية لا تتطلب كبير عناء لفهمها بحبكــتها الميلودرامية. ورغم ما كُتِبَ على ظهر الكتاب بأن هذه الرواية "أدب قصصــي"، إلا أنها بالحري قصة رومانسية مؤثرة تجتذب الملايين من القراء الذين يلتهمون روايات دانييل ستيل ويجعلون منها ظاهرة نشر أدبية فريدة في العالم المعاصر.

جديــر بالذكر أن جميع الحواشي السفلية ليست في الرواية الأصلية، بل وضعناها لنجعل بعض التعابير والرواية عموماً واضحة أكثر للقارئ الكريم.

نأمل أن تنال هذه الترجمة استحسانكم، وأن تستمتعوا بقراءة هذه الرواية الجميلة، والله من وراء القصد.

أنطوان عبد الله

(1) يحرر: (edit): يعد كتابات الآخرين للنشر.

الفصل الأول

وقفت إيزابيل فوريستر في نافذة غرفة نومها تنظر إلى الحديقة في منزلها الكائن في شارع غرينيل في الدائرة[1] السابعة في باريس. إنه المنزل الذي كانت قد عاشت فيه مع زوجها غوردون لعشرين سنة، والذي كان قد أبصر ولداها النور فيه. كان قد بُني هذا المنزل في القرن الثامن عشر وكان له أبواب برونزية فخمة طويلة من جهة الشارع تؤدي إلى الفناء الداخلي. كان المنزل مبنياً على صورة حرف (U) حول الفناء. كان المنزل مألوفاً، عتيقاً، وجميلاً، بأسطحه العالية والألواح الإكسائية الرائعة[2]، والقوالب الجميلة، والأرضية المفروشة بالباركيت[3] بلون البراندي. كان كل ما حولها يتألق وقد عُنِيَ به أن يكون في منتهى الجمال والكمال. وكانت إيزابيل تدير أمور المنزل وترتّبه بذوق وبراعة فنية وإتقان، بيدٍ رصينة حازمة ولكن لطيفة. وكانت الحديقة مشذّبة بعناية، والأزهار البيضاء التي كانت قد غرستها قبل سنوات تُعتبر من أجمل الورود في باريس. وكان المنزل يحفل بالعاديّات التي كانت قد جمعتها مع غوردون عبر السنين، محلياً ومن خلال رحلات سفرهما. وكان العديد منها قد أتت بها من منزل والديها.

كان كل ما في المنزل متألقاً، والخشب مدهوناً بالزيت تماماً، والفضيات ملتمعة، وحوامل المصابيح البلورية على الجدران متلألئةً تحت شمس حزيران

---

(1) الدائرة (arrondissement): منطقة إدارية من مناطق مدينة فرنسية كبيرة. (المترجم)

(2) الألواح الإكسائية (boiseries): ألواح خشبية دقيقة منقوشة مطلية في العادة تُكسى بها الجدران لتأخذ رونقاً وجمالاً. (المترجم)

(3) الباركيت (parquet): أرضية مفروشة بقطع أو ألواح خشبية مزخرفة تُستعمل بدل البلاط في أوروبة وأمريكا. (المترجم)

(بونـيو) السـاطعة التـي كانت تتسرّب إلى غرفة النوم عبر الستائر. أدارت إيزابـيل وجهها عن منظر حديقة ورودها وهي تتنهّد. لقد كانت منفعلة وقلقة بخصـوص مغـادرة بـاريس بعد ظهر ذلك اليوم. لقد كانت قلّما تخرج من المـنزل، فقـد كانـت فرص أو مناسبات ذلك نادرة بالنسبة لها. أما الآن وقد سنحت لها الفرصة بذلك، فإنها تشعر بالذنب حيال ذلك، بسبب تيدي.

كانـت صـوفي، ابنة إيزابيل، قد مضت إلى البرتغال مع أصدقائها في الـيوم السـابق. كانت في الثامنة عشرة من عمرها وستذهب إلى الجامعة في الخريف. إنه ثيودور، ابن إيزابيل، هو من أبقاها في المنزل، ومنذ أربع عشرة سـنة. فلأنه وُلِدَ قبل أوانه بثلاثة أشهر، تأذّى للغاية عند الولادة، وبنتيجة ذلك مـا كانـت رئـتاه قد اكتمل نموهما بعد وهذا أضعف قلبه. وكان يتلقى تعليماً خصوصياً في المنزل ولم يذهب البتة إلى المدرسة. إنه في الرابعة عشرة من عمـره، ولقد أمضى جُلّ حياته طريح الفراش، وكان يتجول حول المنزل من خلال كرسي مدولب كلما كان لا يقدر أن يقوم بذلك اعتماداً على قوته. وعندما كان الجو جميلاً دافئاً كانت إيزابيل تأخذه على عربته ليتنزه في حديقة المنزل. واعتماداً على حالته، كانت إما تساعده على السير قليلاً أو كان يكتفي بالجلوس في كرسيه. كانت حيويته لا تُقهر، وكانت عيناه تلمعان عندما تدخل والدته إلى غرفـته. لقد كان لديه دائماً شئ طريف مضحك يخبرها عنه. إن الرباط الذي جمـع بيـنهما تعجـز الكلمات عن وصفه وهذا الرباط تحدّى السنين والزمان والمخـاوف والأخطار الخاصة التي واجهاها معاً. لقد كانت تشعر أحياناً أنهما شخصـان بروح واحدة. لقد كانت تبعث فيه الحياة والقوة، وتتحدث إليه لساعات طـوال، وتقـرأ لـه، وتضمه بين ذراعيها عندما يأخذ منه الضعف كل مأخذ وتتقطع معه أنفاسه فيكاد لا يقوى على الكلام، وكانت تجعله يضحك ما أمكنها ذلـك. لقد كان يرى الحياة من منظارها. وكان دائماً يذكّرها بعصفور صغير ضعيف مهيض الجَناح.

كانـت وغوردون قد اقترحا على أطبائه إجراء عملية زرع رئة وقلب،

تلـك التي كانت تُجرى في الولايات المتحدة، ولكن تبيّن في نهاية المطاف أنه أشد ضعفاً من أن يحتمل العملية الجراحية، أو حتى الرحلة نفسها. وبالتالي لا تنفع المجازفة في هذا الأمر. كان عالَمُ ثيودور يتألف من والدته وأخته، وتحدّه تخـوم المنزل الرائع الأنيق الكائن في شارع جرينيل. كان والده منزعجاً على الدوام إزاء مرض ابنه، وكان محتّماً على تيدي أن تُعنى به الممرضات طوال حـياته، ولكـن كانت أمه هي التي تعتني به معظم الوقت. مضى وقت طويل علـى التخلي عن أصدقائها واهتماماتها الخاصة وكل مظاهر الحياة الشخصية لديهـا. أما اتصالها مع العالم في السنوات الأخيرة فكان في المساء عند تواجد غـوردون وكان هذا نادراً جداً. كانت ترى أن رسالتها ومهمتها في الحياة هي إبقاء تيدي على قيد الحياة وإسعاده. وهذا ما جعل وقتها وعنايتها تتحولان على مر السنين عن شقيقته صوفي التي بدا أنها تتفهم ذلك، وكانت إيزابيل مُحبّة لها علـى الدوام. ولكن واقع تيدي فرض عليها أن تكون لـه الأولوية. فقد كانت حياته تعتمد على ذلك. في الأشهر الأربعة الأخيرة، وخاصة منذ بداية الربيع، تحسـنت حالـة ثـيودور، وهذا ما أعطى والدته فرصة مناسبة لتقوم برحلتها الـنادرة والمتوقّعة إلى لندن. لقد كانت هذه الرحلة من اقتراح بيل روبنسون، والتي بدت متعذرة ظاهرياً للوهلة الأولى.

كانت إيزابيل وبيل قد التقيا قبل أربع سنوات في حفل استقبال أقامه السفير الأمريكي في باريس الذي كان من زملاء الدراسة القدماء لغوردون في برنستون. كان بيل في خضم الحياة السياسية، وكان معروفاً عنه أنه من أقوى الشخصيات في واشنطن، وعلى الأرجح أكثرهم ثراءً. أخبرها غوردون أن وليم روبنسون هو الذي كان وراء إيصال الرئيس السابق إلى البيت الأبيض. كان قد ورث ثروة ضخمة تكاد لا تحصى وانقاد إلى السياسة وإلى السلطة التي قدمتها لـه منذ شبابه. ولقد كان هذا ملائماً لـه، وفي الواقع كان يفضل أن يبقى وراء الكواليس. لقد كان لـه نفوذ وتأثير كبيران على المرشّحين وعلى الناخبين على السواء، ولكنّ ما أثّر في إيزابيل هو هدوءه وتواضعه

عندما التقيا لأول مرة. عندما أوضح غوردون ظروف بيل لها بدا من الصعب أن تصدق مدى الثراء والسلطة اللتين كان يتمتع بهما. فقد كان بيل متواضعاً ومتحفظاً وهذا ما أعجبها فيه منذ اللحظة الأولى. لقد كان هادئاً سهل المعشر وبدا شاباً بشكل مثير للدهشة، وسرعان ما أبدى حسَّ الدعابة والمرح. لقد جلست إلى جواره على العشاء واستمتعت بصحبته للغاية. وكانت في غاية السرور والدهشة إذ كتب لها في الأسبوع التالي، وبعدها أرسل لها كتاباً فنياً نافذاً كانا قد تناقشا حوله، وكانت قد أخبرته أنها تسعى وراء هذا الكتاب منذ زمن طويل. لقد انذهلت إذ تذكّر ذلك، لاسيما وأنها تدرك وطأة ضغط الأعمال والأشغال الكثيرة التي يرزح تحتها، وتأثرت من أنه كلّف نفسه عناء البحث عن الكتاب وإرساله لها. فقد كان مشغوفاً بالكتب الفنية والنادرة.

كان حديثهما يكاد لا ينتهي حول سلسلة اللوحات الزيتية التي وُجدت آنذاك، بعد أن هرّبها النازيّون سراً معهم خلال الحرب، وتم اكتشافها مؤخراً في كهف في مكان ما في هولندا. وامتد حديثهما أيضاً ليتناول موضوع اللوحات المزيفة، وسرقات الفن، وأخيراً عمليات التجديد، والتي كانت ما قد قامت بها عندما التقت بغوردون. لقد كانت مبتدئة متمرنة في متحف اللوفر، وفي الوقت الذي تقاعدت فيه، وذلك عند ولادتها لصوفي، كانت تُعتبر ماهرةً وموهوبة.

أما بيل فقد فُتن بقصصها، وهي أيضاً كذلك، وخلال الأشهر التالية نشأت صداقة غريبة ولكن مريحة بينهما وذلك عن طريق الهاتف والرسائل. وقد وَجدَتْ بعضَ الكتب الفنية النادرة لإرسالها لـه، وفي المرة التالية التي جاء فيها إلى باريس، اتصل بها هاتفياً ودعاها للغداء. ترددَتْ في البداية ولكنها لم تستطع أن تقاوم، وكانت هذه من النوادر التي تركت فيها تيودور في وقت الغداء. كانت صداقتُهما قد بدأت قبل أربع سنوات، وكان تيدي في العاشرة من عمره آنذاك. وعبر الأيام، أينعت صداقتُهما وتطورت. فكان يتصل بها هاتفياً من وقت لآخر، في أوقات غير اعتيادية بالنسبة لـه، وذلك عندما كان يعمل حتى وقت متأخر، هذا الوقت الذي يكون صباحاً باكراً عندها. لقد أخبرته أنها

تستيقظ الساعة الخامسة فجراً لكي تُعنى بتيدي كل صباح. وبعد ستة أشهر أخرى سألها إذا كان غوردون يعارض اتصاله بها. في الواقع لم تخبره عن ذلك أبداً. لقد غدت صداقتها لبيل مسرّتها الخفية السرية التي بذلت جهدها لكي تحتفظ بها لنفسها.

"لماذا سيعارض؟" سألته باندهاش. لم تكن لتريد أن تثنيه عن الاتصال بها. لقد كانت تستمتع بمكالمته لها كثيراً، وكان بينهما اهتمامات عديدة مشتركة. والغريب في الأمر أنه غدا نافذة الاتصال الحقيقي الوحيدة لها بالعالم الخارجي. لقد توقف أصدقاؤها عن الاتصال بها منذ سنين. وازداد انقطاعها عن الآخرين بشكل مطرد، إذ كانت تمضي أيامها ولياليها في العناية بتيدي. ولكن كان لديها قلق بخصوص اعتراض غوردون على مكالمات بيل. لقد ذكرت لـه كتب الفن الأولى التي كان قد أرسلها لها عند وصولهما وبدا غوردون منذهلاً ولكنه لم يتفوه بكلمة البتة. ولم يُبدِ أي اهتمام معين بإرسال بيل الكتب لها، ولم تقل لـه شيئاً عن الاتصالات الهاتفية. فسيكون أصعب عليها أن تفسرها لـه، وهي في حد ذاتها مكالمات بريئة للغاية. فالأشياء التي كانا يصارحان بعضهما البعض بها لم تكن شخصية على الإطلاق، ولم تكن خارجة عن اللياقة، ولم يبادر أي منهما بالحديث عن حياته الشخصية، وكانا في بداية الأمر قلّما يتحدث أحدهما عن شريك حياته. لقد كان بالنسبة لها صوتاً لطيفاً ودوداً وصل إلى مسامعها فجأة في الساعات الحالكة من الصباح الباكر. وبما أن جرس الهاتف ما كان يرن في غرفة نومهما ليلاً، فإن غوردون لم يسمعه. وفي الواقع كانت تتوقع أن يعترض غوردون على هذه الاتصالات، لو عرف، ولذلك لم تخبره البتة. لم تكن تود أن تخسر نعمة مكالمات بيل أو صداقته لها.

كان بيل يتصل كل بضعة أسابيع في البداية، ثم ازدادت ببطء مكالماته لها. وتناولا الغداء معاً من جديد بعد حوالى سنة من لقائهما الأول. ومرةً، حين كان غوردون خارج المنزل أخذها بيل إلى العشاء. فتناولا العشاء في مطعم

صـــغير هادئ قرب المنزل، وقد صُعِقَتْ عندما عادت إلى المنزل وأدركت أن السـاعة كانـت قد تجاوزت منتصف الليل. لقد كانت تشعر وكأنها وردة ذابلة ذاوية تتشرب الشمس والمطر. إن الأمور التي تحدثا عنها كانت تغذي روحها، وكانـت مكالماته وزياراته النادرة تعزّزها وتقويها. وباستثناء أولادها، ما كان لدى إيزابيل أحد تتحدث إليه.

كان غوردون رئيس أكبر المصارف الاستثمارية الأمريكية في باريس، وكان في ذلك المنصب منذ سنوات. وفي الثامنة والخمسين من العمر، كان يكبر إيزابيل بسبع عشرة سنة. لقد ابتعدا عن بعضهما عبر السنين، وكانت هي تدرك ذلك، وتظن أن السبب يعود إلى تيدي. لم يستطع غوردون أن يحتمل جو المرض المستمر الذي كان يحيط بالطفل كسيف مسلول مسلط على وشك أن يهوي على عنق الغلام. ما كان غوردون يسمح لنفسه بأن يكون قريباً من تيدي، وكان الجميع يعرف ذلك. كانت كراهيته لمرض تيدي مفرطة للغاية، بل كانت شبه رهابية[1]. كان تيدي نفسه بشدة يدرك ذلك، وكان يظن وهو صغير أن والده يكرَهُهُ. ولكن مع نموه في السن صار يرى الأمر من منظار مختلف. عندما بلغ العاشرة من العمر أدرك تيدي أن والده كان يخاف بسبب مرضه بل كان مذعوراً من مرضه، وكانت الطريقة الوحيدة أمامه للهروب من هذا الشعور هو أن يتجاهله بالكلية، ويدّعي أو يعتبر أن الطفل لم يوجد أصلاً. لم يأخذ تيدي أي موقف من والده بسبب شعوره ذاك، وكان يتحدث عن ذلك صراحة وعلناً مع إيزابيل، وعلائم الحزن بادية عليه كما لو أنه كان يحكي عن بلدٍ يود لو يزوره ويعرف أنه ليس لـــه إلى ذلك من سبيل. كان الطفل ووالده غرباء بالنسبة لبعضهما البعض كما لو أنهما لم يلتقيا أبداً تقريباً. كان غوردون قد أوصد باب قلبه دونه، ووضع كل طاقاته في عمله، كما كان يفعل

(1) الرهابي (phobic): الرهاب: الهلع أو الخوف المرضي: خوف مبالغ فيه ومَرَضي من نوع من المثيرات والأوضاع. وهو في كل الأحوال خوف غير معقول وغير مبرر.
المترجم

لسنوات عديدة، وأقصى نفسه قدر الإمكان عن الحياة في المنزل، وخاصةً زوجته. الشخص الوحيد من أفراد عائلته الذي بدا منجذباً قليلاً إليه هو صوفي. لقد كانت شخصيتها أقرب إلى شخصيته منها إلى شخصية والدتها. وكانت هناك عدة وجهات نظر مشتركة بين صوفي وغوردون، وبرودة معينة متبدية في الهيئة والأسلوب. بالنسبة لغوردون، كان على مدى السنين يشيد جدراناً بينه وبين الجانب الأكثر عاطفية في الحياة الذي كان يراه في جميع أحواله على أنه ضعف لا يروق لـــه على الإطلاق. أما في حالة صوفي فيبدو ببساطة أنها ورثت عن والدها هذه الصفة التي غرسها في نفسها. فحتى عندما كانت طفلة صغيرة كان الجانب العاطفي عندها أقل بكثير مما هو عند أخيها، وبدلاً من أن تطلب المساعدة من أحد، وخاصةً من إيزابيل، فإنها كانت تؤثِر على ذلك أن تفعل كل شيء بنفسها. إن برودة عواطف غوردون أحدثت في نفس صوفي استقلالية ذاتية ونوعاً من الاعتداد بالنفس المتحفظ. وكانت إيزابيل تتساءل أحياناً عما إذا كان ذلك هو رد فعل غريزي لديها نحو تطلّب أخيها وحاجته إلى الكثير من وقت والدتها. فلئلا تحصل على أقل مما تحتاج إليه أو تطلب، كانت صوفي تُقنع نفسها وعالمها الخاص الصغير أنها ما كانت في حاجة إلى شيء منهم. لم تكن تتبادل الثقة والأسرار مع إيزابيل، وكانت تمتنع عن الحديث عن عواطفها ومشاعرها إن أمكنها تحاشي ذلك، وكانت على الدوام قادرة على ذلك وتتصرف على هذا النحو. وكانت إيزابيل تعرف أن صوفي، إن كانت ستثق بأحد، فلن يكون بها وهي أمها، بل بأصدقائها. وكان الأمل يحدو نفس إيزابيل على الدوام بأنها ستجد مع صوفي عندما تكبر أساساً مشتركاً تقوم عليه صداقة بينهما. ولكن كان هذا بعيد المنال، فلم تكن علاقتها مع ابنتها الوحيدة بمثل تلك السهولة بالنسبة لها.

مـــن جهـــة أخرى، إن برودة غوردون تجاه زوجته كان مبالغاً فيها. إن ابـــتعاد صـــوفي الظاهر عن والدتها كان يمكن تعليله بمحاولتها للوقوف على قدميها واتكالها على نفسها مقابل عَوَز أخيها وحاجته المستمرة إلى أمه، وذلك

سعياً منها لأن تكون مختلفة عنه. بالنسبة لها، بدا تقريباً أنها تحاول أن تبرهن على أنها ليست في حاجة إلى الوقت والطاقة اللتين ما كانت والدتها قادرة على منحهما لها. وبالنسبة لغوردون، إن المسألة على ما يبدو لها جذور أعمق بكثير مما كانت إيزابيل على الأقل تشعر بها أو تراها على أنها استياء كبير عميق منه تجاهها أو تجاه قسوة القدر الذي منحهما ولداً معاقاً كان غوردون يلقي تبعَتَهُ عليها هي.

كان لغوردون نظرة هادئة إلى الحياة، وكان ينظر إلى الحياة عموماً من مسافة أمان كما لو أنه كان يرغب في متابعة مباراة دون أن يشارك في اللعب فيها، خلافاً لتيدي وإيزابيل اللذين كانا عاطفيين تجاه كل شيء يشعران به ويعبران عنه. إن الشعور المتقد الذي كانت تتشارك فيه مع الطفل هو الذي أبقى تيدي على قيد الحياة خلال حياته المليئة بالمرض. وتفانيها في العناية بابنها وتكريس وقتها له أبعد غوردون عنها منذ وقت طويل. وعلى الصعيد العاطفي كان غوردون قد اختفى من حياتها العاطفية منذ سنين، بُعَيد ولادة تيدي. وحتى قبل التقائها ببيل بسنوات، كان غوردون قد تخلى عن النوم في غرفة نومهما. وكان غوردون قد علّل ذلك بقوله أنها كانت تأوي إلى الفراش في وقت متأخر جداً وتنهض في وقت مبكر جداً، وهذا كان يزعجه. ولكنها كانت تشعر وبكل تأكيد أن الأمر أكبر من ذلك. وبما أنها ما كانت تريد للأمور أن تسوء أكثر من ذلك بينهما ولا أن تجابهه فإنها لم تبدي اهتماماً بالرد عليه إزاء ذلك. ولكنها كانت تعرف ومنذ زمن بعيد أن عواطف غوردون نحوها قد اضمحلت في البداية ومن ثم تلاشت نهائياً.

لم تعد إيزابيل حتى تتذكر آخر مرة لمسها فيها أو قبّلها أو مارس الحب معها. لقد كانت هذه حقيقة حياتية تقبّلتها الآن. وقد مضى وقت طويل منذ أن تعلمتْ أن تحيا بدون حب زوجها لها. وكانت غالباً ما ترتاب في أنه لم يكن فقط يربط مرض تيدي بها، بل أيضاً كان يلومها عليه، رغم أن الأطباء أكدوا

لها أنها غير مسؤولة عن مرضه وخِداجه[1]. لم تناقش إيزابيل هذا الموضوع قطعياً مع غوردون، ولم يكن ثمة وسيلة أمامها لتبرئ نفسها من اتهاماته الصامتة. ولكنها كانت تشعر بها دائماً وتعرف أن لديه هذه الفكرة. لقد بدا وكأن مجرد رؤية غوردون لإيزابيل يذكّره بحجرة تمريض الطفل (في المشفى)، وكما أنه نبذ ابنه منذ الولادة، بدافع الرعب من علّته ومرضه، فإنه أخيراً نبذ إيزابيل أيضاً من حياته. لقد شيّد جداراً بينه وبين زوجته وذلك لكي يَحول بينه وبين صور المرض التي كان يمقتها. لم يستطع أبداً أن يتساهل أو يتسامح مع ما فهمه على أنه ضعف منذ أن كان هو نفسه طفلاً. وهذا الجدار الحائل بينهما ما عادت إيزابيل تحاول أن تهدمه رغم أنها حاولت ذلك في البداية. لقد باءت محاولاتها بالتقرب منه بعد ولادة تيدي بالفشل، فقد كان غوردون يرفض كل محاولاتها، إلى أن قبلت أخيراً هذه الفجوة الواسعة من العزلة بينهما كأمر واقع في حياتهما.

لقد كان غوردون دائماً بارد الأعصاب والمشاعر وعملياً جدياً بطبيعته. وقيل أنه كان قاسياً لا يرحم في العمل، ولم يكن لديه دفء من أي جانب في حياته، ورغم ذلك فقد كان عاطفياً محباً لها في البداية. لقد بدا اعتداده بنفسه كأنه تحدٍّ لها وكان غير مألوف بالنسبة لها. وبسبب طبيعته تلك فإنها اعتبرت كل ابتسامة فازت بها وكل إيماءة دافئة حصلت عليها انتصاراً لها وذلك لأنه ما كان يظهر مودةً لأحد آخر غيرها. لقد كانت شابة فتية آنذاك، وكانت مأسورة به. لقد كان يبدو مقتدراً وبالغ القوة في عينيها، ومؤثراً في كثير من الأحوال. لقد كان رجلاً يسيطر بشكل كامل على كل جوانب عالمه. وكان غوردون يرى في إيزابيل الكثير من الأشياء التي تروق له والتي كانت ستجعل منها زوجة مثالية بدون ريب. وبالتأكيد فإن نسَبها ومحتدها الكريم، وميراثها وصيتها الأرستقراطي، وارتباطاتها وعلاقاتها المهمة هي التي ساعدته بشكل كبير في مجال عمله في المصرف. كانت ثروة عائلتها قد تبددت

(1) الخِداج (premature birth): ولادة الطفل قبل أوانه.

قبل سنوات مضت، وأما أهميتها في مسرح الحياة الاجتماعية والسياسية فكانت لا تزال كبيرة. إن زواجه منها زاد من مكانته الاجتماعية وكان عاملاً هاماً بالنسبة لـــه. فقد كان لها دور كبير في تعزيز منزلته ومهنته. وإضافة إلى أصلها وشجرة نسبها الكريم كانت تتمتع ببراءة طفولية فتحت لها الطريق بسهولة إلى قلبه.

أياً تكن دوافعه الاجتماعية الخفية إلا أنه كان يشعر بعذوبة وحلاوة إيزابيل الشابة التي كان يصعب على أي رجل أن يقاومها. لقد كانت عاطفية، لطيفة، دونما رياء أو خداع. وساهم كبرياء مظهره وتغطرس هندامه واهتمامه الكبير بها عندما كان يتودد إليها في جعلها تنظر إليه كبطل. لقد كانت مفتونة بذكائه، مسحورة بنجاحه ونفوذه في الحياة، ولقد كان غوردون متملقاً بما فيه الكفاية، وهو الذي كان يكبرها بسبع عشرة سنة، ليقول لها ما هو مناسب وفي الشكل المناسب. وحتى عائلتها كانت في غاية السرور عندما طلب يدها للزواج. لقد كان واضحاً بالنسبة لها أن غوردون سيكون زوجاً مثالياً وسيُعنى بها للغاية، أو هذا ما اعتقدت. وعلى الرغم من الصيت المأخوذ عنه بأنه حازم في معاملاته في المصرف، إلا أنه بدا لها غاية في اللطف، ولكن تبين فيما بعد أنه لم يكن هكذا تماماً.

في الوقت الذي التقت فيه إيزابيل ببيل روبنسون كانت امرأة تعيش في عزلة، وتسهر على صحة طفلها الميئوس من حالته الصحية، وتعيش مع زوجٍ كان قلّما يتحدث إليها، وتحيا حياة في غاية الوحدة. لقد كان صوت بيل، أحياناً، نافذة اتصالها الوحيد مع راشد آخر طوال يومها، فيما عدا طبيب تيدي، أو ممرضته. وبدا أنه الشخص الوحيد في عالمها الذي كان مهتماً بها حقاً وبصدق. كان غوردون، إن فعل، فنادراً ما يسألها عن أحوالها. جلّ ما كان ليقول لها، وفي الحالات القصوى، هو أنه سيكون خارجاً من أجل العشاء ليلاً، أو أنه يزمع أن ينطلق في رحلةٍ صبيحة اليوم التالي. ما عاد يشاركها مجريات أحداث أيامه. وكانت محادثاتهما القصيرة المقتضبة تعزّز مراراً وتكراراً إحساسها بأنها لم تعد موجودة في حياته. أما الساعات التي كانت تقضيها في

الحديث إلى بيل فقد فتحت النوافذ إلى عالم أوسع وأغنى. كانت تلك الساعات كنسمة هواء عليل بالنسبة إلى إيزابيل، وحبل نجاة تلجأ إليه في لياليها الحالكة. ومن خلال أحاديثهما العديدة المتبادلة معاً عبر السنين صار بيل صديقها الحميم، وغدا غوردون هو الغريب في حياتها.

لقد حاولت أن تشرح ذلك لبيل مرةً في إحدى مكالماتها الهاتفية في الصباح الباكر، في السنة الثانية من صداقتهما. كان تيدي مريضاً لأسابيع عديدة، وكانت تشعر أنها منهارة ومنهكة وآيلة للسقوط، وكانت مكتئبة بسبب برودة تعامل غوردون معها في الليلة الفائتة. فقد أخبرها أنها إنما تهدر وقتها سدى في عنايتها بابنها لأن الجميع كانوا يرون بوضوح أن الغلام على وشك الموت عما قريب، وأنها يجب أن تستسلم لهذه الفكرة. قال لها أن وفاة الطفل في النهاية ستكون رحمةً للجميع. كان صوتها يتهدج بالبكاء، والدموع تترقرق من عينيها عندما راحت تحكي عن ذلك لبيل الذي هالَهُ تحجر قلب والد الطفل وقسوته نحو إيزابيل.

"أعتقد أن غوردون مستاء مني جداً بسبب كل السنين التي أمضيتُها في العناية بتيدي. إذ لم يكن لدي الكثير من الوقت لأقضيه معه كما ينبغي". هذا ما أسَرّت به لـــه إذ كانت تعتقد أنها لم تخصص وقتاً لـــه بالمقدار الذي كانت تعرف أنه يَفترِضُ فيها أن تكرّسه له. وكان غوردون ومنذ زمن طويل قد رسّخ في ذهنها فكرة أنها خذلَتْه كزوجة. وهال بيل أن يسمع مدى استعدادها لتقبل ما يقوله غوردون لها.

قال لها بيل بلطف: "يبدو من المعقول، وفي ظروفك، أن تكون لتيدي الأولوية في حياتك يا إيزابيل". لقد كان يستشير الأطباء من أجلها ولعدة أشهر على أمل أن يحصل على شفاء معجزي لتيدي. ولكن ما قاله الأطباء لـــه لم يكن مشجعاً. بحسب قول إيزابيل كان الطفل يعاني من مرض متنكس[1]

(1) مرض متنكس (degenerative): أي مرض يتدهور أكثر فأكثر منتقلاً من سيء إلى أسوأ.

يصيب قلبه، وكانت رئتاه فيهما قصور[1]، وأن جسده كله كان آخذاً في التلف على نحو بطيء. وكان الرأي مجتمعاً على أنه وبمعجزة فقط يمكن أن يعيش حتى العشرينات من عمره. ولقد كان فؤاد بيل يتمزق لإدراكه ما تعانيه إيزابيل الآن وعما ستواجهه يوماً ما.

علـــى مـــر السنين القليلة التالية ازدادت صداقتهما عمقاً. كانا كثيراً ما يتحدثان على الهاتف، وكانت إيزابيل تكتب لـــه رسائل فلسفية طويلة، خاصةً في الليالي التي كانت تمضيها ساهرةً جالسةً إلى جوار سرير تيدي. فقد مضى وقـــت طويـــل مـــنذ أن غـــدا تيدي محور حياتها، وليس فقط أنه أبعدها عن غـــوردون وحسب، بل إنه أقصاها أحياناً عن صوفي التي كانت تلوم والدتها علـــى ذلـــك فـــي أكثر من مناسبة. لقد اتهمت والدتها باهتمامها بأخيها فقط. والوحيد الذي أمكن لإيزابيل أن تحدثه عن ذلك كان بيل، وذلك خلال أحاديثهما الطويلة في قلب الليل.

لحظـــات المشـــاركة بيـــنهما تجـــاوزت وقائع حياتهما اليومية، وكانت ضـــغوطات الحلبة السياسية تتلاشى كالدخان عندما كان يتحدث إليها. وبالنسبة إلـــى إيزابيل، عندما كانت تتحدث إلى بيل، كانت كما لو أنها تنتقل إلى مكان وزمـــان تنسى فيهما مرض تيدي ونبذ غوردون لها وسخط صوفي عليها. بدا وكأنها ترتفع من الحياة التي تعيش إلى أماكن أخرى وموضوعات أخرى كانت يومـــاً مـــا تهـــتم بها بعمق كبير. لقد أعطاها بيل منظاراً جديداً للعالم، وكانا يتحدثان دونما كلفة ويضحكان معاً. لقد حكى لها كثيراً عن حياته، وعن الناس الذيـــن عرفهم، والأصدقاء الذين اهتمّ بهم، وبين الفينة والأخرى، ورغماً عنه، كـــان يخبرها عن زوجته وابنتيه في الجامعة البعيدتين عنه. لقد تزوج عندما كـــان في الثانية والعشرين من عمره ولم يبقَ من زواجه بعد ثلاثين سنة سوى قشور زواج. فقد صارت زوجته سيندي تكره العالم السياسي الذي يعيش فيه،

(1) قصور (inadequate) في الرئة: أي أنها تعجز عن أداء المهمة أو الوظيفة الأساسية لها.

والناس الذين يلتقيان بهم، والواجبات المترتبة على بيل، والمناسبات التي كان يفترض فيها حضورها، والوقت الطويل الذي كان يمضيه في السفر. لقد كانت تزدري كلياً بالسياسيين وتحتقرهم. وكانت تكره أن يكرّس بيل حياته لهم.

الأشـــياء الوحيدة التي كانت تهتم بها سنثيا، الآن وقد كبرت الفتاتان، هي أصدقاؤها في كونّكتيكوت[1]، وحضور الحفلات، ولعب التنس. وبدا أنه ما كان يهمهـــا أن يكـــون بـــيل جزءاً من حياتها. لقد تجمدت عواطفها نحوه قبل عدة ســـنوات، وراحت تعيش حياتها دون أن تشعر بالأسى عليه. لقد رافقته ثلاثين سنة في كل نشاطاته وكانت تعتبر حياته السياسية في مقدمة كل شيء. ولم يكن بـــيل متواجداً أبداً في أي حدث يخصهم كعائلة مثل حفلات التخرج، والأعياد. لقـــد كـــان علـــى الدوام في مكان آخر، يهيئ مرشّحاً للانتخابات الأولية[2] أو النهائـــية. وصار في السنوات الأربع الأخيرة كثير التردد على البيت الأبيض. مـــا عـــاد يؤثر فيها، وكان ليسرّها أن تخبره أن كل ما يفعله كان يضجرها. والأنكى من ذلك أنها نبذت من حياتها الرجل الذي كانت تمقت مهنته. وكل ما كـــان بيـــنهما انـــتهى منذ زمن بعيد. لقد اكتشف في العام المنصرم أنها كانت تخفي عنه علاقات سرية مكتومة ومنذ سنوات. لقد كانت هذه بمثابة انتقام منه على حماقة وحيدة ارتكبها قبل عشر سنوات مع زوجة أحد أعضاء الكونغرس ولم يكررها ثانيةً. ولكن لم تكن سيندي معتادة على الصفح.

خلافاً لإيزابيل وغوردون، كان وسيندي لا يزالان يتشاطران غرفة النوم دون انـــزعاج. لقد مضت سنوات منذ أن تشاركا الفراش. وكأنها كانت تفتخر تقريـــباً بأنها لم تعد مهتمة جنسياً بزوجها. لقد كانت جميلة الشكل، ولها بشرة

(1) كونّكتيكوت (Connecticut): هي الولاية الأمريكية الواقعة في أقصى جنوب نيو إنغلاند في الولايات المتحدة الأمريكية. يحدها من الشمال ولاية ماساتشوستس، وإلى الشرق رود آيلاند، ومن الجنوب خليج لونغ آيلاند ساوند، ومن الغرب ولاية نيويورك.

(2) انتخابات أولية: (primary): انتخابات يجريها حزب لانتقاء مرشح يمثّله لرئاسة الجمهورية أو منصب ما.

سمراء، وشعرها استحال إلى لون أشقر عبر السنين، وتقريباً كانت على نفس الدرجة من الجمال عندما تزوج بها قبل ثلاثين سنة مع بعض التصلب في شخصيتها وطباعها الآن، وهذه ما كانت لتغيب عن ناظره. لقد بنت جدراناً بينه وبينها يصعب هدمها، وما عاد يخطر له أبداً أن يحاول ذلك. لقد وضع طاقاته في عمله، وكان يتحدث إلى إيزابيل عندما يحتاج إلى يد يمسك بها أو كتف يبكي عليه، أو شخص يضحك معه. لقد كانت إيزابيل هي الشخص الذي كان ليعترف له بأنه متعب أو مثبط العزم. وكانت هي على استعداد دائم لتصغي إليه. لقد شدّه إليها لطفٌ لم يجده أبداً في زوجته. لقد كان يحب روح سيندي المفعمة بالحياة، ومظهرها، ونشاطها، وحس الدعابة والعبث عندها. لقد كان يطيب له أن يرافقها وهما في مرحلة الصبا، وأما الآن فإنه يتساءل فيما إذا كانت حتى ستفتقده إذا ما اختفى عن وجه الأرض. وكانت ابنتاه تبدوان مرحتين مثل والدتهما عندما تكونان في المنزل ولكنهما غير مكترثتين به جوهرياً. وبدا أنه ما عاد أحد يهتم لوجوده أو لعدم وجوده في المنزل. لقد كانوا يتعاملون معه وكأنه زائر غير مرتقب عندما يصل إلى المنزل بعد رحلة ما، ولم يكن هو ليشعر بالانتماء إلى ذلك المنزل. لقد كان كمثل رجل بلا وطن. لقد كان يشعر بأن ليس له جذور. وكان جزء من قلبه مغلقاً على ذلك الشخص الذي يقطن شارع رو دي غرينيل في باريس. لم يخبر إيزابيل أبداً بأنه يحبها، ولا هي فعلت ذلك، ولكن مضت عليه حتى الآن سنوات عديدة وهو متعلق بها بشدة. وكانت إيزابيل معجبة به كثيراً.

إن المشاعر التي عبّر عنها كل من بيل وإيزابيل للآخر كانت لا تتعدى الصداقة رسمياً. لم يعترف أيٌّ منهما للآخر أو لنفسه بأن هناك أكثر من مجرد إعجاب وارتياح واستمتاع بفن الحوار المفقود. ولكن بيل قد لاحظ على نفسه عبر السنين أنه يُصاب بالقلق عندما لا تأتيه رسائل منها، وأنه كان يشتاق إليها عندما كانت لا تستطيع تلقي مكالماته بسبب وضع تيدي الصحي السيئ أو بسبب مرافقتها لغوردون إلى مكان ما. لقد كان قلقه واشتياقه أكبر من أن

يستطيع الإفصاح عنه أو الإقرار به. لقد صار وجودها راسخاً في حياته وعليه كان يعول ويستند. وقد كان يعني لها الشيء الكثير. فباستثناء ابنها البالغ من العمر أربع عشرة سنة، كان بيل الشخص الوحيد الذي أمكنها أن تتحدث إليه. فقد كانت تعجز تماماً عن الحديث إلى غوردون كما تتحدث إلى بيل.

لقد كان غوردون في الواقع إنكليزياً في شكله وأسلوبه أكثر مما هو أمريكي. لقد كان والداه أمريكيين كلاهما، ولكنه ترعرع في إنكلترا. لقد ذهب إلى إيتون، وبعدها أُرسلَ إلى الولايات المتحدة كي يدرس في الجامعة، فمضى إلى برينستون. ولكنه سرعان ما عاد إلى إنكلترا بعد التخرج، ومن هناك انتقل إلى باريس للعمل في المصرف. ولكن أياً كان أصله، إلا أنه كان يبدو بريطانياً أكثر منه أمريكياً بكثير.

التقى غوردون بإيزابيل في فصل صيف في منزل جدها الصيفي في هامشير عندما كانت تزورهم قادمة من باريس. كانت آنذاك في العشرين من عمرها بينما كان هو يناهز الأربعين، وما كان قد تزوج أبداً من قبل. ورغم صف النساء الجميلات في حياته، وبعضهن سبّاقات على الأخريات، إلا أنه لم يجد أياً منهن جديرة بالالتزام أو بالزواج. كانت والدة إيزابيل إنكليزية ووالدها فرنسي. وكانت قد عاشت في باريس طوال حياتها، وكانت تزور جديها في إنكلترا كل صيف. لقد كانت تتحدث الإنكليزية بدون أخطاء، وكانت فاتنة بكل معنى الكلمة. لقد كانت ساحرة أخّاذة، ذكية، عاقلة حكيمة، ومُحبة رقيقة القلب. وإن دفئها وخفة ظلها وفتنتها شبه السحرية خلبَتْ لبّه من أول لحظة رآها فيها. ولأول مرة في حياته، آمن غوردون بأنه واقعٌ في الحب. وكانت الفرص الاجتماعية المحتملة التي يقدمها له زواجه بها تروق له بشكل لا يُقاوم. فقد كان غوردون ينحدر من عائلة محترمة، ولكن ليست شهيرة أبداً مثل عائلة إيزابيل. فقد كانت والدتها تنحدر من عائلة بريطانية هامة لها ارتباط كبير بمصلحة المصارف، وتربطها علاقة قربى بعيدة مع الملكة، وكان والدها رجل دولة فرنسي مرموق. وبالنتيجة كان غوردون يرى فيها نداً مناسباً لتكون

شريكة حياته. لقد كان نسبها سامياً، وكان خجلها ودماثة خلقها وتواضعها وعدم ادّعائها تجعلها أقرب إلى الكمال. لقد ماتت والدتها قبل أن تلتقي إيزابيل بغوردون، وكان والدها قد أعجب به، وبارك قرانهما بموافقته. فقد فكّر أن غوردون هو الزوج المثالي لإيزابيل. وتمت خطوبة إيزابيل وغوردون وتزوّجا خلال عام. وكان هو الآمر الناهي. فقد أوضح لها من البداية أنه هو من يتخذ كل القرارات في حياتهما. وكانت إيزابيل تتوقع ذلك منه. فقد اتخذ هذا الدور بسبب صغر سنّها، إذ ما كانت لتعترض على ذلك. لقد حدّد لها الأشخاص الذين ينبغي عليهما زيارتهم، والمكان الذي سيعيشان فيه، وطريقة الحياة معاً، بل حتى إنه هو من اختار المنزل في شارع رو دي غرينيل، واشتراه حتى قبل أن تراه إيزابيل. كان آنذاك قد صار لتوه مديراً للمصرف، وتمتع بمركز مرموق. ولقد تعزّزت منزلته بسبب زواجه من إيزابيل. وكان عليه بالمقابل أن يؤمن لها حياة آمنة سالمة. وسرعان ما لاحظت إيزابيل القيود التي وضعها عليها عندما كان الزمن يمرّ.

لقد حدّدَ لها غوردون مَنْ مِنْ أصدقائها لم يحبّهم، ومَنْ كان بإمكانها أن تراهم، ومَن لم يوافق عليهم. لقد كان يتوقع منها أن تكون مضيافة وبسخاء لصالح المصرف، ولقد تعلمت كيف تكون هكذا سريعاً. لقد كانت خبيرة ماهرة وبارعة وتتمتع بحس ترتيبي وتنظيمي لافت للانتباه، وكانت على استعداد كامل لتتبع تعليماته. وفيما بعد بدأت تشعر بأنه كان مجحفاً أحياناً، بعد أن كان قد أقصى من دائرة حياتهما الاجتماعية عدداً من الناس الذين كانت تحبهم. لقد قال لها غوردون بشكل قاطع بأنهم ما كانوا جديرين بها. أما إيزابيل فقد كانت أكثر انفتاحاً على الناس الجدد والفرص الجديدة والمخططات والمشاريع والخيارات المختلفة المتنوعة التي تقدمها الحياة. لقد كانت تلميذة فنون، ولكنها اتخذت وظيفة لها كمرممة آثار فنية مبتدئة في متحف اللوفر عندما تزوجت غوردون رغم احتجاجاته. لقد كانت هذه مساحة استقلالها الوحيدة. ولقد أحبت العمل والناس الذين كانت تلتقي بهم هناك.

لقد كان غوردون يجد أن عملها هو نوع من الممارسات البوهيمية وأصر على أن تترك عملها ما إن حبلت بصوفي. وبعد إنجابها للطفلة، وعلى الرغم من متعة الأمومة، إلا أن إيزابيل وجدت أنها خسرت المتحف والتحديات والمكافآت التي كان يقدمها العمل فيه. ولكن غوردون ما كان ليرضى أن يسمعها تتحدث عن عودتها إلى العمل بعد ولادة الطفلة، وحملت إيزابيل من جديد وبسرعة، وفي هذه المرة فقدت الطفل. واستغرق شفاؤها وقتاً طويلاً، وما عاد من السهل عليها أن تحمل من جديد. وعندما حصل هذا مرت بفترة حمل صعبة بتيدي وتمخض الحمل عن ولادته قبل أوانه وعن كل النتائج والاضطرابات اللاحقة الناجمة عن ذلك والقلق حوله.

ومنذ ذلك الحين بدأ التباعد بين غوردون وإيزابيل. لقد كان مشغولاً جداً في المصرف في تلك الأونة. ولقد انزعج كثيراً، لأن مع وجود طفل مريض تحت سقف بيته، لن تستطيع بعد الآن أن تستضيف الناس تكراراً كما قبل، ولن تستطيع الاهتمام كثيراً بواجباتها العائلية والاجتماعية نحوه. وفي الواقع، في تلك السنوات التي تلت ولادة تيدي، ما كان لدى إيزابيل أي وقت تقريباً للاهتمام بغوردون أو صوفي، وكانت تشعر أحياناً أنهما كانا يتحالفان ضدها، وهذا ما كانت ترى فيه ظلماً كبيراً لها. لقد بدت حياتها كلها وكأنها تدور في فلك ابنها المريض. ما كانت لتقوى أو تسمح لنفسها أن تتركه رغم وجود الممرضات اللواتي استخدمتهنّ لأجله. وللأسف فقد وافت المنيةُ والدها آنذاك بعد أن كانت والدتها قد مضت قبله بسنوات. وما كان حولها من يؤيدها ويساعدها خلال سنوات تيدي الأولى فكانت دائماً إلى جواره. ما كان غوردون يريد أن يسمع عن مشاكل تيدي أو تراجع أو تقدم حالته الصحية. لقد كان يستاء من سماع ذلك، وكما لو أنه كان يعاقبها، فقد أقصى نفسه فوراً عن أي علاقة أو احتكاك حميم مع زوجته. وغدا من السهل إدراك حقيقة أخيراً أنه ما عاد يحبها. لم تكن متأكدة من ذلك، وهو لم يهدد بتركها أو الانفصال عنها، أقلّه من الناحية الجسدية. ولكن كان يخالجها شعور مطرد مزعج بأنه قد تركها

أو رمى بها في خضم التيار تحت رحمة الريح والأنواء.

بعد تيدي لم ينجبا أي طفل. فما عاد غوردون يرغب بأن يُرزق بطفل، وما عاد لدى إيزابيل وقت لذلك. لقد وهبت كل وقتها ومشاعرها وكل ما لديها لابنها. وصار غوردون يوحي لها، بشكل مباشر أو غير مباشر، بأنها خذلته. لقد كان الأمر وكأنها ارتكبت أكبر الجرائم، وكأن مرض تيدي كان غلطها. لم يكن لدى الغلام ما يجعل غوردون يفخر به، فلم يكن يرى مهاراته وقدراته الفنية، أو حساسيته، ولا ذكاءه اللامع، ولا حس الدعابة عنده رغم الأعباء التي يحملها. ما كان يزعج غوردون أكثر هو الشبه الذي كان يجده بين تيدي وإيزابيل. ولم يكن ليشعر إلا بالازدراء نحوها وبحنق عميق صامت مكتوم لم يكن ليصرّح عنه على الإطلاق.

ما لم تكن إيزابيل تعرفه، حتى أخبرتها ابنة خالة غوردون بعد سنوات لاحقة، هو أن غوردون كان له أخ أصغر منه كان يعاني من مرض الشلل منذ الطفولة وأنه مات وهو في التاسعة من عمره. لم يذكر غوردون أو أي أحد أبداً لإيزابيل شيئاً عن أخيه. فالموضوع كان محظوراً التطرق إليه بالنسبة له. ورغم أن والدة غوردون كانت تحبه كثيراً عندما كان صغير السن إلا أن القسم الأخير من طفولته أمضاه يراقب والدته تعتني بأخيه إلى أن مات. لم تكن ابنة الخالة متأكدة تماماً من طبيعة المرض الذي كان يعاني منه شقيق غوردون، أو مما حدث بالضبط، ولكنها كانت تعرف أن والدة غوردون سقطت طريحة الفراش بعد موت الغلام. ومنذ ذلك الحين كانت قعيدة المرض الذي دام طويلاً وماتت في النهاية موتاً بطيئاً مؤلماً. وأما الانطباع الذي بقي لدى غوردون من جرّاء كل ذلك فهو إحساسه بخيانة أخيه ووالدته له، وعدم اهتمامهما به وعدم منحهما له الحنان والوقت، وأخيراً موتهما وهجره.

قالت ابنة الخالة أن والدتها كانت تعرف تماماً أن والد غوردون قد مات بقلب منكسر، رغم أن ذلك كان بعد سنوات لاحقة، ولكنه لم يُشفَ من وقع الخسارة المزدوجة. في الواقع، كان غوردون يشعر أنه فقد عائلته كلها بنتيجة

مرض طفل واحد. وفيما بعد خسر وقت إيزابيل واهتمامها اللذين تكرسا إلى مرض تيدي. بفضل ما أوضحته ابنة الخالة لإيزابيل، أدركت هذه الأخيرة حقيقة ما كان يجري. ولكن عندما حاولت أن تحدث غوردون عن ذلك طلب منها بشكل قاطع أن تنهي الموضوع، وقال لها أن هذه ترّهات. قال لها بأنه لم يكن يكنّ أية مشاعر حميمة لأخيه ولم يشعر أبداً بأي خسران، وأن موت والدته كان قد صار آنذاك ذكرى باهتة، وأن والده كان رجلاً صعب المراس. ولكن عندما تحدثت إيزابيل عن ذلك، ورغم اعتراضه، لاحظتْ نظرة هلع في عينيه. لقد كانت عينا طفل مجروح أكثر منها عينا رجل غاضب. وعندها تساءلت إذا كان هذا هو السبب الذي جعله يتزوج متأخراً إلى ذاك الحد، والذي جعله يبقى في منأى عن الجميع. وأدركت أخيراً السبب الذي يجعله يرفض تيدي بكل الأشكال. ولكن فهمها للسبب لم يساعدها في التأثير على غوردون. فلم تنفتح أبداً أبواب السعادة السماوية بينهما، ولاحظ غوردون أن إيزابيل وتيدي ظلا حميمين وبقيا هكذا.

حاولت أن توضح ذلك لبيل، ولكن وجد أن هذه الحالة يصعب فهمها وأنها قسوة ووحشية من غوردون أن يقصيها عنه عاطفياً. لقد كانت إيزابيل أحد أروع النساء التي رآهن، وقد عملَ لطفُها ولباقتُها في جعلها أكثر فتنة وجاذبية بالنسبة له. ولكن أياً كان ما يفكر به تجاهها إلا أنه لم يُبدِ أي تلميح رومانسي نحوها، وما كان حتى ليسمح لنفسه بأن يفكر في ذلك. لقد أفهمته إيزابيل بوضوح ومن البداية أنه ليس هناك خيار في هذا الموضوع. فإن كانا سيحافظان على صداقتهما يجب أن يحترم كل منهما زواج الآخر الجدير بالاحترام. لقد كانت مخلصة وصادقة للغاية في علاقتها مع غوردون رغم قسوته نحوها أو ابتعاده عنها في السنوات الأخيرة. لقد كان لا يزال زوجها، وكان يدهش بيل أنها كانت تحترمه وتقدّر علاقة زواجها تقديراً كبيراً. وكانت فكرة الطلاق أو حتى فكرة الخيانة بعيدتين جداً عن تفكيرها. كل ما كانت تطلبه من بيل هو الصداقة. ورغم عزلتها مع غوردون في معظم الأحيان إلا

أنها قبلت هذا الأمر كواقع أساسي في زواجها. وما كانت تطمح لأكثر من ذلك، وكانت لترفض كل ما عدا ذلك في الواقع، ولكنها كانت تقدّر الارتياح والعزاء اللذين كان يقدمهما بيل لها. لقد كان يعطيها النصح بخصوص أشياء كثيرة، وكان لـه مثلها نفس الاعتبار لمعظم الأشياء، وكانت على الأقل ستشعر بالارتياح للحديث إليه بل حتى كانت تنسى كل قلقها ومشاكلها خلال ذلك. في نظرها كانت صداقة بيل هبة فائقة الطبيعة منحها لها وكانت موضع تقدير كبير بالنسبة لها. ولكنها ما كانت أكثر من ذلك.

لقد طرأت فكرة الرحلة إلى لندن بالصدفة وببراءة وذلك خلال إحدى مكالماتها في الصباح الباكر. لقد كانت تتحدث عن معرض وشيك في تيت غاليري تتحرق شوقاً لرؤيته ولكنها كانت تعرف أنها لن تستطيع ذلك إذ ليس في مخطط القائمين عليه نقله إلى باريس. فاقترح عليها بيل أن تسافر بالطائرة إلى لندن ليوم أو حتى يومين فتشاهد العرض وتستمتع ببعض الوقت هناك بعيداً عن القلق حول زوجها وأطفالها كنوع من التغيير. لقد كانت فكرة جديدة تماماً عليها إذ إنها لم تفعل ذلك أبداً من قبل. وفي البداية أصرت على أنه يصعب عليها القيام بذلك، على الأقل لأنها لم تترك تيدي يوماً من الأيام.

سألها بيل: "لِمَ لا؟" ومدّ ساقيه الطويلتين واضعاً حذاءه فوق طاولة مكتبه. لقد كان الوقت منتصف الليل عنده، وكان في مكتبه ذلك اليوم من الساعة الثامنة صباحاً. ولكنه تريث في المكتب لبرهة لكي يتمكن من الاتصال بها. واستأنف حديثه: "هذا جيد بالنسبة لك، كما وأن حالة تيدي قد غدت أفضل في الشهرين الأخيرين. وإذا طرأت مشكلة ما فيمكنك أن تعودي إلى منزلك في غضون ساعتين".

لقد بدت الفكرة معقولة، ولكن لم يسبق لها، خلال عشرين سنة زواج من غوردون، أن سافرت لأي مكان من دون غوردون. لقد كان زواجهما زواجاً أوروبياً على الطراز القديم، وذلك خلافاً للارتباطات المتحررة التي تجمع بينه وبين سيندي، فقد كان مألوفاً بالنسبة لبيل وسيندي أن يسافر كل منهما وحدَه

أكثر من سفرهما معاً. وما عاد يبذل أي جهد أو محاولة ليمضي إجازاته معها. اللهم، ما عدا بعض الأسابيع العرضية يمضيها هنا أو هناك في هامبتونز. ويبدو أن سيندي كانت أكثر سعادة عندما لا يكون معها. ففي آخر مرة اقترح فيها أن يذهبا في رحلة معاً، أتته بمليون عذر كي تتهرب، في حين أنها ذهبت آنذاك في رحلة إلى أوروبة مع إحدى ابنتيها. لقد كان الأمر مفهوماً بينهما. لقد فارق زواجهما الروح منذ زمن طويل، وهذا الأمر حقيقة رغم عدم رغبة أي منهما بالاعتراف به. لقد كانت تفعل ما يحلو لها، ومع من تشاء، دون أن تحتاج إلى توضيح أي أمر. وكان بيل منشغلاً بالحياة السياسية التي يهواها، وبمكالماته الهاتفية مع إيزابيل في باريس. لقد كان هذا التفاوت غريباً بينهما.

في نهاية الأمر، وبعد عدة أحاديث، أقنع بيل إيزابيل بالذهاب إلى لندن. وعندما قررا ذلك كانت إيزابيل في غاية السرور والإثارة. وبالكاد استطاعت أن تنتظر موعد المعرض والقيام ببعض التسوق في لندن. لقد كانت تخطط للنزول في فندق كلاريدج وربما كانت لتود رؤية صديقة قديمة لها من أيام المدرسة انتقلت من باريس إلى لندن.

وما هي إلا بضعة أيام بعد ذلك حتى اكتشف بيل أنه في حاجة لمقابلة السفير الأمريكي في إنكلترا. لقد كان متبرعاً رئيسياً للحملة الرئاسية الأخيرة، وكان بيل في حاجة إلى دعمه من أجل مرشح آخر، وكان يريد أن يطرح الموضوع معه بأسرع ما يمكن لكي يتوصل إلى أساس وقاعدة يستندون إليها من أجل التبرعات. فبدعم هذا السفير يستطيع بيل إنجاح مرشحه. وكان من دواعي الصدف السارة بالنسبة لـه أن تكون إيزابيل هناك في نفس الفترة. لقد أثار لديها الشوق للسفر عندما أخبرها أنه سيكون في لندن في الوقت نفسه.

سألته بلغة إنكليزية ذات لكنة بريطانية: "هل تعمدت أن تكون هناك؟" كانت كلماتها ممتزجة بلكنة فرنسية خفيفة كان يجدها ساحرة. ورغم أنها في الحادية والأربعين من العمر إلا أنها كانت لا تزال جميلة، ولا يدل شكلها على حقيقة عمرها. كان لها شعر بني داكن يشوبه لون أحمر، وبشرة قشدية اللون

كلون الخزف، وعينان خضراوان واسعتان منقطتان بلون الكهرمان. بناء على طلبه، كانت قد أرسلت له قبل سنتين صورة فوتوغرافية لها مع ولديها. وكان كثيراً ما ينظر إلى الصورة ويبتسم وهو يتحدث إليها في المكالمات الهاتفية في آخر الليل أو بواكير الصباح.

"بالطبع لا". قال ذلك نفياً لسؤالها الذي لم يكن غير ملائم تماماً. لقد كان يعرف تماماً بمخططات سفرها عندما حدّد الموعد مع السفير في لندن. قال في نفسه أنه من الملائم أن ينسق جدول أعماله بحيث يكون هناك في الفترة نفسها، ولكنه في أعماق قلبه كان يدرك أن الأمر هو أكثر من ذلك.

لقد كان يحب أن يراها، ويتشوق منذ أشهر إلى بضع المرات التي اعتاد أن يراها فيها في باريس كل عام. فكان إما أن يجد مبرراً للذهاب، عندما كانت تمضي عليه فترة لا يراها، أو يتوقف ليراها في طريقه إلى مكان ما آخر. لقد اعتاد أن يراها ثلاث أو أربع مرات سنوياً، وعندما يكون في باريس كانا يلتقيان على العشاء. ما كانت تخبر غوردون عن لقاءاتهما، ولكنها كانت، رغم ذلك، تؤكد لنفسها ولبيل أنه ليس من خطب أو سرية في لقاءاتهما. لقد كانت التسميات التي يطلقانها هي وبيل على الأشياء مهذبة، لبقة، مختصرة، وملائمة. لقد بدا الأمر وكأنهما كلما التقيا يحملان رايات كتب عليها كلمة "أصدقاء"، ولقد كانا كذلك بالفعل. إلا أنه مع ذلك كان يدرك ومنذ زمن طويل أن ما يشعر به نحوها كان أكبر مما أمكنه أن يخبرها أو يخبر أي شخص آخر عنه.

لقد كان يتشوق للوصول إلى لندن. لقاؤه في السفارة ما كان سيستغرق منه إلا بضع ساعات، وما عدا ذلك، فإنه كان يخطط لقضاء ما أمكنه من وقت معها. لقد أكد لها أنه كان هو أيضاً يتحرق شوقاً ليرى المعرض في التيت، ولقد كانت تثيرها فكرة أن تشاركه في ذلك. فكانت تقول لنفسها، أن هذا هو السبب الرئيسي في ذهابها إلى لندن أولاً وأخيراً. ورؤية بيل سيكون أمراً إضافياً غير مرتقب. لقد حاولت أن تحدد كل شيء في ذهنها. فقد كانا صديقين

مثاليين وليس أكثر، وأما السبب في أنه ما من أحد عرف بصداقتهما فيعود إلى تفضيلهما أن يكون الأمر على هذا النحو من البساطة. قالت في نفسها أن ليس هناك ما يخفيانه. كانت في نظره ترتدي عباءة من الإحساس بالمسؤولية بدت في غاية الأهمية بالنسبة لها. فلقد كانت قد وضعت حدوداً لعلاقتهما، وهذه الحدود كان بيل يحترمها من أجلها. فما كان ليفعل أي شيء يُغضبها أو يُخيفها. فما كان يريد أن يعرّض أي شيء أو أي شخص للخطر، فقد صارت علاقته بها ثمينة بشكل لا متناهٍ بالنسبة لها.

عندما وقفت في غرفة نومها في منزلها في شارع رو دي غرينيل، نظرت إلى ساعتها، وتنهدت. لقد آن الأوان لتغادر، ولكنها، وفي آخر لحظة، شعرت أنها كارهة لفكرة ترك تيدي. لقد كانت قد أعطت آلاف التعليمات للممرضات اللواتي سيعتنين به إبّان غيابها. لقد كُنّ نفس الممرضات اللواتي يعتنين به دائماً، ولكن هذه المرة سوف يَنَمْنَ في الغرفة نفسها معه خلال غيابها. وإذ فكرت بتيدي، سارت على رؤوس أصابعها برفق نحو الباب الذي يلي باب غرفة نومها. لقد أرادت أن تلقي نظرة تفقدية أخيرة على تيدي. لقد كانت قد ألقت عليه للتو تحية الوداع ولكنها شعرت بغصة في قلبها لمجرد تفكيرها بمغادرته. ولوهلة فكرت فيما إذا كان يجدر بها الذهاب إلى لندن. ولكنه كان نائماً بعمق وسلام عندما دخلت الغرفة، ونظرت إليها الممرضة بابتسامة ولوّحت لها بيدها لكي تتابع سيرها دون تلكؤ. كانت هذه الممرضة التي تسهر عليه الآن إحدى أفضل الممرضات بالنسبة لإيزابيل. لقد كانت امرأة ضخمة الجثة باسمة الوجه شقراء البشرة من بريتين. ردّت لها إيزابيل التحية، ثم عادت على أعقابها وخرجت من الغرفة وأغلقت الباب. لم يبقَ لها ما تفعله، فآن الأوان لكي تذهب.

التقطت إيزابيل حقيبة يدها وحقيبة صغيرة تضع فيها أغراضها حين تنوي قضاء الليل خارج المنزل، وقامت بترتيب هندامها وقد ارتدت بذلة سوداء، ونظرت إلى ساعتها من جديد. وعرفت أن بيل في تلك اللحظة لا

يزال مسافراً في طائرته القادمة من نيويورك. فقد كان يعمل هناك في الليالي الأخيرة الفائتة. وفي أغلب الأحيان كان يتنقّل ذهاباً وإياباً إلى واشنطن.

وضعت حقيبة سفرها على المقعد الخلفي من سيارتها ووضعت حقيبتها من نوع هيرمس كيلي على المقعد الأمامي بجوارها. قادت سيارتها عبر شارع رو دي غرينيل بابتسامة في عينيها وهي تستمع إلى مذياع السيارة، وقد حددت وجهتها نحو مطار شارل دي غول، في حين أن بيل روبنسون كان ينظر من نافذة الطائرة غلفستريم التي يملكها ويستخدمها دائماً. لقد كان يبتسم بينه وبين نفسه بينما كان يفكر فيها. لقد رتّب لوصول طائرته إلى لندن في نفس وقت وصول إيزابيل إليها. ولقد كان يغمره الإحساس بالترقب.

الفصل الثاني

مرّ بيل روبنسون عبر الجمرك في مطار (هيثرو) [1] وعليه علائم العزيمة فبدا وكأنه في عجلة من أمره. وقد كان هكذا بالفعل. ولم يستغرق سوى بضع دقائق ليوضّبَ حقيبَتَه. وإذ حمل حقيبة يده[2] باليد الأخرى، خطا نحو السائق من فندق كلاريدج الذي كان يقف بتحفظ جانباً حاملاً لافتة صغيرة كتب اسمه عليها. لقد كان من عادته أن ينزل في فندق كلاريدج كلما قَدِمَ إلى (لندن)، وقد أقنع إيزابيل أيضاً بأن تمكث هناك. كان الفندق يحفل بالتقاليد القديمة، وكان مشهوداً له على الدوام بأنه أفضل فندق في البلدة، وقد كان يقيم هناك منذ ثلاثين سنة. وأكثر ما كان يروق له في الفندق هو أن القائمين عليه كانوا يعرفونه.



وضع السائقُ حقيبةَ سفر بيل وحقيبة يده في صندوق السيارة الليموزين، ثم نظر إلى ذلك الأمريكي الطويل القامة الأشيب الشعر، وأحس للتو بتلك الهالة من النفوذ والنجاح التي تحيط به بشكل لافت للانتباه والتي يستحيل تجاهلها. كان لبيل عينان زرقاوان لامعتان تبرقان بتعبير لطيف، وشَعْرٌ كان يوماً أشقر رملي اللون ولكن خطّه الشيبُ الآن. كانت تتبدى عليه علائم الرجولة بشكل واضح جليّ، وكان له ذقن مربع عريض بشكل ملفت. كان يرتدي بنطالاً فضفاضاً رمادي اللون، وسترة فضفاضة، وقميصاً أزرق، ويضع ربطة عنق زرقاء داكنة من ماركة هرمس، وكان حذاؤه الجلدي الأسود قد لُمّعَ بعناية شديدة قبل مغادرته لنيويورك. كانت تحيط به لمسة من الأناقة

---

(1) هيثرو (Heathrow): مطار يقع غرب لندن على بعد 25 كلم (15 ميلاً) عن مركزها.

(2) حقيبة اليد (briefcase): محفظة مسطحة لها مقبض تستخدم عادة لحمل الأوراق أو الوثائق أو الكتب.

الرقيقة، فكان حسن الهندام دون أن يرتدي أي شيء لافت أو مبهرج. وإذ فضّ الجريدة ليقرأ فيها وهو يجلس في مقعد السيارة الخلفي، كانت النساء يلاحظن أنامل يديه الجميلتين، وكان يضع في معصمه ساعةً من ماركة باتيك فيليب كانت ساندي قد أعطتْهُ إياها قبل سنوات مضت. كان كل ما يخصه، وكل ما يرتديه له طابع الأناقة الرقيقة والهادئة بحيث تحقق له الجاذبية اللائقة لشخصه. ولكن الأهم بالنسبة لبيل روبنسون هو أنه كان يفضّل أن يبقى خلف الكواليس. فعلى الرغم من ارتباطاته الواضحة بالسياسة والفرص المُتاحة له، إلا أنه لم يكن في حاجة البتة لأن يكون رجل واجهة. بل إنه في الواقع كان يؤْثِرُ أن تكون الأمور على ما هي عليه. لقد كان يتمتع بالنفوذ والإثارة السياسية وكان يعشق بواطن وظواهر الأحداث السياسية المتغيرة أبداً، وما كانت له رغبة في أن يكون معروفاً شعبياً. بل بالحري كان يهمه أكثر بكثير أن يكون محتجباً متوارياً عن الأنظار. ما كان لديه حاجة أو رغبة أن يثير المزيد من الضجة حوله أو أن يلفت الانتباه إليه.

لقد كان هذا في الحقيقة أحد جوانب شخصيته التي كان يشترك فيه مع إيزابيل. فقد كانت هذه السمةُ تتبدى عندها في خجلٍ، وأما بالنسبة له فقد كانت هذه إحدى الأدوات التي كان يستخدم بها نفوذه خلف الأبواب المغلقة. وعلى الرغم من المظهر الذي يراه عليه المرء وهو يدخل إلى حجرة ما، فمن هيئته أو من المظهر الذي يبدو عليه ونيله لما يريد دون أن ينبس ببنت شفة، يدرك المرء أنه يفرض على الآخرين احترامه والانتباه إليه اعتماداً على صمته أكثر من اعتماده على كلامه أو فعله. وعلى المنوال نفسه كان الناس يرون إيزابيل دونما حاجة لأن تقول شيئاً. وفي الواقع ما كانت لتشعر بالارتياح عندما يتركّز الانتباه عليها، بل بالحري كانت تشعر أنها حرّة وعلى سجيّتها فقط عندما تكون في محادثات شخصية فردية كمثل تلك الأحاديث التي كانت تدور بينهما. لقد كانت تلك الصفة أحد الجوانب التي يحبها فيها، ألا وهي الطريقة التي تكون فيها صريحة معه. لقد كان يدرك كل انفعال تشعر به، وكل

ردة فعل لديها، وكل فكرة تخطر في بالها، وما كانت لتتردد في مشاركته أعمق أسرارها. وكان هذا أحد الأشياء التي كانت تفتقر إليها في علاقتها مع غوردون.

وصل بيل إلى فندق كلاريدج وسجل اسمه، وسرعان ما عرفه البواب توم وسُرّ لرؤيته من جديد. وجد بيل نفسه يخوض حديثاً مهذباً لبقاً ودياً دار حول الطقس والانتخابات المحلية الأخيرة مع المدير المساعد الذي واكبه إلى غرفته. لقد كانت هذه عبارة عن جناح كبير مُشمس في الطابق الثالث مزين بقماش صقيل مزخرف برسوم أزهار، ونسيج حريري بلون أزرق باهت، وعاديات أثرية عتيقة. ما إن غادر المدير المساعد الغرفة حتى جال بنظره للحظة في أرجاء الغرفة والتقط سماعة الهاتف. وابتسم حالما سمع صوتاً مألوفاً يجيبه.

- "كيف كانت الرحلة؟".

- "مريحة جداً"، قالت إيزابيل وابتسمت عندما سمعت صوته. لقد زامنا وصولهما، فلم تمضِ إلا عشرين دقيقة على وصولها إلى الفندق قبله. وسألته: "كيف كانت رحلتك أنت؟".

قال: "رائعة". لقد بدا كطفل. وإذ ابتسم ظهرت عليه العلائم الطفولية التي تميّز كل الأمريكيين، هذه العلائم التي كانت تجتذب النساء إليه دائماً. واستأنف يقول: "لقد شعرتُ وكأن الرحلة ستدوم إلى الأبد، وما كنت أطيق صبراً للوصول إلى هنا". قال ذلك وهما يضحكان ببعض العصبية. لقد مضى عليهما قرابة ستة أشهر مذ التقيا آخر مرة في (باريس). لقد كان يعتزم العودة عاجلاً، ولكن تطورات ومضاعفات سياسية غير متوقعة حالت دون ذلك هذه المرة، وكان يتوق لرؤيتها.

سألها: "هل أنت متعبة؟ أتريدين أن تستريحي لبعض الوقت؟".

ضحكت وقالت: "بعد رحلة ساعة؟ أعتقد أني على ما يرام. كيف حالك أنت؟".

– "جائع. هل تريدين أن نخرج ونتناول شيئاً؟" لقد كانت الساعة الثالثة بعد الظهر.

– "أود ذلك. ولربما أمكننا أن نتمشى بعد ذلك. فأنا لم أتحرك طوال النهار. فقد كنت جالسة لتوي في الطائرة". لقد كانت متشوقة لرؤيته، وأمكنه أن يشعر بذلك من نبرة صوتها. لقد كانت لقاءاتهما تملؤها بالترقب دائماً، وعندما يلتقيان كانا يتحدثان ساعات وساعات لا نهاية لها، تماماً كما كانا يفعلان على الهاتف. لم يكن ثمة ارتباك أو حرج أبداً بينهما، مهما كانت الفترة التي تكون قد مضت على آخر لقاء لهما.

– "كيف كان تيدي عندما تركته؟" لقد كان مهتماً كما هو على الدوام. لقد كان يعلم كم كان تيدي مصدر قلق دائم لها.

–"كان نائماً. ولكنه كان قد أمضى ليلة هانئة جيدة. وقد اتصلت صوفي من البرتغال ليلة أمس. إنها تمضي وقتاً طيباً مع أصدقائها. كيف البنات؟".

– "بخير، على ما أظن. سوف تجيئان إلى هنا خلال بضعة أسابيع مع والدتهما. ما عاد أحد يخبرني بشيء. وإن كنت أعرف مكان تواجدهما فهو من خلال النقود التي تُخصم من بطاقة الائتمان التي تخصني. سوف تأخذهما سيندي إلى جنوب فرنسا قبل أن تذهبا إلى (مين) لتريا والدَي سيندي". سوف يلتقي بهما بيل بعد ذلك في هامبتونز في نهاية الصيف كما اعتاد أن يفعل على الدوام. ما عادت سيندي تسأله أن ينضم إليهن، فلقد كانت تعلم أنها قضية خاسرة، وستندهش إذا ما أراد ذلك فعلاً. "ما رقم غرفتكِ؟" سألها وهو ينظر إلى ساعة يده. لقد كان لديهما متسع من الوقت لعشاء سريع، وكان يخطط ليأخذها إلى مطعم هاري من أجل تناول العشاء تلك الليلة.

– "314".

فعلّق قائلاً: "نحن في الطابق نفسه. لا أعرف أين هي غرفتك. أنا في الغرفة 329. سوف أعرّج عليك في طريقنا للخروج. هل تكفي عشر دقائق؟".

– "تماماً". وابتسمت بخجل عندئذ، وسادت لحظة صمت بينهما. وقطعتها بالقول: "إني سعيدة لرؤيتك يا بيل". وبدت فرنسية جداً لوهلة، وشعر بها فجأة شابة للغاية. لقد كانت تعني لـــه أكثر مما يستطيع أن يشرحه. لقد كانت على الصورة المثالية التي رسمها عن المرأة، ولكن كان يعجز عن وصف هذه الصورة بالكلمات. فقد كانت لطيفة، مُحبة، صبورة، متفهمّة، مهتمة بكل ما يفعله، شفوقة، مرحة، رقيقة المشاعر. لقد كانت بمثابة هبة غير مرتقبة في حياته كما كان هو بالنسبة لها. لقد كان مبعث الأمل في نفسها عندما ينهار كل ما حولها أو يتلاشى عبر السنين. ما كان حولها ثمة مَنْ تستطيع أن تعول عليه، فصحة تيدي كانت مصدر قلق دائم لها، وكانت تعرف أنها قد تخسره في أية لحظة، وأما غوردون فكان بالنسبة لها رجلاً تشاركه نفس المنزل فقط وقد منحها اسمه. ولكنها غالباً ما كانت تشعر بأنه ما عاد جزءاً من حياتها. وباستثناء ظهورها العلني معه في بعض المناسبات العرضية فإنه ما عاد يحتاج إليها في حياته. وبحكم العمر الذي وصلت إليه صوفي فإنها طارت من عش حياتهم العائلية. وصارت إيزابيل تشعر في تلك الأيام بالوحدة والعزلة أكثر من أي وقت مضى. اللهم ما عدا الوقت الذي كانت تمضيه مع بيل شخصياً أو عبر الهاتف. لقد كان الدعامة الأساسية لحياتها، وفرحها، ومرحها، وراحتها وعزائها، وصديقها الحميم.

– قال لها بلطف: "وأنا أيضاً سعيد لرؤيتك. سوف أمرّ عليك خلال عشر دقـــائق. وعـــندها يمكننا أن نرتب خططنا". لقد كان يعرف أنهما سيذهبان إلى معرض تيت في اليوم التالي، وأن هناك بعض صالات العرض الخاصة التي ذكرت لـــه أنها تريد زيارتها. لقد كان ينوي أن يتناول معها طعام العشاء في كلـــتا الليلتيـــن. وأيضاً يود أن يأخذها إلى المسرح لأنه كان يعرف كم تحبه، ولكـــنه كـــان لا يرغب في إضاعة الوقت الثمين في ذلك بينما هو يرغب في الجلـــوس معها والحديث إليها. لقد كان ذلك الوقت هو بعد ظهر يوم الثلاثاء، وســـيبقيان هـــناك حـــتى ليلة يوم الخميس. وقالت أنها قد تستطيع البقاء حتى

صـــباح يوم الجمعة، فهذا يعتمد على وضع تيدي الصحي. وكانت تشعر بأنها يجـب أن تكون في باريس من أجل عطلة نهاية الأسبوع. لقد بدا وكأن هناك ســباق مع الزمن وأن بضعة الأيام هذه هي هدية فائقة الطبيعة لهما. لم تتَسَنَّ لهما هكذا فرصة من قبل. ولم تكن لديه دوافع خفية أو نوايا أو خطط. لقد كان يتشوق إلى فرصة أن يكون معها وحسب. لقد كان ما يتشاركان به نقياً وبريئاً على نحو رائع.

غسل بيل يديه ووجهه، وحلق ذقنه على عجل، وهو يفكر برؤيتها، وما هي إلا عشر دقائق حتى كان يسير في البهو بحثاً عن رقم غرفتها. لقد كانت على بعد منعطفين ولكنه وجدها في النهاية. قرع الباب وراح ينتظر وبدا الانتظار مُطَوّلاً حتى السأم، ثم فتحت الباب ووقفت هناك تنظر إليه لوهلة بابتسامة خجول.

سألته: "كيف حالك؟" وقد تورّدت بشرتها القشدية اللون قليلاً، والتمع شعرها الطويل الداكن المتدلّي خلف كتفيها، وعيناها تحدقان إلى عينيه بشكل مباشر. واستأنفت قائلةً "تبدو رائعاً". وخطت خارجةً من الغرفة وعانقته. لم يسبق لــه أن قبّل إلا وجنتها، وهذا ما فعله الآن. لقد كانت علائم سُمرة خفيفة على بشرته بتأثير عطلة نهاية أسبوع أمضاها في منزله في غرينويتش قبل عدة أسابيع، في حين كانت بشرتها بيضاء قشدية اللون. فقد مضت سنوات على عطلات الصيف التي كانت تُسمّر[1] فيها بشرتها في جنوب فرنسا قبل سنوات. أما غوردون فكان لا يزال يذهب إلى هناك بين الفينة والأخرى ليرى أصدقاءه، أو مرافقاً صوفي، بينما كانت إيزابيل تبقى في المنزل مع ابنهما.

- "وأنت أيضاً تبدين رائعة". قال لها بإعجاب. كلما رآها كان ينذهل بجمالها. لقد كان ينسى ذلك أحياناً، وذلك عندما يكون مأخوذاً إلى كلماتها وأفكارها وتبادل الآراء معها. ولقد كان مأسوراً بروحها أكثر منه بمظهرها.

(1) تسمّر: (tan): أي تُعرّض بشرتها للسُمرة بالتعرض للشمس.

ولكنها كانت على الدوام ذاتَ جمال أخّاذ. خطَتْ إلى جانبه ودسّت يدها في ذراعه بأنوثتها العذبة. لقد كانت لا تزال تتحرك كفتاة، أكثر من المرأة التي اعتادت أن تكون. ولفت انتباهه على الفور فستانها الأسود الأنيق، وحقيبة من ماركة هيرمس، وحذاءها الأنيق ذا الكعب المرتفع. كانت تضع في يدها خاتم زواجها، وتضع على أذنيها أقراطاً من الجواهر المرصعة. وإذا نظرتَ إليها فإنك ستجد صعوبة في أن تصدق بأنها تحمل هموماً في الحياة. لقد كانت لها ابتسامة دافئة مرحّبة وكان يغمرها الفرح والسرور لمجرد رؤيته. "يا إلهي، يا إيزابيل، إنك تبدين في غاية الروعة". إنها لم تتغير أبداً، على الأقل خلال السنوات الأربع الأخيرة، ولكنها كانت نحيفة أكثر مما كانت عليه قبل ستة أشهر، ولكن بجمالها الكلاسيكي، كانت تبدو غير عرضة للتبدل عبر الزمن. لقد كان يشعر بفرح طفولي وهما ينزلان على الدرج متأبطين ذراع بعضهما بعضاً، ويتحدثان عن الرحلة، وعن صالات العرض التي سيزورانها، وعن معرض التيت، كما وتحدثا عن ابنتيه. لقد كان يحب أن يخبرها قصصاً مسلية طريفة عنهما، وكانت تضحك بينما سارا مجتازين البواب وصولاً إلى الأبواب الرئيسية للفندق.

وأقر لها: "لقد كنت أخشى أن يحدث ما يعيق هذه الرحلة. كنت أخشى أن تحول صحة تيدي دون مجيئك". لقد كان دائماً يصارحها عن فكره، وهي أيضاً كذلــك. وقد كان تيدي بالتأكيد من الممكن أن يشكل مانعاً لمجيئها. وربما شكل غــوردون عائقــاً أيضاً إذا لم يسمح لها بالمجيء. ولكنه بدا غير مبالٍ بخطط ذهابهــا إلى لندن لبضعة أيام، وكان تيدي مسروراً لأن بإمكانها أن تسافر. لم يكــن تــيدي يعرف شيئاً عن بيل ولكنه كان يحب أن يرى والدته سعيدة، وقد أدرك فــي الحال كم أنها كانت ترغب في الذهاب، لذا فلم يُردْ أن يقف حائلاً بينها وبين ذلك.

- واعترفت لــه قائلة: "وأنا أيضاً كنت قلقة. ولكنه الآن في حال أفضل بكثــير. لا أعتقد أنه كان في حال جيدة كهذه خلال السنوات الخمس الأخيرة".

لقد كانت المراهقة صعبة عليه وصار وضعه أسوأ خلال بضع السنوات الأخيرة، فمع نموه أُجْهِدَ قلبُه ورئتاه في مجاراتهما معه. قالت له: "لقد أرادني فعلاً أن آتي". شعر بيل وكأنه يعرفه ومنذ سنين. ورغم أنه لم يعرف كيف، إلا أنه كان يأمل أن يلتقي به يوماً.

سارا خارجين إلى شارع بروك، وأخذت إيزابيل نفساً عميقاً بينما وقفت إلى جانب بيل متأبطة ذراعه. لقد كان يوماً رائعاً من أيام شهر حزيران (يونيو) ودافئاً بشكل مفرط غير معقول.

- "أين تودين أن نذهب؟" سألها وهو يضع في ذهنه لائحة بالاحتمالات، فكل ما كان يريده هو أن يكون معها. فمجرد وجوده هناك كان بمثابة إجازة بالنسبة له. فما كان قد اعتاد على أن يأخذ وقت استراحة بعد الظهر، أو أن يتناول طعام عشاء غير رسمي، أو أن يتمشى في الشارع مع امرأة إلى جانبه. لقد كانت حياته كلها متمحورة حول عمله، وكل ما كان يعمله كان مرتبطاً بالسياسة. لم يكن لديه وقت فراغ في حياته، اللهم ما عدا الوقت الذي كان يمضيه مع إيزابيل. ومن جانبها، بدا الزمن وأنه توقف، وأن إيقاعه ومحوره تغيرا. ما من أحد عرفه بشكل جيد كان ليمكن أن يميّزه الآن وهو واقف ينظر بارتياح وابتسام إلى هذه المرأة الجميلة ذات الشعر الطويل الداكن اللون. "ما رأيكِ بأن نتناول البيتزا في مكان ما؟" سألها عرضاً، وأومأت برأسها إيجاباً. لقد كانت في غاية السعادة، تنظر إليه مبتسمة، وكانت بالكاد تستطيع التركيز على ما كان يقوله.

لاطفها قائلاً: "لماذا تبتسمين؟" وهما يمشيان متمهلين في الشارع من غير هدى. لقد شعرا كلاهما، وعلى الأقل في هذه اللحظة، أنه ليس لديهما إلا الوقت.

- "إني في غاية السرور. لم أفعل مثل هذه الأشياء أبداً في حياتي. أشعر هنا أني مُنْتَزَعة من كل ما يقلقني ويزعجني". كانت تعرف أن تبدي كان في أيدٍ أمينة وأن كل ما في الكون كان على ما يرام.

- "هذا ما أتمناه لك دائماً. أريدك أن تستريحي وأن تنسي كل شيء".

وثبا في سيارة أجرة بعد بضع دقائق وذهبا إلى مكان صغير تذكّره بيل يقع في سوق شيبارد، لقد كان قرب السفارة، وكان قد ذهب إلى هناك عدة مرات سعياً وراء وجبة سريعة يتناولها بين الاجتماعات. كانت هناك حديقة، وكان مالك المكان مسروراً لرؤيتهما عندما وصلا. لقد كانا يرتديان ثياباً أنيقة، وكان يحيط بهما جو من السحر بشكل كبير. أحضر لائحة المشروبات المفضلة لبيل، وناولهما لائحة الطعام ثم غادرهما.

"هذا رائع". قالت ذلك وهي تبتسم وتستند إلى كرسيها وتنظر إليه. لقد رأته آخر مرة في باريس في الشتاء الماضي قبل العيد بقليل، وأهداها عندئذ لفاعاً جميلاً من ماركة هيرمس وكتاب من أول طبعة كانا قد تحدثا عنه. لقد كان كتاباً ذا غلاف جلدي ونادراً جداً، وقد أحبت ذلك الكتاب كما أحبت كل ما أعطاها إياه خلال السنوات الأربع الماضية. "أشعر أني مدللة جداً".

- "هذا حسن". وربّت على يدها. لقد اتفقا على تناول نوع من البيتزا، وطلبا سلَطة أيضاً وزجاجة من المشروب المفضل.

مازحته قائلةً: "يبدو أنك ستجعلني متخمة ونحن في منتصف النهار". لقد كان يعلم من خلال تناولهما العشاء معاً قبلاً أنها تحب هذا المشروب المفضل.

- "لا أعتقد أن هناك مثل هذا الخوف. فأنا عُرْضَة لأن أصبح متخماً أكثر منك". قال لها ذلك رغم أنها كانت تعلم أنه لم يأكل كثيراً خلال المناسبات التي رأته فيها. لقد كان رجلاً متعقلاً يخلو من النقائص والعيوب البارزة، ما خلا ميله إلى العمل بجد كبير. "ماذا سنفعل إذاً بعد ظهر هذا اليوم؟".

- "كما تشاء. يكفيني سروراً أن أكون هنا". لقد كانت تشعر وأنها عصفور هرب من قفص مطلي بالذهب، واقترح أن يجولا على بعض صالات العرض ومحلات العاديات، وراقت لها الفكرة كثيراً. وراحا يدردشان على العشاء، وكانت الساعة الرابعة والنصف عندما غادرا المطعم، ونادى مستوقفاً سيارة أجرة أخرى. لقد كانت هناك سيارة ليموزين تحت تصرفه عند باب

الفندق، ولكنهما كانا يريدان الاستمتاع بحرية التجوال في لندن على راحتهما. وبعد صالات العرض والمحلات، سارا عائدين إلى الفندق. وكانت الساعة آنذاك قد تجاوزت السادسة.

– "ما رأيك في العشاء الساعة التاسعة؟" سألها وهو يبتسم لها. "يمكننا أن نحتسي المشروب المفضّل هنا ثم نذهب إلى مطعم هاري". كانت قد أقرت بأن هذا هو مطعمها المفضل كما هو بالنسبة له. فقد كان المطعم جديراً بالاحترام، ولم يكن أيٌّ منهما يشعر بالحرج لوجوده هناك. لم يكن لديهما ما يخفيانه سراً، وحتى لو سمع غوردون عن ذلك في النهاية، فلن تشعر بوخز ضمير إذا ما أخبرته أنها رأت بيل روبنسون. لم تكن تنوي المبادرة بإخباره عن ذلك، ولكن ليس لديها سبب يجعلها تشعر بالذنب، ولم تفعل ما تعتذر عنه. "سألقاك إذاً من غرفتك الساعة الثامنة". قال لها ذلك بيل وهو يضع يده على كتفيها بينما هما يدخلان المصعد. ما كان يمكن لأي شخص يراهما أن يصدق أن لهما غرفتين منفصلتين في الفندق وأنهما ما كانا متزوجين من بعضهما بعضاً. لقد بديا متآلفين مع بعضهما بعضاً وعلى سجيتهما للغاية لدرجة أن من كان يراهما سيعتقد على الأقل بأن هناك علاقة غرامية تربطهما. ولكنهما ما كانا يلقيان بالاً إلى كل هذه الأمور بينما كانا يتحدثان في طريقهما إلى الطابق الثالث ويتمشيان باتجاه غرفتها.

قالت له: "لقد كانت فترة بعد الظهر رائعة بالنسبة لي". ووقفت على رؤوس أصابعها لتقبل وجنته. "أنت طيب معي، سيد روبنسون. شكراً يا بيل". قالت له ذلك برزانة وابتسمت.

– "لا أدري لماذا يجب أن أكون طيباً معك. فأنت امرأة مخيفة وشخص مضجر ثقيل الظل. ولكن ينبغي علي القيام ببعض أعمال المحبة الإنسانية من حين لآخر. كما تعلمين، زوجات سياسيين، العُرج، والمُقْعَدين... وبعض الوقت معك. كما يقول براوني". ضحكت من كلامه، ولمس ذراعها برفق وهي تفتح باب غرفتها. وقال لها: "خذي قسطاً من الراحة قبل أن تخرج الليلة يا إيزابيل،

سوف أجعلك سعيدة". لقد كان يعرف كم كانت حياتها مليئة بالضغط والتوتر، وكم كانت تشعر بالمسؤولية طوال الوقت معتنيةً بابنها، وكان يريدها أن ترتاح وأن تستمتع بإجازة حقيقية هناك. لقد كان يدرك مما قالته له إنه لم يكن هناك أحد يهتم بشأنها كما يجب، وأراد أن يقوم بذلك بنفسه الآن في هذا الوقت القصير المتاح له. وعدَته أنها ستأخذ قيلولة، ثم استلقت هناك في غرفتها وراحت تفكر فيه وهي في غرفتها مستلقيةً على السرير. لقد كانت تفكر في كيف دخل إلى حياتها وفي مجريات الصدف المحضة خلال السنوات الماضية وكم أنها محظوظة.

وراحت تتساءل عن السبب الذي جعله يبقى مع زوجته أحياناً. لقد كان من السهل عليها أن تدرك أنه لم يكن هناك تواصل حقيقي بينهما وأنه كان يستحق أكثر من ذلك. ولكنها كانت تعرف أيضاً أنه ما كان ليود الحديث عن هذا الموضوع. إن حالة زواجه من سنثيا كان أمراً واقعاً قبله، وتوازناً اختار ألاّ يزعزعه. لقد كانت تشعر بأنه سيكون محرجاً له أن يغيّر هذا الوضع الذي يعيشه، فلم يكن يريد أن تهب رياح الفضيحة عليه أو أن يلفت الإنتباه له. إن جزءاً من قوته كان يكمن في حفاظه على البقاء بعيداً عن الأنظار، بحيث يستطيع أن يستخدم نفوذه دون أن تتسلط الأضواء عليه. ولكن الطلاق كان سيسترعي الانتباه إليه، خاصةً إذا كان قاسياً ولاذعاً، ولقد كان يقول في معظم الأحيان أن سيندي كانت تروق لها الأمور على النحو الذي باتت عليه. لم تكن تريد الانسحاب التام من الحياة التي تعيشها إذ كانت تحب الاستفادة من المنافع العملية المتأتية عن كونها زوجة وليم روبنسون، بشكل خاص في واشنطن، وفي أي مكان عموماً. ورغم أنها كانت تقول أنها تكره السياسة إلا أنها ما كانت تستاء من أن يكون لها زوج له تأثير جدير بالاعتبار على الرئيس. ولكن إيزابيل كانت تشعر بالأسى نحوه. فقد كانت ترى أنه يستحق أفضل مما لديه في علاقته مع سيندي. وهو بدوره كان يقول ذلك عن إيزابيل. فالحياة التي كانت تعيشها مع غوردون بالتأكيد لم تكن هي الحياة الزوجية التي كانت

تتصورها أو تطمح لها قبل عشرين سنة، ولكنها صارت واقعاً تتقبله الآن وتأقلمت معه، وما عادت تفكر فيه الآن وهي مستلقية على ذلك السرير الكبير في فندق كلاريدج وتترقب ما سيحدث في تلك الأمسية التي ستمضيها في الحديث والضحك مع بيل. في تلك اللحظة بدا غوردون لإيزابيل وكأنه جزء من عالم بعيد بل يكاد يكون غير موجود. لقد كان بيل يجعلها دائماً تضحك وتشعر بالأمان والراحة. وكان كل ما ترجوه هو أن تكون معه في لندن.

نامت إيزابيل نوماً خفيفاً لبضع دقائق ثم نهضت في الساعة السابعة واستحمت. واختارت أن ترتدي فستاناً أسود اللون ضيقاً مشدوداً على الخصر ودثاراً حريرياً وحذاء ذا كعب، ووضعت عقداً من اللؤلؤ كانت قد أحضرته معها، وأقراطاً من اللؤلؤ والجواهر كانت لوالدتها يوماً. لقد كان الفستان محتشماً جداً ولكن يظهر أنوثتها وفتنتها المثيرة بشكل واضح. وأعملت الفرشاة في شعرها على شكل جديلة فرنسية ناعمة، وتبرّجت بعناية، وعندما وقفت ورجعت إلى الوراء لتنظر إلى نفسها في المرآة لم تجد أي شيء لافت للانتباه في شكلها. ولكنها فوجئت بردة فعل بيل عندما فتحت له الباب عند الساعة الثامنة تماماً، بعد أن اتصلت بممرضة تيدي واطمأنت على صحته وعرفت أن غوردون خارج المنزل وأن تيدي قد نام نوماً عميقاً لتوه، ولذلك لم تتحدث إليه، ولكنها كانت سعيدة لسماعها بأنه أمضى يوماً طيباً. فمعرفتها لذلك ستجعلها تمضي وقتاً ممتعاً تلك الليلة مع بيل.

- "يا للروعة!". قال بيل وهو يخطو إلى الخلف ليبدي إعجابه بها. لقد وضعت الدثار الحريري على كتفيها على نحو حر فكشف عن كتفها شبه العاري. أما الفستان الذي كان مشدوداً على خصرها فقد كان يعطي جسمها شكلاً فاتناً. لقد بدت أنيقة ومهيبة ولكن أجمل مما كانت تظن، وهذا ما كان يزيد من سحرها. "تبدين في غاية الجمال. من صنع هذا الفستان؟" سألها مبدياً معرفةً فضحكت. إذ كانت تظن أنه لا يعرف شيئاً عن مصممي الأزياء وليس له اهتمام بهم.

"إنه من أزياء سان لوران. إنك تدهشني. فمنذ متى تهتم بالأزياء؟" لم يسبق له أبداً أن قال لها شيئاً كهذا من قبل. ولكن الأمور كانت مختلفة هنا. فلديهما متسع من الوقت، ويعلمان أن أمامهما يومين كاملين.

- "منذ بدأت بارتدائه. أليس هذا الفستان الذي ترتديه اليوم هو زيّ شانيل؟" سألها وهو يبدو فخوراً بنفسه، فضحكت من كلامه من جديد.

- "أنا متأثرة جداً. عليّ أن أنتبه إلى ما ألبسه من الآن فصاعداً، وأن أحرص على أن يكون متطابقاً مع ذوقك".

- "لا أعتقد أن عليك أن تقلقي. فأنت تبدين جميلة يا إيزابيل". قال لها ذلك بلهجة دافئة. ونزلا بالمصعد وهما يقفان إلى جوار بعضهما ويتهامسان بهدوء. قالت له أنها اتصلت بالممرضة وعلمت أن تيدي كان على ما يرام، وبدت سعيدة وهي تخبره بذلك. لقد كان يريدها فعلاً أن ترتاح وأن تمضي وقتاً ممتعاً، وحتى الآن كانت الأقدار تحالفهما. كان قد أمضى وقتاً طويلاً وهو يفكر في ترتيب برنامج لتمضية هذين اليومين معها. لقد أراد لهذه الرحلة أن تبقى في الذاكرة طوال العمر لأنه من يدري إذا كانت الظروف ستسمح لهما باللقاء على هذا النحو من جديد. لقد كان يخشى أن يفكر بذلك، إذ كان يشعر أنه قد لا تسنح لهما فرصة أخرى للقاء معاً من بعد.

سار بيل خلف إيزابيل وهما يدخلان إلى المطعم في فندق كلاريدج، واستدارت رؤوس عديدة لتنظر إليهما وهما داخلان. لقد كانا يشكلان ثنائياً جميلاً معاً وقد جلسا إلى طاولة في ركن المكان، وطلب المشروب المفضّل ومياهاً غازية له، وطلب المشروب المفضّل لها. وكالمعتاد فبعد أول رشفة لها بدأا يدردشان حول الفن والسياسة والمسرح ومنزل عائلته الصيفي في فيرمونت، والأماكن التي كانا يحبان أن يذهبا إليها وهما أطفال. وأخبرته عن زيارتها لجدّيها في هامشر عندما كانا على قيد الحياة وعن المرات النادرة ولكن المؤثرة التي رأت فيها الملكة. لقد كان مأخوذاً بقصصها، وكانت هي أيضاً مثله مأسورة بقصصه. وكما هو الحال دائماً، لقد كان هناك تشابه كبير

جداً بينهما في ردة فعلهما وفلسفتهما، والأشياء التي تهم كلاً منهما، والناس، والأماكن، وأهمية الروابط العائلية. وقد كانت إيزابيل من علّق فيما بعد في سيارة الليموزين، في طريقهما لتناول العشاء، على أنه من الغريب أن الناس الذين تعني لهم العائلة الكثير يقعون في زيجات مع أناس بعيدين عنهم ويختارون أناساً ليس فيهم أي دفء عاطفي.

"لقد كانت سيندي أكثر دفئاً عندما كنا في الجامعة، ولكنها تحولت إلى امرأة متشائمة ساخرة نوعاً ما. لا أدري إذا كانت هذه غلطتي أم لا". قال بيل ذلك بطريقة متأملة حالمة، وتابع: "إننا مختلفان كثيراً تقريباً، ولا أظن أني لبيتُ حاجاتها لسنوات كثيرة، وأعتقد أنها كانت غاضبة مني ومنذ زمن طويل، أو على الأقل كانت خائبة الأمل من جرّاء ذلك. لقد أرادت أن أعيش معها حياة اجتماعية خاصةً في كونّكتيكوت ونيويورك. لم تكن أبداً مهتمة بالحياة السياسية في الأيام الأولى عندما استهوتني هذه الحياة وغرقتُ في لجتها حتى أذني. أما الآن وأنا في جو أكثر نقاءً، فإني أعتقد أنها ضجرت من هذه الحياة وكثافتها. ولقد أضحينا منفردين سراً". ولكن إيزابيل كانت تعتقد أن الأمر بينهما كان أكثر من ذلك. لقد كان قد صرّح لإيزابيل ومنذ عدة سنوات أنه كان يظن أن زوجته لم تكن مخلصة لــه في حياتهما الزوجية. وكان قد اعترف لإيزابيل عن علاقته الغرامية الوحيدة التي وقع فيها ذات يوم. والأكثر من ذلك، كانت إيزابيل تشعر، من خلال ما قاله ومن خلال ما لم يقلْه، أن سنثيا كانت بعيدة كل البعد من أن تكون عاطفية أو دافئة المشاعر. ليس فقط أنها بعيدة عنه الآن، بل أيضاً هي تعاقبه على ما تعتبر أنه خذلها فيه. لم تسمع إيزابيل منه يوماً عن حميمية العلاقة بينهما أو عن قربهما من بعضهما بعضاً أو عن أي دعم عاطفي بينهما. ولم تستطع إلا أن تتساءل فيما إذا كان الأمر مؤلماً جداً لبيل لدرجة لا يقوى معها على الاعتراف ببساطة أن زوجته ما عادت تحبه. من كل ما قاله، كانت إيزابيل تتساءل فيما إذا كانت حتى قد أحبته يوماً. لقد كانت في ذهنها التساؤلات نفسها المتعلقة بغوردون. ولكنها لم تُردْ أن تضغط

على بيل بشأن زوجته. فأياً كان ما يراه فيها، سواء عواطف أم ماضٍ منصرم، فإنها ما كانت ترغب أن تضطره لمواجهة أمر قد يسبب لــه الألم الكثير أو الحرج حين الاعتراف به أو مناقشته.

- "أعتقد أن غوردون أكثر برودة بكثير من سنثيا". قال ذلك بصدق، ولم تخالفــه إيزابيل الرأي في ذلك، رغم أن إيزابيل كانت من جانبها على استعداد تــام أيضاً لأن تلوم نفسها وتحمّل نفسها مسؤولية الوضع الراهن لعلاقتها مع غوردون.

- "أعتقد أني شكلتُ لــه خيبة أمل كبيرة". قالت هذا بهدوء، بينما كانت السـيارة تسـير بهمـا باتجاه بار هاري. "أعتقد أنه كان يتوقع مني أن أكون اجتماعـية أكثر أو منطلقة أكثر مما أنا عليه. لقد كنت على استعداد لأن أُرفّه عنه وأحتفي بزواره، ولكني لست ماهرةً في المبادرة تجاه الناس أو في التأثير علـيهم. فهـذا أمـر صعب بالنسبة لي. لقد كنت أشعر في الأيام الأولى من زواجـنا بأنني دمية متحركة، وأن غوردون هو من كان يستخدم كل سلطته لتحقيق ذلك. لقد حدّد لي ما أقوله للناس، وكيف أتصرف، وكيف أسلك، وبماذا أفكـر. وفيما بعد، عندما كان تيدي مريضاً، لم يعد لدي وقت أو صبر لألعب هـذه اللعبة بعد. وحتى عندما كانت صوفي صغيرة السن، لقد كنت مهتمة بها أكثر مما كنت مهتمة بأولئك الناس السخيفين الذين كان يريدني أن أؤثر عليهم. جُـلّ ما كنت أريده هو حياة عائلية ومنزل. أعتقد أنه يمكنك القول أني خذلتُه بهـذا المعنى. وأعتقد أن غوردون أكثر طموحاً مني". كان بيل يعتقد أن الأمر أكـثر من ذلك، وأن نوع البرودة والقسوة اللتين وصفتهما لــه بدتا مقصودتين لجعـل إيزابيل تشعر أن التباعد بينها وبين غوردون كان غلطها تماماً. لقد بدا وكـأن غوردون كان يلمّح ضمناً أنه لو حاولت إيزابيل ردم هذه الفجوة بينهما لبقي يؤثّر في حياتها. وكان لدى بيل ارتياب في أن أسباب غيابه الآن ليس لها علاقــة بها، أو بتيدي، بل بأشياء لم تكن إيزابيل قد بدأت حتى بالارتياب بها. ولكــنه لم يُردْ أن يزعجها بإيحائه لها بذلك، كما وأنها كانت على استعداد للوم

نفسها. وعلى الرغم من قسوة غوردون تجاهها، كانت وفيّة له وكانت تبرر له ما يفعله وما يقوله لها على الدوام. لقد كان بيل يرى أن سماحة النفس التي تبديها له غير جديرة به وأنها إنما بدافع مثاليتها.

– "لا أرى كيف أنك من الممكن أن تحبيني أياً كان، يا إيزابيل. لم أعرف أبداً أي شخص يسعى لمنح نفسه للآخرين كما أنت تفعلين، وبكل استطاعتك، وأنا واثق أنك كنت هكذا معه". لقد كانت على استعداد لأن تسامح الجميع وتعفو تقريباً عن كل شيء، وكانت تفعل ذلك حقاً. واستأنف بيل: "كما وأن مرض تيدي منذ لحظة ولادته ليست غلطتك".

– "يعتقد غوردون أني عملتُ شيئاً خلال فترة حملي تسبّب في ولادته قبل أوانه. يقول الطبيب أن شيئاً ما حصل أثناء الحمل، ولكني لم أستطع أن أقنع غوردون بأن ذلك ليس ذنبي". ما قالته أكدّ لبيل شعوره حيال ما يفعله غوردون تجاهها.

في الواقع إن بيل لم يرق له غوردون في المناسبتين اللتين التقى به فيهما. لقد وجده مغروراً متفاخراً متغطرساً ومتكبراً، وطريقة حديثه التهكمية الساخرة إلى إيزابيل كانت تجعل جلد بيل ينمّل. لقد كان يعاملها وكأنها طفلة، وينبذها علناً بكلمات حادة، وينتقدها بشكل صريح ويطلب منها المغادرة بتلويحة من يده. ولكنه لم يعامل بيل هكذا لأنه كان متأثراً بشخصيته، بينما كان يتجاهل زوجته طوال الوقت. لقد كان غوردون بمقدوره أن يكون ساحراً جذاباً عندما أراد وذلك مع أناس اعتبرهم مهمين ويمكن أن يكونوا مفيدين له، ولكن بدا الأمر وكأن غوردون كان في حاجة إلى معاقبة إيزابيل لما هي عليه. لقد بدا كأن لطفها وحنوها ولباقتها ولياقتها قد أثار ازدراءه فحسب. وشعر بيل أن كل ذلك يعود إلى تأثر غوردون بعائلتها وشعوره أنه غير ملائم لنَسَبها إلى حد ما، ربما بسبب ارتباطها بالعائلة الملكية، وكأنه كان في حاجة إلى أن يحتقرها ويعاملها بالدونية لكي يعيد تأكيد نفسه. لم يدفئ أسلوب غوردون ووجهة نظره قلب بيل. ولكن من أجل إيزابيل على الأقل، تظاهر ببعض

الاحترام نحو غوردون عندما كانت تتحدث عنه. لم يُرِدْ أن يضعها في موضع الدفاع عن الرجل. لقد كان إخلاصها وولاؤها واضحاً، وسيبقى غوردون زوجها أولاً وأخيراً. ولكنها ما عادت تدّعي أمام بيل بأنها كانت سعيدة مع غوردون، وببساطة فإنها قَبِلَت زواجها منه على أنه قِسْمَتها في الحياة، وصارت تأبى التذمر من طريقة سير الأمور. لقد كانت ممتنة لوجود بيل إلى جوارها تتحدث إليه، وتستمع إليه، وكان يطيب لها أنه دائماً يجعلها تضحك.

كان هنالك حشد كبير في مطعم هاري تلك الليلة حتى إنهم بالكاد استطاعوا أن يدخلوا من باب المطعم. كانت هناك نساء يرتدين ثياب السهرة وفساتين حفلات الكوكتيل ويقفن إلى جانب بعضهن في المطعم مع رجال يرتدون بذلات سوداء وقمصان بيضاء وربطات عنق داكنة. بدا الحشد متعلماً مثقفاً وحسن اللباس، وكان مظهر إيزابيل مناسباً جداً للمكان مرتدية فستانها الأسود الضيق على خصرها. وبدا بيل متميزاً وأنيقاً وهو يرتدي بذلةً زرقاء داكنة لها طبقتان على الصدر كان قد اشتراها قبل الرحلة مباشرة.

كانت الطاولة في انتظارهما، وسارع رئيس النادلين لاستقباله حالما رآه، وحيّا إيزابيل بابتسامة. لقد خصص لهما طاولة في ركن المكان حيث كان يعرف أن بيل يحب الجلوس فيه، وأمكنهما أن يريا عدة شخصيات مرموقة معروفة في المجتمع يجلسون إلى الطاولات إلى جوار الجدار. فكان هناك عدة ممثلات، ونجم سينمائي مشهور، وبعض الشخصيات الأدبية، وطاولة يجلس إليها رجال أعمال من البحرين، وأميرتان من السعودية، وطاولة يجلس إليها أمريكيون من الطبقات العليا أحدهم حقق ثروة من النفط. لقد كان الحشد مميزاً بشكل لافت، وتوقف عدة أناس ليلقوا التحية على بيل. وعرّفهم على إيزابيل دون تردد منادياً إياها بالسيدة فوريستر دون أن يشرح لهم من تكون بالنسبة له. وبينما هما وسط العشاء رأت إيزابيل مصرفياً فرنسياً شهيراً كانت التقت به قبل سنوات، ولا بد أنه كان يعرف غوردون، ولكنه لم يلقِ بالاً إليها، ولم يسلّم عليهما في طريقه خارجاً.

قالت له: "لا أدري من يظننا الناس". ولم يَبْدُ عليها القلق بل كانت مستمتعة. كان ضميرها مرتاحاً رغم أنه كان أمراً غير اعتيادي بالنسبة لها أن تكون في لندن وأن تتناول طعام العشاء مع رجل في مطعم هاري.

"على الأرجح أنهم يظنون أنك نجمة سينمائية فرنسية، وأنني رجل أمريكي ريفي جلفٌ استطعتِ أنتِ أن توقعيه بحبائلك". ضحك وهو يقول ذلك بينما راح النادل يضع الكريستال الذي جاء مع "الدوسير"[1]. لقد تناولا وجبة احتفالية وكأسين من المشروب المفضل حتى الآن. أكلا وشبعا، وكانا مسرورين ومرتاحين.

"لا بل إن الكثيرين يعرفون من تكون يا بيل على الرغم من أنك تظن أن ما من أحد يعرفك. ولكنهم لا يعرفون من أكون أنا". قالت له مازحةً.

– "يمكنني أن أعلن لهم عنا إذا أحببتِ. أو يمكننا أن نمر عليهم طاولة طاولة في طريقنا ونحن خارجان، ويمكنني أن أعرّف الجميع عليك، ويمكنني أن أقول لهم أنك صديقتي المقربة الحميمة. هل تعتقدين أن هذا يكفيهم ليعرفوه؟" ما كان الناس هناك يرونه فيهما هو ثنائي رائع للغاية يستمتعان برفقة بعضهما البعض. وإن النظر إليهما جعل الناس يبتسمون في سرور.

"ربما. هل تظن أن سنثيا كانت لتستاء لو سَمِعَتْ بأنك كنت تتناول طعام العشاء مع امرأة أخرى؟" سألته إيزابيل في فضول كما هو حالها دائماً نحوها.

– "هل تريدين الصراحة؟" سألها وهو يبتسم. لقد كان دائماً صريحاً معها. لقد كان وعداً قطعه على نفسه منذ زمن بعيد، أنه لن يراوغ حول الحقيقة أبداً مهما كان الحرج الذي يسببه التصريح بهذه الحقيقة. وعلى حد علمه كانت على الدوام صريحة معه، وكانت تؤكد له أنها كانت كذلك فعلاً. لقد كان في ذهنها انطباع عميق عن الصدق والصراحة التي كانا يتشاركان بها. "بكل صراحة يا إيزابيل لا أظن أنها كانت لتهتم. أعتقد أنها تجاوزت هذه

(1) الدوسير (dessert): كلمة فرنسية الأصل وتعني الفواكه أو الحلوى أو غيرها التي تؤكل بعد الطعام.

المرحلة منذ أمدٍ بعيد. فطالما أني لا أجعل منها حمقاء، علانيةً على الأقل، فإني أعتقد أنها ستعتبر أن ما أفعله هو شأني الشخصي. سوف لن ترغب في أن أسألها عن حياتها. وفي الواقع لديها أشياء كثيرة تخفيها أكثر مني". كان قد سمع إشاعات عنها لعدة سنوات، وسألها عن ذلك فقط في أول مرتين، وبعدها كان قد قرّر أنه هو نفسه ما عاد يريد أن يعرف.

قالت إيزابيل وهي تنظر إليه: "يحزنني هذا للغاية. ما هكذا يكون الزواج".

– "نعم لا ينبغي أن يكون هكذا. ولكن يبدو أن الزواج فيه إمكانية لاحتمالات كثيرة عديدة متنوعة. وإن الزواج الذي مُنيتِ به أنت وأنا ليس هو الزواج الذي يحلم به الناس. لدينا ما يجعل المرء يحيا حياة استقرار في الزواج، ومن عدة نواحٍ، بعد زمن طويل".

– "أنت محق". قالت ذلك وهي مستغرقة في التفكير، بينما كان النادل يصب لكل منهما كوباً من المشروب المفضل.

– "هل شعرت بهذا الاستقرار في زواجك؟" كان للمشروب المفضل الذي شربته للآن تأثير عليها إذ جعلها أكثر حيوية مما هي في العادة.

– ليس لدي خيار. إذا لم أتأقلم وأذعن للواقع الذي أعيشه، فلن يكون متاحاً أمامي إلا أن أخرج من الحياة التي أعيشها. وربما لدينا نفس الأسباب المختلفة بالنسبة لكل منا، وما من أحد يرغب بذلك. فسنثيا تريد هالة المسؤولية التي تحيط بها والتي أؤمنها لها وطريقة الحياة التي تعيشها. وأنا لا أريد أن أثير ضجة من جرّاء طلاقنا. ولذلك نبقي الحال على ما هو عليه. وعلاوة على ذلك، إذا ما تطلقنا ستستاء الفتاتان. لا أفهم لماذا لم أنَلْ ما كنت أبتغيه من الأشياء أو الناس". لم يكن في يده حيلة على الأقل. لقد تأقلم مع حالته، كما تعلم إيزابيل، وقبل زمن طويل. ولكنها أحياناً تتساءل عن السبب. فكونه في الثانية والخمسين من العمر، كان لا يزال فتياً إلى حدٍّ يمكنه معه أن يبدأ حياة أخرى، ولقد كان يستحق السعادة، هذا ما كانت تفكر به إيزابيل بكل حال من

الأحـوال. لقد أعطى الكثير ولم ينَلْ بالمقابل إلا النذر اليسير. وكان بيل يفكر بنفس الشيء تجاه إيزابيل.

- "سوف لن تستطيعَ أن تجد أي شيء أو أي شخص آخر أبداً طالما أنت مقيدٌ بها". قالت ذلك ثم ارتشفت المشروب المفضّل.

- "هل تقترحين أن أطلق؟" بدا مندهلاً، فهي لم تتحدث بهذا الأمر بشكل مباشر هكذا من قبل، وراح يتساءل عن السبب الذي يجعلها تقول ذلك الآن.

- "لا أدري. ولكني أتساءل أحياناً إذا ما كنا نهدر حياتنا سدىً. ليس لدي خيار بسبب تيدي، ولسوف لن أحصل على الطلاق بأي شكل من الأشكال. فلم يحدث مثل هذا أبداً في عائلتي. وفي مثل عمري، سيكون من الصعب أن أبدأ مـن جديد. أما بالنسبة للرجل فالأمر مختلف". اندهل لسماعه ما تقول فهو لم يعتقد أبداً أنها فكرت يوماً بهجر غوردون، وكانت هذه أول مرة تذكر فيها هذا الأمر.

قـال لهـا بهدوء: "ليس الأمر مختلفاً بالنسبة للرجل. ثم أنك أصغر مني بـإحدى عشرة سنة. وإذا كان أحدنا سيفكر بحياة جديدة، فهو أنت يا إيزابيل. فأنـت وغوردون لم تعيشا حياة زوجية حقيقية منذ سنين. وأنت تستحقين أكثر مـن ذلك بكثير". لقد كانت هذه أول مرة يكون فيها حازماً معها هكذا، ولكنها فتحت لـه المجال ليقول لها هذا، وقد كان مسروراً لقوله ذلك.

قالت بهدوء: "ما كان ليمكنني أن أفعل ذلك، وأنت تعلم... وسوف يُصاب كل من نعرفه وكل من تربطنا به أية علاقة بالرعب إذا حدث هذا، كما وأنني لا أستطيع أبداً أن أمزّق حياة تيدي. فإنه أكثر هشاشة من أن يصمد بعد حدوث هكذا تحول خطير وكبير في حياته. ثم أن غوردون سوف لن يتساهل في ذلك، إنـه ليقتلني قبل أن يدعني أذهب. ليس لدي شك في ذلك". إن الطلاق لم يكن أبـداً احتمالاً ولو بعيداً في فكرها. بدت متزنة رصينة وهي تقول ذلك، ولكنها شـعرت الليلة، ولأول مرة، أنها مثل أسير تعهد بألا يحاول الهرب من سجنه. لم تكن تسمح لنفسها أبداً بأن تفكر كم كان منزلها في باريس كئيباً محبطاً، وكم

كانـت حياتها محدودة، وكم كان غوردون غائباً تماماً عن البيت. وفجأة الآن، وهي تجلس في مطعم هاري مع بيل، أدركت تماماً ما كانت تفتقده في حياتها. ولكنها كانت تصرّ في قرارة نفسها على أن سببه هو تمركز حياتها حول طفلها المـريض. لـم تكن على استعداد لأن ترى أن حياة العزلة التي كانت تعيشها كانـت فـي مجملهـا هكذا لأنها منبوذة عاطفياً ولسنين من قبل الرجل الذي تزوجَته.

- "لم أسمَعْكِ أبداً تتحدثين هكذا". قال لها بيل وهو يضع يده على يدها. لـم تكن قبلاً مستعدة أبداً لأن تقر لنفسها أو لـه بمدى تعاستها، وكانت دائماً تضـع الأعـذار لذلك، ولم تعترف أبداً صراحةً كم كان غوردون قوة هدامة كامنة. تساءل بيل إذا ما كان غوردون قد هددها يوماً. ولكن سواء فعل ذلك أم لا، فـإن إيزابـيل بدت مُدْركة تماماً لطبيعة الرجل، ومدى قسوته، ليس فقط نحوها، بل أيضاً نحو طفلها. "ما الذي يجعلك تقولين ذلك الآن يا إيزابيل؟ هل هـددك؟" لـم تقل أبداً من قبل أن غوردون كان ليقتلها إذا ما تركته، ويتساءل الآن إذا مـا كانـت قـد تطرقـت إلى الموضوع مع غوردون في وقت من الأوقـات. تفرس بيل في عيني إيزابيل بينما ابتسمت له. كانت عيناها توحيان بـالعمق والحكمـة والحـزن تحت ابتسامتها. ما كانت تتوقع أي حياة لها في المستقبل ما عدا الحياة التي تعيشها. لقد أعماها الأمل بحياة أفضل وضللها قبل سنوات عديدة.

- "أعـتقد أنـك أذهلتني". قالت لـه بلهجة معتذرة ولكنها كانت تشعر وكأنهـا سجين لاذ بالفرار، وما عادت تريد أن تلتزم أو تفي بوعدها بالصمت الذي قطعته على نفسها يوماً. فعلى الجانب الآخر من القنال الإنكليزي شعرت فجـأة بـولاء نحو غوردون أقل مما كانت تشعر به في المنزل، كما كان بيل يعرفها جيداً.

ضـحك بـيل وهو يأخذ رشفة أخرى من كأسه: "أود لو جعلتك تذهلين. كنت لأود أن أرى ماذا ستفعلين وأنت مندهلة يا إيزابيل. هلا تحاول ذلك؟".

- "إنك مخيف. ها إنك قلقٌ من أن تكون موضع فضيحة، وفي الوقت نفسه تحرضني على أن أسلك بطريقة فاضحة. إذا استمريت في صب المشروب المفضّل لي فأنا متأكدة بأنك ستضطر لأن تخرجني من مطعم هاري مضطربة".

- "سوف لن أفعل أي شيء سوى أن ألقي بك على كتفي وأقول للناس أني وجدتك تحت طاولتي. ولا أعتقد أن أحداً سيعترض عليّ".

- "وماذا ستفعل عندئذ". وقهقهت لتصورها ما يمكن أن يفعل بها، فلقد كانت في روح معنوية عالية، وكانت تريد أن تمتد تلك الأمسية إلى الأبد. في خلفية فكرها كانت تسمع دقات عقارب الساعة تشير إلى مرور الوقت. فبعد هذه الليلة، سيبقى لها ولبيل فقط ليلة ونهاران يكونان فيها معاً، أو ليلتان إذا مكثت حتى يوم الجمعة. ولكن بعدئذ، سيتوجب على كليهما أن يعودا إلى حياتهما العادية. لقد كانت تشعر بنفسها وكأنها سندريلا في الحفلة الراقصة، وما كانت لترغب أن يعود الحوذي إلى وضعه الأول كجرذ أبيض، ولو إلى حين.

- "أعتقد أني، سآخذك إلى نادي أنابيل لترقص". كانت الفكرة قد خطرت له للتو، فضحكت إيزابيل.

- "إنها لفكرة طريفة. فأنا لم أذهب إلى نادي أنابيل منذ سنوات، بل حتى منذ قبل أن أتزوج. لقد احتفلتُ بعيد ميلادي الثامن عشر هناك، وأخذني والدي مرةً إلى هناك بعد أن خطبني غوردون. ولم أذهب إلى هناك من جديد منذ ذلك الحين. فغوردون يكره الرقص كرهاً شديداً".

- "إذاً اتفقنا. سنذهب إلى هناك الليلة. وحالما تفرغين كأسك". قال لها ذلك مازحاً إذ كان يعرف أنها لن ترتشف إلا رشفة أو اثنتين، فقد كان كأسها لا يزال شبه ممتلئ. لقد كانا سعيدين كلاهما. في الواقع كانا مذهلين بنشوى وجودهما معاً.

"ليس في وسعي إنهاؤه". قالت إيزابيل معترفةً، وهي تنظر بعينين

واسعتين في عينه، بينما قاوم هو رغبة بأن يحيطها بذراعيه. ولكنه لم يكن من الحماقة حتى يقوم بمثل هكذا تصرف، ثم أنه ما كان يرغب بأن يسيء إلى سمعتها أو أن يضعها في موقف محرج.

- "إذا لم يكن بمقدورك إنهاء كأسك من المشروب المفضّل، إذاً فلنذهب إلى نادي أنابيل". قال بيل بلهجة تصميم، في حين أحضر لهما النادل طبقاً من الشوكولا والسكاكر التي أعجبت إيزابيل. لقد أمضت وقتاً رائعاً، ولم تكن تضع في حسبانها الذهاب إلى أي مكان آخر ما عدا العودة إلى الفندق. لم تكن تطمح بالمزيد ولم تتوقع أن يذهبا للرقص. قال لها من جديد ملاطفاً: "لدي فكرة. سأقبل أن تأكلي لوحي شوكولا بدلاً من احتساء كل الكأس، وسآخذك إلى نادي أنابيل". كان يريد أن يذهب معها الآن إلى هناك.

سألته: "هل أنت جاد؟" وبدت منذهلة ومسرورة وهي تزدرد قطعة شوكولا صغيرة وتنظر إليه نظرة تحد: "ها هي أول واحدة".

فناولها قطعة أخرى من الشوكولا وقال لها: "تلكم واحدة أخرى".

- "هذا مرعب. أنت لا تريدني فقط أن أنذهل بل أن أصاب بالبدانة أيضاً".

- "هذا سيستغرق وقتاً أطول من جعلك تنذهلين". قال لها وهو يبتسم ابتسامة عريضة، وتناول قطعة من الشوكولا هو أيضاً. "إذاً هيا بنا إلى نادي أنابيل". قال ذلك وهو يشير للنادل ليحضر له الفاتورة.

- "لا أعتقد أني سأستطيع الرقص بعد. بالإضافة إلى ذلك فإنك شاب وأنا متقدمة في السن. فالرجال هناك كبار في السن بعمر والدي، ويرقصون مع فتيات بعمر صوفي".

- "يمكنك أن تنجحي في الاختبار، ولكن أخشى أن أفشل أنا في ذلك. ولكن أياً يكن من أمر سنبذل جهدنا. أنا لست راقصاً بارعاً، ولكن أعتقد أن الأمر سيكون مسلياً". قال ذلك وهو يبدو مرتاحاً ومسروراً، وبينما هما يغادران استدارت رؤوس العديدين نحوهما. لقد كانا يشكلان ثنائياً جميلاً.

استغرق منهم الوصول إلى نادي أنابيل بضع دقائق فقط، وعندما وصلا، ومن جديد، بدا أن الجميع يعرفون بيل. لقد كان قد ذهب إلى نادي أنابيل قبل ستة أشهر برفقة السفير، وكان يتناول طعام عشائه هناك بين الفينة والأخرى مع أصدقائه كلما كان في لندن. كانت إيزابيل تبتسم في حين كان المضيف يشايعهما إلى طاولتهما. لقد شعرت فجأة بأنها فتية، وشعرت بأنه من السخف أن تكون هناك، ولكن شعرت بالإطراء لأنها برفقة بيل.

كان هناك حشد كبير في نادي إيزابيل تلك الليلة، وعديد منهم كانوا أزواجاً كالذين وصفتهم إيزابيل لبيل، رجالاً مسنين مع نساء شابات جداً، ولكن كان هناك عدة أزواج بمثل عمر بيل وإيزابيل أيضاً. كان هناك العديد من الناس يجلسون إلى الطاولات بجوار الجدار يتناولون طعام العشاء في حين كان بعض الناس يدردشون ويحتسون المشروب المفضل في النادي الحميمي الدافئ. وعندما جلس بيل وإيزابيل إلى طاولة قرب ساحة الرقص، أُجفلت إذ رأت نظرة في عيني بيل. لقد كانت نظرة لم تعهدها سابقاً. وعزَت ذلك ليس إلى المشروب المفضل الذي كانا يشربانه وحميمية العلاقة بينهما وحسب، بل إلى ما في عينيه من حنان ودفء يفوق العادة تبدّيا في نظرته لها وهو يرافقها إلى ساحة الرقص بعد هنيهة دون أن ينبس ببنت شفة. لقد كانت معزوفة لأغنية قديمة كانت تحبها دائماً، وفوجئت أن بيل لم يكن فقط راقصاً ماهراً بل بدا منسجماً معها تماماً في الرقص. لقد أحاطها بذراع قوية وقرّبها إليه، وراحت ترقص معه برشاقة في ساحة الرقص وهي تشعر بأنها أكثر سعادة وسلاماً واطمئناناً منها منذ سنين. انتقلا من أغنية إلى أخرى دون أن يغادرا ساحة الرقص، وبدا أن ساعات مضت عندما عادا أخيراً إلى طاولتهما، وطلبا المزيد من المشروب المفضل.

ارتشفت من كأسها رشفةً، والتقت أعينهما من جديد من فوق كأسيهما، ثم أدارت طرفها بعد هنيهة. لقد كانت تشعر بالخوف مما بدأت تحس به نحوه.

ولاحظ نظرتها في الحال وشعر بالقلق: "أأنت على ما يرام؟" كان يخشى

أن يكون قد فعل ما يجعلها تستاء منه، ولكن على العكس، ما كانت قد شعرت به دخل إلى أعماقها وأثر بها كثيراً حتى إنها لم تستطع أن تجد الكلمات المناسبة لتعبر عنه.

– "أنا على ما يرام. كل ما هنالك أني سعيدة جداً في هذا المساء حتى إني أود ألا يكون لهذه الأمسية انقضاء".

– "سوف لن تنتهي". قال لها ذلك بلطف، ولكنهما كلاهما كانا يدركان أنهما قد لا يستطيعان أن يلتقيا من جديد إلا بعد سنين. فما كان بإمكانها أن تعتاد على السفر إلى لندن، وإذا تغيرت حالة تيدي إلى الأسوأ، فإنها قد لا تتمكن من الذهاب إلى هناك قبل سنوات. ولم تكن تشعر بأنها تستطيع أن تراه في باريس بحرية كما فعلت هنا. فغوردون لن يتفهّم ذلك أبداً، وما كان ليمكنها أن تشرح له الأمر. قال لها بيل: "دعينا لا نفكر بما سيأتي فيما بعد يا إيزابيل. دعينا نستمتع بهذا الوقت معاً الآن ما أمكننا ذلك". لومأت برأسها، وابتسمت له، ولكن بدموعٍ في عينيها. لقد كانت تشعر بأنها ما هي إلا لحظات تمر بعد أن قالت له مرحباً حتى تودّعه، وما سيتبقى لهما هو أصواتهما على الهاتف من جديد. ولقد كان يكره أن تعود إلى حياة العُزلة التي كانت تعيشها. لقد كانت فتية، جميلة، مليئة بالحياة، وكانت تستحق وجود شخص إلى جانبها يقدّر كل ما كانت تعطيه. فطلب منها أخيراً أن "هلا نرقص من جديد؟" وأومأت موافقة. فأمسك بيدها هذه المرة وعادا إلى ساحة الرقص. وبينما هما يرقصان بدت ترقص على مقربة أكثر منه. لم ينطق ببنت شفة، بل أغمض عينيه وهو يحتويها بين ذراعيه. لقد كانت تلك أجمل لحظة يمضيانها معاً، وكأنها جوهرة وحيدة متلألئة معلقة في سماء الليل.

غادرا نادي أنابيل بهدوء وقطعا نصف طريق العودة إلى الفندق دون أن يتكلما.

همست إيزابيل برقة: "لقد كان وقتاً رائعاً هذا الذي أمضيته الليلة". وكانت تشعر وبشكل مرهف كم كان لطيفاً معها ووسيماً.

– "وأنا أيضاً". قال لها ذلك وهو يحيط كتفيها بذارعه مستمتعاً بدفئها وقد التصقت به. لم يكن بينهما أي خداع أو ادعاء أو حرج أو توتر أو تردد. بل إنها كانت تشعر بجواره بسعادة غامرة وهدوء وسلام فائق الطبيعة. توقفت بهما السيارة أمام الفندق، ولبثا ساكنين لوهلة، وانتظرهما السائق بأدب خارج السيارة دون أن يفتح الباب.

– "هلا ننزل؟" قالها بيل متأسفاً وتحرك بتثاقل مبتعداً عنها، وإذ رأى السائق حركة الراكبين في السيارة فتح الباب.

تبع بيل إيزابيل إلى ردهة الفندق مروراً بالباب الذي يدور حول محور. كانت الساعة قد دقت الثانية صباحاً، وكان هناك عاملان يلمّعان الأرضية الرخامية. تثاءبت إيزابيل بنعاس وهما يصعدان في المصعد الذي توقف بهما في الطابق الثالث.

سألها بيل: "متى ترغبين أن نبدأ صباح غد؟" قال لها ذلك وهو يتمنى لو أنه يمضي الليلة معها. لقد كان يدرك أن هذا الأمر مرفوض نهائياً، وأنه لا يريد أن يعرّض صداقتهما للخطر بأن يطلب منها ذلك، أو أن يفعل ما يجعلها تندم عليه. لقد كان يعلم إلى أي درجة تحافظ إيزابيل على نفسها وتفعل الصواب.

– "الســـاعة العاشرة، ما رأيك؟ لا أعتقد أن المتحف يفتح قبل ذلك". كانا واقفيـــن على عتبة باب غرفتها آنذاك، وقد بدت كارهة لمفارقته. لقد كان لتلك الأمسية تأثير هائل في نفسها من عدة نواحٍ.

– "ما رأيك في تناول الإفطار الساعة التاسعة؟ سوف أعرّج عليك وننزل إلى الأسفل". اقترح عليها ذلك وهو يقف على مقربة شديدة منها.

– "فكـــرة ظريفة". قالت ذلك ثم ابتسمت من جديد واستأنفت هامسةً له: "لقـــد استمتعتُ بوجودي معك الليلة... شكراً لك...". قالت ذلك بينما هو يفتح الباب بمفتاحها، ثم قبّل أعلى رأسها.

– "لقـــد أمضيتُ وقتاً منهكاً". قال ذلك وهو يبتسم لها وهي تخطو داخلة إلى غرفتها وتلتفت إلى الخلف ضاحكةً.

– "أنا سعيدة". قالت ذلك وهو يلوح لها بيده ثم يختفي في الرواق ماضياً إلـــى غرفـــته. كان جل ما تفكر به هو كم أنها محظوظة لأن لها صديقاً مثله. راحت تفكر بذلك وهي تغلق باب غرفتها بهدوء وتخلع حذاءَها.

الفصل الثالث

قرع بيل بابَ غرفة إيزابيل في صباح اليوم التالي، ليجدها على أهبة الاستعداد وقد ارتدت ملابسها وراحت تنتظره. وهذه المرة كانت ترتدي بذلة تفصيل من الكتان بلون أزرق بحري داكن. كانت تحمل حقيبة بلون أزرق بحري ماركة كيلي وترتدي حذاء أزرق داكن من جلد القاطور[1]، وتضع وشاحاً أخضر ساطعاً حول عنقها، وحلقاً من الزمرد والياقوت الأزرق. لقد بدت جميلة وفتية ويانعة كما هي دائماً وأنيقة للغاية.

– "تبدين رائعة اليوم". علّق بهذا القول بينما كانا ينزلان السلالم جنباً إلى جنب. "كيف نمتِ؟".

قالت مبتسمة: "نمت بدون حراك مثل صخرة. وأنت؟".

– "لستُ متأكداً إذا ما كنت نمت بعمق أم أصابتني إغماءة، ولكني أشعر أنني على ما يرام اليوم". لم يبدُ لها منذهلاً ليلة أمس، وما كانت تعتقد أنه منذهل حقاً. لقد كان يمازحها فقط، وبدا في روح معنوية عالية وهما يسيران داخلين إلى غرفة الطعام. كان قد اتصل وحجز طاولة، فطلب وليمة فطور كبيرة لكليهما.

قالت له باعتراض: "لا يسعني أكل كل هذا". نظرت إلى ما كان قد طلبه: بيض، وافل[2]، نقانق، وتمبي[3]، وكرواسانت[4]، ووجبة شوفان،

---

(1) القاطور: (alligator): تمساح له رأس عريض.

(2) وافل: (waffles): نوع من الكيك الطري قوامه الطحين والبيض والحليب أو الماء.

(3) تمبي: (tempeh): كعك محضّر من فول الصويا.

(4) الكرواسانت: (croissants): كلمة فرنسية الأصل، وهي نوع من المعجنات المحلاة على شكل رقائق أسطوانية.

وفواكه، وعصير برتقال، وقهوة – لقد كان ذلك أكثر مما يحتاج إليه جيش يتضور جوعاً، هذا ما علقت به وهي تبتسم.

ابتسم لها ابتسامة عريضة بوداعة وقال لها: "لم أعرف ماذا تحبين على الإفطار. لذلك فقد طلبت كل الأنواع. ماذا تأكلين في العادة؟" سألها بفضول، إذ كان يحب أن يعرف أدق التفاصيل عنها.

قالت: "عادة قهوة مع توست محمّص جيداً، ولكن هذا أكثر تسلية". ووضعت الوافل والبيض وتمبي في صحنها، ثم أضافت بعض الفريز. ولدهشتها، فقد أكلت مقداراً كبيراً من الطعام الذي كان قد طلبه، وأتى هو على معظم الباقي. وعندما غادرا الفندق كانا في سرور يتضاحكان ويتمازحان على ما أكلاه وعلى مدى البدانة التي سيصلان إليها. "لا بأس في ذلك طالما أني أراك بضع مرات في السنة". قالت ذلك وهي تستقل الليموزين التي كانت في انتظارهما. وقالت: "إذا رأيتك أكثر من ذلك فسوف أصبح بدينة للغاية". وبدا مستغرباً حالماً وهو ينظر إليها. لقد كان يفكر كم يكون جميلاً لو أمكنه أن يتناول طعام الفطور معها كل يوم. لقد كانت امرأةً تحلو مرافقتها ويرتاح المرء إليها. لقد كانت نادراً ما تبدو سيئة المزاج حتى عندما كان يتصل بها عدة مرات في الأسبوع. أما سيندي فكانت دائماً تقول أنها تكره الاحتكاك أو الاتصال مع الناس قبل الظهيرة. ولكن إيزابيل كانت عذبة ومتقدة في حديثها إلى بيل طوال الطريق حتى صالة التيت.

لقد كانت تحدثه عن كل اللوحات التي سيريانها، وعن تاريخ هذه اللوحات، وأصلها ومصدرها، والتقنية المستخدمة فيها والتفاصيل المميزة لمعظمها. لقد قامت بوظيفتها وكانت في غاية النشوة لزيارة المعرض في رفقته. ولقد استمتع بمشاركتها حماستها. وخلال تجوالهما في المعرض بدت على معرفة عميقة شاملة بكل لوحة، فتتمحص أعقد التفاصيل، وتشرح له كل شيء. لقد كانت زيارة المعرض معها خبرة جديدة تماماً عليه، وعندما غادرا المعرض عند الظهيرة شعر وكأنه قد درس منهاجاً مكثفاً عن الفن.

– "إن لديكِ معرفة هائلة مذهلة. لماذا لا تستفيدين من كل ذلك يا إيزابيل؟ فأنت تعرفين الكثير عن الفن فلا يجوز أن تذهب هذه المعرفة هباءً".

قالت بحزن: "ما عاد عندي وقت. فأنا لا أستطيع أن أترك تيدي".

– "وماذا لو قمتِ ببعض أعمال الترميم في المنزل، وهكذا تبقين إلى جواره؟ ومن الشهرة التي تحصلين عليها، يمكنك أن تؤسسي ستوديو أو ورشة عمل في مكان ما. لا بد أن المنزل كبير بما يكفي لذلك".

– "أعتقد أن غوردون سيجعل هذا الأمر صعباً للغاية". قالت ذلك بهدوء ومسحة من الحزن والأسى تتبدى في صوتها. واستأنفت: "لم ترق له أبداً فكرة عملي. لقد كان ينظر إلى ذلك على أنه نوع من البوهيمية وذلك عندما كنت أعمل في اللوفر. لا أعتقد أن الأمر يستحق وجع الرأس الذي سيسببه ذلك". لقد كانت، ومنذ زمن بعيد، قد تخلت عن فكرة العمل، ليس فقط من أجل غوردون، بل من أجل ابنهما أيضاً.

– "أعتقد أن هكذا عمل يناسبك تماماً". قال لها بيل ذلك بطريقة عملية. فقد كان معجباً بالمعرفة التي لديها، وبالأسلوب اللطيف الذي شاركته فيها. لقد كان الأمر وكأنها تشاطره شغفها بالفن، فلم يشعر أبداً بأنها كانت تتفاخر أو تجعله يشعر بأنه جاهل، رغم أنه لم تكن له أية دراية بالفن تُضاهي معرفتها به. لقد كانت تمتاز بالذوق الرفيع وبتواضع مذهلين تبديا في سلوكها وفي حديثها. وسألها باهتمام: "هل ترسمين شخصياً؟".

– "لقد كنت أرسم. أنا لست ماهرة في ذلك، ولكن كنت أحب الفن عادةً".

– "يمكنك أن تقومي بذلك أيضاً إذا كان عندك ستوديو. وأعتقد أنه سيكون متنفساً جيداً بالنسبة لك". ابتسمت للفكرة، ولكنها كانت تدرك كم سيكون غوردون مستاءً من جراء ذلك. لقد كان يهتاج على الدوام بسبب عملها وذلك قبل أن ينجبا صوفي، وكان على اطراد يصر عليها لأن تتخلى عن ذلك منذ ولادة الطفلة. لقد كان يعتبر أن هذا العمل لا يليق بمنزلتها نوعاً ما، ومجال عملها في الفن لا يناسب الصورة التي كانت لديه عنها لو أرادها لها. كل ما

كان يريده منها آنذاك هو أن تنجب له الأطفال وأن تدير أمور منزله، وبالتالي فكل ما كان يخصها قبل الزواج، وكل ما كانت تفعله وتعشقه يوماً، ما عاد له أي أهمية بالنسبة له. لقد كان يعود له الأمر الآن بأن يوجه ويقود ويتحكم ويسيطر على كل شيء وأن يعاملها كشيء يمتلكه. فالامتلاكية كانت مهمة بالنسبة له.

- "أعتقد أن غوردون سيعتبر الأمر تحدياً له إذا ما عدتُ إلى الرسم أو الترميم الآن. لقد قالها لي صراحةً عندما أنجبنا الأطفال أن هذا كان جزءاً من صباي وما عاد تسلية أو وسيلة تمضية وقت مناسبة لامرأة متزوجة".

- "وما هو الأمر المناسب لتمضي به المرأة المتزوجة وقتها؟" سألها بيل وقد بدا منزعجاً. أدرك بيل أنه كان يكره الرجل وكل ما كان يمثله في نظره. لقد كان متكبراً وسطحياً ومستبداً، وكان واضحاً بالنسبة لبيل أنه لم يكن لديه أي احترام لها على الإطلاق، أو أدنى اهتمام من أي نوع بما كانت تحب أن تعمله، أو بما كانت هي عليه. لقد كانت مجرد "شيء" قد اكتسبه لكي يعزّز حياته المهنية ووضعه الاجتماعي، وعندما حققت له ذلك، ما عاد لديه أي اهتمام بها. لقد بدا لبيل أن في هذا إجحافاً شديداً بحق إيزابيل. لقد كانت تستحق أكثر من ذلك بكثير.

- "أعتقد أن تدبير المنزل هو كل ما يريدني غوردون أن أقوم به، والعناية بالأطفال، وأن أكون في منأى عن الظهور إلى أن تستدعي الضرورة ذلك، وهذا ما عاد له كبير أهمية أو داعٍ. أعتقد أنه يتساهل معي إذا ما قمت ببعض العمل الخيري في جمعية إنسانية يوماً ما، طالما يستحسن هو هذه الجمعية مع وجود أناس آخرين يعتبرهم مفيدين له أو يليقون به. فغوردون لا يؤمن بعمل أي شيء ما لم يخدمه بشكل من الأشكال، وإلا فإنه يعتبره مضيعة للوقت".

قال بيل معلقاً بأسى: "يا له من أسلوب حياة حزين!".

- "لقد اعتاد على ذلك ونجح فيه. ولربما هو الآن المصرفي الأكثر

أهمية في أوروبة، وبالتأكيد في فرنسا، وصار له شهرة جيدة في الولايات المتحدة أيضاً. فالجميع في وول ستريت[1] وكل دول أوروبة الكبرى يعرفونه".

- "وماذا بعد؟ ماذا يفيدك من كل ذلك في نهاية النهار يا إيزابيل؟ ماذا يكون المرء عندما ينتهي كل شيء ولا يبقى له إلا مهنته؟ أي نوع من البشر يكون عندئذ؟ لقد كنت أتساءل هكذا كثيراً في السنوات الأخيرة. لقد كنت أعتقد أن ذلك هو كل ما هو مهم، وأن علاقات العمل تجعل المرء يعتقد أنه شخص مهم. ولكن ماذا بعدئذ؟ ماذا يفيده ذلك إذا لم تكن لديه حياة عائلية يعيشها، وإذا كانت زوجته تعتبر حياته أو موته سواسية بالنسبة لها، وأولاده لا يستطيعون حتى أن يتذكروا آخر مرة تناولوا طعام العشاء معه. أريد من الناس أن يتذكروا أكثر من ذلك عني". لقد كانت هذه أحد الأشياء العديدة التي أحبتها فيه، ألا وهي أن قيم بيل وإحساسه بالأولويات كانت واضحة كالبلور. ولكنها كانت تدرك أيضاً أنها لم تكن راسخة ثابتة على الدوام ولقد دفع غالياً ثمن الدروس التي تعلمها. لقد كان زواجه فارغاً مثل زواجها، وما كانا لينكران ذلك، ورغم أنه كان يحب ابنتيه إلا أنه لم يكن قريباً منهما. لقد أمضى ردحاً كبيراً من الزمان يسعى وراء الحياة السياسية وصنع الرؤساء، وكان أحياناً يهتم لأمر ابنتيه عندما كانتا صغيرتين. وفي السنوات الأخيرة، بذل جهداً ليمضي وقتاً أطول معهما، وحصل على بعض النتائج المرضية. لقد كانت ابنتاه كلتاهما تستمتعان بصحبته وتفخران به رغم أنه كان لا يزال يسافر كثيراً. أما الآن وقد سافر إلى لندن، فقد اتفق معهما على موعد يتصل فيه بهما هاتفياً. ولكن تغرّبه المطرد عن سيندي كان له وقعه على العائلة. لقد كانوا قلّما يلتقون جميعاً كمجموعة، وعندما كان يلتقي بابنتيه، كان ذلك اللقاء يكون فردياً في العادة، وهذا أيضاً كان ناجحاً. أما إيزابيل فقد كانت أوفر منه حظاً، فقد كان الأمر الوحيد الذي يهمها هو تيدي وصوفي، وكانت تمضي وقتاً طويلاً معهما ودائماً. ولكن لا يمكن أن نقول الشيء نفسه عن غوردون. فالولدان كانا

(1) وول ستريت (Wall Street): موضع سوق البورصة في نيويورك.

غريبين عنه، حتى صوفي التي كانت أثيرة عنده.

"لا أعتقد أن غوردون قد بلغ مرحلة الاستثارة التي وصلت إليها". قالت
لـه إيزابيل ذلك بصدق، "ولا أظن أنه قد يبلغ ذلك أبداً". فهذه الأشياء لا تهمه
إنـه في غاية السرور لكونه مهماً في عالم المال. وكل ما عدا ذلك فليس بذي
أهمية بالنسبة له".

قـال بـيل: "سوف يؤول إلى رجل حزين يوماً ما. وعندئذ أنا أيضاً قد
أصـبح مثله". قال ذلك وهو ينظر إليها بأسف في حين كانا يعودان أدراجهما
إلـى السـيارة. واستأنف: "أحسب أن هذا ما سيحدث لي أنا أيضاً في النهاية
ولكـن ربما في وقت متأخر عنه. فأنا أعيش حياة واقعية معك يا إيزابيل أكثر
ممـا فعلـت مع سيندي أو الفتاتين. أخشى أن يكون ذلك القارب قد فاتني منذ
زمن بعيد. فأنا لم أكن هناك من أجلهما".

قالـت إيزابيل بلطف: "أنا واثقة بأنهما ستفهمان السبب. فالفتاتان قد بلغتا
الرشد تقريباً الآن ولا تزال لديهما حياة تشاركانك فيها".

"آمل أن ينظرا إلى الأمر على هذا النحو. فلديهما حياتهما الخاصة الآن،
ولقد حاولتْ والدتهما أن تقنعهما كم أنا أناني نذل. ولربما كانت على صواب".
قـال ذلـك ثم نظر إلى صديقته مبتسماً وتابع كلامه: "لقد أحببتِ أفضل ما في
نفسي. ولم تفعل هي ذلك أبداً. وليس لديها دفء عاطفي. ولستُ متأكداً فيما إذا
كانت تريدني أبداً على ما أنا عليه الآن حقاً. وأعتقد أنها كانت لتخاف فعلاً من
هذا النوع من المودة الحميمة التي نتشاركها معاً، حتى ولو كانت على الهاتف
معظـم الوقت. ما كانت لتريد أن تكشف ذاتها لي، أو أن تتعامل مع ذاتي. فقد
كان ما يهمها هو أن أكون هناك، وأن أذهب إلى الحفلات معها. وهذا ما لستُ
أنـا، فأنا أحب أن أمضي وقتاً طيباً، ولكني لم أدرك أبداً كم كنت أفتقد وجود
شـخص ما في حياتي أتحدث إليه. ليست بين سيندي وأنا أي نقاط التقاء على
الإطـلاق، ولا نتـبادل المشـاعر، حتى وإن كنا نتشاطر الغرفة نفسها. وهذا
سوف لن يتغير أبداً".

حاولت إيزابيل أن تشجعه وأن تظهر أنها متفائلة بما يخصه فقالت: "ربما
لكـنكما ذلك إذا أردتما. ولو أعطيتَها فرصةً وكانت منفتحاً عليها، فربما تتعلم
أن تصبح ودودة ومتآلفة معك".

– "سـيندي ليسـت هكـذا". قال ذلك وقد تبدى بعض الأسى في عينيه.
واستأنف: "ولكني ما عدت أطلب هذا بعد. لقد انتهى الأمر بيننا منذ زمن بعيد،
وفي الواقع أعتقد أنه من الأفضل أن يكون الحال هكذا. ليس هناك خيبة أمل،
أو ألـم. فطالما أظهر من فترة لأخرى من أجل مصلحتها، وأحافظ على دفعي
الفواتـير، ولا أنسـى أن أحضر حفلات تخرج بناتي، فهذا كل ما تريده مني
الآن. نحن نعيش في عالمين مختلفين. وكلانا نشعر بأن هذا الوضع أكثر أماناً
وسلاماً، على ما أعتقد". لقد كان على يقين مما كان يشعر به، وما كان يخشى
أن يكون لديه هذا الإحساس.

– "إنـه لمن المذهل ذاك الذي نفعله لحياتنا، أليس كذلك؟" قالت إيزابيل
ذلك في تنهد وهما يتخذان مجلسهما في المقعد الخلفي من سيارة الليموزين من
جديد، وهو يعطي السائق عنوان المطعم الذي سيتناولان فيه طعام العشاء. لقد
كانـت إيزابـيل قد سمعت عن ذلك المطعم، ولكن لم تعرف مكانه. ولقد كان
المطعم المفضل للأميرة ديانا لسنوات عديدة. قالت إيزابيل: "لقد سمحتَ لنفسك
بـأن تنجرف بعيداً عن سيندي وعن بناتك. وأنا سمحتُ لغوردون أن يقصيني
من حياته دون اعتراض، لماذا نتسامح مع الآخرين الذين يفعلون هذا بنا؟ لماذا
ندع الآخرين يتخذون ذلك الخيار دون أن نحتج، أو على الأقل أن نبدي رأينا؟"
لقد كانت تشعر بالذهول وهي تفكر بالأمر الآن. لقد بدت الأمور واضحة الآن
أكثر من أي وقت مضى.

قـال: "السبب هو أنهما كانا يسلكان هكذا معنا على الدوام. لم نكن نعلم
أنهمـا سيصبحان هكذا وأن ما أعجبنا فيهما سيتلاشى. فقد كانت سيندي رائعة
عـندما كانت في الجامعة، وكانت متألقة، فاتنة، ومرحة للغاية، ولكنها لم تكن
عاطفية على الإطلاق. ربما تكون أكثر النساء أنانية وتلاعباً ومكراً على وجه

البسيطة. وغوردون قاسٍ، بارد العواطف، ومستبد. وما كان لأي شيء نعمله أن يغيّر في طباعهما. المشكلة أننا كنا نرغب في الاستقرار في الحياة الزوجية، سواء اعترفنا بذلك أم لا. والسؤال هو لماذا كنا نعتقد أن ذاك هو كل ما كنا نستحقه؟".

– "لقد كان والداي هكذا". قالت إيزابيل في هدوء، وهي تنظر إليه بعينيها الخضراوين الواسعتين، ولوماً برأسه. واستأنفت كلامها: "لقد أحببتهما، ولكنهما كانا بعيدين عني ومتحفظين".

قال: "كذلك والديّ. لقد كان أهلي يكرهان الأطفال، وكانا قد صمّما ألا ينجبا أطفالاً، ولكني وُلدتُ وهما في الأربعينات من العمر وكان ذلك مفاجأة لهما. وكانا دائماً يذكّرانني، ويخبرانني، أو يجعلانني أشعر أنهما كانا يعملان معروفاً كبيراً نحوي لإنجابهما لي وتربيتهما لي. وما كنت أطيق صبراً للخروج من ذلك الجحيم إلى أن ذهبت إلى الجامعة. وقد توفّيا كلاهما في حادث تحطم طائرة عندما كنت في الخامسة والعشرين من عمري. لم أبكِ آنذاك مطلقاً. شعرتُ، عندما اتصلت بي شركة الطيران، وكأن الشخصين اللذين ماتا غريبان عني. لم أدرِ ما أقول. لا أعرف من كانا حقاً، مجرد شخصين في غاية الذكاء ربّياني معهما ثماني عشرة سنةً، وكانا مرتاحين عندما انتقلتُ مبتعداً عنهما. لا أدري ما كانا ليفعلانه لو أني عانقتهما أو قبلتُهما أو قلتُ لهما أني أحبّبتهما. لا أذكر أن والدتي احتضنتني يوماً أو قبّلتني منذ أن كنت طفلاً. لقد كانت دائماً تتحدث إليّ من الطرف الآخر للغرفة، ووالدي لم يحدثني على الإطلاق. وسيندي هكذا. إنها تتكلم إليّ من على بعد عشرة أقدام بل وأبعد من ذلك إن أمكنها".

– "من العجب أنك لم تفقد عقلك بعد". قالت له إيزابيل بتعاطف. بالكاد أمكنها أن تتخيل طفولته، ومن عدة نواحٍ، فهي نفسها ما كانت قد عاشت طفولة مختلفة عنه. لقد حظيت بالعناق والقبلات من والديها، ولكن كان هذا بالشكل فقط، وخلف ذلك كان هناك بعض الحب فقط. "لقد كانت أمي إنكليزية جداً.

أعتقد أنها كانت تريد أن تحبني، وعلى الأرجح أنها كانت تفعل ذلك، ولكنها لم تعرف كيف. لقد كانت متحفظة جداً وباردة جداً، فقد توفيت والدتُها وهي لا تزال بعد طفلاً رضيعاً، وكان والدها بارد العواطف تجاهها. وقد أرسلها إلى مدرسة داخلية[1] عندما كانت في التاسعة من العمر، وتركها هناك إلى أن تزوجت من والدي. لقد التقت به وهي تقدم مرافعتها في المحكمة، وأعتقد أن جدي كان قد رتب لهذا الزواج لكي يخرجها من المنزل. وبعد أن ذهبت، عاد فتزوج من جديد، من امرأة كان على علاقة معها منذ سنوات، حتى قبل وفاة زوجته. لقد كان الجانب البريطاني من العائلة يحفل بالهياكل العظمية والأسرار والناس الذين ما كان ليُسمح لنا بأن نذكرهم أو نتحدث عنهم. كل ما كان لنا أن نفعله هو أن نلبس على نحو لائق، وأن نكون مهذبين، وأن ندّعي أن كل شيء على ما يرام. لم تكن لدي أية فكرة عن حقيقة شعور والدتي تجاه أي شيء. ولقد كان والدي منغمساً في الحياة السياسية، وما كان لنا وجود يُذكر في حياته. لقد ماتت أمي وأنا في سن المراهقة، وما كان لدى أبي وقت ليتحدث إليّ أو ليكون معي، رغم أني أعتقد أنه كان رجلاً ظريفاً رائعاً. لقد كان زواجهما يشبه إلى حد كبير زواجي من غوردون، وهذا ما جعلني لا أستغرب أن أعيش حياةً مع زوج وضع حاجزاً بيني وبينه. لم أفكر كثيراً في هذا الموضوع، ولكن كان هذا هو نموذج الزواج الوحيد الذي أعرفه".

– "الأمر سيان بالنسبة لي أيضاً". قال لها معبّراً عن فلسفته. لم يكن من شيء يخفيه عن إيزابيل. "أعتقد أنه لو كانت سيندي أكثر محبة وعاطفةً من والدي، لما كنت سأعرف كيف أتعامل مع الأمر في تلك الأيام. لقد كنتُ في الثانية والعشرين من العمر عندما تزوجنا، وأعتقد أن جزءاً مني كان مجمداً لسنوات". عندما بدأ يتحدث إلى إيزابيل قبل أربعة سنين، عندها فقط اتضحت الأمور له وتغيرت وجهات نظره كثيراً. لقد كان منجذباً إلى دفء إيزابيل

(1) مدرسة داخلية: (boarding school): مدرسة يتم فيها، ليس فقط تدريس الطلاب، بل أيضاً تقديم المسكن والمنامة والمأكل لهم.

ونورها كمثل الفراشة إلى اللهب، وبشكل أو آخر، أبقته على قيد الحياة منذئذ. ولكن التضاد بينها وبين زوجته جعله يشعر بالبعد أكثر عن سيندي بعد كل تلك السنين. لقد صار يرى كم كانا متباعدين ومنذ زمن طويل.

- "أتساءل كم كان الأمر ليختلف لو أننا كنا نعرف، عندما تزوجنا، كل ما نعرفه الآن".

- "ما كنت لأتزوج سيندي لو أني التقيت بها اليوم". قال بيل دون تردد؛ "فأنا لا أستطيع التواصل معها، ولم أستطع يوماً. إنها تكره الحديث عن المشاعر، ولا تحتاج إلى الحوار الحقيقي، بل بالحري إنها تمقته. كل ما يهمها هو زواج يبدو جيداً، وأما ما وراء ذلك فلا يهمها على الإطلاق. أكره أن أجعلها تبدو سطحية هكذا، بينما لديها بعض الميزات الرائعة، ولكني تزوجت من امرأة ظلت غريبة بالنسبة لي طوال الثلاثين سنة التي عشنا فيها معاً".

فسألته: "أفلا تزال تنوي الاستمرار على هذا المنوال ثلاثين سنة أخرى؟".

- "يبدو الأمر هكذا، أليس كذلك؟" أجابها بصراحة، ولكنه مؤخراً راح يتساءل بنفسه عن سبب ذلك. ولكن الطلاق سيشكل أمامه عقبة خطيرة. فأن يحافظ على صفحته بيضاء، خلوةً من المشاكل، كان أمراً أساسياً في نظره. إذ ما من رئيس أو مرشح للرئاسة سوف يقبل بالتعاون معه إذا ما جعلت سيندي الأمور شاقة عليه، وكان قد مضى وقت طويل مذ شك بأنها قد تفعل ذلك. ما كانت لتريد أن تخسر الأمور طالما هي لصالحها. فآخر ما تريده سيندي هو الطلاق. لقد كانت مرتاحة إلى الوضع الراهن.

"ألســت مستعدة للقيام بنفس الشيء؟ أي أن تحافظي على زواج خالٍ من الحــب بقــية حــياتك؟" سألها بيل وهو يعرف جوابها. فقد كانا قد ناقشا هذا الموضوع من قبل.

- "ليس لدي خيارات".

- "كلنا لدينا خيارات، إذا كنا من الشجاعة بمكان بحيث تأخذ هذه

الخيارات. ولكن أنا وأنت لدينا الكثير لنخسره. فمهنتي ستتصدع إذا ما انفصلنا عن سيندي الآن. وأنت لديك طفل مريض للغاية. أنا أفهم السبب الذي يجعلنا نسلك كلانا على هذا النحو. يمكنني أن أفسّر ذلك. ولكن على الرغم من ذلك أفكر أحياناً بأننا كلانا أحمق. لو كانت لدينا الشجاعة حقاً، وآمنّا بمُثُلنا لعَمِلْنا المستحيل. ولكن لا أعتقد أن أياً منا سوف يفعل ذلك". ما كان حديثه إدانة لها أو لنفسه، بل كان مجرد تعبير عن الحقيقة كما كان يراها.

قالت بحزن: "أعتقد أنك على صواب".

- "آمل ألا نأسف على ذلك يوماً ما. فالحياة قصيرة. لقد مات والداي وهما في الستينات من العمر، ولا أعتقد أنهما قد استمتعا بحياتهما. لقد فعلا ما كانا يشعران أنه يجب عليهما فعله. أما أنا فلا أكتفي بذلك. ولكني لم أعرف كيف أحصل على ذلك".

قالت إيزابيل بصدق: "أنا لا أدع نفسي أفكر بالأمر. لقد قمت بالاختيار منذ عشرين سنة وحافظت على هذا الاختيار".

- "هذا نبلٌ منكِ". قال لها ذلك وهو يضع يدها في يده وهما يركبان السيارة، "ولكنهم لا يقدّمون لنا مكافآت لقاء ذلك. وفي النهاية، ليس هناك من يهتم أو يلاحظ ذلك. ولن يعلق أحدٌ أي وسام أو ميدالية على صدورنا لأننا كنا شجعاناً".

- "ماذا تقصد بقولك؟".

- "لستُ متأكداً. ولكني لأضجر أحياناً من كل الأسباب التي أقدمها لنفسي تبريراً لطريقة الحياة التي أعيشها. بل أني لست متأكداً من أني لا أزال أومن بهذا الهراء شخصياً بعد. وحتى أُصدِقك القول، يا إيزابيل، فالواقع أني عندما أراك أو أتحدث إليك أتساءل ماذا نفعل بحق الجحيم".

- "تقصد ماذا يفعل كل منا للآخر؟" وبدت خائفة وهي تتساءل إذا ما كان يخبرها بأنه سوف لن يراها بعد. ونظرت إليه بعينين متسعتين.

- "لا، بــل أقصــد مــا يفعله كل منا مع الآخرين. فأنا وأنتِ الوحيدان

العاقلان، فلم أكن بقادر على الحديث إلى أحد كما أتحدث إليك. أليست تلك هي الطريقة التي يُفترض أن نستخدمها مع الجميع؟".

لومأت برأسها وهي تفكر بكل ما قاله. "هكذا الأمر الآن، ولكني ما كنت بقادرة على فهم ذلك وأنا في الحادية والعشرين من العمر عندما تزوجت. جلّ ما كنت أعرفه آنذاك هو أن أفعل ما كانوا يطلبونه مني. فقد كان لغوردون نفس سلوك والدي. فقد كان يحدد لي متى أنهض، ومتى آوي إلى السرير، وما أقول، وما أفعل، وبماذا أفكر. أعتقد أني كنت أجد الأمر مريحاً آنذاك. فأنا لم أدرك أنه كان لي خيار، وأن هناك طرقاً أخرى للحياة".

– "والآن؟".

"لا زلت لا أملك خيارات يا بيل. وأنت تعلم ذلك. ما الخيارات التي أملكها؟".

– كل ما تريدين. هنا بيت القصيد. كلانا نتحدث عن الثمن الباهظ الذي يجب أن ندفعه لتغيير حياتنا. فماذا عن الثمن الباهظ الذي ندفعه إن بقينا في ظروف حياتنا على حالها؟ هل فكرتِ أبداً في ذلك؟".

– "أحاول ألا أفعل ذلك". قالت بصراحة. "فأنا هناك من أجل تيدي، ومن أجل صوفي، سواء أدركا ذلك أم لا".

– "هل أنت على يقين بأن هذا هو سبب وجودك هناك؟ هل أنت متأكدة من ذلك؟" سألها وهو ينظر إليها بإمعان. لم يكن جدياً هكذا في حديثه معها من قبل، وكانت إيزابيل مستغربة. وتساءلت عما تغيّر. لقد بدا وكأنه لم يعد راضياً عن حياته، أو عن حياتها. وسأل من جديد: "هل أنت واثقة أن سبب وجودك هناك هو أنك تخافين القيام بأي أمر آخر؟ لأني أنا أخشى ذلك. إذ إني أخاف أن أرمي كل أوراقي عبثاً وأن أخرج من حياتي التي أعيشها متحملاً مضاعفات ذلك. فلا بد لأحد أن يفكر بأني إنسان وأني إنسان أقل من كامل، لو حتى إن لدي حاجات حقيقية. تخيلي ذلك".

– "هل تقول لي بأنك تنوي هجرها؟" قالت إيزابيل منذهلة مصعوقة.

طوال السنين التي كانا يتحدثان فيها معاً كان دائماً يقول لها بأنه لن يفصم عُرى زواجه بها وهي نفسها لن تفعل ذلك.

"ما أقوله، أو على الأقل ما أفكر به، هو أني أتمنى لو كانت لدي الشجاعة كي أهجرها". قال ذلك وعزم أن يخطو خطوة كبيرة. وحتى لو غضبت منه وسارت مبتعدة عنه، فقد شعر أنه كان يجب أن يقول لها ذلك، لأن هذا هو ما كان يشعر به. وما كان يستطيع تجاهل الأمر. فقال: "أتمنى من أجلك أن تكون عندك الشجاعة لتتركيه. إنه ليقتلني أن أصغي إليك عندما أتصل بك، فأنتِ مثل سجين في ذلك المنزل، تعانين الحرمان والإهمال والمهانة، وذلك لسنين كثيرة. فعندما أود لو آتي إليك فأختطفك أنت وتيدي أو أن أفعل أي شيء ليخلّصك منه ومن ذلك المنزل. إن غوردون لا يستحقك يا إيزابيل تماماً كما أن سيندي لا تستحقني. وما كانا أبداً يستحقاننا. كلاهما كان مجحفاً في حقنا ولسنين. أتمنى لو أن الحياة كانت أبسط مما هي عليه. ولكنها ليست كذلك. إنها معقدة بالنسبة لكلينا. ليتها لم تكن كذلك، ليتنا نبدأ حياتنا من جديد".

– "هذا ما أتمناه أنا أيضاً". قالت في هدوء: "ولكن ليس في وسعنا ذلك. وأنت تعلم ذلك مثلي تماماً". لقد راقت لإيزابيل فكرة تخلصه من علاقته الزوجية. ولكن في الحقيقة كانت تعرف أن هذا الأمر سيكون مدمّراً له. وهو أيضاً كان يعرف ذلك. "فإن أحدثت لك سيندي فضيحة فسوف تنهار كل حالتك السياسية فوق رأسك. لقد أمضيتَ ثلاثين سنة تبني ذلك. فهل أنت راغبٌ في أن تتخلى عن كل ذلك؟ ومن أجل الحرية؟ هل أنت متأكد إلى هذا الحد؟ ومن أجل المُثل التي تؤمن بها؟ وماذا ستفعل بعدئذ؟ وماذا عني؟ لقد أخبرني غوردون منذ زمن بعيد بأني إذا ما تركتُه فهو يرى أني سأموت جوعاً في الشوارع بنتيجة ذلك. فأنا لم أرثْ شيئاً. لقد ذهب الإرث كله إلى أخي. وعندما مات في حادثة ورثه أولاده من بعده. أنا معتمدة على غوردون كلياً. ولا أستطيع أن أتحمل تبعات تركي له. ولن أستطيع أن أصرف على ابني. ولن

أستطيع أن أضمن لـــه العناية الطبية التي يحتاج إليها. فهذه تكلف ثروة، ورغم أن غوردون لا يحفل بي أو بتيدي إلا أنا يؤمن لـــه كل احتياجاته بكل سهولة ودون أن ترمش لــه عين. فماذا تقترح يا بيل؟ أن أعرّض تيدي للفقر المُدقع، بدافع نزوة، أم أن أتخلى عنه وأتركه ورائي؟ لا. هذا مستحيل وأنت تعلم ذلك تمام العلم. علاوة على ذلك، فإن تيدي سوف لن ينجو بعد الانقلاب والتوتر والتغيير الذي سيحصل له. إنها ليست بفكرة سيئة أن أتخلى عن غوردون إذ يبدو أنه لا يحبني. ولكن الحب هو رفاهية وشيء ثانوي في حياتي". لقد كان هذا أمراً يصعب قوله أو التعايش معه ولكنه حقيقي في حياة إيزابيل. لقد كانت تتكل على غوردون لتأمين أفضل ما ترغب به من أجل ابنها. ولقد حطّم قلب بيل أن يرى مدى استعدادها للعيش هكذا، رغم أنه هو يعيش نفس الحالة فعلياً. لقد كان كلاهما قانعاً بما لديهما. ويدفعان بالتالي ثمناً باهظاً من ذاتهما.

- "أعتقد أنه علينا أن نبذل قصارى جهدنا في ذلك". قال بيل بهدوء وهما يترجلان من السيارة أمام المطعم الذي اختاره ليتناولا فيه طعام الغداء. لقد كان المطعم إيطالياً، وشعبياً بشكل هائل، وفي غاية الترتيب والأناقة.

- "ربما تكونين على حق. ربما ليس لدينا خيارات، رغم أني أكره أن أفكر بهذا". ولكن في حالتها، ما أمكن لـــه أن يرى أي مَنْفَذ، رغم أنه كان يصعب عليه أن يصدق أن المحاكم الفرنسية سوف تسمح لغوردون بأن يترك زوجته وابنهما المريض يتضوران جوعاً. ولكن ربما كانت هي على حق، ولربما سيتضوران جوعاً بالفعل.

قالت إيزابيل والحزن على محيّاها: "إذا ما هجرتُه سيكون هذا العمل الأكثر أنانية الذي قد أقوم به على الإطلاق. فلن يعطيني غوردون أي فلس أكثر مما يتوجب عليه، وسوف لن أستطيع أن أضع تيدي في نفس الحالة من الارتياح التي يعيش فيها. قد أقوم بذلك من أجل نفسي ولكن أنّى لي أن أرضى بذلك من أجل الطفل؟ إن التوازن سوف لن يكون كافياً ومضموناً كما هو عليه

الحال الآن".

قال بيل ببساطة: "ليس في مقدورك القيام بذلك. وأنا لا ألومك أو أوبّخك. أعتقد أن الطمع أصابني بعد أن قضيتُ بعض الوقت معك. إني أرى الآن أية حياة كان يمكن أن تكون لنا، وهي ليست متوفرة لأي منا".

"ربما الأمر كذلك بالنسبة لنا لأن كل ما بيننا هو اتصالات هاتفية وبضع ساعات نمضيها معاً كل عدة أشهر. ولربما لو كنا قد تزوجنا معاً لاختلف الحال عما نتصوره".

"هل تعتقدين ذلك فعلاً؟" سألها ذلك وهو ينظر إلى عينيها مباشرة.

ترددت طويلاً ثم هزت رأسها بصمت، وقالت: "لا. لا أعتقد. ولكن أنى لنا أن نعرف. فليس لنا حتى أن نفكر في ذلك". قالت ذلك وهي تطرد فكرةً خطرت في ذهنها.

"هل الحلم بذلك هو ترف آخر لا نستطيع أن نعيشه مثل الحب؟" سألها ذلك وهو يبدو حزيناً.

- "أعتقد ذلك. فإذا ما طلبنا أكثر مما لدينا الآن أو حاولنا أن نحصل عليه فإننا إنما سنؤذي بعضنا وحسب في نهاية الأمر. أعتقد أن علينا فقط أن نكون ممتنين لما لدينا وألا نطلب المزيد. أنت الصديق الصدوق العزيز الذي لي في العالم، وأحبك لأجل ذلك. أنت تعرف ذلك يا بيل. فدعنا لا نفسد الأمر بالرغبة في المزيد". لقد كانت تشعر نحوه بنفس الانجذاب الذي كان يشعر به منذ الليلة الفائتة. لقد كان رائعاً أن يكونا معاً، وأن يسيرا، ويتحدثا، ويضحكا، ويرقصا، ويتشاركا في أكل الوافل والكرواسانت. ولكن ماذا بعدئذ؟ ماذا سيحدث عندما يعودان إلى وطنهما؟ سوف لن تسمح لبيل بأن يتحامق، حتى لو أراد ذلك، فلقد كانت تعلم أن هناك حدوداً بينهما لا يمكن تجاوزها. لقد كانت ترغب مثله بأمور أخرى ولكنها كانت تدرك أن هذا لن يكون لهما وتقبّلُ بذلك. ولكن بيل بدا عنيداً وهو ينظر إليها قبل أن يفتح السائق باب السيارة.

فقال ببلادة: "أنا أطمع للمزيد". فأطلقت ضحكة رنانة.

– "ليس لنا ذلك. وأنت طفل مدلل".

– "أشعر أنني على قيد الحياة لأول مرة منذ سنين". وبدا فعلاً على هذا النحو. وهي أيضاً كذلك. لقد شَعَرَتْ وكأنها قد عادت عشر سنين إلى الوراء منذ ليلة أمس.

– "أعتقد أن النقانق على الإفطار قد أخذ مأربه منك فصعد إلى رأسك". لقد فكرتْ أن الطريقة الوحيدة لتعالج الأمر هي ألا تأخذه على محمل الجد، ولكنها فوجئت بكل ما قاله. "ربما نستطيع أن نتفق على اللقاء هنا مرة كل سنة لبضعة أيام مثل هذه. ولربما يكون هذا كافياً". لقد كان هذا كل ما استطاعت أن تفكر به كبديل عن الحياة معه.

قال لها بإصرار وعناد: "أنتِ تعلمين مثلي أن هذا غير كافٍ".

– "ماذا تقترح إذاً؟ أن نهرب معاً إلى البرازيل؟ كن جدياً يا بيل. فكّر بما تقول. لا تكُن مجنوناً. ولا تتوقعنّ مني أن أكون أنا أيضاً مجنونة. لا أستطيع ذلك". لقد كان يعرف جيداً أنها ما كانت لتتخلى عن ابنها أبداً، وكانت هذه نقطة أساسية بالنسبة لها. ولكنه ما كان متأكداً من أنها قد تتخلى عن غوردون بأي شكل من الأشكال. لقد كانت أكثر رزانة من أن تقوم بعمل شائن كهذا. وحتى لو كان بغيضاً جداً بالنسبة لها، فإنها ستبقى مخلصةً لـه للغاية.

– "لا تستطيعين أن تقبلي سوء معاملته لك".

– "لا، لا أستطيع. ومعاملته لي ليست سيئة. كل ما هنالك هو أنه جعل حاجزاً بيني وبينه".

– "لقد أهملك عاطفياً منذ سنوات عديدة. فماذا يبقى إذاً سوى أنه يدفع فواتير تيدي؟".

– "هذا يكفي. فهذا كل ما أحتاج إليه".

– "هذا غير معقول. أنت في الحادية والأربعين من العمر، وفي حاجة إلى أكثر من ذلك".

– "ما عدتُ أفكر أبداً بهذا الأمر". قالت لـه ذلك بحزم محاولةً أن تقاوم كل الرغبات والمشاعر التي أحست بها نحوه.

– "إذاً يجب أن تفعلي".

– "أعتقد أنك تحتاج إلى كأس من المشروب المفضل، وأن تأخذ قيلولة، وربما مسكّن للألم". لم تكن قد رأته أو سمعته يتحدث هكذا من قبل. لقد أثر بها، ولكن لم تكن لتستطيع أن تفعل أي شيء حيال ذلك. وكانت تعرف ذلك. فبعد يوم آخر أو اثنين على الأكثر سوف تعود أدراجها إلى منزلها. جلّ ما أمكنها أن تفعله هو أن تستمتع بالوقت الذي في متناولهما وألا يفسداه بطلب المزيد. ولكن فجأة بدا رافضاً لهذا، وكأنه يسعى لإفساد الأمر برغبته في المزيد. فقالت له: "كن عاقلاً الآن".

– "لماذا؟" سألها وهما يخرجان من السيارة.

– "أنت تعرف لماذا. فسواء شئنا أم أبينا، ليس لنا خيار آخر. إنك تعذب نفسك وحسب، أو تعذبني على الأقل. لك الحق في أن تحرر نفسك من زوجتك، ولربما ينبغي عليك ذلك. أما أنا فلا، فحالتي أكثر تعقيداً من ذلك. إذ أن حياة تيدي تعتمد على ما يقدمه غوردون له". وما كانت لتستطيع الاعتماد على شخص آخر حتى ولو كان بيل. فغوردون كان والد الطفل وكان يدين لـه بذلك على الأقل.

– "لا بد أن يكون متوحشاً إذا ما توقف عن تقديم العون لكما". لم تعلق على ما قاله لوهلة، ثم نظرت مباشرة في عيني بيل، وقالت لـه بوضوح وحزم يفهم معناهما: "سوف لن أضعه على المحك. لا أقدر على ذلك".

قال بهدوء: "لقد فهمت". وتبعها داخلاً إلى المطعم. وانقطع عن الحديث إلى أن جلسا. فقال: "آسف لإثارة هذا الموضوع. لم أقصد أن أزعجك. كل ما هنالك أن الأمر كله لا يعقل. فكلانا نعيش مع أناس يجعلوننا تعساء، وعندما نكون معاً نشعر أننا على ما يرام وأن هذا هو الوضع السليم لنا". لقد كان يجازف وهو يقول ذلك.

– "ربما نشعر أن هذا هو الأصح لأننا في الواقع لسنا معاً. ولو كنا معاً، لـربما جعـل كل منا الآخر أكثر تعاسةً مما هما يفعلان. لا نعلم". كل الأشياء التـي مـا كانـا قد تحدثا عنها مسبقاً صارت الآن وبشكل مفاجئ على بساط الصراحة، وكان هذا مريحاً بشكل أو بآخر. لقد كانا يختبئان خلف صداقتهما، وفجـأة أظهر وبوضوح أنه يريد أكثر من ذلك. ولكنها أوضحت لـه بالمقابل أن هذا من المستحيل بالنسبة لها مهما كان شعورها نحوه. فثمة أمور أكثر من ذلـك على المحك. وما كانت لتتخلى عن حياة تيدي أو صحته سعياً وراء حلم رومانسـي. لقـد كانت أكثر وعياً من ذلك بكثير، فمهما بلغت درجة اهتمامها ببيل وإعجابها به، إلا أن ابنها لـه الأولوية. ولقد احترمها بيل لأجل ذلك، كما كان دائماً، وكما سيبقى أبداً.

– "أوافقك على ما تقولينه يا إيزابيل". قال لها بوضوح وهما يجلسان إلى طاولـة تحـت مظلة تحميهما من شمس حزيران. "سوف لن أعرض للخطر صـحة تيدي. ولكني أريدك أن تعلمي إلى أي مدى يهمني أمرك. ولسوف لن أجعلـك تجازفيـن بنفسك أو بابنك. في الواقع أود لو أساعدك بخصوصه ما أمكنتـي ذلك. ولكن لا أخفي عنك حقيقة مشاعري نحوك. وأريدك أن تعلمي ذلك".

قالـت لـــه برقة ولطف: "أعلم ذلك يا بيل. فأنت طيب معي منذ وقت طويل". ففي السنوات الأربع الأخيرة لقد كان كل ما لديها، إضافة إلى أولادها.

– "لم أكن جيداً معك بما فيه الكفاية. ليس إلى الحد الذي أتمنى. لقد تعبتُ من النفاق والادعاء في حياتنا. أنت تدعين أنك زوجة له. وأنا أدّعي بأنني غير ملائـم عـندما أذهـب مع سيندي إلى حفلات وسهرات لباس نصف رسمي للـرجال. لا أعتقد أن في مقدوري أن أستمر بالتظاهر أكثر. ولست واثقاً من أني أرغب بذلك. فإني لا أعتقد أن المكافأة تستحق الثمن".

– "لـربما ستضطر لدفع ثمن أعلى بكثير إذا ما تابعت اللعب على هذا الـنحو". قالـت متسائلة، وأدرك هو الفكرة، ولكنه أراد أن يحثها على إطلاق

العـنان لمشـاعرها ونـزواتها. أما إيزابيل فقد كانت على استعداد لأن تكون المتعقلة.

قال بيل في هدوء: "ربما أرمي بكل هذا في مهب الريح يوماً ما".

– "علـيك أن تمعن التفكير في الموضوع". قالت في رزانة وأومأ برأسه مؤيـداً فكرتها، ووضع يده في يدها، لقد كانت لديها أصابع طويلة رقيقة نحيفة ويدان رشيقتان جميلتان.

– "أنـت امرأة متميزة مرموقة وأكثر تعقلاً مني". قال لها بهدوء وعيناه تعكسان مشاعره العميقة نحوها.

– "هذا أمر جيد ربما". ورفعت يده إلى شفتيها وقبّلتها. "أنت أعز صديقة لي". وتوقف عن الحديث، وأومأت هي برأسها. لقد كان لديه الكثير ليقوله لها، ولكـنه كان يعرف من خلال كل ما قالته لـه ذلك الصباح أنه لم يكن الوقت المناسب لذلك...

– "مـاذا تحبيـن للغـداء؟" قـال ذلك في محاولة منه لتهدئة العواطف والمشاعر التي تملكته وكادت تستولي عليه. ما كان ليتصور كيف سيكون عليه الأمـر بعد أن تغادره إلى باريس من جديد. ولكن ليس هناك مجال للتفكير في ذلك الآن.

لقـد حـزما الرأي على تناول الباستا[1] والسلطة، وشرعا يتحدثان في مواضـيع آمنة كالكتب والفن. وقد فكرت أنه سيؤلف كتاباً عن معترك الحياة السياسـية. لقد قالت لـه أشياء كثيرة من قبل. ولكن ما سيجعل الكتاب ممتعاً هو الأسرار التي ما كان يستطيع أن يفشيها.

– "ربما عندما أتقاعد". قال لها وهما يأتيان على الدوسير.

فـي ذلك الوقت كان كلاهما قد هدأ. لم يعرف سبب خروج الأمور عن السيطرة ذلك الصباح، اللهم ما عدا سعادته البالغة في وجوده معها، وصعوبة

(1) الباستا: (Pasta): نوع من المعكرونة.

قبول فكرة أن هذا قد لا يُتاح لهما ثانية. لقد كان يعلم أنه طالما تبدي على قيد الحياة فإنها سوف لن تفكر أبداً في أن تترك غوردون، ولقد كان يأمل، ومن أجلها، أن يعيش ابنها عمراً مديداً.

بعد أن تشاورا قليلاً بجدية، ذهبا إلى المتحف البريطاني بعد ظهر ذلك اليوم، ولم يخرجا ثانيةً حتى الساعة الرابعة. وذهبا للتنزه سيراً على الأقدام في شارع نيو بوند ورلحا يتفرجان على واجهات المحلات ويشاهدان اللوحات الفنية والمجوهرات، ويسيران متمهلين ذراعاً بذراع. لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في مدى ارتياحه لأنه معها. كانت الساعة قد قاربت السادسة عندما عادا إلى فندق كلاريدج وقررا احتساء الشاي. فتناولا سندويش خيار وسندويشات أخرى من البندورة والبقْلة وسلطة البيض وبعض البسكويت وهذا ما ذكّرها بجدها عندما كانت طفلة. لقد كانت دائماً تحب شاي العصرونية[1]. لقد كانت ترى فيه شيئاً حضارياً، وراح يمازحها بخصوص ذلك. قال بيل أنه يفضل أكثر أن يأكل حلوى الأصابع[2] والبيتيفور[3] في كافتريا أنجلينا في باريس أو أن يتناول المثلجات في بيرتيلون. وقالت أنها تحب ذلك أيضاً.

–"متى ستأتي إلى باريس مجدداً؟" سألته بشكل عرضي بعد أن أكلا السندويش وصبت له كأساً أخرى من الشاي.

–"ما رأيك بالأسبوع القادم؟ فسيكون من الصعب علي العودة إلى حياتي العادية بعد هذا الأسبوع".

واعترفت قائلة: "وأنا أيضاً". فرغم كل ما قالته له وبشجاعة عن

(1) شاي العصرونية: (high tea): وجبة تُقدم في بريطانيا عند العصر وتتألف من طبق الطعام الساخن عادةً مع خبز وزبدة وكيك وشاي.

(2) حلوى الأصابع: (éclairs): نوع من الفطائر أو الحلوى على شكل أصابع رفيعة وعليها عادةً قشدة أو شوكولا متجمدة.

(3) البيتيفور: (petits-fours): (كلمة فرنسية الأصل): كيك محلى بحجم اللقمة يُقدم عادة في نهاية الوليمة مع القهوة أو الشاي.

اكتفائها بما لديها كانت تشعر بنفس الانجذاب الذي يشعر به نحوها. فعندما كانا معاً، أو حتى يتحدثان على الهاتف، كان كل شيء يسير على ما يرام بينهما. ولكنها كانت الثمرة المحرّمة. ومجرد وجودها معه كان هبة عظيمة من السماء.

– "أين تريدين أن نتناول طعام العشاء الليلة؟" سألها بينما كانت تجول بطرفها وتضحك من كلامه.

– "أنى لك أن تفكر حتى بالأكل من جديد بعد كل هذا الذي تناولناه؟ سوف لن أستطيع أن آكل قبل أسبوع". ولكن كان معلوماً لكليهما أن تلك الليلة كانت الأخيرة لهما. فقد كانت تنوي الرحيل في اليوم التالي، وفي وقت متأخر من بعد الظهر. ما كانت تفكر حقاً بالمكوث ليلة أخرى، رغم أنها كانت ترغب بذلك، وهو لم يُرِدْ أن يضغط عليها كثيراً هذه المرة، فربما ترحب أكثر بالقيام بذلك مرة أخرى. لقد كان هذا اللقاء مناسباً تماماً لكليهما.

– "ما رأيك بنادي مارك؟" سألها وهو يتجاهل احتجاجاتها عن تناول طعام العشاء بعد. "يمكننا أن نذهب في وقت متأخر إذا أحببتِ".

– "سيكون هذا مدعاة لسروري. فأنا لم أذهب إلى هناك منذ سنوات في الواقع". وضحكت ثم قالت "بل إني لم أذهب إلى أي مكان".

– "سأحجز طاولة على الساعة التاسعة". وغادر الطاولة لبرهة فعبر الردهة وتحدث إلى البوّاب وهي تتابعه بنظراتها. لقد كان يتمتع برشاقة رجولية تكاد لا تُقاوم وهو يمشي الهوينى متئداً ويعبر الردهة ويتحدث إلى الموظف عند مكتب البواب. واستمرت تشايعه بنظرها وهو يعود أدراجه إليها. فسألها: "لماذا كنت تنظرين إليّ؟" وبدا مرتبكاً قليلاً. لقد كانت في غاية الجمال وهذا ما جعل قلبه يسرع في نبضه أحياناً عندما كان ينظر إليها. لقد كان يريد أن يسعدها كثيراً، وأن يذهب معها إلى أماكن كثيرة، وأن يمضي الوقت معها، وأن يعرّف أصدقاءه عليها، وأن يأخذها إلى واشنطن ويتجول معها. ولكنه كان يعلم أنه لا أحد منهما كان ليمكنه ذلك. لقد كان هذا أبعد بكثير مما يمكنها أن

تصل إليه.

– "لقد كنت أعجب بك". قالت لـه معترفةً: "أنت وسيم جميل المحيا يا سيد روبنسون". لقد كانت تشعر على هذا النحو تجاه غوردون منذ زمن بعيد، بعيد جداً. ولكنها ما عادت تشعر بذلك. وصارت تعرفه أكثر بكثير الآن وتعرف البرودة الجليدية التي تملأ قلبه.

قال بيل: "إنك إما مخبولة أو عمياء". ثم ضحك وهو يبدو مرتبكاً قليلاً، ثم نهضا واقفين وصعدا السلالم. كانت الساعة السابعة والنصف آنذاك، وقال إنه سيأخذ تدليكاً في غرفته بينما ترتدي هي ثيابها وتتصل بالمنزل. "سألقاك الساعة التاسعة إلا ربعاً. هل يكفيك هذا الوقت؟".

– "تماماً. كان كل ما تريد أن تقوم به هو أن تطمئن من جديد على تيدي، وأن تأخذ حماماً، وتسرح شعرها، وترتدي ثيابها، وما كان هذا ليستغرق وقتاً طويلاً.

– "أراك بعد قليل إذاً". قال لها وهو يضع ذراعه حولها ويقبّل وجنتها. وإذ فعل ذلك انتابته رغبة أن يسألها فيما إذا كانت تريد المكوث ليلة أخرى إذا ما كان تيدي على خير ما يرام. ولكنه فكر أن من الأفضل الانتظار وأن يرى ما تقوله بعد أن تتصل بالمنزل وتتحدث إلى الممرضات والطفل.

وإذ قامت بذلك شعرت بالارتياح والسرور لما سمعته. فقد أمضى تيدي يوماً سعيداً آخر، وكان يضحك وهو يتحدث إليها. لقد كان يقرأ مع الممرضة كتاباً يحوي طرائف كانت قد اشترته لـه قبل أن تغادر. فتلا عليها طرفتين، وضحكت معه، وكانت تبتسم وهي تأخذ حمّاماً. لقد وعدته أن تكون في المنزل في الليلة التالية. وحجزت في رحلة طيران الساعة السادسة. وستكون الساعة التاسعة بتوقيت باريس عندما تصل إلى المنزل. لقد فكرت في البقاء ليلة أخرى، ولكنها شعرت أن هذا ليس فيه إنصاف له.

ارتدت فستان سهرة كوكتيل أبيض حريرياً بسيطاً تلك الليلة، مع دثار أبيض من كشمير، ووضعت اللآلئ من جديد، وانتعلت حذاءً حريرياً أبيض

على طراز الشانيل[1] ذي مقدّم أسود. وحملت حقيبة سهرة بيضاء اللون ليس فيها سوى أحمر شفاه ومفتاح غرفتها. لم تكن في حاجة إلى أي شيء آخر. وقررت هذه المرة أن تطلق شعرها على رسله. وبدا بيل مفتوناً بها أكثر من الليلة السابقة وهي تفتح الباب. لقد كان من الواضح أنه كان مأخوذاً بها، وهذا كان يسعدها للغاية.

لقد كانت تتمتع برقة بالغة، ولطف، وأنوثة كبيرة. لقد كانت تجسّد كل ما كان يريده في المرأة، وشعر بيل بالأسف الشديد لأنه لم يلتقِ بها قبل سنين.

– "كيف كان تيدي عندما اتصلتِ به؟" سألها وهما ينزلان السلالم سيراً على الأقدام. فما كان أي منهما يطيق صبراً على انتظار المصعد، ففضّلا أن ينزلا سيراً.

– "لقد كان على أحسن حال. لقد قرأ لي نصف دزينة من الطرائف، وقالت لي الممرضة أنها لم تَرَه في حال جيدة كهذه من قبل. ولا أدري إن كان ذلك يعود إلى الأدوية التي يأخذها، أو إلى الطقس، أو إلى حسن الحظ. ولكن مهما يكن من أمر فإنني أرجو أن يبقى على حاله. لقد أخبرتُه أني سأكون عنده ليلة غد".

– "أوه". قال بيل، ولاحظَت النظرة المتبدية في عينيه وقد استدار نحوها عند آخر درجة من درجات السلم. وتابع يقول: "كنت أود لو أمكنك البقاء ليلة أخرى. يتوجب علي رؤية السفير غداً، ولا أعتقد أني سأكون معك حتى الظهيرة. وهكذا لن يكون لدينا وقت طويل قبل رحلة طيرانك".

قالت لـه وهي تتأبط ذراعه: "أعلم. ولقد فكرتُ بذلك، ولكن لم أجرؤ على أن أقول لـه بأني أود البقاء هنا ليلة أخرى. أعتقد أني سأتصل به غداً".

قال لها بلهجة تنم عن الصدق: "ليتك تفعلين ذلك. فهلا تسألينه إذا كان

(1) شانيل: (Chanel): نسبة إلى Coco Chanel، وهي مصممة أزياء فرنسية (1883-1971)، وقد صار اسمها مميزاً لنمط معين من الأزياء النسائية الأنيقة. (المترجم)

لديه مانع في ذلك؟" ما كان يريد أن يخطفها من ابنها، ولكنه كان يرغب في أن تبقى. وهي أيضاً كانت ترغب في ذلك. وشعرت بأنها متنازعة بين ابنها وبينه، وكان هذا الشعور غير مألوف بالنسبة لها.

– "سوف أتصل به صباحاً وأرى أحواله. ولكني لا أستطيع أن أعدك بشيء. فإن أمضى هذه الليلة بشكل سيء، سيتوجب علي الذهاب إلى المنزل". لقد كانت تتمتع بحس مسؤولية فوق كل شيء.

– "أفهم ذلك". قال بيل بلهجة امتنان. لقد سرّه أنها على الأقل على استعداد لتفكر في المسألة. "إذا ما توجب عليك أن تذهبي فلربما أسافر معك إلى باريس. فلن يضيرني أن أزور السفير هناك". حتى لو لم يتمكن من المكوث معها طويلاً إلا أنه كان يريد أن يبقى قربها. ولكن سيصبح الأمر مختلفاً عندما يكونان في ديارها. قد يتمكنان من تناول طعام الغداء معاً، ولكن ما كان بمقدورها تناول طعام الغداء أو العشاء معه بمثل تلك السهولة هنا. فإن أدرك غوردون أنهما كانا يلتقيان، حتى ولو كانت لقاءاتهما بسيطة بريئة، فهذا قد يسبب لها إحراجاً. ولكن بيل كان يعرف ويعي كل ذلك. فقد رآها في باريس قبلاً. "أشكر لكِ استعدادك للاتصال به. وعلى كل حال سأضطر للعودة إلى نيويورك يوم السبت". لقد كان يعلم أن ابنتيه ستكونان في المنزل آنذاك.

قالت إيزابيل بحزن: "سوف أفتقدك بعد أن تذهب". لقد مكثا يوماً واحداً فقط معاً، ولكن كان هذا اللقاء مريحاً جداً لكليهما، ولو ليوم وليلة، لدرجة أنه كان يصعب على كليهما أن يتخيلا الآن فراق أحدهما للآخر.

"لقد كنت أفكر بنفس الأمر". قال لها وهما في طريقهما إلى نادي مارك. وتابع قوله: "لقد اعتدتُ عليك حتى غدا من الصعب أن أتخلى عن هذه العادة". أومأت برأسها بالإيجاب، وأمسك بيدها برفق. لقد كانا يخترقان حواجز كانا قد احترماها من قبل، وينتقلان إلى مناطق كانت حتى الآن مجهولة بالنسبة لهما. وكان كل منهما يعرف أنهما إذا جازفا كثيراً فإن هذه المجازفة قد تعود عليهما بالخطر الكبير.

احتسيا الشراب في جو نادي مارك المريح، والظليل والمبني على الطراز العتيق. لقد كان ذلك الطراز متعمداً مقصوداً. راحا يتحدثان وهما جالسان معاً على كراسي من الجلد البالية الأكبر من المعتاد، ثم سارا معاً نحو طاولتهما في حجرة الطعام. كانت إيزابيل تفضل بار هاري لعدة أسباب، ولكن الجو هنا كان حميمياً دافئاً ورومانسياً. أمضيا ساعات يتحدثان، وكانت تنتاب إيزابيل رغبة في أن توقف الزمن وأن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء. لقد كانت الدقائق تمضي متسارعة جداً، وما كانت تريد لتلك الأمسية أن تنتهي. وكان بيل على نفس الحال.

"ما رأيك بمطعم أنابيل من جديد؟" سألها وهما يغادران المكان في نهاية المطاف، والتقت عيونهما وتعانقتا طويلاً. ما كانت تعرف إذا ما كانا سيغرقان في ماء عميقة إذا ما ذهبا للرقص من جديد، ولكن لم يستطع أي منهما أن يقاوم. لقد كانت تلك الليلة آخر ليلة لهما على الأرجح، ولربما آخر فرصة قد ينعمان بها قبل مضي وقت طويل جداً، قد يكون سنين. لقد كانا يعلمان أن عليهما أن يغتنما هذه اللحظة السانحة الآن.

قالت له بهدوء: "إني لأود الذهاب إلى هناك للغاية". لقد بدت كلمات غير منطوق بها معلقةً في الفضاء بينهما وهما جالسان في السيارة وقد أمسك كل منهما بيد الآخر. وكانا صامتين وهما يسيران داخلين إلى نادي أنابيل ويتجهان نحو البار ليجلسا إليه.

طلب بيل المشرب المفضل، وشرب نخبها، وبعد أول رشفة لها من الكأس، وضع كأسه، ومدّ يده إليها ودعاها للرقص. لقد كانت في غاية السرور وهي تتبعه سيراً نحو ساحة الرقص، تحت أضواء السقف الصغيرة التي كانت تومض كالنجوم. لقد كان ذاك هو المكان الأكثر رومانسية الذي ذهبت إليه على الإطلاق، وهذه المرة، وإذ كانت ترقص معه، شعرا وكأن جسديهما جسدٌ واحد. لقد كانا يتحركان بهوادة على أنغام الموسيقى، وكانت الأغاني مألوفة لهما. لم يقل أي منهما أية كلمة، بل كانا يرقصان متلاصقين، وقد أغلقت

إيزابيل عينيها.

مضى وقت طويل إلى أن غادرا ساحة الرقص، وقد بديا حزينين. ما كان أي منهما يرغب بأن يفكر بأنهما سيفترقان في اليوم التالي، ولكن لم يكن من مناص من ذلك. لقد كانا يعلمان أن تلك اللحظة آتية لا محالة.

ورقصا ثانية قبل أن يغادرا المكان، وعندما تركا ساحة الرقص كانت الدموع تترقرق في عيني إيزابيل. وإذ سارا في الخارج كان بيل يحيطها بذراعه. لقد كانت ليلة جميلة دافئة لامعة كالنجوم وكان بيل ينظر إلى إيزابيل بابتسامة دافئة، حين التمع ضوء ساطع أمام وجهيهما كأنه انفجار. لم تدرك إيزابيل ماهية الأمر في البداية فقد أعماها لمعان الضوء، وفقط عندما اتضحت لها الرؤية أدركت أن ذلك الضوء انبعث من مصور فوتوغراف كان يلتقط صورة لهما، ولكنها لم تعرف سبب ذلك.

– "أهذا الضوء نابع عن فلاش الكاميرا؟" فقد شعرت بالخوف لوهلة وقفزت بين ذراعي بيل. وكان لا يزال يحيطها بذراعه وقد وقفت قربه، فأمسك بها بقوة.

"إنهم يفعلون ذلك أحياناً. فمصورو الفضائح[1] هؤلاء يتسكعون في الخارج. فيلتقطون الصور أولاً ثم يحددون هوية ضحاياهم بعد ذلك. إنهم يصطادون الكثير من نجوم السينما والسياسيين على هذا النحو. وإذا أخذوا صورة لشخص لا يهتم أحد لشأنه فإنهم يرمون بصوره".

"أعتقد أن هذا ما سيكون في أمري. ولكن ماذا عنك؟ هل يمكن أن يسبب لك ذلك مشكلة؟".

"لا ليس كذلك بالفعل. لا أعتقد أن مجلات القيل والقال تعرف من أكون. أعتقد أن تلك الصورة ذهبت سدى".

---

(1) مصورو الفضائح: (paparazzo): مصور يعمل لحسابه الخاص يقوم بملاحقة مشاهير المجتمع ليحصل على قصة جيدة (سبق صحفي) وخاصةً بما يتعلق بالفضائح أو الأخبار المثيرة أو الصادمة للمجتمع.

"لم أدرك ما كان ذلك في بادئ الأمر. فكل ما رأيت هو لمعان ضوء". لقد كانوا يستخدمون ضوء الفلاش، وكانوا يضعون الكاميرا على بعد بضعة سنتيمترات فقط من وجهها.

علق بيل قائلاً: "يا لبؤس حياتهم على هذا الشكل". وكان يفكر في الصورة التي التُقطت لهما ويتساءل إذا ما كان أحدهم سيتعرف عليه. ولكنه لم يقل شيئاً عن ذلك لإيزابيل. فما كان بيدهم حيلة الآن. الشخص الوحيد الذي قد يهمه الأمر هو زوجته. وأما إيزابيل فإنها مجهولة تماماً للجمهور. ولا يعتقد أن غوردون فوريستر قد يرى هذه الصورة أبداً. وإذ دخلا إلى السيارة طرد بيل هذه الأفكار من ذهنه.

جلست إيزابيل على مقربة منه في السيارة، وإذ اعتادا على ذلك، فقد أمسك بيدها. كان كلاهما يفكر في أمر رحيلهما في اليوم التالي، وكان ثمة جو من الجدية الملموسة في السيارة حين أعطى أمره للسائق ليقود السيارة عائداً بهما إلى الفندق. ما كانا متلهفين على الوصول، وكانت الليلة جميلة رائعة.

إيزابيل تحدثت أولاً وبصوت أبح ورقيق: "لا أدري كيف سأغادر غداً". لقد كان تيدي هو الشيء الوحيد الذي يشدها للعودة إلى ديارها.

"قد لا تغادرين غداً. تحققي من حالته الصحية عندما تتصلين به". جل ما كان يستطيع بيل فعله هو أن يصلي لكي يمضي تيدي ليلة هانئة. فما كان ليستطيع أن يتخيلها راحلة بعيداً عنه.

لومأت إيزابيل برأسها وابتسمت له، ثم ألقت برأسها على كتفه. وقالت له: "لقد أمضيتُ وقتاً رائعاً معك هذه الليلة يا بيل".

– "وأنا أيضاً". قال لها ذلك ثم استدار لينظر إليها من جديد. فأجفلت إذ سمعت كلماته التالية: "ماذا سنفعل الآن يا إيزابيل؟" سألها هكذا بصوت كانت تعرفه حق المعرفة. لقد كان الصوت الذي كان يحدث ارتعاشة تسري في عروقها عندما كانت ترد على الهاتف.

"بخصوص ماذا؟".

لقد كان ينظر إليها بعينين تحملان جدية أكثر من المعتاد، ولم تعرف إذا كانت تريد أن تجيبه أم لا.

"عنًا. أنا أحبك. لقد أقسمتُ لنفسي ألا أنطق بهذه الكلمات لك. أعرف أن ليس في الأمر إنصاف، ولكني أريدك أن تعرفي. أريدك أن تأخذي هذه الكلمات معك عندما تعودين إلى منزلك غداً أو أي وقت. أحبك يا إيزابيل. أحبك منذ وقت طويل". وإذ قال لها ذلك شعر أنه لم يكن رقيقاً ومكشوفاً أبداً في حياته كما كان آنذاك.

نظرت إليه وهمست قائلة: "أعرف. ولقد أحببتك منذ رأيتك لأول مرة. ولكن ليس في يدنا حيلة إزاء هذا". لقد كانا كلاهما يعرف ذلك. ولم تكن لتود أن تقول تلك الكلمات، إذ كانت تعلم أن ذلك سيعقّد كل شيء، ولكن لم يستطع أي منهما أن يمنع نفسه من ذلك. وفي حين لمس خدّها برفق انعطف السائق ببطء نحو نقطة تقاطع، ولوهلة فكّر بيل بأن يطلب منه الوقوف. لقد أراد أن يكونا معاً وحدَهما. لقد كانت لحظة أراد ألا ينساها أي منهما.

"لا يمكننا أن نفعل شيئاً حيال ذلك الآن يا إيزابيل. بل ربما يوماً ما. لا تعرفين أبداً. ولكن مهما يحدث، أردتُك أن تعرفي... بأني سأحبك ما حييت". لقد كان متأكداً مما يقول ومنذ زمن بعيد. لقد كانت تجسد كل ما كان دائماً يريده، وكان يعلم الآن أنه ما كان بإمكانه أن يحصل عليه.

وهمست له وهو يضمها إليه "أنا أحبك يا بيل... جداً...". وإذ قالت هذه الكلمات وضع شفتيه على شفتيها وهو يشعر بالأسف أنه لم يفعل ذلك من قبل. لقد كانت لحظة انتظراها طوال حياتهما، وقرّبتهما من بعض أكثر من أي وقت مضى. لقد أحاطت عنقه بذراعيها، وغرقا في قبلة، وبدا الزمان وكأنه ذاب في الفضاء. كل ما كانت تعرفه هو أنها لم تكن أبداً سعيدة في حياتها هكذا، وأنها لم تكن تريد لتلك اللحظة أن تنتهي. لقد كانت مغمضة العينين وهو يضمها إليه، ولأول مرة في حياتها كلها شعرت بأنها في أمان كامل. لقد كان يقبلها والسيارة تدخل بهما إلى نقطة التقاطع، وكان السائق ينظر إليهما في

مرآة السيارة الخلفية، مذهولاً مسمراً بما يراه، وكان مسحوراً للغاية بحيث إنه لم يرَ الباص الأحمر ذا الطبقتين مندفعاً نحوهما بكامل سرعته. كان الباص على بعد بضعة أمتار فقط من جهة إيزابيل من السيارة عندما دخل السائق إلى نقطة التقاطع، وما كان بالإمكان أبداً إيقاف السيارة. كان بيل لا يزال يقبلها عندما قصّ الباص كامل مقدمة السيارة وتلاشى السائق كالهواء. لم يلتقطا أنفاسهما، لم ينظرا للأعلى، لم يعلما ما حدث لهما. كانا لا يزالان غارقين في قبلتهما عندما بدت الحافلة وكأنها تلتهم سيارة الليموزين بجملتها، وخلال ثوانٍ كان الباص والسيارة قد تحولا إلى خليط من الفولاذ المسحوق، وتناثر الزجاج في كل مكان. وجرّ الباص السيارة إلى منتصف الشارع، وعند نهايته تحطمت تحت وطأة الباص، وانقلبت على جانبها وإطاراتها تدور بسرعة هائلة. كانت إيزابيل لا تزال بين ذارعي بيل، لقد كانت فوقه. وغاص سقف السيارة إلى الداخل، وفقد كلاهما الوعي، وما عاد فستانها أبيض بل صار أحمر اللون مخضباً بالدم. كان هناك جرحان عميقان طويلان على جانب وجه بيل، وبدت إيزابيل وكأنها نائمة في سلام. لم يُمَسُّ وجهها بأذى، ولكن بدا وكأن جسدها مهشمٌ برمته.

عندئذ علت الأصوات على مبعدة، وارتفع صوت نفير أبواق السيارات، وعلق نفير بوق الباص. وكان السائق قد طار من خلال الواجهة الزجاجية الأمامية للسيارة، وكان يرقد على أرض الشارع حيث سقط وفارق الحياة. وهرع شخصان يحملان مشعلاً كهربائياً ومضياً وسلطا الضوء على السيارة المهشمة. كل ما استطاعا رؤيته هو الدم على وجه بيل والفستان الأحمر الناصع. كانت عيناه مفتوحتين وبدا ميتاً، ونظراً إلى كمية دمها الذي لطّخ كل ما حولها كان من المستبعد أن يفكر أحدٌ بأن إيزابيل قد تنجو. كان الرجلان اللذان يحملان المشعل قد وقفا لتوهما ونظرا إليهما، وهمس أحدهما قائلاً: "يا إلهي".

سأله الآخر: "هل تعتقد أنهما على قيد الحياة؟".

"مســتحيل يا صاحبي". وإذ نظرا شاهدا سيلاً صغيراً من الدم يتدفق من جانب فمها.

– كــيف سيخرجانهما من هناك؟" لم يستطع الرجل الذي يحمل المشعل الكهربائــي حــتى أن يتخيل كيف يمكن تحريرهما من داخل السيارة. فقد كان سقف السيارة مطبقاً على ظهر إيزابيل.

– "لا أعــتقد أن الأمر يهم الآن. ولكن ذلك سيستغرق منهما الليل كله". عادا على أعقابهما ليتحققا من حالة الناس الراقدين على أرضية الباص عندئذ، وكــان بضــعة من الناس الأوفر حظاً يناضلون للخروج من الباص، بقمصان ملطخة بالدم وجروح عميقة في رؤوسهم. كان البعض يعرج والآخرون يبدون في حالة دوخان. وقال شخص ما أنه كان هناك نصف دزينة من جثث الموتى داخــل الــباص. لقد كان ذلك أحد أسوأ الحوادث التي شهدتها الشرطة بباص بمــثل ذلك الحجم، وبينما هما يتحدثان إلى الشهود الذين كانوا متواجدين لحظة حصول الحادث وارتطام الباص بالليموزين، علا صوت صفارة الإنذار مقترباً مــنهما، وخلال دقائق انتشرت سيارات الإسعاف والإطفاء والمُسعِفين في كل مكــان. فــبدأوا بسيارة الليموزين، وأخبرهما الرجلان اللذان كانا يحدقان في السيارة أن الراكبين الوحيدين اللذين كانا في السيارة كانا يبدوان ميتين.

ومع ذلك فقد ذهبوا إلى السيارة للتحقق من الأمر، ومن أول وهلة أدركوا أن الرجليــن كانا مُحقِّين، ولكن مع وصول أحد المُسعفين إلى هناك، أخذ هذا نبضهما ليتأكد من الأمر فقط، فأدرك أن إيزابيل وبيل كانا لا يزالان على قيد الحياة.

فــنادى المســعف الذي وصل إلى السيارة على رجل الإطفاء الذي كان يقــف إلــى جواره وقال له: "مهلاً. لدينا شخصان أحياء هنا. فتريثْ. ولجلب الشاحنة إلى هنا. علينا إخراجهما من السيارة". لقد انتابه إحساس بأن الأوان قد فــات وأنه لن يكون هناك طائل من محاولتهما لإخراجهما من السيارة. ولكن كــان عليهما على الأقل أن يبذلا محاولة. في تلك اللحظة كانا قد وجدا سائق

الليموزين وعرفا أنه مات متأثراً بإصابة بالغة في رأسه. وما كان أحد يعرف بعــد إذا مــا كــان أي من الراكبين في السيارة سوف ينجو. لقد بدت إيزابيل وكأنها تفقد كميات كبيرة من الدم من جروحها البالغة، وإذ جسّ المُسْعِفُ نبض بــيل من جديد وجده ضعيفاً جداً حتى إنه بالكاد استطاع أن يشعر به. لقد كان يفقدانهما بسرعة. ومع اقتراب كماشات الحياة[1] وربطها بما تبقى من السيارة، كــان هــناك رجال يعتلون السيارة ويعلقون خطافات ومخالب بها ويصرخون طالبيــن من سائقي الشاحنات أن يقوموا بعملية الشد أو السحب لفتح السيارة. كان الضجيج يصم الآذان ولكن لم يسمع أيٌّ من إيزابيل أو بيل أي صوت.

(1) كماشات الحياة: (Jaws of Life): ماركة لأدوات معدنية تعمل على الضغط تشبه الكماشات تُقحمُ داخل العربات المتضررة بشدة ثم تُفْتَحُ لتحرير الناس المحتجزين داخلها.

الفصل الرابع

استغرق الأمر قرابة الساعتين لكي يقلع الرجال سيارة الليموزين. لقد كان يتوجب عليهم أن يعملوا بحرص شديد لئلا يسببوا لبيل وإيزابيل المزيد من التهشم. وفي تلك الأثناء كانوا قد أعطوهما حقناً وريدية[1]، وتدبّروا أمرهم لوضع مرقأة[2] على جرح بليغ على شريان إيزابيل في ذراعها اليسرى. كان الرجال الذين يسعون جهدهم لإنقاذهما قد تلطخوا بالدماء، وما كان أحد ليصدق بأنهما كانا لا يزالان على قيد الحياة. وما كان أحد ليمكن أبداً أن يقول إن فستان إيزابيل كان أبيض اللون. فقد كان الفستان برمته مشبعاً بدمها. وما كان أحد قد عرف من يكونا، وفي الوقت الذي أمكنهم نقلهما إلى سيارة إسعاف، كان الرجال قد استطاعوا نقل كل ضحايا الباص. وقعت حافظة بيل في يد أحد المسعفين عندئذ، واستطاعوا تحديد هويته، ولكن كانوا لا يزالون يجهلون من تكون إيزابيل.

قال أحد المسعفين: "إنها تضع خاتم زواج". قال ذلك في حين كانت سيارة الإسعاف تنعطف نحو مشفى القديس توماس. وتابع قوله: "لا بد أنها زوجته". واتصل لاسلكياً بضباط الشرطة في موقع الحادث يطلب منهم أن يبحثوا عن حقيبة يد في السيارة عليهم يجدون فيها ما يدلهم على هويتها.

لم يستعِدْ أي منهما وعيه طوال العملية: فقد أُخرجا من السيارة، وكانا في غيبوبة عندما حُمِلا إلى وحدة معالجة الإصابات، وأتى فريقان منفصلان للعناية بهما. لقد تقرر فوراً إجراء عملية جراحية لكليهما: فله من أجل إصابة

---

(1) حقن وريدية: (IVs): حقن من السوائل أو الأدوية تُعطى في الوريد.

(2) مرقأة: (tourniquet): ملوى أو ضاغط يُوضع على جرح لوقف النزيف من الأوعية الدموية.

الحبل الشوكي وكسر عنقه، ولها من أجل إصابة الرأس التي تعرضت لها، ومن أجل الإصابات الداخلية العديدة، والشريان الذي تأذى بشدة والذي وضعوا عليه مرقأة لقطع النزيف. لقد كان يجب القيام بعملية فورية لئلا تتعرض لخطر فقدان ذراعها.

– "يا الله، إنه لحادث بشع، أليس كذلك؟" قالت إحدى الممرضات هامسة عن الحادث في حين كانوا يضعون المصابَين على عربات ويدفعونهما إلى غرفتي عمليات منفصلتين. وتابعت قولها: "لم أرَ مثل هكذا إصابات وجروح منذ زمن طويل".

وعلّقت الأخرى وهي تقوم بعملية تنظيف الجروح: "لا أصدق أنهما لا يزالان على قيد الحياة". لقد عُيِّنَتْ للإهتمام بإيزابيل التي قُدِّر أنها الأقل حظاً في النجاة. لقد كانوا قلقين على الإصابة التي في رأسها، ولكن الإصابة الأكبر التي تعرضت لها كانت في الكبد، والرئتين، والقلب، وكلها تضررت عملياً بشكل كبير.

خلال دقائق كان كلاهما مستلقياً على طاولة العمليات في غرفتي عمليات منفصلتين مع أطباء التخدير الذين يعملون على تخديرهما تحت أضواء ساطعة لامعة فوق رؤوسهما بينما أصغى أعضاء الفريق الجراحي إلى تقييم حالة المريضين التي عرضها فريق معالجة الإصابات. كان يصعب عليهم تحديد أي من الركاب في سيارة الليموزين هو في حالٍ أسوأ. لقد اعتُبرت حالتهما خطرةً للغاية، وبدأت العمليات الجراحية، وعلائم الحياة تتراجع عند المريضين بنفس المعدل تقريباً.

عندما بدأوا إجراء العمليات الجراحية على بيل لمعالجة الفقرات العديدة التي انكسرت في عموده الفقري، شعر بيل وكأنه ينهض جالساً، وخلال ثوانٍ، وجد نفسه يسير في طريق منوّرة بشكل كبير. كان يدرك أصوات الذين حوله، وهناك على مبعدة أمامه، كان هناك ضوء ساطع لامع. ولقد دُهشَ عندما نظر حوله ووجد إيزابيل تجلس على صخرة أمامه تماماً في الطريق.

سألها: "هل أنت على ما يرام؟" لقد بدت غريبة عنه عندما نظر إليها وكأنها كانت قد غفت لبرهة. ولكنها هبت واقفة وراحت تنتظره كي ينضم إليها في الطريق.

قالت: "أنا بخير". ولكنها لم تنظر إليه. وإذ كان أمامها، فقد كانت مأخوذة بالنور الباهر. فسألت: "ما هذا؟".

قال لها: "لا أعلم". لقد كان يشعر بالتشويش، وكان مدركاً أنه كان يبحث عنها ولم يكن بإمكانه أن يجدها لفترة قصيرة. "أين كنت؟".

قالت: "لقد كنتُ هنا أنتظرك. لقد طال غيابك". كان صوتها ناعماً رقيقاً، وقد بدت شاحبة، ولكن هادئة بشكل غريب.

فأوضح لها قائلاً: "لقد كنتُ هنا تماماً، ولم أذهب إلى أي مكان". ولكن بدت وكأنها لم تكن تصغي إليه، وبدت أيضاً في توق لأن تتجه نحو الضوء.

استدارت تنظر إليه وسألته "هل أنت آت؟" وشعر أنه يهرع للحاق بها. ولكنها كانت تسرع أكثر منه، وكان يريد أن يطلب منها أن تبطئ في سيرها.

"لماذا تركضين هكذا؟" سألها هكذا، وهزت رأسها، وتابعت سيرها بشكل ثابت نحو الضوء الساطع.

قالت له: "أريدك أن تأتي معي". ثم مدت يدها إلى الخلف نحوه. فأمسك بيدها، وشعر بها قد أصبحت إلى جانبه، ولكنه لم يستطع أن يشعر بيدها. لقد أمكنه أن يرى أنها كانت تمسك يده، ولكنه لم يستطع أن يتلمس يدها. كل ما كان يشعر به هو أنه كان في غاية التعب والإرهاق. لقد كان يريد لو يستلقي وينام في مكان ما، ولكنه لم يُردْ أن يفقدَها من جديد. لقد كان يعرف ذلك على الرغم مما قالتْه. وبعد ذلك استدارت ونظرت إليه وتحدثت إليه بصوت يمكن سماعه بوضوح. وقالت له: "أحبك يا بيل". وأراد أن يطلب منها أن تتمهل.

– "وأنا أيضاً أحبك يا إيزابيل. هلا نرتاح قليلاً؟ فأنا متعب جداً".

– "يمكننا أن نستريح عندما نصل هناك. إنهم في انتظارنا الآن". لقد

كانت متأكدة من ذلك، وكان لديها إحساس يدفعها للعجلة. وكان هو يبطئها.

– "إلى أين نحن ذاهبون؟" أراد أن يعرف.

– "إلى هناك". وأشارت نحو الضوء، وتبعها لفترة. لقد بدا له أن الوصول إلى تلك النقطة سوف يستغرق وقتاً طويلاً، وعندما صار هناك تقريباً، استطاع أن يميّز أصواتاً خلفهما تنادي باسمها. وعندما استدار لينظر، رأى أن صاحب الصوت طفل صغير. لم يستطع أن يرى بالتأكيد، ولكنه ظن أن ذاك كان طفلاً صغيراً. لقد كان يلوح لهما وراح يصرخ: "ماما". إلى أن استدارت إيزابيل نحوه أخيراً، ونظرت إليه طويلاً. وعلى بعد، وخلفه، كانت هناك هيئة شخص ظليل لفتاة صغيرة.

– "من هؤلاء؟" سأل بيل، ولكنه عرف الجواب قبل أن تقول له.

– "إنهما تيدي، وصوفي. لا يمكنني أن أذهب إليهما الآن. لقد فات الأوان". وبدأت تستدير مبتعدة، وفجأة انضمت فتاتان إلى الصبي والفتاة اللذين كانا يلوحان لها. لقد بديا له كأطفال، ولكن عندما استدار خلفاً لينظر إليهما، تبين له أنهما ابنتاه أوليفيا وجين، وكانتا تناديانه كما كان تيدي ينادي إيزابيل تماماً.

– "انتظري...". قال لها وهو يجاهد ليحافظ على البقاء إلى جوارها والحصول على انتباهها الآن، ولكنها كانت تتقدمه وبسرعة، وما كان متأكداً مما يفعل: هل يتبعها أو يعود أدراجه ليرى أوليفيا وجين. "يجب أن نعود إليهما". قال لها ولكن إيزابيل هزّت رأسها فقط.

– "أنا لن أعود يا بيل. فهل ستأتي معي؟" بدت مصممة وموطدة العزم للغاية، وكان مع كل خطوة يشعر أكثر بالتعب والإرهاق. لقد بدا وكأن الطريق لا نهاية لها.

– قال متذمراً: "لا يمكنني أن أتماشى معك. لماذا لا نعود إليهم؟ إنهم في حاجة إلينا الآن...".

– "لا. لا يحتاجون إلينا". قالت إيزابيل واستدارت من جديد. "لا أستطيع أن أعود ثانية. لقد فات الأوان على ذلك. قل لتيدي وصوفي أني أحبهما". قالت ذلك وهي تستعد لمتابعة الطريق وحدها.

قال بيل وهو يقبض على ذراعها: "عليك أن تأتي معي. أصغي إليّ...". وبدا غاضباً منها. أما هي فما كانت تصغي إليه، وكانت قد شارفت على الوصول إلى النور. وتابع قوله: "يجب أن تصغي إلي... تيدي وصوفي في حاجة إليك لكي تعودي... يجب علي أن أرجع من أجل البنات. هيا نرجع سوية يا إيزابيل... يمكننا أن نعود إلى هنا مرة أخرى".

ترددت، ولكن لوهلة فقط، حين لمس يدها، قالت له: "وماذا إذا لم تتسنّ لنا فرصة أخرى؟".

قال: "سوف نفعل ذلك يوماً... ولكن ليس الوقت مناسباً الآن".

– "لو كان الأمر يعود لي فإنني لا أريد أن أرجع...". نظرت إليه مناشدةً إياه ليتبعها، وأمكنه أن يشعر بها تنسل مبتعدة. وقالت: "أرجوك يا بيل... تعال معي. لا أريد أن أذهب وحدي".

– "أريدك أن تبقي معي. أنا أحبك يا إيزابيل، لا تتركيني الآن". كان يبكي وهو ينطق بهذه الكلمات، ونكس رأسه لكي لا تراه، ولكنها وقفت هناك تنظر إليه. ثم رفع نظره ومد لها يده وقال: "خذي يدي... أقسم أني لن أدعك تذهبين. عليكِ أن تعودي معي". وإذ قال ذلك، بدت فجأة متعبة جداً، ونظرت إلى الخلف نحو تيدي والبنات. ترددت طويلاً، وبعدها، وببطء شديد، بدأت تتحرك راجعة إلى الخلف نحوه. لقد بدا أن رجوعها أصعب بكثير جداً من استمرار تقدمها إلى الأمام. وأمكنه أن يرى الضوء خلفها الآن وقد بدأت تخطو نحوه من جديد، وبعد دقيقة كان يضمها بين ذراعيه. وراح يقبلها ويضمها وهي تبتسم له. لم يكن أحد منهما يعرف أين هما بشكل مؤكد، ولكن كل ما كانا يعرفانه هو أنه كان ينبغي عليهما العودة إلى أطفالهما الآن. وأمكنه أن يشعر بيدها تمسك بيده بإحكام.

- "هل أنت متأكد أنك تريد أن تفعل ذلك؟" سألته وهما يسيران جنباً إلى جنب. لم يستطيعا أن يسمعا أصوات الأطفال، ولكنهما كانا يعرفان أنهم ينتظرونهما. كانت العتمة قد بدأت تنتشر، والضوء الذي خلفهما بدا باهتاً أكثر الآن.

قال: "بكل تأكيد". وأبقى يده ممسكة بيدها بإحكام.

- "الوقت بدأ يتأخر... والظلمة صارت حالكة... كيف سنجد طريق العودة؟" سألته وقد انتابها إحساس بأنهما قد ضلا طريقهما من قبل، ولا تريد أن تضل ثانية.

قال بيل: "تشبثي بي وحسب". وصار يستطيع أن يتنفس الآن بسهولة أكبر من جديد. لم يَبْدُ الهواء الذي يحيط بهما رقيقاً كالعادة. "أعرف طريق العودة". وأحاطها بذراعه، وتابعا سيرهما لوقت طويل. والآن إيزابيل هي التي كانت متعبة، وبيل هو من كان يزداد قوة.

قالت: "أحتاج إلى التوقف لبرهة". وأمكن لكليهما رؤية الصخرة حيث كانت تجلس قبلاً بينما كانت تنتظره، ولكنه ما كان سيسمح لها بالتوقف هذه المرة. إذ يتوجب عليهما الذهاب إلى المنزل.

"ليس لدينا وقت. سوف تكونين على ما يرام. يمكنك أن تستريحي عندما نعود".

وتبعته دونما أية كلمة أخرى. كانت الظلمة حالكة حولهما في ذلك الوقت، ولكن كان لديها إحساس بأنه يعرف إلى أين هو ماض. كل ما كانت تريده هو أن تغفو وتستلقي إلى جانب الطريق. ولكن بيل ما كان ليتركها تسحب يدها من يده، وما كان ليدعها تتمهل في سيرها، ولم تعرف متى أو كيف وصلا هناك، ولكنها أدركت بعد هنيهة أنهما قد صارا في المنزل.

كانا في غرفة لم تستطع أن تعرف أين هي، وكانت تشعر بالأمان إلى جواره. كان هناك أطفال في كل مكان، وأمكنها أن ترى تيدي وصوفي يتضاحكان مع بعض الأصدقاء، وابنتا بيل كانتا تتحدثان إليه. واستلقت إيزابيل

بينما كان يعانقهما. لقد كانت تدرك أنها ستنعم بالأمان آنذاك، وكل ما كانت تريده هو أن تغفو بجواره. رفعت نظرها إليه وابتسمت، ورد لها الابتسامة. وإذ انتحَتْ جانباً كي تنام كانت على يقين بأنه سيكون هناك دائماً معها.

قالت الممرضة الجراحة: "يا إلهي، ما كنت أتصور أننا سننجح في ذلك". وكانت تخاطب الطبيب المخدر وهما يغادران غرفة العمليات. لقد أمضوا أربع ساعات يصارعون للحفاظ على ضغط دم إيزابيل مرتفعاً بما يكفي لإبقائها على قيد الحياة أثناء إجراء الجراحة لها. لقد أمكن معالجة أعضائها المصابة، وذراعها، وكان الجميع في غرفة العمليات واثقين خلال نصف الساعة الأولى من أنها آخذةٌ في الموت لا محالة. إذ كانت قد خسرت كمية كبيرة من الدم. ولم يعرفوا سبب خروجها من خطر الموت في النهاية: هل بتأثير الأدوية التي أعطوها لها، أم عمليات نقل الدم، أم الجراحة، أم فقط حسن الطالع. ولكن أياً يكن من أمر، كانوا يُجمعون على أن بقاءها على قيد الحياة كان أعجوبة.

- "لم أرَ أبداً عملية جراحية كهذه. إن نجاتها من الموت هو من حسن حظها". هذا ما قاله أحد الجراحين الموجودين خلال إجراء العملية. "هي لم تتجاوز مرحلة الخطر بعد، ولكن أعتقد أنها ستنجو. إن حالات كهذه تعيد لي إيماني بالله". وابتسم وهو يغادر غرفة العمليات ويتصبب عرقاً. لقد كانت ليلة طويلة شاقة ومنهكة.

في هذه الأثناء خرجت ممرضتان من غرفة الجراحة المجاورة لتلك الأولى حيث كانت العملية تُجرى لبيل، وقد بدتا متعبتين كمثل بقية الطاقم الطبي.

سألت إحداهما الأخرى: "كيف كانت عملية مريضك؟".

- "كدنا نفقده أربع أو خمس مرات. ولكنه نجا، مع وجود الكثير من الضرر في أعلى العمود الفقري. توجب علينا استعادته إلى الحياة مراراً. وكدنا نفقد الأمل في المرة الأخيرة".

- "يبدو أن مريضك كمثل مريضتنا. إن نجاتهما أمر مذهل".

- "كيف حالها؟".

- "لا تزال في حالة خطرة حرجة. ولقد ظننتُ أنها قد تفقد ذراعها، ولكننا أنقذناها من أجلها. وكانت لدينا مشاكل مع كبدها وقلبها. لم أرَ إصابة بالغة كهذه يخرج منها المريض على قيد الحياة".

- "هذا يُظهر أن المرء لا يمكنه أن يحكم على الأشياء بشكل صحيح، أليس كذلك؟" كانت الساعة آنذاك قد بلغت الثامنة صباحاً، وذهب كلا الفريقين الطبيين إلى الكافتريا لاحتساء القهوة وتناول كيك السكونز، في حين نُقل بيل وإيزابيل على العربة إلى غرفتين منفصلتين. وكان كلاهما غارقاً في سبات عميق بعد العملية الجراحية، وإبان ذلك أمكن إيجاد حقيبة يد إيزابيل. وكان فيها مفتاح غرفتها في فندق كلاريدج، واتصل رجال الشرطة بالفندق، وعلموا أن اسمها إيزابيل فوريستر، وأنها فرنسية ولديها عنوان في باريس. ووعدت المديرة المساعدة بأن تذهب إلى غرفتها في الحال لترى إذا ما كان جواز سفرها موجوداً هناك لكي تحصل على معلومات تفيدها لمعرفة الشخص الواجب الاتصال به في حالة الطوارئ. ولكن حتى الآن لم يكن أحد قد اتصل.

لقد حصل رجال الشرطة على كل المعلومات التي يحتاجون إليها عن بيل. فرقم هاتف منزله كان في حافظته، وكان قد وضع اسم زوجته على أنها أول قريب له لكي يُصار إلى الاتصال بها في هكذا حوادث. واعتزمت موظفة الاستقبال في المشفى أن تتصل بسنثيا وأن تخبرها عن الحادث وأن بيل قد نجا.

لقد صُنِّفت حالة بيل وإيزابيل كلاهما على أنهما حالتان خطرتان. وإصابة رأس إيزابيل كانت أيضاً في حالة خطرة ولكنها لم تكن بمثل شدة إصاباتها الداخلية. وكل خوفهم على بيل كان بسبب إصابة حبله الشوكي الذي قد يهدد قدرته على السير، إذا ما نجا. فلولا رحمة الله ما أمكنه تجنب الشلل الكامل. والسؤال الأكبر كان فيما إذا كان سيستطيع استخدام ساقيه. فيبدو أن طريقهما للشفاء الأكيد طويل. لقد كانت هذه أحد أسوأ الحوادث التي شهدتها

الشرطة في السنوات الأخيرة، ونتج عنها سقوط إحدى عشرة ضحية: سائقيْ العربتين وتسعة ركاب من الباص. وخلال فترة عملهم معظم الليل على علاج إيزابيل وبيل غدت الغرف الجراحية على شبه ثقة من أن معدل الوفيات سوف يصل إلى الثلاث عشرة. ومن هنا كان بقاء إيزابيل وبيل على قيد الحياة نوعاً من المعجزة الاستثنائية.

وضّبتْ عاملة الاستقبال بعض المستندات على مكتبها قبل أن تجلس وهي تتنفس الصعداء. لقد ذهبت المديرة المساعدة في فندق كلاريدج إلى غرفة إيزابيل ووجدت جواز سفرها، الذي أفاد بأن زوجها هو أول شخص يجب الاتصال به في حالة الطوارئ. وحصلت على رقم الهاتف في باريس، ورقم هاتف بيل في كونتيكوت. لقد كانت تكره أن تجري اتصالات هاتفية على هذا الشكل. أخذت رشفة من القهوة لكي تشحذ عزيمتها وتتمالك نفسها ثم اتصلت بباريس أولاً. رن جرس الهاتف عدة مرات قبل أن يجيب صوت رجل، وأخذت موظفة الاستقبال نفساً.

- "السيد فوريستر من فضلك". قالت ذلك بلغة فرنسية ذات لهجة بريطانية.

- "أنا هو". قال بلهجة مقتضبة مختصرة. وميزت في لهجته لكنة رجل أمريكي، فسألته بالإنكليزية بسرعة إذا ما كانت إيزابيل زوجته.

- "نعم هي زوجتي". قال ذلك باهتمام. فأخبرته الموظفة بسرعة أنها كانت تتصل به من مشفى القديس توماس وأن إيزابيل تعرضت لحادث سيارة في الليلة الفائتة. وأوضحت له أن سيارتها الليموزين قد ارتطمت بباص،

- "لقد سُجّلت كحالة خطر، وقد خرجت لتوها من العملية الجراحية، يا سيد فوريستر، وأخشى أن أقول لك أنه ليس من تحسن ظاهر حتى الآن. فلديها إصابات داخلية شديدة، وإصابة في الرأس معتدلة. لا نعرف ما قد يحصل خلال الساعات القليلة القادمة. ولكن مما يشجع أنها نجت بعد العملية الجراحية. ويؤسفني أني أخبرك ذلك". قالت ذلك وهي تشعر بالحرج

والارتباك، وساد الصمت كلامها عند النهاية إذ راح يفكر بما قالته.

رد قائلاً: "وأنا أيضاً". لقد بدا مصدوماً. "سوف أجيء إليكم اليوم". غمغم بذلك بشكل مبهم وهو يتساءل إذا ما كان ينبغي عليه أن يتحدث إلى طبيبها أولاً، ولكن المرأة على الهاتف أعطته ما يكفي من التفاصيل حتى لم يعد بحاجة لأن يسأل عن المزيد حتى الآن. فسألها: "هل هي في وعيها؟".

- "لا يا سيدي، ليست كذلك. لم تستعدْ وعيَها بعد منذ الحادث، وقد سكنت آلامها الآن. لقد خسرت الكثير من الدماء". نكّس رأسه، وبدا متفكراً، ولا يعرف ما يجب أن يقول. لقد شعر بأنه من غير المعقول أن تكون إيزابيل هي من يتحدثون عنها. فرغم أن المشاركة بينهما كانت قليلة، وأنهما كانا متباعدين في الفترة الأخيرة، إلا أنها لا تزال زوجته. وتساءل ماذا سيقول لتيدي، أو فيما إذا كان ينبغي عليه أن يتصل بصوفي في البرتغال، وإذ فكر في الموضوع قرر ألا يخبر أياً منهما بشيء. فهذا لن يؤدي إلا إلى إخافتهما. وليس من داعٍ ليتصل بصوفي ويقلقها إلى أن يعرف المزيد من التفاصيل. فكر غوردون أنه من الأفضل ألا يقول شيئاً لأحد إلى أن يرى الحالة بنفسه، ما لم تمت قبل ذلك. لقد أوضحت له عاملة الاستقبال جيداً أن احتمال الوفاة قائم فعلاً، وإذ وضع سماعة الهاتف، جلس إلى مكتبه ممعناً الفكر، وهو يحدق في الفضاء. ما عاد يكنّ لها أية مشاعر منذ وقت طويل، ولكنها كانت أم أولاده، وصار لهما عشرون سنة متزوجين. لقد كان يأمل ألا تكون قد عانت عند اصطدام السيارة، ولوهلة شعر بالامتنان للسماء لأنها لم تمت. ولكن أذهله مدى ضآلة المشاعر التي يكنها لها. فالعواطف التي كان يشعر بها الآن كانت مجرد تعاطف وأسى.

اتصل بشركة الطيران وسأل عن مواعيد الرحلات ثم اتخذ قراره. ما من أحد عرف بالحادث، وهي فاقدة الوعي، وهو في حاجة إلى بعض الوقت ليستوعب بنفسه ما حدث. كانت لديه مواعيد هامة في المكتب بعد ظهر ذلك اليوم. فلم يُردْ أن يتسرع بدافع الذعر. فلا فائدة من وجوده هناك الآن، ثم أنه

كان يكره المستشفيات. بعد لحظة تردد قام بالحجز على رحلة طيران الساعة الخامسة. وهذه سوف تصل إلى مطار هيثرو عند الساعة الخامسة والنصف بالتوقيت المحلي، وسيمكنه الوصول إلى المشفى عند الساعة السابعة ليلاً. فإن توفيت قبل أن يصل إلى هناك فسيكون هذا أمراً مقدراً. هذا ما قاله لنفسه. وإذا كانت لا تزال على قيد الحياة آنذاك فستكون هذه بارقة أمل. ولكن شعر أن رقادها في حالة غيبوبة سوف لن يؤثر عليه وجودُه هناك أو عدمُه. فالأفضل له أن يمضي الوقت في مكان آخر، على حد تفكيره. أو على الأقل هذا ما قاله لنفسه.

وغادر المنزل متجهاً إلى مكتبه بعد قليل، ولم يقل شيئاً لسكرتيرته إلا أنه كان سيغادر المكتب الساعة الثالثة. لم يُردْ أن يحدث جلبة حول الموضوع. ليس من داعٍ لذلك، إلا في حالة وفاتها.

بعد أن اتصلت موظفة الاستقبال في قسم الرعاية المشددة بغوردون من المشفى في لندن، أخذت نفساً عميقاً من جديد كي تستجمع رباطة جأشها لتجري الاتصال الهاتفي التالي. فالاتصال بغوردون وتّر أعصابها إلى حد ما. لقد سألها بضعة أسئلة فقط وبدا هادئاً بشكل غير معقول. وليس من العادة أن يكون رد فعل أي شخص على هكذا مكالمة على النحو الذي كان عليه هو.

وضعت موظفة الاستقبال رقم هاتف عائلة روبنسون أمامها على المكتب، وفي هذه الأثناء سارت ممرضتان أمام طاولة مكتبها في اللحظة التي رن فيها جرس الهاتف على الطرف الآخر. لقد كانتا تتحدثان عن إيزابيل وتحملان سجل البيانات عن حالتها المرضية. ولم تعرف الموظفة مما قاله غوردون على الهاتف شيئاً عن موعد قدومه. لقد اكتفى بشكرها وأغلق السماعة.

ردت أوليفيا، ابنة بيل البالغة الحادية والعشرين من العمر، على الهاتف في منزل عائلة روبنسون. كانت الساعة السادسة صباحاً آنذاك، ولم يكن أحد مستيقظاً، ولكن أوليفيا سمعت صوت الهاتف. وسأل صوت بلهجة إنكليزية إذا

ما كانت السيدة روبنسون هناك.

قالت أوليفيا وهي تتقلب في سريرها: "إنها نائمة. هل يمكنك معاودة الاتصال بعد ساعتين؟" سألت هكذا وهي تتثاءب وعلى وشك أن تغلق السماعة.

– "أخشى أني لا أستطيع الانتظار حتى أعيد الاتصال. فهلاّ طلبتِ منها أن تأتي لتردّ على الهاتف؟".

– "هـل ثمة من خطْب؟" بدأت أوليفيا تصحو، واستقامت في السرير. لم يكن لديها فكرة عن سبب الاتصال الهاتفي هذا ولكن الصوت بدا متوتراً.

– "أريد الحديث إلى السيدة روبنسون شخصياً". بدت أوليفيا قلقة، ووضعت المتصل في حالة انتظار، ونهضت من فراشها. وهرعت إلى الردهة حيث غرفة نوم والدتها، وعند سماع صوت الخطوات في الردهة وفتح الباب، استيقظت سنثيا.

وهمست في عتمة غرفتها: "مرحباً، أأنت على ما يرام؟" لقد كانت نائمة بعمق، ولكن ورغم كل هذه السنين، لا تزال لديها الحاسة السادسة تجاه أولادها: "أأنت مريضة؟".

– "لا، بل إن هناك امرأة إنكليزية على الهاتف تقول بأن عليها أن تتحدث إليك". تبادلت الأم وابنتها النظرات لوهلة، وكان لدى سيندي شعور غريب خفي. لقد أدركت بالغريزة أن الأمر يتعلق ببيل. وهكذا أمور لم تكن قد واجهتْها من قبل، ولكن الآن تتساءل هل ثمة امرأة أخرى في حياته.

– "سوف آخذ المكالمة". قالت بهدوء ثم نهضت: "لا بأس يا أوللي، عودي إلى النوم". ولكن أوليفيا لم تحرك ساكناً. لقد انتابها نفس ذلك الشعور الغامض الخفي. قالت سنثيا للمتحدث على الهاتف: "هذه السيدة روبنسون". وأصغت إلى المتصل وهي صامتة لفترة طويلة، ولكن أوليفيا رأتها تغلق عينيها. وقالت سنثيا: "إلى أية درجة من الخطورة هي حالته؟" هذا ما أمكن لأوليفيا سماعه في نهاية الحديث. "متى؟ هل هو واعٍ؟" وهنا اتسعت حدقتا

عيني ابنتها.

– "أهـو بابا؟" قالت بصوت مليء بالذعر، ففتحت أمها عينيها، وأومأت إلـيها أن تبقى صامتة. لقد كانت تريد أن تسمع كل ما كانت موظفة الاستقبال فـي وحدة العناية المشددة تقوله. ولكنها أومأت برأسها إيجاباً إلى ابنتها جواباً على سؤالها، وجلست هذه إلى سريرها. وسألت أوليفيا أمها: "أهو بخير؟" ولم تجب والدتها عليها، بل كانت تتابع الإصغاء إلى صوت المتحدث على الطرف الآخر.

– "مـا اسـم طبيبه؟" سألت سيندي ودوّنت الاسم على عجل على ورقة صغيرة إلى جانب سريرها، واستفسرت عن بعض الأمور الأخرى، ثم طلبت مـنهم أن يتصـلوا بها في حالة حدوث أية تطورات. "سأكون هناك بأسرع ما أسـتطيع. أرجـو أن تتصلوا بي إذا ما استجدّ أي شيء، وأريد أن تخبروني حالما يستعيد وعيه. سوف أعاود الاتصال بكم بعد نصف ساعة، وأخبركم متى أكـون عـندكم". لقد بدت صامتة ولكن عينيها أوحتا بالكثير. لقد بدت مذهولة وهي تغلق السماعة وتركض أوليفيا للارتماء بحضنها.

– "ماذا حدث؟" وكان هناك بكاء في صوت ابنتها، وشعرت سنثيا بغصة فـي حلقهـا. فما أخبروها به كان رهيباً، وكانت تأمل ألا يكون الأمر بالسوء الـذي بدا عليه. عنق مكسور، إصابة في الحبل الشوكي، وجراحة في العمود الفقـري، واحتمال شلل دائم، وإصابات داخلية، وعظام مكسورة. بل وحتى ما كـانوا واثقين من نجاته. وإذا نجا فلا يعرفون إن كان سيقدر على المشي من جديد. لقد كان يصعب عليها تصور فكرة جلوس بيل على عربة ذات عجلات. وفكرت للحظات أنه ربما كان من الأفضل لـه من عدة نواحٍ لو أنه قد مات. فسـوف يكـره أن يكون على عربةٍ معاقاً بقية حياته. وما كانت لتستطيع أن تتخـيل نفسـها ممرضة له. ماذا لو كان قد أصيب بشلل نصفي أو بأسوأ من ذلـك؟ مـاذا إذا قعـد طريح الفراش وعاجزاً عن الحركة؟ كان عقلها يراجع وبسـرعة كـل احـتمال ممكن قالت لها المرأة عنه، وأخذت مخاوفها تزداد

اضطراباً.

- "بابا تعرض لحادث. وهو في لندن. لقد نسيتُ أنه قال لي أنه سيكون هناك لبضعة أيام. لقد تحدثتُ إليه قبل يومين في نيويورك. إذاً فقد كان يركب سيارة اصطدمت بباص، ويبدو أن حالته سيئة للغاية". فقالت سنثيا بصراحة: "لقد انكسرت عنقه، وتأذى حبله الشوكي. لقد خرج تواً من عملية جراحية، وهو في حال خطرة".

اتسعت عينا أوليفيا وسألت والدتها: "هل سيموت؟".

ترددت سنثيا في الإجابة مطولاً إذ لاحظت الدموع تنهمر من عيني ابنتها. "هذا ممكن". قالت لها ذلك بلطف واستأنفت: "ولكن بابا صلب جداً. وأعتقد أنه سيكون على ما يرام، ولكننا لسنا متأكدين من ذلك بعد. سوف أذهب اليوم إلى هناك".

قالت أوليفيا: "سآتي معك". كانت أوليفيا فتاة طويلة شقراء ممشوقة القامة جميلة الشكل وجميلة الوجه. وفي فصل الخريف ستكون طالبة في الصف قبل الأخير في جامعة جورجتاون إذ أنها تدرس السياسة الخارجية. لقد كانت تلميذة مجتهدة بارعة. وطفلة رائعة، وكان والداها كلاهما فخورين بها حقاً. ورغم قلة الوقت الذي كانت تمضيه مع أبيها إلا أنها كانت مجنونة به. لقد كانت تحبه حب عبادة منذ أن كانت طفلة، وفي آخر سنوات غدت مسحورة بكل ما كان يفعله.

- "أعتقد أنه ينبغي عليكنّ يا بنات أن تمكثن هنا". قالت سنثيا ذلك وهي تلقي عنها الأغطية وتنهض من سريرها. كان يجب عليها الاتصال بشركات الطيران وأن تحزم أمتعتها. لقد كان يحدوها الأمل بأن تتمكن من الحجز على رحلة طيران في وقت الظهيرة، والأمور ستتعقد إذا ما أخذت أوليفيا معها. وهي لم تكن تريد لهن أن ينزعجن. فالأمور كانت تبدو سيئة للغاية بحسب كل ما قالته لها المرأة من المشفى.

- "أنا آتية معك يا ماما". رفعت أوليفيا نبرة صوتها وهي تقول ذلك

وكانت قلما تفعل ذلك. "وحتى لو اضطررت فسوف أشتري بطاقة ركوب طائرة وأسافر وحدي".

- "ما الذي يجري هنا؟" سألتْ جين في نعاس وهي داخلة إلى الغرفة. لقد كانت هذه ضئيلة الجسم شقراء ذات شكل جذاب، وكانت تبدو تقريباً كمثل والدتها عندما كانت في سنّها. لقد كانت قد أنهت لتوها السنة الجامعية الأولى في جامعة نيويورك، وكانت قد دخلت التاسعة عشرة من عمرها. لقد سمعت أصواتهما، ورأت أوليفيا حانقة على والدتها، من العلائم البادية على وجهها.

- "ما سبب شجاركما هذا في مثل هذه الساعة؟".

لقد كانت سنثيا وابنتها الكبرى على خلاف دائم حول كل شيء. وكانت جين هي من يقوم بدور الوسيط أو صانع السلام بينهما كونها هادئة لطيفة المعشر. تثاءبت وجلست على سرير والدتها.

- "لقد تعرض بابا لحادث". قالت أوليفيا لأختها الصغرى، فاتسعت عينا جين دهشاً، وهرعت أمها إلى الهاتف لتتصل بشركة الطيران.

- "أهو بخير؟" لقد كان يصعب عليها أن تتخيل ألا يكون هكذا. لقد كانت أوليفيا تبدو أكثر ألماً وجدية مما هي في العادة، وكان رد فعلها فائق العادة. ولكن جين لم تكن أكيدة من جدية أو خطورة الحال.

- "لا يبدو أنه على ما يرام". قالت أوليفيا وهي تكبت نشيجها، ثم جلست على سرير والدتهما وأحاطت جين بذراعيها التي بدأت تبكي. وتابعت قولها: "لقد انكسرت عنقه، وتأذى عموده الفقري وتقول ماما أنهم ليسوا متأكدين من أنه قد يمشي من جديد. لقد خضع لعملية جراحية لتوه. ولقد ارتطمت سيارته بباص".

قالت جين: "لعنة لعناء"، وتشبثت بأختها الكبرى التي كانت هي دائماً تعزيها، وليس العكس. فجين كانت دائماً الهادئة، المقتدرة المتمالكة لنفسها حتى منذ أن كانت طفلة صغيرة. لقد استطاعت أن تعتني بنفسها أينما ذهبت، وكانت تستطيع الاعتناء بكل من كان في حاجة إلى عونها. لقد كانت تملك الجانب

غير العاطفي من سيندي، أما الآن فهي تبدو مذعورة حتى إنها بدأت تبكي.

- "أمي ستسافر إلى لندن وأنا أيضاً". قالت أوليفيا وهي تبكي.

- "وأنا أيضاً سآتي معكم". قالت جين، ووثبت من على السرير، لتخبر والدتها بمخططاتها. فوقفت قبالتها، وكانت سيندي قد أعدت ترتيبات سفرها على الهاتف. "سنذهب كلتانا معك". قالت جين لوالدتها وهي تقف أمامها تماماً، فلوحت لها سيندي بيدها لكي تتصرف. فقد كانت بالكاد تستطيع أن تسمع، إذ كانتا تتحدثان بصوت مرتفع. ثم وضعت يدها على سماعة الهاتف وتحدثت إلى جين:

- "أعتقد أن عليكما كلتاكما البقاء هنا. سأتصل بكما إذا ما شعرت أن حضوركما ضروري".

- "إما أن نذهب معك، أو سنذهب وحدنا". قالت جين بعزم وحزم، وأدركت والدتها من خبرتها بابنتها أن الجدال معها سيكون عقيماً لا طائل تحته. كانت تعرف أنه بإمكانها أن تجعل أوليفيا تغير رأيها، ولكن جين حازمة وعازمة كصخرة لا تهتز ولا تتحرك.

- "متى سنغادر؟".

- "هناك رحلة طيران الساعة الحادية عشرة وأربعين دقيقة". أجابت سيندي، ثم غيّرت حجزها على الهاتف. فقالت لوكيل شركة الطيران أنها تريد حجز ثلاثة مقاعد في درجة رجال الأعمال. وبعد دقيقة وضعت السماعة، وقالت لابنتيها أن عليهن مغادرة المنزل الساعة التاسعة. فكان لديهن ساعتان ليوضبْنَ أمتعتهن، ويرتدين ملابسهن، ويحزمْنَ حقائبهن. إن الوقت المتوفر لديهن لا يكفي حتى لعودة طائرة بيل إلى نيويورك كي تقلّهم.

- "سأعدُّ الفطور". تطوعت جين للقيام بذلك، بينما جلست أوليفيا إلى السرير وراحت تبكي. فقالت جين: "هيا نحزم أغراضنا"، مخاطبة أختها الكبرى، ثم نظرت إلى والدتها، حين فتحت سيندي خزانتها وأنزلت حقيبة سفر من على الرف. وسألت جين بهدوء: "هل سينجو بابا يا ماما؟" كانت الفتاة

الرصينة المتعقلة تحاول أن تجاهد لتبقى هادئة، في حين استدارت أمها نحوها تنظر إليها بعينين مضطربتين.

- "لست أدري يا حبيبتي. يبدو أن الوقت باكرٌ جداً حتى نعرف ذلك الآن. فهو لا يزال يصارع، وقد خرج لتوه من عملية جراحية". لم تقل لها أن موظفة الاستقبال في وحدة غرفة الإنعاش قد أخبرتها أنه كاد يتوفى مرتين تقريباً، وأنهم استغرقوا ساعتين لإخراجه من السيارة. "إنه قوي، وفي صحة جيدة، ومتين البنية. وبالتالي سيتحمل الإصابة".

- "كيف حدث ذلك؟" سألت جين، وهي تمسح الدموع من عينيها.

- "لا أعلم. كل ما أعرفه هو أن سيارته الليموزين قد اصطدمت بباص. لا بد أن الحادثة كانت مريعة، فقد مات أحد عشر شخصاً. ونحمد الله أن والدك لم يكن واحداً منهم". قالت ذلك، وبعدها غادرت جين الغرفة، وبقيت الأم وهي تحاول أن تفكر فيما تريد أن تحزمه.

وبينما كانت تضع بنطالاً فضفاضاً وقميصاً قصير الكمين وكنزة داخل الحقيبة، كان كل تفكيرها منحصراً في المضاعفات التي ستطرأ على بيل. لقد كانت متأكدة بما لا يرقى إليه الشك بأنه إذا كان سيتأذى بشدة فإنه، بالتأكيد، سيفضل ألا يعيش. لم تكن تعرف بشكل أكيد ما كانت تتمنى له الآن، فقد كان كل شيء يعتمد على درجة سوء الإصابة التي تعرض لها. ولكنها لم تشأ أن تقول شيئاً من هذا للبنتين. وإذ كانت تحزم ثياباً داخلياً وحذاء في الحقيبة لم تكن تدرك تماماً ما تشعر به هي نفسها. فقد أمضت أكثر من نصف حياتها وهي زوجة له، وما عادت تحبه الآن، ولكن مهما يكن من أمر فقد كانا صديقين. وكان والد أطفالها، وزوجاً لها لثلاثين سنة. لقد كان هناك رجال آخرون في حياتها، وزواجهما كان قد فرغ من معناه وجوهره منذ زمن بعيد، بل حتى إنها فكرت بطلاقه مرة أو اثنتين، عندما كانت على علاقة مع رجال آخرين. ولكن لم يخطر لها أبداً كل تلك السنين أنه قد يموت. ومجرد التفكير في ذلك الآن غيّر كل شيء.

ما كانت تفكر به سنثيا فجأة الآن هو كيف كان بيل عندما كانا صغيرين، وكم كانت تحبه، وكم كانا سعيدين في بداية زواجهما. لقد بدا وكأنها ترى استعراضاً لأحداث ثلاثين سنة تتسارع أمام عينيها، وهي تدخل إلى الحمام وتدير مرش الماء عليها. وإذ وقفت تحت رذاذ الماء الساخن، وفكرت في أنه قد لا يستطيع السير من جديد، لم تستطع مع ذلك إلا أن تبكي.

غادرن المنزل متجهين إلى المطار بعيد الساعة التاسعة، وكانت سنثيا تقود السيارة، بينما جلست الفتاتان هادئتين في المقعد الخلفي. لم تنبس ببنت شفة، وراحت الفتاتان تنظران عبر النافذة وهما غارقتان في التفكير. كنّ جميعاً يرتدين الجينز والقمصان القصيرة الكمين (تي شيرت) وينتعلن حذاء من ماركة نايكي، وقد أحضرن معهن بضعة أشياء فقط. لقد توقعت سنثيا أنهن قد لا يتمكنّ من مغادرة المشفى كثيراً، وما كانت أي واحدة منهن تهتم لمظهرها. بالكاد سرّحت الفتاتان شعرهما خلال وقت التحضير للسفر. وعندما أعدت لهن جين الفطور قبل أن يغادرن المنزل، لم تأكل أي واحدة منهن. كل ما كنّ يفكرن به هو بيل في المشفى في لندن يصارع للبقاء على قيد الحياة. وبينما كانت طائرتهن تقلع، كان غوردون فوريستر في طريقه إلى لندن جواً في طائرة غادرت مطار شارل دي غول لتوها. وكان من المفروض أن تحط طائرته في مطار هيثرو خلال أقل من ساعة.

وفي المشفى في لندن، لم يكن شيء جديد قد حدث أو تبدل. فقد وُضعَ بيل وإيزابيل في غرفتين خاصتين منفصلتين في جناح العناية المشددة. وكلاهما كانت تعلوه شاشات أجهزة المراقبة الطبية، ولكل منهما فريق طبي خاص، ولقد كانا في حال مزرية للغاية حتى إنهما وُضعا في معزل عن باقي المرضى في الجناح. كانت إيزابيل قد تعرضت لحمى شديدة منذ الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم. وكان قلبها ينبض بشكل غير منتظم، وكبدها قد تأذى بشدة، وكليتاها على وشك الانهيار، وقد عرفوا من الإصابات والجروح والعمليات الجراحية، أن هناك انتفاخاً خفيفاً في دماغها. ولكن مخطط كهربائية

الدماغ أظهر أن دماغها كان لا يزال يعمل. وكان الأطباء متأكدين بوضوح أنه لن يكون هناك تلف دماغي دائم إذا ما نجت. لقد كان صعباً عليهم أن يحددوا أياً من الإصابات الكثيرة التي تعرضت لها هي المسؤولة عن ارتفاع درجة حرارتها، وكانت لا تزال في حالة سبات عميق، من الجروح بقدر ما كان من المخدر والأدوية التي أعطيت لها. من الناحية السريرية، كان من الصعب أن يصدق المرء أنها قد تعيش.

وكان بيل يحقق تحسناً أفضل منها بقليل فقط. لقد ثُبِتَ عُنُقه في جهاز يشبه أدوات التعذيب ذي مسامير وصمولات فولاذية، ووُضعَ إلى ظهره سِنَاد معدني، وقد استلقى على لوح لُمكنهم أن ينقلوه عليه، رغم أنه كان غير واعٍ لما يحدث حوله. فقد كان هو أيضاً في حالة غيبوبة.

– "عائلته ستتصل من الولايات المتحدة في حوالي منتصف الليل". قالت إحدى الممرضات وكانت الساعة آنذاك الساعة السادسة مساء عندما تبادلوا المناوبة. "لقد اتصلت زوجته من الطائرة. إنهم في طريقهم إلى هنا". لومأت الممرضة الأخرى وقامت بضبط صوت تزمير في أحد أجهزة المراقبة. على الأقل كانت علائم الحياة[1] متبدية بشكل جيد عليه أكثر مما هي عند إيزابيلا التي بدت وكأنها تتناوب بين الحياة والموت بشكل مستمر. بل حتى إن بقاءها بدا أقل احتمالاً من بقائه هو. وسألت إحدى الممرضات إذا ما كان أحد سيأتي ليزور إيزابيل أيضاً.

– "لا أعرف. أعتقد أنهم اتصلوا بباريس هذا الصباح، وتحدثوا إلى زوجها، ولكنه لم يحدد موعد حضوره، وقالت كاترين أنه كان يبدو رابط الجأش. وأعتقد أنه كان مصدوماً".

– "يا للمسكين. إن هذه هي إحدى المكالمات التي تشكل كابوساً للمرء". قالت هذا إحدى ممرضات بيل بلهجة تعاطف. "أتساءل إذا ما كان لديها أولاد".

---

(1) علائم الحياة (vital signs) : (العلامات الحيوية): هي المؤشرت التي تدل على الحياة، وهي تحديداً النبض، ودرجة حرارة الجسم، والتنفس، وضغط الدم.

لقد كانوا بالكاد يعرفون شيئاً عن أي منهما، فما من تاريخ طبي، ولا معلومات شخصية، بل فقط جنسيتهما واسم أقرب الناس إليهما، وما جرى في الحادث. ولم يعرف أحد حتى طبيعة العلاقة بينهما، وإذا ما كانت تربطهما علاقة عمل، أو قرابة بشكل ما، أم مجرد صداقة. وما كان بالإمكان التخمين بأي من هذه. حتى الآن إنهما مجرد مريضين في جناح العناية المشددة يصارعان من أجل البقاء. كانوا يتحدثون عن عمل جراحي جديد سيجرونه على إيزابيل وذلك لتخفيف الضغط عن دماغها. وسيعود الجرّاح في أية لحظة ليتخذ قراراً بشأن ذلك. وعندما عاد بعد الساعة السادسة بقليل تحقق من شاشات أجهزة المراقبة، واكفهر وجهه، وقرر أن ينتظر. ما كان يعتقد أنها قد تتحمل عملية جراحية أخرى، ولا أحد يعلم إذا كانت تتحملها فعلاً. لقد بدا أنه من غير المنطقي أو المعقول أن يعرضها لخطر عملية أخرى في هذه المرحلة الحرجة.

كانـت الساعة قد تجاوزت السابعة، وكان الطبيب قد غادر للتو، عندما وصـل غوردون. دخل إلى جناح العناية المشددة بهدوء، وتحدث إلى موظف استقبال يجلس إلى مكتبه، وأخبره عمّن يكون. رفع الموظف نظره إليه، وأومأ برأسـه، وطلـب مـن ممرضـة عابرة أن تقوده إلى غرفة إيزابيل. وتبعها غـوردون دون أن يـنطق بكلمة وعليه علائم الكآبة. لقد استعد لهذه اللحظة طوال النهار، وإذ خطا داخلاً غرفتها، كان يتوقع أن يراها تبدو مريضة جداً. ولكـن مـا رآه كان مختلفاً عن توقعاته. لقد بدت لـه تقريباً وكأنها لفافة من اللحـم غـير واضـحة المعالم، حيث كانت هناك ضمادات وأسلاك وأنابيب وشاشات مراقبة في كل مكان، وحتى رأسها كان ملفوفاً بالشاش، وذراعها ذو الشـريان المصـاب بدرجـة خطيرة كان مضمداً بكثافة أيضاً. الشيء الوحيد المـألوف لـه كان وجهها الشاحب كالأموات والمحاط بالشاش. لقد بدا أنه الجزء الوحيد من جسدها الذي لم يمسّ.

عـندما دخـل إلى الغرفة كان هناك ثلاثة أشخاص إلى جوارها. أحدهم كـان يـبدّل الحقنة الوريدية، وآخر يتحقق من شاشات المراقبة، والثالث كان

يتفحص بؤبؤ عينيها كما يفعلون بشكل متواصل. ولكن مجرد النظر إليها جعل غوردون يشعر بالمرض. لم تنتبْهُ أية عواطف آنذاك إلا الشعور بالرعب مما رآه. لقـد بـدا الأمر وكأنها لم تعد هناك، ولم تعنِ لـه قوقعة روحها المتبقية شـيئاً. لقـد كانت جسداً متكسراً ليس إلا. لم يقل شيئاً، ولم يقترب منها، بينما راحت إحدى الممرضات تتحدث إليه بهدوء ولطف.

– "السـيد فوريستر؟" أومأ برأسه وتنحنح، ولكن لم يعرف ما يقول. وقد شـعر بالارتباك إذ اضطر لرؤيتها بحضور عدد من الناس يركزون أبصارهم علـيه. لـم يعرف ما كانوا يتوقعونه منه. ربما كانوا يتوقعون أن يرتمي عند سريرها، أو أن يقبل أناملها، أو يلمس شفتيها. ولكنه لم يستطع أن يحمل نفسه على الاقتراب منها، لقد كان ينظر إليها وكأنه يحدق في ملاك الموت وهذا ما زرع فيه الشعور بالخوف.

– "كيف حالها؟" سألهم بصوت أجش ومتحشرج.

– "إنهـا تعانـي من حمى. لقد غادرها الطبيب لتوه. لقد كانوا يدرسون احـتمال إجراء عملية جراحية أخرى لها لتخفيف الضغط عن دماغها، ولكنه يـرى أن هناك مجازفة كبيرة في احتمالها لذلك. لذا فهو يؤثر أن يتريث. قال إنه سيعود الساعة العاشرة".

– "ومـاذا سيحدث إذا لم يُجرَ لها الجراحة؟ هل ستصاب بتلف دماغي؟" لـم يكن ليتصور شيئاً أسوأ من أن تبقى على قيد الحياة بدون دماغ يعمل، أو حـتى أن يكون دماغها متضرراً بشدة، وأراد أن يخبر الجرّاح بذلك. لقد فكّر بـأن جهودهم لإنقاذها ستكون لا طائل منها إذا ما آلت إيزابيل إلى وضع أقل مما كانت عليه. لقد كانت جميلة وذكية وموهوبة، ورغم الفروقات والخلافات بينهما، إلا أنها كانت زوجة صالحة بالنسبة له، وأم صالحة لولديه. فأن ينقذها لكـي تـرقد فـي سريرها كجثة حية كان أمراً بغيضاً بالنسبة له، وكان على استعداد لأن يصارع لئلا يصيبها هذا. فما كان يريد لولديهما أن يتذكراها على تلك الحال. أو أن يعيش هو نفسه في هكذا وضع.

– "لا يمكننا التكهن الآن بما سيحدث يا سيد فوريستر. ولكن فحوصات الدماغ كانت مشجّعة. فمن السابق لأوانه أن نعرف الآن ما ستؤول إليه حالتها". كان يستحيل الاعتقاد بأنها قد تنجو لساعات، أو أشهر في حالتها هذه.

– "هل ثمة طبيب هنا أستطيع التحدث إليه؟" سأل غوردون إحدى الممرضات، دون أن تبدو عليه أية علائم عاطفية. لقد شعرت الممرضة وكأنه صديق بعيد لها، أو أحد أقاربها البعيدين وقد جاء إلى المشفى بدافع الواجب. فقد كان غوردون يحتفظ بعواطفه لنفسه.

– "سأعلم الجراح المسؤول بوجودك". قالت الممرضة ذلك وهي تمر بجانبه خارجة إلى الردهة، تاركةً الممرضتين الأخريتين مع إيزابيل. في الواقع، لم تشعر الممرضة بالراحة بسبب موقف غوردون فوريستر. إذ كانت رؤيتها لإيزابيل تمزق فؤادها. لقد كانت إيزابيل جميلة جداً وشابة جداً. ولكن هذا الرجل الذي طار من باريس لرؤية زوجته بدا فاقد الإحساس تماماً. ولم يحصل أبداً أن التقت بشخص على مثل درجة البرودة التي عليها غوردون.

خطا غوردون خارجاً من الغرفة، وسار عبر الردهة، منتظراً من يأتي ويتحدث إليه. ومرت عشر دقائق قبل أن جاء جراح شاب إليه. لقد أكد لغوردون ما كان قد عرفه لتوه، واعترف له بوجود خطر الموت المحدق بها. وقال له إنهم كانوا يناقشون مسألة إجراء عملية جراحية أخرى لها، ولكن كانوا يأملون تفادي العملية ما أمكنهم ذلك. كل ما كان في وسعهم أن يفعلوه هو أن ينتظروا ويروا كيف سيستجيب جسدها للإصابة التي تعرضت لها. وفي تقديره، إنهم سينتظرون طويلاً حتى يحصلوا على نبأ طيب. ولكن شعر أن المرحلة التي وصلوا إليها معها حتى الآن تدل على بارقة أمل وحيدة ولا تزال ضئيلة.

– "يؤسفني قول ذلك يا سيد فوريستر. فإذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة الحادث، لرأينا أن نجاتهما أمر معجزي". وأومأ غوردون برأسه، ثم تركز تفكيره حول نقطة كان قد ذكرها الطبيب الشاب لم تكن في باله قبلاً.

– "ظننتُ أن السائق قد قُتِلَ".

– "نعم لقد مات في الحال، وكذلك الأمر سائق الباص، وتسعة ركاب".

– "أظن أني فهمتُ منك أنك قلت "نجاتهما"؟".

– "نعم قلت ذلك. لقد كان معها راكب آخر. وقد نجا هو أيضاً، رغم أنه ليس بحال أفضل بكثير من زوجتك. إن إصاباته مختلفة عنها، ولكنهما كلاهما في خطر. فحالته تصنّف بأنها خطرة وحرجة جداً". وإذ كان غوردون يستمع إليه انتابه شعور غريب خفي، ولم يستطع أن يتخيل ماذا كانت إيزابيل تفعل في سيارة ليموزين مع رجل آخر، وبخاصةً في تلك الساعة من الليل. لقد كان يعلم أنها جاءت إلى لندن لتشاهد معرضاً في التيت ولتزور معارض وصالات أخرى، ولم يرَ ضيراً في ذلك، أما الآن فالأمر يبدو غريباً.

– "هل تعرف من كان معها؟" سأل غوردون وهو يبدو غير مبالٍ. فلم يظهر على وجهه أية تعابير غير عادية.

– "نعرف اسمه فقط لا أكثر. اسمه وليم روبنسون وهو أمريكي. وأعتقد أن عائلته قادمة الآن بالطائرة. إذ من المتوقع وصولها هنا هذه الليلة". أومأ غوردون برأسه، وكأنه كان يتوقع أن تكون مع أحد أصدقائه القدماء، وكرر الاسم في فكره لوهلة، ورن الاسم في أذنه، وتساءل إذا ما كان صاحب الاسم هو نفس الشخص الذي في باله. فهو يعرف شخصاً اسمه وليم روبنسون التقى به عدة مرات قبل سنوات، وهو شخصية مرموقة في العالم السياسي. وكان يعلم أن روبنسون وسفير فرنسا كانا صديقين قديمين. ولكنه لم يستطع أن يتصور ما كان يفعل مع إيزابيل. فهو لم يكن حتى متأكداً إذا ما كانا قد التقيا قبلاً. ولم يستطع أن يتذكر إذا ما كانت إيزابيل معه عندما تعرف عليه في السفارة. فلقد كانت قلما تخرج. لقد كان ما تفعله إيزابيل معه سراً غامضاً تماماً بالنسبة له.

– "هل سيكون على ما يرام؟" سأل غوردون بنظرة اهتمام، غطت على الأسئلة التي تدور في فكره.

– "لسنا نعلم. لقد انكسرت عنقه، وتأذى الحبل الشوكي العلوي. ولديه إصابات داخلية أيضاً، ولكنها ليست على نفس الدرجة من الخطورة مثل إصابات زوجتك".

– "يبدو أنها تعرضت لإصابات بالغة جداً". قال غوردون. "ولكن هل سيصاب هو بالشلل من إصابة نخاعه الشوكي؟".

– "لا يمكننا الآن الجزم بذلك. فهو لا يزال غائباً عن الوعي، فلم يسترجع وعيه بعد العملية حتى الآن. قد يكون مجرد رد فعل على الإصابة التي تعرض لها في الحادث، أو شيئاً أكثر تعقيداً من ذلك كنتيجة للإصابة التي في عنقه. إن حالته خطيرة أيضاً". لقد خطر لغوردون، وهو يصغي إلى الطبيب، احتمال أن يموتا كلاهما دون أن يجد أحد تفسيراً لما كانا يفعلانه معاً تلك الليلة. وراح غوردون يتساءل هل كان الأمر مجرد صدفة. فلربما كان لديها أصدقاء قدامى في لندن من فترة صباها لم يعرفهم غوردون قد ذهبت لرؤيتهم، ولربما ركبت مع روبنسون سيارة الليموزين لكي يغادرا الفندق. ولكن لماذا كانت خارجاً في تلك الساعة؟ من أين كانا قادمين؟ وإلى أين كانا ذاهبين؟ وكيف كانا؟ ولماذا كانا معاً؟ هل كانا يعرفان بعضهما بعضاً؟ أم أنهما التقيا لتوهما؟ كان هناك ألف احتمال وسؤال يدور في رأسه. وما كان بإمكانه معرفة أي جواب على أي منها وخاصةً إذا لم ينجوا من الحادثة. لقد كان يعتقد أنه يعرف إيزابيل جيداً، بل كان متأكداً من ذلك. فلم تكن من نوع أولئك النساء اللواتي يقمن علاقات عاطفية، أو حتى أن تكون لهن لقاءات غرامية سرية مع الرجال. ولكن مع ذلك فقد كانا معاً في سيارة ليموزين الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ومهما كان السبب، فليس بالإمكان معرفته الآن.

– "هل تود أن تمضي هذه الليلة هنا في المشفى إلى جوار زوجتك؟" سأله الطبيب الشاب، ولكن غوردون سارع لهز رأسه نفياً. لقد كان لديه خوف من غرف المرضى والمشافي والمرضى. لقد كان ذلك يذكّره بأمه على نحو مشؤوم.

– "بما أنها غائبة عن الوعي، فلا أجد من داعٍ لبقائي هنا. بل إن وجودي هنا سيعرقل عمل فريقك. سوف أمكث في الفندق. سأكون في فندق كلاريدج، ويمكنك أن تتصل بي إذا ما استجد أي طارئ. هذا يبدو معقولاً أكثر. أقدر لك الوقت الذي أمضيته معي، وجهودك التي تبذلها من أجل زوجتي". قال غوردون ذلك بلهجة رسمية وقد بدا غير مرتاح، فنهض من جديد. لقد كان واضحاً أنه كان مستاءً للغاية بسبب الانزعاج الذي شعر به في المشفى، وما كان لديه رغبة للعودة إلى غرفة زوجته. "سوف أعرّج عليها وأراها للحظة قبل أن أغادر". وشكر الطبيب من جديد وعاد أدراجه إلى الردهة، وعندما وصل إلى باب غرفتها، كان هناك خمسةٌ من الفريق الطبي يعنون بها، وما كانت تبدو عليها علائم الحياة. فلم يحاول دخول الغرفة، واكتفى بمراقبتهم من الخارج لوهلة، ثم استدار وغادر المشفى دون أن يقول كلمة أخرى. لم يلمس إيزابيل، ولم يقبلها، ولم يقترب من سريرها. وما أن وصل إلى الشارع حتى أخذ نفساً عميقاً.

لقد كان غوردون يمقت المشافي والمرضى والأمراض. لذلك كان تبدي يشكل له إزعاجاً وصعوبة. فهو ما كان يستطيع تحمل هذا. استوقف سيارة وهو يحمل بيده حقيبة سفره التي تحوي أغراضه التي يحتاج إليها لقضاء ليلة واحدة خارجاً، وأعطى السائق عنوان فندق كلاريدج، وشعر بالتوعك قليلاً. لقد كان مرتاحاً للغاية لخروجه من جناح العناية المشددة، ورغم أنه شعر بالأسف من أجلها، إلا أنه لم يستطع أن يحمل نفسه على دخول الغرفة وحتى أن يلمس يدها، ومن حسن حظه أنها لم تكن واعية، هذا ما فكر به، وستكون رحمة من الله إذا ما نجت بدون تلف دماغي. فما كان يريد لها هذا المصير. ولكن بالرغم من مدى الأسى الذي شعر به من أجلها، إلا أنه لم يكن لديه أي إحساس بالخسران، أو باليأس، أو بالخوف من فقدانها. لقد بدت له الآن وكأنها غريبة عنه ترقد إلى سريرها في المشفى وهي مهشمة الجسم. لقد بدت له وكأنها دمية فاقدة الحياة، وما كان ليستطيع أن يصدق أن المرأة التي رآها لتوه هي

الفتاة الشابة التي تزوجها يوماً، بغض النظر عن أنها كانت زوجته لعشرين سنة. لقد بدا له وكأن روحها قد فارقتها، وإذ توقفت السيارة أمام فندق كلاريدج كان كل ما يدور في ذهنه هو السؤال عما كانت تفعله مع بيل روبنسون في سيارة الليموزين. ولكن لم يكن أحد إلا إيزابيل تعرف الجواب على هذا اللغز الغامض، وبيل أيضاً، ولكنه هو أيضاً عاجز مثل زوجته عن إجابته على هذا السؤال.

أخذ البواب حقيبة غوردون منه. لقد كان غوردون قد أحضر معه بضعة قمصان وبعض الثياب الداخلية. فما كان ينوي المكوث طويلاً. لقد جاء ليحدد أو يقيّم الوضع، وكان يعتزم العودة إلى باريس خلال يوم أو اثنين. وأن يعود إلى لندن من جديد عند الحاجة. وقد تكون آنذاك قد توفيت، وربما تكون بقيت على حالتها. لقد أخبره الجرّاح الشاب تلك الليلة أنها قد تبقى في حالة سبات أو إغماء دون أن يطرأ عليها أي تغيير لمدة أسابيع بل وربما أشهر. وليس هناك مجال لبقائه في لندن معها. إذ ينبغي عليه العودة للاهتمام بشؤونه الخاصة، وللإشراف على تيدي الآن، وأن يتابع مجريات الأمور في المصرف. وإذا اضطر لذلك فإنه سيذهب جيئة وذهوباً بين لندن وباريس كل بضعة أيام. ولكنه كان يدرك أنه إذا استمر هذا الوضع هكذا طويلاً فمن الأفضل أن يتصل بصوفي في البرتغال وأن يطلب منها أن تعود إلى المنزل. فعلى الأقل يمكنها أن تعتني بتيدي خلال غيابه. لقد كان يخاف أن يتصل بها، ولكن بعد الذي رآه الليلة، بدأ يفكر أن عليه القيام بذلك. لقد كان في حاجة لأن يضعها في صورة كل شيء إذا ما توفيت إيزابيل.

عرّج غوردون على مكتب الاستقبال وطلب مفتاح غرفة إيزابيل، فخرج المدير المساعد من مكتبه في الحال وعبّر عن أسفه الشديد لمصاب غوردون.

- "يا له من حادث مروّع. إننا آسفون جميعاً وللغاية... يا لهذا الأمر المهول... تلك المرأة اللطيفة... لم نعرف بوقوع الحادث إلى أن اتصلت الشرطة...". وتابع حديثه لعدة دقائق كان غوردون يومئ له برأسه ويوافقه

على كل ما يقوله. "كيف حالها الآن يا سيدي؟" سأله المدير المساعد جزعاً.

- "ليست على ما يرام". ثم فكر بمحاولة معرفة الأشياء الأخرى التي يعرفها المدير المساعد. فقال: "من الواضح أن السيد روبنسون قد تأذى بشدة أيضاً". ونظر في عيني الشاب علّه يكتشف شيئاً، ولكن دون فائدة. وألوى الشاب يديه المتشابكتين بما يوحي بتعاطفه.

- "هذا ما عرفناه أيضاً". كان هذا كل ما قاله الشاب. وكان من المحرج أن يسأله لماذا كانا معاً في سيارة الليموزين، فكان غوردون يبحث عن سؤال مناسب يوجهه للشاب بحيث يحقق الغرض الذي يريده منه. ولكن لم يكن الأمر بهذه السهولة.

قال غوردون على نحو غير محدد: "يا لسوء الحظ الذي أصاب كليهما. إنه صديق قديم لي، ولقد التقيا هنا من دون ريب".

- "نعم على ما أعتقد". قال المدير المساعد وهو يومئ برأسه. "أظن أني رأيتهما يشربان الشاي معاً في البهو بعد ظهر أمس".

- "هل تعرف إلى أين ذهبا ليلة أمس؟" سأله غوردون وكأنه يستقصي عن الحادث، ولكن المدير الشاب هزّ رأسه دلالة عدم معرفته.

- "يمكنني أن أسأل بواب القاعة عما إذا كان قد أجرى لهما حجوزات في مكان ما، فربما عمل ذلك". وخطا مبتعداً للحظة واستعلم من بواب القاعة الذي قال أن السيد روبنسون كان دائماً يقوم بالحجز بنفسه عندما يكون في البلدة، وكان قلما يطلب منهم القيام بذلك، اللهم ما عدا استئجار سيارة، كما فعل هذه المرة. ولكنه يعتقد أن بواب القاعة الآخر قد حجز مكاناً لهما في نادي مارك". ولكنه في إجازة اليوم. يمكنني أن أسأله عندما يعود. ويمكن أن أتصل بنادي مارك إذا أحببت. لسوء الحظ أن السائق قد مات، وأظنك تعلم بذلك. إنه أحد أفضل أصحابنا، وهو ايرلندي، ولديه زوجة وأربعة أولاد. يا لها من مأساة مروعة". قال ذلك وهو يشعر بالحزن والأسى على ما حدث، وشكره غوردون، وأخذ منه مفتاح الغرفة، وسار نحو المصعد وركب المصعد. وكان

لا يزال يفكر بما قاله المدير عن شربهما الشاي في البهو بعد ظهر يوم أمس. وتساءل إذا ما كانا قد التقيا في بعض مناطق الفن والآثار، أو إذا ما كان قد أقلّها بسيارته فقط. لقد كانت بريئة جداً، وبدافع سذاجتها قد تُصادق شخصاً هكذا، وشرب الشاي في بهو الفندق لا يوحي بعلاقة رديئة، ولكن في ذهن غوردون أن تكون الساعة الثانية بعد منتصف الليل في سيارة ليموزين مع رجل ليس بالأمر البريء. وظل عاجزاً عن تصور ما كان يدور بينها وبين بيل روبنسون. لم يَرُقْ له الأمر، ولو حصل هذا مع امرأة أخرى غير إيزابيل لاتضحت الأمور أكثر، ولكن في حالة إيزابيل، لا بد أن هناك سبباً أحمق أو سبباً معقولاً غير خطير قد جعلها تكون معه في السيارة. كان غوردون لا يزال محتاراً حول هذا الموضوع عندما دخل إلى غرفتها.

وسرعان ما انتابه شعور خفي غامض فجائي، كما لو أنها قد توفيت، فنظر حوله، وكان يشعر وكأنها قد ماتت لتوها. كان مكياجها مبعثراً على الطاولة بجانب المغسلة. ورداء نومها كان معلقاً إلى كلاّب خلف باب غرفة الحمام. وكانت ثيابها معلقة بشكل مرتب في الخزانة، وكان هناك مجموعة من الكتيبات والكرّاسات من المتاحف وصالات العرض الفنية موضوعة على الطاولة، ورأى إلى جانبها دفتر ثقاب[1] من بار هاري، وبما أن إيزابيل ما كانت مدخّنة، فقد استغرب وجوده هناك. ثم ماذا كانت تفعل في مكان كبار هاري؟ أو نادي مارك؟ ثم لاحظ إلى جانب أعواد الثقاب التي من مطعم هاري دفتر ثقاب آخر من نادي أنابيل. وعندما رأى ذلك شعر بالسخط يجري في عروقه. فلربما لم تكن أمسيتها مع بيل روبنسون بريئة كما كان يرجو. وتساءل فيما إذا كانت قد ذهبت معه إلى تلك الأماكن. جال بنظره في الغرفة بحثاً عن أدلة أخرى، ولكن لم يجد أي آثار لثياب رجل، أو رسائل، أو قصاصات، أو أزهار مع بطاقة مرسلة إليها منه. كل ما هناك كان مجرد

(1) دفتر الثقاب: (book of matches): علبة كبريت رقيقة مطوية وهي عبارة عن صفين من العيدان الورقية.

دفتري ثقاب في محفظة متموجة أنيقة كان يعرف أنها كانت تحتفظ بها للذكرى. لربما يكون روبنسون قد أقلّها فقط، وهذا ما كان لا يجب أن تقبل به. من جميع النواحي كان يشعر أن الأمر بريء، وإذا كان قد حدث شيء ما بينهما تلك الليلة، أو قبلها، فبالتأكيد قد دفعا ثمنه باهظاً. ولكن مع ذلك لم يستطع أن يعرف نوع الرابط الذي يجمع بينهما، أو إذا ما كان هناك أي رابط على الإطلاق. دَسّ علبتي الثقاب في جيبه، وجلس، وراح ينظر حوله في الغرفة، ثم قرع الجرس ينادي النادل ويطلب منه أن يأتيه بالمشرب المفضّل.

عندما ترجلت سنثيا روبنسون والفتاتان من الطائرة، كانت الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً في لندن. كانت كلتا الفتاتين قد نامت في الطائرة، لفترة قصيرة على الأقل. أما سنثيا فقد أمضت معظم وقت الرحلة شاردة في أفكارها، وتنظر خارج النافذة. وبدأ تأثير ما حدث لبيل يصيبها. وكانت تتوق لرؤيته. فلربما يكون لهما حظ برؤيته قد استعاد وعيه عند وصولهما إلى المشفى، وربما لا يكون للإصابة التي تعرض لها في عنقه وعموده الفقري تأثيرات طويلة الأجل. هذا ما كانت ترجوه، ومن أجله.

استغرقن نصف ساعة للخروج من الجمارك في المطار، وكانت سيارة من فندق كلاريدج في انتظارهن. فذهبن مباشرة إلى المشفى، ووصلن هناك الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. كان جناح العناية المشددة لا يزال في حالة هياج ونشاط صاخب في تلك الساعة، وكان أربعة مصابين قد أُدخلوا حديثاً إلى الجناح قبيل وصول سنثيا وابنتيها. ولكن سنثيا لم تجد صعوبة في تعريف نفسها إلى الممرضات أو إيجاد طبيب تتحدث معه عن بيل. لقد كانت سنثيا ماهرة في هكذا أمور. فاستوقفت طبيباً كان في طريقه إلى غرفة بيل.

نفس الجراح الشاب الذي كان قد تحدث إلى غوردون قبل وقت جلس معها في القاعة وشرح لها الوضع، بينما راحت جين وأوليفيا تصغيان. كان بيل لا يزال في حالة غيبوبة، وما كانت تبدو عليه أية بوادر تحسن حتى الآن. لقد بدأ يظهر عليه انتفاخ كبير في منطقة العمود الفقري التي كانت تضغط

علـى الأعصاب المصابة، وكان التمزق في عنقه شديداً للغاية. عندما وصل الطبيب إلى نهاية حديثه وهو يشرح لهن حالة بيل، بدا مظهر بيل مروعاً جداً، وعـندما رأته سنثيا كانت إلى حد ما على استعداد لتحمل هذا المنظر. لقد كان مثبـتاً إلى أداة تشبه أدوات التعذيب موضوعة إلى عنقه، وقد أُسند إلى جهاز لتثبيـت جسـمه كلـه، وكانت تغطيه الأربطة والجروح والتمزقات والكدمات والخـدوش. كانـت الممرضات تراقبنه، وأجهزة المراقبة تزمر بدون توقف، وكان شاحباً كالأموات حتى إن البنتين شرعتا بالبكاء عندما شاهدتا وجهه. كل مـا أمكـن سيندي أن تعمله هو أن تحدق إليه، وفجأة انفجرت في داخلها كل المشـاعر التي قاومتها منذ سمعت النبأ، فأخذت هذه العواطف منها كل مأخذ. وانهمرت الدموع من عينيها، فما عاد كتلة من الأعراض والأعضاء المهشمة بـل كـان الفـتى التي أحبته عندما كانا في الجامعة، وأمكنها أن تلاحظ مدى الإصـابات القاتلة التي تعرض لها. وبذلت كل قوتها لتتمالك نفسها من جديد، وأن تكون مشجعة لابنتيها.

لقـد وقفت جين وأوليفيا في ركن الغرفة، وتعانقتا وهما تبكيان بصمت، فـي حيـن عدلت إحدى الممرضات جهاز التنفس الاصطناعي، ودنت سيندي بـبطء من سريره. لمست يده وشعرت بأنه ليس هو نفسه، وكانت تبكي بشدة حـتى لـم تسـتطع أن تنحني وتقبله. لقد كانت تفوح من الغرفة رائحة المواد المطهّـرة. كـان بيل عاري الصدر وكانت هناك أجهزة مراقبة مثبتة إلى كل أنحاء جسده.

– "إيـه يا حبيبي. أنا سيندي". قالت لـه هامسةً وقد وقفت إلى جواره. وشـعرت بنفسها فتاةً من جديد، وراحت تنظر إليه، ومثلت الصور تتسابق في رأسـها، بـدءاً من اليوم الذي التقت به فيه، ويوم زواجهما، ويوم أخبرته أنها حـامل. مرت في ذهنها ذكريات ولحظات كثيرة عاشتها معه، والآن هو يرقد هـنا، وقد تبدلت حياتهما إلى الأبد. وكانت عاجزة عن أن تتصور كيف يمكن لحـياتهما أن تعود إلى حالتها السوية الطبيعية من جديد. وشعرت أن ما يهمها

هو أن يبقى على قيد الحياة مهما كان الضرر الذي أصاب جسده، ففجأة صار يهمهـا أن يـبقى علـى قيد الحياة، وما عادت تريد أن تفقده. ولأول مرة منذ سـنوات تكتشف أنها كانت لا تزال تحبه. "أحبك". قالت لـه مراراً وتكراراً. "أريدك أن تفتح عينيك الآن. ها إن البنات هنا. إنهما تريدان أن تتحدثا إليك يا حبيبي".

قالـت لهـا إحـدى الممرضات بلطف: "إنه لا يستطيع سماعك يا سيدة روبنسون".

– "أنت لا تعلمين ذلك". قالت لها سيندي ذلك بحزم. وما كانت من نوع النسـاء الـذي قد يريد المرء أن يجادله، في أي وقت، وخاصةً في مثل هكذا حالـة، فمـا كانت تريد أن تسمع ما تقوله الممرضة لها. إضافة إلى ذلك فقد سـمعت، ومنذ سنين عديدة، قصصاً عن أناس كانوا في حالة إغماء أو غيبوبة ولكن كان يمكنهم سماع كل ما كان يقوله الناس حولهم. وتابعت سنثيا تخاطبه، ومكثـت هـي والبنـتان مدة ساعتين إلى أن جاء طبيب يتحقق من حالة بيل واقترح عليهن أن يأخذن بعض الراحة، وأن يعُدن في الصباح. فليس هناك أي طارئ على حالة بيل حتى ذلك الوقت.

– "هـل من مانع في أن أمكث هنا معه؟" سألت سيندي الطبيب. فهي لم تقطـع كل تلك المسافة من كونكتيكوت لكي تجلس في فندق كلاريدج بدلاً من ملازمة بيل. ثم أنها لم تكن متأكدة بالكلية أو واثقة منهم إلى جواره. لقد كانت تـريد أن تراقب ما كانوا يفعلونه له. ولكن تأثرت بالعناية التي كانوا يقدمونها له.

– "أعتقد أنك يجب أن تذهبي إلى الفندق. ولسوف نتصل بكِ عند حدوث أي تطـور فـي حالته". قال الطبيب بحزم. لقد أمكنه أن يدرك أنها من نوع النسـاء اللواتـي يجـب مخاطبتهـن بشكل مباشر وصريح. لم يكن هناك أي تشـويش حول المريض، ولم يخفوا عنها أية حقائق. لقد كانت تريد أن تعرف كل شيء، ولن تستقر إلا بعد أن تحصل على ذلك. قال لها الطبيب: "أعدك أننا

سنتصـــل بـــك". واستغرقه من الوقت نصف ساعة كي يقنعها بالرحيل. وكان السـائق ينتظرهن في الأسفل، وكانت الساعة عندئذ قد قاربت الرابعة صباحاً. وعندما غادرت سنثيا والفتاتان المشفى كنّ مرهقات للغاية.

لقـد كانـت قد حجزت غرفة في فندق كلاريدج لأوليفيا وجين، وكانت تعـتزم المكوث في غرفة بيل. وإذ فتحت الباب بالمفتاح الذي كانوا قد أعطوه لهـا، انـتابها نفس الشعور الغامض الخفي الذي أصاب غوردون عندما دخل غرفة إيزابيل. لقد شعرت وكأنها كانت تتطفل. لقد كانت حقيبته هناك، وكانت هناك أوراق على عدة طاولات في أرجاء الغرفة، وحزمة من البرشورات من صـالات العـرض الفنية والمتاحف بدت غريبة بالنسبة لها، فمتى تسنى لـه الوقت لزيارة المتاحف؟ ورأت نصف دزينة من الفواتير والوصولات باسم بيل وأحدها كان من مطعم بلر هاري، وآخر من نادي أنابيل، ولكنها كانت تعرف أنه كان يذهب إلى هناك مع أصدقائه أو مع رفاقه رجال الأعمال كلما كان في لندن. لم تجد أن في الأمر ما يريب، وصارت تبكي بعد أن رأت بيجامته. لقد شعرت فجأة بالخوف من أن تفقده، وعندما اتصلت بالبنات لتطمئن عليهن كانتا كلتاهما تبكيان. لقد كان يوماً حافلاً بالعواطف بالنسبة لهن، ورؤية والدهما قد أخافـتهما أكـثر مما أخافت والدتهما. وكان يصعب عليهما التحلي بالأمل بعد رؤيتهما لـــه على تلك الحال. لقد بدا متهشماً متكسراً بشدة، بل شبه ميت.

لم تستطع سنثيا أن تطرد صوت بنتيها وهما تبكيان من رأسها، فارتدت برنس حمام فوق بيجامة بيل ومضت سيراً إلى غرفتهما كي تراهما. لقد كانت تود لو تحتضنهما فقط وأن ترفع معنوياتهما. وبعد ذلك جلست وأمضت نصف ساعة معهما. وكانت الساعة قد قاربت الخامسة فجراً عندما غادرت غرفتهما وعـادت إلـى غرفة بيل. واستلقت هناك تبكي فوق الوسادة التي كانت تعبق برائحته، ولم تغفُ حتى الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة.

عـندما اسـتيقظت سنثيا في ذلك الصباح اتصلت بالمشفى لتطمئن على بيل، فأخبروها أن ما من جديد طرأ على حالته خلال الليل. وصارت علاماته

الحيوية أكثر استقراراً بقليل مما كانت، ولكنه كان لا يزال فاقد الوعي. كانت السـاعة الحاديـة عشرة صباحاً آنذاك، وكانت سيندي تشعر بجسمها منهكاً وكأنهـا كانـت تتعرض للضرب بأنابيب من الرصاص طوال الليل. فاطمأنت علـى البـنات، بأن دخلت بهدوء إلى غرفتهما، ووجدتهما لا تزالان نائمتين. وعادت إلى غرفتها، واستحمت وارتدت ثيابها، ثم بعيد الظهيرة كانت على أتم الاسـتعداد للعـودة إلى المشفى. ما كانت تحب أن توقظ البنتين، فتركت لهما قصاصة ورق. تركت الورقة في غرفتهما، وقالت لهما فيها أنها ستتصل بهما مـن المشفى لتعلمهما بحالة والدهما. نزلت السلالم وركبت السيارة التي كانت في انتظارها، وأعطت العنوان إلى السائق. وخلال الطريق تحدث السائق عن الحـادث. فالسـائق الـذي قُتل في الحادث كان أحد أصدقائه المقربين. وعبّر لسنثيا عن أسفه عما حدث لزوجها، وشكرته.

وجـدت الأمـور على حالها عندما وصلت إلى المشفى، ولازمت غرفة الانـتظار بعد أن تحدثت إلى بيل قليلاً. وراحت تنتظر وصول أي من أطباء بيل. وبينما هي جالسة هناك رأت رجلاً يمر بها. كان طويلاً وذا مظهر متميّز يرتدي بذلة جيدة التفصيل ويحيط به جو من الارستقراطية والسطوة استرعت انتـباهها فـي الحال. توقف كي يتحدث إلى الممرضات إلى المكتب، ورأتهنّ يهـززن رؤوسهن وينظرن إليه نظرة غير مشجعة. كان فمه مطبقاً في تجهم، ثم اختفى في الردهة باتجاه غرفة بيل.

لم تستطع سنثيا إلا أن تتساءل عن السبب الذي حدا به على المجيء إلى هنا. وبعد ذلك رأته يخرج من غرفة مقابل غرفة بيل من الردهة، ويعود للحديث إلى إحدى الأطباء في الردهة. ثم غادر ثانيةً، وشعرت سنثيا أنه مثلها يرزح تحت عبء لعبة الانتظار المرير، مترقباً ما قد يحدث لشخص مريض بشدة. وشعرت ومن دون أن تدرك السبب، أن أمراً غريباً وغامضاً يحيط بهذا الرجل. لقد بدا في غاية الاضطراب والانزعاج في جناح العناية المشددة ولمست في داخله رفضاً وغضباً بآن معاً، وكأنه كان مستاءً للغاية لاضطراره

للوجود هناك. لقد بدا قلقاً، ومنزعجاً ومُحْرَجاً ومريضاً في هيئته. وعلقت سنثيا على مظهره إلى إحدى الممرضات عندما عادت إلى الغرفة لرؤية بيل.

ما كانت سنثيا تجهله آنذاك هو أن إيزابيل كانت قد دخلت في نوبة أكثر سوءاً وأنهم أخبروا غوردون لتوهم أن حالة زوجته قد أصبحت أقل تفاؤلاً بشكل ملحوظ. فإصاباتها العديدة كانت تزيد حالتها سوءاً، وتغرق أكثر في الغيبوبة. لقد قرروا عدم إجراء عملية أخرى، فقد كانوا متأكدين بأنها لن تقاوم أو تصمد أمام أية جروح أخرى تصيب جسمها. وعاد إلى الفندق ليتصل وينتظر أية أنباء جديدة. أخبر سكرتيرته أنه سيبقى في لندن في عطلة نهاية الأسبوع دون أن يبرر لها السبب ثم اتصل بممرضات تيدي ليطمئن عليه. وفجأة شعر بأنه ينوء تحت عبء ثقل مسؤولية ابنه. فهو لم يكن قد اضطر للتعامل مع أي من هذه الأمور من قبل. لم يقل شيئاً لتيدي أو لممرضته بشأن حالة والدته. ولكن غوردون لم يكن مسروراً لوقوع هذه المسؤوليات فجأة عليه.

لقد أخبر الصبي أنه سيغيب عنه في عطلة نهاية الأسبوع، وأنه سيكون في لندن مع أمه.

- "قالت ماما أنها ستأتي البارحة إلى المنزل". قال ذلك وهو يشعر بالخيبة، "فلماذا ستبقى؟".

- "لأن عليها أشياء تعملها هنا. هذا هو السبب". تحدث إليه غوردون بحدة ونزق، ولكن فظاظته لم تُدهش تيدي. فلم يكن لدى والده أي اهتمام أو صبر ليقدمه له.

- "لمَ تتصل بي. هلاّ طلبتَ منها أن تتصل؟".

بدا تيدي حزيناً مكتئباً إلى حد ما، فاستشاط غوردون غضباً. وفجأة توترت أعصابه للغاية، ولم يكن عنده أي تبرير مقنع يقدمه لتيدي عن سبب عدم اتصال أمه به.

- "سوف تتصل بك في نهاية الأمر. أما الآن فلديها أشياء تعملها معي".

لقد كذب على الصبي، ولكن شعر أنه لم يكن لديه خيار آخر. وفي الوقت الحاضر كان الكذب عليه ألطف بكثير من أن يخبره الحقيقة. لقد كان تيدي أضعف بكثير من أن يسمع حقيقة ما جرى، خاصةً وهو بعيد الآن. فإن كان غوردون سيضطر لإخباره بالحقيقة في نهاية الأمر، فإنه ينوي أن يخبره بذلك شخصياً وبحضور طبيب الفتى. ولم يتصل غوردون بصوفي أيضاً. لقد أراد أن يرى كيف ستسير عليه الأمور. فما من داعٍ لإخافتها الآن، وإذا كانت إيزابيل ستموت قبل أن تستعيد وعيها فسوف لن تتمكن صوفي، بحال من الأحوال، أن تراها. اتخذ قراره هذا في صباح ذلك اليوم.

قال تيدي لوالده: "أخبر ماما أني أحبها"، إذ كان والده يعجّل في إنهاء المكالمة الهاتفية. فلم يكن هذا الحديث يروق له. لقد كان يبغض أن يكذب على الصبي، وفي الوقت نفسه لم يكن يريد أن يطلعه على حقيقة ما جرى لإيزابيل.

بعد ذلك بقليل عاد غوردون إلى المشفى ليراها. عندما وصل، وقف في أقصى ركن من الغرفة وتبدو عليه علائم الكرب والمحنة، وراح ينظر إلى ما كانوا يجرونه لها. وخلافاً لسنثيا روبنسون مع بيل، فهو لم يقترب من إيزابيل، ولم يتحدث إليها، بل حتى لم يلمسها. لقد كان اشمئزازه عظيماً، إذ ما كان يستطيع تحمل هذا الوضع.

- "هل تريد أن نتركك على انفراد لبعض الوقت مع زوجتك؟" سألته إحدى الممرضات بلطف. لقد كان في حالة غير مريحة جعلتها تشعر بالإشفاق عليه.

ولكن غوردون أجاب بدون تردد: "لا، شكراً لك. هي لا تستطيع أن تسمعني بأي حال. سأكون في حجرة الانتظار، فلو سمحتِ أخبروني إذا ما طرأ أي تغيير". قال هذا ولاذ بالفرار من الغرفة، ومضى ليجلس في غرفة الانتظار حيث أوليفيا وجين. جاءت سنثيا بعد قليل لتطمئن عليهما، ولم تكن لدى غوردون أدنى فكرة عمَّنْ يَكُنَّ، ولم يهتمّ لشأنهن البتة. واستغرب عندما ابتسمت له سنثيا. لقد كانت تبدو متعبة وشاحبة. لقد كانت قد أراقت شيئاً

على كنزتها القصيرة الكمين، ولكن النظرة التي في عينيها بدت ودية له.

قالــت: "آسفة لما ألمّ بزوجتك". لقد كانت قد سمعت الممرضات تتحدثن عــنها، وكــل مــا عرفته هو أنها كانت في حالة أشد خطورة من حالة بيل، ولكنهن لم يذكرن لها الكثير عنها.

- "شــكراً لــك". قال لها غوردون بلهجة مهذبة ومقتضبة. فلم تكن لديه رغــبة في إنشاء صداقات في غرفة انتظار في جناح عناية مشددة. ولكنه في الوقــت نفســه ما كان ليطيق رعب المكوث في غرفة إيزابيل. ولم يكن لديه مكــان آخــر يذهــب إليه عدا فندق كلاريدج الذي كان يفكر به عندما بادرته سيندي الحديث، ثم، ولشدة ذهوله، مدت يدها تعرفه عن نفسها. فلقد سمعت أنه أمريكــي، ولذلك شعرت برابط غريب يشدها إليه. لقد كانا بعيدين عن الوطن الأم محتجزين في أوضاع ميئوس منها.

- "ســنثيا روبنسون". قالت ببساطة في حين غلب النعاس إحدى ابنتيها، وأمــا الأخــرى فكانت مستغرقة في مطالعة مجلة كانت قد اشترتها من ردهة المشــفى. ولــم تُــبدِ أي منهما انتباهاً إلى سنثيا أو غوردن. أما غوردون فقد اتســعت عيــناه اندهاشاً واهتماماً بشكل واضح عندما سمع بالاسم، ولاحظت ســنثيا ذلك، وقالت: "أنا هنا مع زوجي. لقد تعرض لحادث سيارة قبل يومين. ولقــد طــرنا إلى هنا ليلة أمس". وتساءل وهو يصغي إليها إذا ما كانت تعي الموقــف تماماً. فإن كانت ذلك، فهذا ما كان ليسيئها على ما يبدو. فقلقها كان منصــباً على حالة زوجها، ووجد غوردون في ذلك لباقة منها. لقد كان فكره مشغولاً في التفكير بالسبب الذي جمع زوجته وزوجها معاً أكثر منها. فاعتزم غوردون أن يكون صريحاً معها.

- "أعــتقد أنــك تعرفين أن زوجتي كانت مع زوجك في السيارة عندما اصطدم بهما الباص". إذ قال ذلك، صُعِقَتْ سيندي وكأن الباص قد اصطدم بها هي. وأدرك فجأة من ردة فعلها التي تبدت على وجهها بأن ما من أحد أخبرها عن إيزابيل. وراحت سيندي تردد في ذهنها ما قاله غوردون.

- "ماذا تقصد؟" وبدت أكثر شحوباً من قبل.

- "كمــا سمعتِ تماماً. لقد كانا معاً في سيارة الليموزين. ولا أدري لماذا أو كــيف تعــرفا إلى بعضهما. لقد التقيتُ بزوجك عدة مرات قبل سنين، في بــاريس، ولكنــي لا أذكر ما إذا كانت زوجتي معي آنذاك. من الواضح أنهما شــربا الشاي معاً يوم الأربعاء، وأنها كانت معه في الليموزين. هي الآن في حالــة خطرة حرجة، في غيبوبة تامة، وقد لا يتسنى لنا أبداً أن نعرف ما كانا يفعلان معاً، ولا أعتقد أن زوجك في حالة تمكّنه أن يفسر لنا ذلك أيضاً".

جلســت سنثيا قبالَتَه، في كرسي، وهي تبدو وكأنها قد صُعِقَتْ. لقد كان وقــع كلامــه قاسياً عليها. وقالت وهي حائرة ذاهلة: "لم يقل لي أحد شيئاً. لقد كنت أظن أنه كان وحده، مع السائق".

- "مــن الواضــح أنه لم يكن وحده. كانت قد جاءت من باريس لتشاهد بعــض المعــارض الفنية. إذ إن لها شغفاً كبيراً في الفن. ولا أدري ما فعلت أيضاً خلال فترة مكوثها هنا في لندن". حدقت إليه سنثيا إذ تذكرت برشورات الفن التي رأتها في غرفة بيل من معرض الفنون التشكيلية والمتاحف. وسألها: "ألم يذكر زوجك اسمَها أمامك؟ اسمها إيزابيل فوريستر". لقد كان محرجاً لــه أن يناقش المسألة معها، وكان الموضوع مربكاً بالفعل، ولكن كانت لديه أسئلة يريد أجوبة عليها، وكانت هذه المرأة، في هذه اللحظة على الأقل، هي وسيلته الوحــيدة للحصــول عليها. ولكنها هزّت رأسها نفياً. فما كانت تعرفه كان أقل بكثير مما يعرفه هو.

- لــم يسبق لي أبداً أن سمعت باسمها. بل حتى لم أعرف أنه كان في لــندن. فآخــر مرة تحدثتُ إليه كان في نيويورك. ولكننا لا نبقى على اتصال مباشر دائماً". قالت لــه في هدوء.

- "هل أنتما مطلّقان؟" سألها غوردون بدافع الفضول، وصُعِقت لسؤاله.

- "لا، بل هو يسافر كثيراً، وهو مستقل في حياته". لم تُرِدْ أن تخبره أن زواجهما كان ينهار منذ سنوات كثيرة.

- "أمـــا زوجتي فليس الحال هكذا. لدينا ابن عاجز تُعنى به، ومنذ أربع عشـــرة سنة، وهي قلّما تغادر المنزل. وهذه الرحلة هي الأولى التي تقوم بها منذ ســنين، وأعتقد أنها كانت رحلة بريئة تماماً. كنت أفكر أنها ربما التقت بـزوجك فـــي فـــندق كلاريدج، ربما في الردهة. لا أعتقد أنه يجب أن نقفز بأفكارنا إلى استنتاجات بعيدة. ولكن يبدو الأمر غريباً أنهما كانا معاً في سيارة عند الساعة الثانية صباحاً". قال ذلك ويبدو وكأنه يخاطب نفسه.

- "نعــم إن الأمر يبدو غريباً فعلاً". قالت ذلك وهي مستغرقة في تفكير عمــيق. كــان هناك أكثر من سبب كافٍ يجعلها تفكر بأن بيل ربما كانت لديه علاقة عاطفية غرامية، فهي نفسها كان لها عدة علاقات في السنوات الأخيرة، ولــم يكــن هــناك أي اتصال جسدي بينها وبين بيل خلال هذه السنين. ولكن المــرأة التي يصفها غوردون فوريستر لا تبدو مرشحةً لأن تكون عشيقة لـــه يمضي معها عطلة نهاية أسبوع رومانسية في مدينة أخرى. ولم تستطع سنثيا حــتى أن تتصور كيف أمكنه أن يلتقي بها. ولم تَرُقْ لها فكرة وجودهما معاً. خــلال حديــثها مــع غوردون أدركت أن ابنتيها كانتا تصغيان إلى حوارهما باهتمام. قالت سنثيا: "من المؤسف أننا لا نستطيع أن نسألهما عن ذلك". ولكنها لــم تســتطع أن تطرد من فكرها صورة البرشورات الفنية التي شاهدتها. ثم تذكرت الفواتير من نادي أنابيل وبار هاري. فلربما كانت هذه المرأة أقل براءة مما يعتقد زوجها، رغم أن لهما ولد معاق عاجز ورغم أنها كانت متزوجة.

- "إذا ماتا، سوف لن نعرف أبداً الجواب". قال غوردون بكلل وإعياء.

- "لو لم يحصل الحادث لما أمكننا ربما حتى أن نعرف. أعتقد أنه ينبغي علينـــا تقـــبل هـــذا الأمر". قالت سنثيا في هدوء. لم تكن متأكدة أنها تريد أن تعـــرف، فثمة أسئلة ما كانت تريده أن يسألها إياها، وكانت هناك أسئلة تودّ لو تسألها له. وبخاصة الآن وهو يصارع من أجل البقاء بعد الحادث، هنالك زوايا مظلمـــة فـــي حياتها ما كانت تريد أن تنظر إليها. ولكن غوردون كان يتحرى عـــن الموضـــوع باهـــتمام محاولاً أن يستجلي طبيعة العلاقة بينهما. لقد كان

واضحاً أن هذا اللغز كان يزعجه ويقض مضجعه.

قال غوردون متفكراً: "لا أعتقد أن أحداً غيرهما يمكنه أن يخبرنا حقيقة الأمر".

فردت عليه سنثيا وهي تتحدث بطريقة عملية: "إذا كانا ذكيين، وكانت بينهما علاقة ما، فلا أعتقد أن أحداً آخر سيمكنه أن يعرف ما كان بينهما".

- "آمل ألا يكون الحال هكذا. فالسائق كان يمكنه أن يخبرنا".

- "أعتقد أننا نحتاج إلى التغاضي عن هذا الأمر، وألا نبحث عن أجوبة. فكلاهما يصارع للنجاة، وإذا ما بقيا على قيد الحياة، فقد يكون هذا هو كل ما نحتاج إلى أن نعرفه. فما حدث قد لا يكون من شأننا".

- "هذه سماحة وكرم أخلاق منك". قال غوردون ذلك وهو يبدو غير راضٍ تماماً منها على الاقتراح الذي قدّمته. فقد كان يريد أن يعرف إذا ما كانت إيزابيل تخونه. وصار في هذه اللحظة أقل اقتناعاً ببراءتها من ذي قبل.

- "زوجي رجل متحفظ وحذر جداً. ومهما فعل فلن يظهر ذلك للنور. فما كان لـــه أن يتصرف بشكل غير لائق أو أن يسبب فضيحةً لك أو لنفسه".

- "ما كان لزوجتي أبداً أن تقيم علاقة مع رجل آخر". قال غوردون ذلك بلهجة عنيفة قاسية تظهر دفاعه عن كبريائه أكثر من دفاعه عن سمعتها، ولمست سنثيا ذلك من موقفه. واستأنف: "ولا أعتقد أنها كانت على علاقة معه. أنا على يقين بأنه لا بد من وجود تفسير بريء ومعقول لذلك".

- "آمل ذلك". قالت في هدوء، ثم نظرت في عيني غوردون. لقد أرادته أن يعرف موقفها من الموضوع. "أعتقد أنك تعرف أني لا أنوي السؤال عن هذا الأمر".

- "أنا سأسأل زوجتي عن ذلك إذا خرجت من حالة الغيبوبة التي تعيشها. أعتقد أنهما يدينان لنا بتفسير على الأقل".

- "لمـــاذا؟ مـــا الفـــرق الذي سيشكله ذلك؟" سألته هكذا ولدهشة ابنتيها، واســـتأنفت. "مـــاذا سيغير هذا من الأمر؟ ثم أنهما إذا ما توفيا فلن نحتاج إلى

معرفة الجواب".

- "بل أنا في حاجة لأن أعرف. فعلى الأقل أريد أن أعرف إذا ما كانت تخونني بشكل أو بآخر، فمن حقي أن أعرف ذلك، وأنت أيضاً كذلك. وإلا فحسناً أن نغفر لهما".

- "ليس من شأني أن أصفح لزوجي عن هذا الأمر. فهو رجل ناضج. ما كنت لأحب هذا لو كان هناك علاقة مع زوجتك، ولكن ثمة أشياء في الحياة من الأفضل للمرء ألا يعرفها".

- "لا أشاطرك الرأي يا سيدة روبنسون". قال باقتضاب وهو يستغرب أي نوع من الزواج هذا الذي يربطها بزوجها. صحيحٌ أنه لا يختلف كثيراً عن زواجه هو، ولكنه ما كان أبداً ليعترف أمام أي أحد أن زواجه من إيزابيل كان مخزياً، ولسنوات. وفي الواقع ما كان الأمر سيبدو غريباً جداً إذا ما أقامت إيزابيل علاقة غرامية ما، فقد كانت فتية، وحيوية ومليئة بالعواطف الإنسانية. لقد كان غوردون يعرف أكثر من أي شخص آخر درجة الوحدة التي كانت تعيش فيها، وذلك بفضله هو. ويبدو أن هذا هو السبب الذي كان يدفعه لأن يعرف ما كان بينهما، وفيما إذا كانت تخونه، أم أنها كانت مجرد حماقة ارتكبتها بتناول طعام العشاء مع رجل غريب. ولكن مهما كانت الظروف فقد كان وقت وجودها معه متأخراً. وحتى لم يكن ليستطيع أن يتصور أين كانا في تلك الساعة، وماذا كانا يفعلان. لو أن ذلك كان خلال أي ساعة من ساعات النهار لكان على استعداد للاعتقاد بأنهما كانا في معرض للفنون، ولكن هذا لا يُعقل أن يكون في الساعة الثانية فجراً.

عادت عندئذ سنثيا لتلقي نظرة على بيل، ونظرت الفتاتان إلى غوردون في صمت بعد أن غادرت أمهما الغرفة. وما هي إلا بضع دقائق حتى عاد إلى المكتب ليخبرهم أنه عائد إلى فندق كلاريدج، وأن بإمكانهم الاتصال به إذا ما طرأ أي تغيير على حالة زوجته. لقد عانى بما فيه الكفاية في غرفة الانتظار في المشفى، ولم ترُق له سنثيا روبنسون، أو موقفها المتحرر تجاه زوجها.

فعلى الأرجح أنه كان يخونها دائماً، وكانت تبدو على استعداد لتقبل ذلك. وكان لديه ثقة أكيدة بأنها كانت تخونه هي أيضاً من دون ريب. ولكن في الواقع، وإذ وقفت سنثيا إلى جانب سرير بيل، وراحت تنظر إليه، وقد علمت ما علمته الآن من غوردون فوريستر، راحت تشعر بقلبها ينقبض وهي تنظر إلى بيل. ربما كان في مقدور غوردون أن يقول لنفسه أنهما كانا معاً في تلك الساعة في حالة براءة، ولكن سنثيا، ومن كل أعماق قلبها وروحها، لم تكن لتعتقد ذلك. وإذ وقفت تنظر إلى بيل والدموع تنهمر من عينيها، راحت تتساءل إذا ما كانت قد فقدته بعد كل تلك السنين. لقد كانت غير مبالية به ولزمن طويل، وأحياناً كانت فظة معه، لقد كانت تعرف كم كانت بعيدة عنه وباردة العواطف تجاهه، وكم كانت تمقت الحياة التي كان يعيشها. لقد أَبَتْ أن تكون جزءاً من حياته ولسنين، وأما الآن وقد بدت وكأنها ستفقده إلى الأبد، فكل ما كانت تريد أن تقول له هو أنها لا تزال تحبه. ما كانت تعرف إذا كانت ستسنح لها الفرصة لأن تخبره ولو للمرة الأخيرة بأنها كانت تحبه للغاية. وما كانت تعرف ذلك حتى ليلة أمس، ولكنها الآن فقط أدركت ذلك، وأرادت بيل أن يعرف ذلك. لم تستطع إلا أن تتساءل عما كانت تعنيه إيزابيل فوريستر له، وعما إذا كان يحبها. وكانت سنثيا تعرف بأنها إذا ما فقدته في نهاية المطاف، وبسبب غبائها وحماقتها، فإنها كانت تستحق ذلك. لم يكن لديها أدنى شك في ذلك. لقد أدركت فجأة، وإذ هي على وشك أن تفقده، كم كانت طائشة حمقاء ولسنين عديدة.

الفصل الخامس

أمضى غوردون ليلة الجمعة في فندق كلاريدج يقرأ كتاباً كان قد اشتراه في طريقه إلى الفندق عائداً من المشفى. لم يكن لديه أي شيء آخر يفعله. كان بإمكانـــه أن يتصـــل بأصدقائه في لندن، ولكنه لم يكن على استعداد لأن يُخبر الناس عما كان قد حدث. أراد أن يعرف ما حدث مع إيزابيل أولاً. وكان ذاهلاً وهـــو يقرأ الكتاب. واتصل بالمشفى في وقت متأخر من ذلك المساء، قبل أن يأوي إلى فراشه، ولكن لم يكن ثمة تغيير قد طرأ على حالتها. وكان قد مضى علـــى الحادثـــة آنـــذاك أربع وعشرين ساعة، وكانت حالتها الصحية ما تزال معلقـــة. لـــم يطرأ أي تحسن على وضعها بعد، ولكن لم تكن حالتها قد ساءت أكـــثر. لقـــد خطـــر في ذهنه أن يعود إلى المشفى، ولكنه ما كان يطيق فكرة رؤيـــتها من جديد على تلك الحالة. ما كان ليعترف بذلك لأحد ولكن منظرها أفـــزعه. لقـــد كـــان يمقـــت المشـــافي، والمرضى، والأطباء، والممرضات، والأصوات، والروائح.

عندما اتصل غوردون، كانت سنثيا لا تزال جالسة إلى جوار بيل. كانت الفـــتاتان قد عادتا إلى فندق كلاريدج عند العشاء، ولكن سنثيا قررت أن تبقى. فكانـــت تذهـــب إلـــى جناح الممرضات تُعد لنفسها كوباً من الشاي بين الفينة والأخرى، وكانت الممرضات لطيفات معها. ولكن سنثيا كان لديها أمور كثيرة تفكـــر بهـــا، وكانـــت سعيدة لأنها هناك بمفردها في عزلة عن الناس. وكانت تتســـاءل، وهي ترقب زوجها يصارع من أجل البقاء، إذا ما كانت ستتسنى لها الفرصـــة لتبـــدأ الآن لتخبره عن الأشياء التي أرادت أن تقولها له. كان لديها الكثـــير مـــن التعليل والاعتذارات تقدمها لـــه عن سنوات كثيرة. لقد أدركت، ورغـــم أنـــه لم يقل لها الشيء الكثير، أنه كان يعرف بعلاقاتها الغرامية على

الأرجح. فبعض منها كان واضحاً، رغم أن البعض الآخر كان أكثر تحفظاً وكتماناً.

بعد فترة من الزمن، بعد أن يئست من زواجهما، ما عادت تهتم لكتمان علاقاتها. ولا تعرف الآن السبب الأكيد الذي دفعها لتنحيته من حياتها بمثل ذلك التصميم. وفكرت أن السبب قد يكون الغيرة من الحياة الممتعة التي كان يعيشها، ومن الناس الذين كان يلتقي بهم. لم تكن لتطيق حقيقة أنها معتمدة عليه، وتتساءل الآن إذا ما كانت تريد أن تثبت له أنها ما كانت في حاجة إليه. لقد كان يضايقها على الدوام، كزوجة في مشهد الحياة السياسية، أنها كانت مضطرة لأن تسلك كذيل له، ولذلك فقد ابتعدت عنه، على الأقل من الناحية العاطفية. ولقد كان في غاية الانشغال والسفر حتى إنها كانت تشعر بنفسها منبوذة منه في معظم الأحيان. لقد كانت تمقت فكرة أن تكون أماً من سكان الضواحي مع ولدين، فلقد أرادت أن تكون أكثر فتنة وإثارة من ذلك. وأدركت الآن أنها حاولت الحصول على الإثارة في حياتها بالطريقة الخطأ. أدركت الآن ذلك، ولكن خوفها الكبير كان من أنها قد قامت بحساباتها بعد أن فات الأوان كثيراً.

كانت لا تزال تفكر بذلك عند منتصف الليل، وهي جالسة في كرسي في ركن من غرفة بيل. ولجزء من الثانية شعرت بأنها تسمعه يتحرك. "بيل؟" نادته وقد هبت واقفة تنظر إليه عن كثب أكثر، إذ إن الممرضات كن قد غادرن الغرفة لتوهنّ للحصول على حقن وريدية جديدة له، وظنت أنها رأت جفنيه يتحركان كما لو أنه كان يرى حلماً. وكانت واقفة إلى جانبه عندما عادت الممرضات فنظرن في الحال إلى أجهزة المراقبة، ولكن كان كل شيء يسير بشكل طبيعي.

"هل كل شيء على ما يرام يا سيدة روبنسون؟" سألت إحدى الممرضات وهي تفتح أكياس الحقن الوريدية، وترتب الأغطية فوق رجليه.

"أعتقد ذلك... لستُ متأكدة... ولكن لوهلة، اعتقدتُ... يبدو الأمر

سخيفاً... ولكنني شعرتُ أن شيئاً تحرك". نظرت إليه الممرضات عن كثب أكثر، ولكن لم تكن تتبدى عليه أية دلائل للحياة، وأخذْن العلامات الحيوية من جديد. لقد كانت حالته قد استقرت في ذلك اليوم إلى حد ما. لقد مضى على الحادث حوالي ثمانٍ وأربعين ساعة، وسنثيا هناك منذ أربع وعشرين ساعة. لقد بدت هذه الساعات وكأنها دهر لها.

كانت الممرضة المسؤولة تلائم وضع شاشة مراقبة قلبه، وهذه المرة شعرت بحركة خفيفة في إحدى يديه، فراحت تراقبه بعناية، ثم تحققت من عينيه. فسلطت حزمة من الضوء في عينيه، تحت نظر سيندي، وهذه المرة كانت الحركة واضحة لا يمكن أن يخطئوا فيها، فقد أصدر صوتاً صغيراً مكتوماً، كمثل صوت أنين خفيف. لقد كان هذا أول صوت يصدر عنه، واغرورقت عينا سنثيا بالدموع إذ نظرت إليه.

"يا إلهي". همست إذ أصدر الصوت نفسه من جديد. لقد كان صوتاً مبهماً، وارتعش جفناه عندما لمست أصابعه. وضغطت الممرضة على زر جهاز تنبيه يستدعي الطبيب المسؤول عن حالة المريض فالتمع ضوء في المكتب، وخلال ثوانٍ كان الطبيب المناوب هناك.

- "ما الأمر؟" سأل الممرضة وهو يخطو داخلاً إلى الغرفة. لقد كان يقوم على الخدمة منذ ساعات، وبدا متعباً كما شعرت سنثيا. وسأل: "هل من تغيير؟".

قالت الممرضة: "لقد تأوه مرتين".

وقالت سنثيا: "وأعتقد أني رأيتُه يحرك يده قبل دقيقة"، بينما سلّط الطبيب حزمة الضوء إلى عيني بيل من جديد. وهذه المرة أصدر بيل الصوت كرد فعل على الضوء. كانت سنثيا متأكدة من ذلك، ورفع الطبيب نظره إلى الممرضة. كان هناك سؤال في عينيه، فأومأت الممرضة برأسها إيجاباً. ما كانا يريدان أن يقولا لزوجته شيئاً قبل أوانه، ولكنه كان يستعيد وعيه. لقد كانت هذه دلالة واضحة على ذلك، وأول بارقة أمل يحصلان عليها خلال

يومين.

"بيل، هل تستطيع أن تسمعني؟ إنها أنا، أنا هنا... أنا أحبك يا حبيبي. هل تستطيع أن تفتح عينيك؟ أريد أن أتحدث إليك. لقد كنت أنتظرك كي تستيقظ". عندئذ حاول أن يغير وضع كتفيه، ولكنه في هذه المرة تأوه بصوت أعلى بدافع الألم من دون ريب.

"سيد روبنسون، سوف ألمس يدك. فإن كنت تستطيع سماعي، أريدك أن تقبض على إصبعي بأشد ما تستطيع". تحدث الطبيب مباشرةً في أذنه، وهو ينحني فوق وجهه، ثم وضع إصبعاً في يد بيل، وانتظر أن يرى استجابته. لم يكن هناك أية استجابة في بادئ الأمر، وبعد ذلك، وببطء متناه، التفت أصابع يد بيل حول إصبع الطبيب الذي كان قد لامس به راحة يده. ولم يكن هناك أية علامة مرئية أخرى تدل على إدراكه لما يجري حوله، ولكن من الواضح أنه كان قد سمع صوت الطبيب وفهم كلماته.

"يا إلهي، لقد سمع". قالت سنثيا ذلك والدموع تسيل على خدها. "هل تستطيع أن تسمعني يا حبيبي؟ أنا هنا... افتح عينيك، أرجوك...". ولكن لم تتحرك عضلة واحدة في وجه بيل، ومن ثم، وببطء شديد قطب حاجبيه في حين بقيت عيناه مغلقتين، وانفرجت شفتاه إذ مدّ لسانه يبلل به شفتيه الظامئتين. لقد بدا وكأنهم يشاهدون معجزة تحصل إذ بدأ يستعيد وعيه.

"هذا جيد جداً، سيد روبنسون". قال الدكتور ذلك وقد دنا من وجه بيل. "أريدك أن تضغط على إصبعي من جديد". أنّ بيل لحتجاجاً هذه المرة وكأنهم كانوا يضايقونه، ولكنه فعل ذلك ثانية، وهذه المرة باليد الأخرى. ونظرت كلتا الممرضتين والطبيب إلى بعضهم البعض بانتصار. لقد كان يستعيد وعيه. لقد كان من الصعب أن يحددوا إلى أي درجة كان يستطيع أن يسمعهم أو يفهمهم، ولكنه كان يستجيب لهم وهذا ما لا يرقى إليه الشك. وشعرت سنثيا وكأنها تود أن تخرج من جلدها وأن تطرح هؤلاء الأشخاص جانباً وترمي نفسها فوق بيل تعانقه بذراعيها. ولكنها لم تتحرك قيد أنملة من مكان وقوفها. فما كانت تجرؤ

على المجازفة بإيذائه أو إيلامه.

- "هل تعتقد أنك تستطيع فتح عينيك، إذا ما بذلتَ جهدك، يا سيد روبنسون؟ أتمنى عليك أن تفعل ذلك إذا استطعت". حثّه الطبيب على ذلك، ولم تكن هناك أية بادرة من بيل لوقت طويل، وخافت سنثيا أن يكون قد غاب عن وعيه من جديد. لقد بدا كالنائم. ولمس الطبيب كلا جفني بيل عندئذ وكأنه يذكّره بالأمر الذي طلبه منه، وأن يجعله يركّز فكره إلى حيث يقع جفناه. فأطلق بيل زفرة صغيرة، ومن ثم وبدون صوت، فتح عينيه كلتاهما ونظر إليه.

"يا مرحباً". قال له الطبيب الشاب مبتسماً. "هذا رائع جداً. يسرنا رؤيتك يا سيدي".

أصدر بيل همهمة خفيفة ثم أغلق عينيه من جديد، ولكنه كان قد نظر إلى الطبيب بشكل مباشر لثانية أو أكثر. لقد كان هذا أفضل ما أمكنه القيام به حتى الآن. وعاد بيل أدراجه إلى حيث كان. فقد كان يحلم بإيزابيل.

"هل تود أن تحاول ذلك ثانية؟" هذه المرة كان هناك صوت أنين حاد كان يعني "لا". ولكن ما هي إلا دقيقة حتى قام بذلك. "لقد كنا متشوقين للغاية لرؤيتك". قال له الطبيب وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيه. وإذ قال ذلك بدت عينا بيل تجولان في أرجاء الغرفة، ورأى سنثيا تقف عند حذاء السرير، وبدا مشوشاً مضطرباً.

- "مرحى يا حبيبي، أنا هنا. أحبك. كل شيء سيكون على ما يرام". وهنا أغلق عينيه ثانية، وكأن هذا يشكل عبئاً كبيراً عليه، وكأنه لم يُردْ أن يرى أياً منهم. وبعد وهلة، عاد إلى النوم. ولكن كان هذا حدثاً هاماً، وأشرقت الابتسامة على وجوههم وتبعت سنثيا الطبيب إلى خارج الغرفة.

"يا إلهي. ماذا يعني هذا؟" سألت الطبيب وهي ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها. لم يحدث لها أبداً في حياتها أن تعرضت لمثل هذه الهزة، وكان الطبيب مسروراً لأجلها.

"هذا يعني أنه خرج من حالة الغيبوبة، ولكن لا يعني أن الخطر زال عنه تماماً. ولكن هذه بارقة أمل كبيرة".

"هل يستطيع أن يتكلم؟".

"سـوف يفعل ذلك في نهاية المطاف، أنا متأكد من ذلك. فالإصابة التي تعرض لها في رأسه لا تؤثر على النطق. كل ما هنالك هو أنه أصيب إصابة بالغـة". لقـد كانت الإصابة في عنق بيل وعموده الفقري هي أسوأ الإصابات التي تعرض لها من جراء الحادث"، رغم أن الارتجاج الدماغي الخفيف الذي تكبّده أقعده في حالة غيبوبة ليومين. وأردف الطبيب: "إن دماغه بحاجة إلى أن يـتأقلم مع ما حدث له. وإني على يقين من أنه سيتكلم عندما يستيقظ ثانيةً. لقد اختبر جسده صدمةً هائلة. إنها كمثل أن تلطمك الريح وهي ذات قوة مضاعفة عشرة آلاف مرة. فليس لدي قلق بخصوص نطقه". لقد كان قلقاً حول كل شيء آخـر. المشـكلة الحقيقية التي سيعاني منها على المدى البعيد هي في عموده الفقـري واستخدامه لساقيه. ولكن كان من الحسن أنه كان قادراً على تحريك واسـتخدام يديه. لقد كان من الواضح أنه كان ضعيفاً جداً، ولكن هذا عنى أنه سيستطيع تحريك يديه وذراعيه، خاصةً بعد أن يشفى عنقه. "أعتقد أنه بإمكاننا أن نـتوقع أنـه سينام لعدة ساعات، وسوف نرى غداً المزيد من التحسن في الحـركة. يمكـنك الآن العـودة إلـى الفندق لتأخذي قسطاً من النوم يا سيدة روبنسون. فغداً سيكون يوماً طويلاً آخر". ولكنها كانت متوترة ومنفعلة لدرجة أنها ما كانت لتطيق أن تغادر.

"أفـلا تعـتقد أنه سيستيقظ من جديد؟ إن كان سيفعل ذلك، فإني أود أن أكون هنا عندئذ".

"أعتقد على الأرجح أنه منهك جداً الآن من المجهود الذي بذله للتو. لقد كان بالنسبة لـه بمثابة تسلق جبال الألب. لقد قام بأول خطوة، وسيتوجب عليه حمـل أعباء جديدة في الأسابيع القليلة القادمة". بل وربما في السنوات القليلة القادمـة، ولكن الطبيب لم يُردْ أن يقول ذلك لها. لقد كانت هذه البداية وحسب،

ولديهم طريق طويل يقطعونها، ولكن الطاقم الطبي كله كانوا متشجعين جداً من جراء ما قد رأوه الآن.

قالـت سنثيا موافقة: "حسناً. قد أعود إلى الفندق". لم تكن قد رأت بناتها منذ ساعات. وقد كانتا تخططان لطلب خدمة الغرف وتتفرجان على التلفاز إلى أن تعود والدتهما. وكانت قد وعدتهما بأن تتصل بهما حالما تصل إلى غرفتها. وبالكـاد استطاعت أن تنتظر لتخبرهما عما كان قد حدث للتو. وإذ أخبرتهما بذلـك عـندما عـادت إلى فندق كلاريدج، أطلقت أوليفيا صيحةً من الفرح، وراحت جين ترقص قليلاً.

"يا الله يا ماما. هذا عظيم جداً. هل قال شيئاً؟".

"لا. بـل فقـط فتح عينيه مرتين وتأوه متألماً. وشد على إصبع الطبيب مرتيـن، ورآني واقفة هناك. ولكنه عاد للنوم بعدها. يعتقد الطبيب أنه قد يتكلم غـداً. وقالـت الممرضـة أنه ما أن يستعيد وعيه حتى يستعيد أيضاً انتباهه ونشاطه سريعاً بعدئذ". وكانت سنثيا تأمل أن يتحدث إليها في اليوم التالي.

فـي صـباح اليوم التالي، عندما عادت إلى المشفى، كان لا يزال في سـريره وعيناه مفتوحتان وهو ينظر حوله في أرجاء الغرفة مستلقياً، وكأنه لم يكـن متأكداً من مكان وجوده. لقد بدا نصف نائم، وكأنه قد استيقظ لتوه، وكان هكذا فعلاً.

"مرحـباً أيها النؤوم". قالت لـه سنثيا ملاطفة وهي تقترب من سريره. "لقـد كنا ننتظرك طويلاً لتستيقظ". فرمش بعينيه نحوها وكأنه يقول لها "نعم"، ولكـنه كان يبدو حزيناً، وكأنه كان خائب الأمل لرؤيتها، وكأنه كان يتوقع أن يرى شخصاً آخر. لقد كان لديها إحساس بأنه كان ليومئ إليها برأسه لو أمكنه ذلـك، ولكـن ما كان يستطيع أن يحرك رأسه وقد ثُبّتَ عنقُه إلى سناد. "هل تشـعر بتحسن اليوم؟" فرمش بعينيه ثانية. واقتربت منه عندئذ ولمست وجهه بلطف متناه لم يسبق لـه مثيل وقالت له: "أحبك يا بيل. ويؤسفني أن هذا حدث لك. ولكنك ستكون على خير ما يرام". لم يرفع نظره عن نظرها، ثم رأته يبلّ

شـفتيه بلسانه كما فعل في الليلة السابقة، ويغلق عينيه من جديد. لقد كانت تود أن تقـدم لـــه شيئاً يشربه، ولكنها لم تجرؤ على ذلك. وكانت الممرضات قد تركـنها فـي خلوة معه لبضع دقائق. وكانت أجهزة المراقبة ستنبههن إذا ما حـدث أي خلل. "هل آتيك بأي شيء تحتاج إليه؟" همست في أذنه عندما فتح عينيه ونظر إلى وجهها. لقد بدا وكأنه كان قلقاً بخصوص أمر ما، فوقفت قربه تمامـاً بحيـث تستطيع أن تصغي إليه إذا ما قال لها أي شيء. ففتح فاه عندئذ ولكن لم يخرج أي صوت من فمه. "ماذا تريد يا حبيبي؟ ألا تستطيع أن تنطق بالكلمات؟" راحت تحدثه وكأنها تحدث طفلاً. وبدا محبطاً بسبب الصعوبة التي كـان يجدهـا في التعبير عما يريد. لقد استلقى هناك صامتاً لوقت طويل، ثم حـاول مـن جديـد، وكأنه كان يستجمع قواه. فقالت لـــه سنثيا: "البنات هنا". وتابعت حديثها تقول: "لقد جاءتا معي إلى لندن". وهنا طرف بعينيه وكأنه يعبر عن امتنانه لها، ثم عَبَس من جديد، وحاول جهده أن يحلّ لجام فكّيه. وتساءلت إذا ما كان السناد على عنقه كان يؤلمه. فلم يكن يبدو مريحاً، ولكن لم ينِدّ على بيل أي ألم مبرّح.

"أيـن...". وهمس لها أخيراً، بينما امتطّت هي بجسدها جاهدة كي تسمع مـا يقول وراحت تنتظره بفارغ الصبر. ولكنه نطق بالكلمة التالية بجهد كبير: "إي... زا... بيل؟" لقد بذل جهداً كبيراً لينطق بالكلمة، وهو ينظر إلى زوجته. ولم تكن هي متأكدة بأن بيل قد عرفها. لقد كان تركيزه كله منصباً على المرأة التـي كانت معه في السيارة. وشعرت أنه يريد أن يعرف إذا ما كانت إيزابيل علـى قيد الحياة. وقد نطق كلماته بشق الأنفس، وهذا الجهد الذي بذله صعق سنثيا كاللطمة. لقد كانت أول كلمات ينطق بها أمام زوجته هي لكي يسأل عن إيزابيل، وكان هذا كافياً لتعرف ما كانت في حاجة لأن تعرفه.

فقالـت لـــه في هدوء: "إنها حيّة. وسوف أسأل الممرضة عنها". وهنا رمـش لهـا مرتيـن، وكأنه يشكرها، ثم أغلق عينيه. بعد دقيقة، سارت سنثيا خارجـة من الغرفة، فهرعت ابنتاها نحوها سريعاً. ولكنها لم تقل لهما ما كان

قد قاله لها للتو.

"كيف حاله يا ماما؟ هل قال شيئاً؟".

"أعتقد أنه في حالٍ أفضل الآن. إنه يحاول أن يتكلم قليلاً. وقلت لــه إنكما كلتاكما هنا". لقد صُعِقَتْ سيندي مما قاله. فكلماته الأولى كانت عن إيزابيل، ولم تنفك تتعجب من كثرة ما كانت إيزابيل تعني له. لقد كان الأمر يتعدى مجرد الشهامة التي تجعله يسأل عن إيزابيل ما أن استيقظ.

"ماذا قال؟" سألتاها وهما تتطايران من الإثارة وترتعشان سروراً من نجاة والدهما.

"لقد رمش مرتين بعينيه". قالت وهي تصطنع ابتسامة تخفي بها إحساسها بالألم.

"هل يستطيع الكلام؟" سألت جين وهي تبدو وكأنها انعكاس صورة والدتها في مرآة. لقد كانت أوليفيا هي من يشبه بيل. لقد كانتا كلتاهما نسختين طبق الأصل عن بيل وسيندي.

"نطق بضع كلمات، ولكن لا يزال الطريق شاقاً أمامه. أعتقد أنه يستريح الآن". لقد بدت كابتة لنفسها بشكل غريب بينما وعدت الفتاتين أن تعود إليهما بعد دقيقة، ومن ثم سارت نحو المكتب. وتحدثت إلى الممرضة. وسألتها بهدوء: "كيف حال السيدة فوريستر؟" على الأقل كان بمقدورها أن تجيب بيل على ما كان يريد معرفته. فله الحق في ذلك، إذا كان يهتم لأمرها، وحتى ولو كانا مجرد صديقين. لقد ذهبا إلى هاوية الجحيم وعادا منها معاً. فأقل ما يمكنها أن تفعل لــه هو أن تخبره عن إيزابيل، إذ إنه تكبد عناء كبيراً للسؤال عنها.

"أخشى أنها ليست على ما يرام كثيراً. إنها في نفس الوضع تقريباً. لقد تعرضت للحمى ليلة أمس. وزوجها معها الآن".

"هل استعادت وعيها؟" سألت سنثيا بدافع الواجب.

"لا، ولكـن هـذا لا يدهشـنا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الإصابات التي تعرضـت لها والعملية الجراحية التي أجريت لها الليلة قبل الماضية". فأومأت

ســنثيا برأسها، وشكرتها، ثم سارت عائدة إلى غرفة بيل لترى إذا ما كان قد اســتيقظ. ولكنه كان يغط في نومه بشكل خفيف بينما وقفت إلى جواره. ومن ثم، وكما لو أنه شعر بها، تحرك وفتح عينيه. لقد كان يحلم بإيزابيل من جديد. وكان هكذا منذ يومين.

"لقد سألتُ عن إيزابيل من أجلك. إنها في نفس حالتك تقريباً. إنها في غيبوبة، ولم تستعد وعيها بعد، ولكني آمل ذلك". فرمش بعينيه كما لو أنه أراد أن يومئ لها. وبعد وقت طويل، بدأ يجهد نفسه حتى أطلق مجموعة كلمات أخرى.

"شُـــ... كراً... لك... سين. لقد شعرتُ... أنك... كنت هنا". قال ذلك، وأغمض عينيه من جديد، وعاد إلى أحلامه بإيزابيل ثانيةً. لم تكن لديه رغبة في أن يرى زوجته أو أن يتحدث إليها.

"هل تريد أن ترى البنات؟" قاطعت سيندي حلمه من جديد، وفي هذه المرة، رمش بعينيه ثلاث مرات، فابتسمت. "سوف أذهب لأحضرهما، إنهما في الردهة هنا". وما هي إلا وهلة حتى كانتا في الغرفة تثرثران معه، ورأته سنثيا فعلاً يبتسم. وعندما تحدث إليهما، استهلك هذا منه جهداً أقل من قبل. فقدرته على الكلام كانت تعود إليه، لقد كان يتكلم ببطء، ولكن كان فكره صافياً بشكل واضح.

"أنا... أحبكم... يا... بنات".

"نحن أيضاً نحبك يا بابا". قالت لـــه أوليفيا، بينما انحنت جين للأسفل وقبّلت يدَه. لقد كان عليها حقنة وريدية متصلة بها، وواحدة أخرى في الذراع الأخرى. وكانت لا تزال أجهزة المراقبة والأنابيب والحقن تحيط به من كل صوب. ولكن الفتاتين كانتا مسرورتين لأنه على الأقل بقي على قيد الحياة.

"يا لهن... من... فتيات... عظيمات". قال لسنثيا بعد أن غادرا الغرفة.

"أنت نفسك عظيم". هذا كل ما قالته له، وبدا مندهشاً. "لقد أخفتنا لوهلة"،

واضـــافت تقول ذلك. "هل تعلم ما حدث لك؟" سألته. فقد خطر لها أنه ربما لم يدرك ما حصل له.

"لا". لم يتذكر شيئاً على الإطلاق، باستثناء الأمسية الوحيدة التي أمضاها مع إيزابيل قبل الحادث.

لقد اصطدمت سيارتك الليموزين بحافلة، وعلى ما أذكر، فقد استغرقت ساعتين عمليةُ انتشالكما من السيارة".

"لقد... كنت... أخشى... أن... تموت". جاهد كثيراً حتى نطق بهذه الكلمات، ولم تستطع سنثيا أن تمنع نفسها من التفكير في مدى غرابة أن يتحدث عن إيزابيل مع زوجته، ولكن بدا أنه لم يكن لديه مانع في ذلك. وكانت عيناه ممتلئتين بالدموع عندما نظر إليها.

"أعتقد أنها قاربت على الموت". لم تخبره سنثيا بأنها لا تزال عُرضة للموت. "إن زوجها معها هنا الآن". إذ قالت لـــه سنثيا ذلك، فقد كان هذا بمثابة تحذير لبيل لكي ينعطف هو أيضاً إلى الحياة الواقعية. لقد كان لإيزابيل زوج، وهو لديه زوجة وابنتين. لقد كان دورهن الآن لكي يفكر بهن. ولقد كان يعرف ذلك، فرغم كل حبه لإيزابيل، كانت لديه مسؤولية نحوهن. ولكنه كان ما برح يحلم بإيزابيل منذ أيام.

في تلك اللحظة عادت الممرضات إلى الغرفة، إذ كانت لديهن بعض المهمات الواجب عليهن القيام بها، وخرجت سنثيا لتنضم إلى الفتاتين. لقد كان يتوجب عليها أن تستوعب ما حدث لبيل للتو. لم يكن أي سؤال في ذهنها. لقد كانت إيزابيل فوريستر تعني لـــه الكثير، فهي لم تكن غريبة بالنسبة له، كما كان يأمل زوجها، ولم تكن مجرد صديقة عَرَضية. فالسؤال عنها كان غاية بيل من أول كلمات نطق بها. وكانت عيناه ممتلئتين بالقلق والاهتمام بها. حتى إنه كان يظن أنه يرى إيزابيل عندما استيقظ، وليس زوجته.

وإذ جلست في غرفة الانتظار، تنتظر انتهاء الممرضات من واجباتهن،

التقطت سنثيا نسخة من جريدة (هيرالد تريبيون)[1]، ورأت فيها مقالة عن حادث الحافلة، وأجفلت لما رأت صورة لبيل مع امرأة، وإلى جانبهما صورة للباص الذي تحطم بشدة. وقالت المقالة إن أحد عشر شخصاً قد ماتوا في الحادث، وأن سياسياً مرموقاً ذا نفوذ سياسي وهو وليم روبنسون كان في سيارة الليموزين التي اصطدمت بالباص. وكان التعليق تحت الصورة يقول إن الصورة أعلاه قد التقطت قبيل الحادث بلحظات. ويقول أيضاً إن هذا السياسي كان مع امرأة مجهولة الهوية في نادي أنابيل، واصطدمت سيارتهما بالحافلة على بعد حوالى بضعة شوارع من المكان، وإن السائق قد لاقى حتفه. ولكن لم تذكر اسم إيزابيل، وفيما إذا كانت قد تأذت من جراء الحادث. ولكن سنثيا من خلال النظر إلى وجهها أدركت أنها هي من دون ريب. لقد بدت جذابة وفتيّة، بشعر طويل أسود، وبدا واضحاً أنها أجفلت من المصور لحظة التقط الصورة إذ كانت تنظر إليه بعينين متسعتين. وفي الصورة، كان بيل يبتسم وقد أحاط كتفيها بذارعه. رؤية بيل وإيزابيل معاً في الصورة على ذلك النحو جعلت سنثيا تلتقط أنفاسها. لقد بديا سعيدين وعلى سجيتهما، وبدا بيل وكأنه كان على وشك أن يضحك. وهنا شعرت من جديد بالخطورة الممكنة من احتمال وجود علاقة بينهما. وتساءلت فيما إذا كان غوردون فوريستر قد رأى هذه الصورة أيضاً. فمهما كان الرابط بين زوجته وزوجها، فمن غير المحتمل، من حيث مقدار ما يعنيها الأمر، أن يكون لـه أهمية بالنسبة لأي منهما، وخاصةً الآن.

تبادلت الفتاتان النظر عندما رأتا والدتهما تقرأ المقالة. لم تقولا شيئاً البتة، ولكنهما كانتا قد رأتا الصورة أيضاً. ولكن ما كان ليمكنهما أبداً أن تكونا غاضبتين الآن من والدهما رغم ما فعله بها. فما كان قد حدث كان شديد الخطورة حتى إنهما غفرا لـه كل شيء تقريباً. وكان ينتاب سنثيا الشعور نفسه. فما كان يقلقها ليس ما كان قد فعله بل إمكانية الاهتمام بإيزابيل في

(1) هيرالد تريبيون (Herald Tribune): صحيفة يومية صباحية تصدر في أمريكا في مدينة (Sarasota) في ولاية فلوريدا.

الواقع إلى ذلك الحد. فالنظرة التي كانت في عينيه عندما استفسر عنها دلت سنثيا أن العلاقة بينهما لم تكن علاقة غرامية عرضية. لقد وجدت أنه من الصعب أن تعتقد أنهما كانا مجرد صديقين حميمين. ولسوف تتصعق هي وغوردون لمعرفتهما أنهما كانا صديقين حميمين ولأكثر من أربع سنوات.

عادت إحدى الممرضات لتحضرهن آنذاك، ولحقت سنثيا بابنتيها داخلةً إلى غرفة بيل. ولاحظت قبيل إغلاق الباب غوردون مغادراً غرفة إيزابيل. لم تكن لديها الجرأة، ولكنها رغبت لو أمكنها أن تسأله إذا ما كان قد رأى جريدة هيرالد تريبيون. ولكن بدا وكأن ثمة أشياء أكبر من ذلك تدور في ذهنه.

لم تكن إيزابيل تبدي أية علائم للشفاء، ورغم أن الطبيب قال إنها قد تبقى في حالة غيبوبة ولفترة طويلة، إلا أن غوردون كان يخشى أن يصيبها تلف في الدماغ إذا ما نجت. علاوة على ذلك، لقد أخبروه للتو أن قلبها كان ينبض بشكل غير منتظم، وأن مادة سائلة تتجمع في رئتيها. وكان هناك احتمال متزايد بإصابتها بذات الرئة، وكان غوردون يدرك أنه إذا ما حدث هذا فإن إيزابيل ستموت. لقد بدت الحالة تزداد سوءاً. كانت قد مضت ساعة على وجوده هناك، يتحدث إلى الأطباء عن عملية جراحية يزمعون القيام بها، وكان في طريق العودة إلى الفندق عندما رأته سنثيا يغادر غرفة إيزابيل.

بعد مغادرة سنثيا والبنات في وقت متأخرة بعد ظهر ذلك اليوم، عندها فقط سأل بيل ثانيةً عن إيزابيل. فقد عاد إليه النطق خلال النهار. ولم تتوقف البنتان عن التحدث إليه، وكان يضطر للإجابة عليهما. وفي هذه المرة سأل بيل ممرضته عن حالة إيزابيل، وكانت هذه محترسة فيما تقوله له.

"إنها بنفس الحالة تقريباً، لا تزال في غيبوبة، والأضرار التي تعرضت لها هي داخلية أكثر منك". فقد كانت قد انكسرت عظام أكثر عنده، أما أعضاؤها الداخلية جميعها فقد تعرضت للخطر. وكان من الصعب أن يحدد المرء أياً منهما إصابته أشد. ولكنه نجا، وبدا هذا مؤكداً الآن، أما حياة إيزابيل فلا تزال معلقة على كف عفريت، إذ ليس شفاؤها أمراً يقيناً. كل ما كان يفكر

به هو أنه ما كان ليريدها أن تموت، وكان ليضحي بحياته لأجلها.

"هل لي أن أراها؟" سأل في هدوء. لقد كان جل تفكيره ينحصر على هذه النقطة طوال اليوم، رغم صرف سنثيا والبنات انتباهه عنها.

"لا أعتقد أن هذا ممكناً". قالت الممرضة. لقد كانت على ثقة بأن الجرّاح المشرف عليه سوف يعارض في ذلك. فقد كان يتوجب عليه أن يبقى مستلقياً وساكناً ما أمكنه ذلك. فكان يستحيل مع حالته تلك إنزاله عن سريره بينما الإصابات في ظهره وعنقه، كما وأن إيزابيل سوف لن تكون واعية إبان زيارته.

ولكن بيل طلب نفس الطلب من طبيبه تلك الليلة "فقط لدقيقة. لا بد أن أراها، ولطمئن على أحوالها".

"أخشى أن أقول لك أنها ليست على ما يرام تماماً". قال له الطبيب بصدق. "فجسدها كله قد تأذى. لقد كنت أحاول أن أوضح ذلك لزوجها اليوم. فهو يريد نقلها إلى فرنسا. فقلتُ له أن هذا من المستحيل. ففي وضعها الحساس سيؤدي نقلها الآن إلى موتها". شعر بيل بكلمات الطبيب كسكين تنغرس في صدره. فما كان يريد أن يأخذوا إيزابيل بعيداً عنه، على الأقل ليس قبل أن يراها من جديد. وبالتأكيد لن يرضى بأن يعرّضها ذلك للخطر. لقد كان فوريستر مخبولاً ليفكر حتى بنقلها بهذه العجلة. لقد أخبره الطبيب أشياء كثيرة. وأدرك بيل أن حالتها لا تُطَمئن. "لا أعتقد أن من الحكمة أن تراها يا بيل". قال له الطبيب ذلك بتعاطف. لقد كانا يتعاملان مع بعض باستخدام الاسم الأول فقط، وقد اندهش إذ رأى مدى لطف بيل ومعشره الحلو بعد أن أمكن لبيل الآن أن يتكلم. لقد رأى فيه رجلاً ظريفاً رائعاً، خلافاً لغوردون فوريستر الذي كان متكلفاً، متعجرفاً، ويجرح مشاعر كل من حوله. لقد بدأ منذ مطلع النهار يطالب بنقلها. ولما لم يوافقه أحد، اضطر للتراجع عن موقفه، وخاصة عندما أخبره رئيس قسم جناح العناية المشددة بأنه، من دون ريب، قد فقد عقله لاقتراحه هكذا أمر. ثم أوضح له وبلهجة حادة جداً أن هذا سيؤدي إلى مقتل زوجته،

فأسقط في يد غوردون ووافق على أن يتركها هناك. ولكن الطاقم كله كانوا متأكدين أنه سيحاول الكرة ثانية. فقد كان أكثر عناداً بكثير من أن يستسلم.

"ألا يمكنكم دفع سريري ذي العجلات إلى غرفتها عندما لا يكون ثمة أحد هناك؟" سأله بيل بكآبة، وهو بكامل ملكاته العقلية من جديد، وباستياء واضح. "أريد أن أراها كي أطمئن عليها". استغرق الطبيب في التفكير في الأمر لبعض الوقت، فاهتاج بيل. لم يكن الطبيب يعرف بعلاقتهما، ولم يُردْ أن يسأل عنها، ولكن كان جلياً أن رؤية إيزابيل كانت تعني الشيء الكثير لبيل، وما كان ليضير ذلك أياً منهما. كل ما هنالك هو أنه لم يُردْ أن يثير غضب غوردون فوريستر إذا ما اكتشف ذلك.

"بإمكانهم أن يأخذوني الليلة إليها، أليس كذلك؟ سوف لن أبقى طويلاً هناك".

"لماذا لا ننتظر لنرى كيف تكون حالتك غداً؟ ونرى كيف تكون حالتها هي أيضاً. أنتما باقيان هنا ولن تغادرا المكان فليس من داعٍ للاستعجال". لقد كان بيل يشعر بالجنون لمجرد التفكير بأنها على مقربة منه، في الغرفة المقابلة لغرفته بالنسبة إلى الردهة. لو كان بإمكانه، لذهب بسريره إلى غرفتها، ولكنه كان كلياً تحت رحمتهم لينفذوا له مطلبه. لقد كان مقعداً في سريره مثبتاً إلى سناد للعنق وسناد لكامل الجسم، وكان غير قادر على الحركة. بل حتى كان عاجزاً عن أن يرفع رأسه، وكانت ذراعاه واهنتين للغاية. ولم تكن لديه القدرة على الإحساس أو على تحريك نصفه الأسفل. ولم يكن أحد يعرف حتى الآن بشكل أكيد إذا ما كان سيستعيد هذه القدرات أم لا. لقد كان عاجزاً لا حول له ولا قوة كمثل طفل رضيع مضطجع في سريره، وكان لديه أسلوب هادئ ولكن مؤثر في إقناع الطبيب بأن تلك الفكرة ليست سيئة. "أرى أني لن أستطيع أن أنزع الفكرة من رأسك". قال له الطبيب في النهاية مبتسماً. كان الوقت آنذاك قد تجاوز منتصف الليل، ولم يكن ثمة زوار هناك في الردهات. فغادر الطبيب الغرفة بحثاً عن ممرضة بيل وأرسلها مع بعض الأدوية، وعندما عادت تدخل

غرفة بيل، كان رجلان يتبعانها. بدا بيل قلقاً لوهلة، وتساءل عما سيفعلانه له، ولكنهما، وبدون أن ينطقا بكلمة واحدة، أخذا أماكنهما عند رأس وحذاء السرير، وتنحّت الممرضة عندما بدأ بدحرجة عجلات السرير ببطء باتجاه الباب.

فسأل: "إلى أين نحن ذاهبون؟"، وبدا قلقاً، وعندئذ ابتسمت الممرضة، ففهم. لقد لبىّ الطبيب له رغبته، وكان ينتظرهم في الردهة، وتحدث إلى بيل وهو يمر بجانبه.

"إذا نطقت بكلمة عن ذلك، فإني سأعيدك إلى حالة الغيبوبة بنفسي"، قال ذلك بلطف، فضحك بيل. واستأنف الطبيب كلامه قائلاً: "هذا مخالف جداً للأنظمة هنا". ولكنه كان يعتقد أن هذا سيكون له تأثير طيب على بيل، وسوف لن يسبب لإيزابيل أي ضرر أو أذى. بل حتى قد لا تعرف أبداً بأنه كان هناك.

تطلب الأمر منهم بعض المناورة، ولكنهما استطاعا أن يضعا سريره بجانب سريرها. فحرك عينيه نحوها كي يراها، وما أمكنه أن يرى سوى رأسها ملفوفاً بالضماد من خلال زاوية عينه. وإذ مد ذراعه اليسرى إلى أقصى حد أمكنه أن يلمس أصابعها بيده. كانت الممرضتان المعينتان للاهتمام بها تراقبان هذا المشهد، وطلب إليهما الطبيب أن تغضا الطرْف عنهما. لقد كان الجميع يدرك سبب وجود بيل هناك. أمسك بيل أصابعها بيده لبضع دقائق، ثم تحدث إليها، متجاهلاً تماماً الناس الذين يحيطون بهما في الغرفة. واغرورقت عيناه بالدموع إذ لمس يدها.

"مرحباً يا إيزابيل... إنه أنا... بيل... يجب أن تستيقظي الآن. ما برحتِ نائمة منذ وقت طويل... عليك أن تعودي إلينا...". ثم قال لها بصوت ناعم: "أحبك... ها إن كل شيء سيسير على ما يرام". سمحوا له بالبقاء بضع دقائق أخرى، ثم دفعا سريره عائدين به إلى غرفته. وإذ استلقى منهكاً وشاحباً عندما قفل راجعاً إلى غرفته راح يفكر فيها. وبعد ذلك، تذكّر فجأة حلماً كان

قد رآه، وتساءل متى كان ذلك. لقد كانا يسيران معاً نحو ضوء ساطع، وقبل أن يصلا إليه تماماً، أجبرها على أن تعود، فوقفت هناك وهي في غاية الانزعاج. لقد كان أولادهما هناك. وأراد أن يعود إليهم. ولكن إيزابيل كانت تريد أن تواصل سيرها. وأراد الآن أن يخبرها نفس الأشياء التي قالها لها. لقد كان يتوجب عليها أن ترجع. لقد أرادها أن تستيقظ. وجل ما كان يفكر فيه هو أن يراها من جديد. لقد هاله أن يفكر بغوردون وهو يحاول أن يعيدها إلى فرنسا. لقد كان واضحاً، حتى لبيل، أنها لم تكن في حالة تسمح لها بالانتقال إلى هناك. ولكن الطبيب على الأقل طمأنه من جديد أنهم سوف لن يسمحوا بحدوث هذا. وقد شعر بيل بالارتياح من أجلها، وراق له كثيراً أن يعرف أنها كانت قريبة منه.

أوى إلى سريره لينام تلك الليلة وهو يفكر بإيزابيل، وكان ثمة ابتسامة على شفتيه. وإذ كانت سنثيا ترقد في سريره في فندق كلاريدج، فقد كانت هي أيضاً تفكر بها. وفي الغرفة التي كانت إيزابيل قد شغلتها قبل أيام فقط، كان غوردون فوريستر يستلقي في سريره يقظاً يفكر ببيل. لقد كان لديهم جميعاً أشياء كثيرة يفكرون فيها ملياً تلك الليلة، والوحيدان اللذان كانا يعرفان الإجابة على أسئلتهم كانا بيل وإيزابيل.

الفصل السادس

كانت الممرضة تطعم بيل عندما وصلت سنثيا في اليوم التالي. كان يوم أحد، بعد أربعة أيام من الحادث، وكان لا يزال يبدو ممزقاً منهكاً كلياً. ولكنهما كانا كلاهما ممتنين أنه لا يزال مستيقظاً وعلى قيد الحياة.

"كيف تجري الأمور يا حبيبي؟" سألته سنثيا وقد بدت مبتهجة ونشيطة. لقد كان الجو دافئاً في الخارج، وكانت ترتدي كنزة تي شيرت وبنطالاً قصيراً، وتنتعل خفين كانت قد استعارتهما من إحدى بناتها. كانت أوليفيا وجين ستمضيان بعض الوقت تتجولان في لندن، وذهبتا إلى سوق السلع المستعملة. لقد كانت الساعات التي أمضتها سنثيا في المشفى طويلة بالنسبة لهما، وكانتا تخططان للمرور عليها بعد ظهر ذلك اليوم.

"كيف تشعر؟" سألته سنثيا وهي تدنو من سريره. بسبب زاوية السناد المثبت إلى عنقه كان يصعب عليه أن يرى عن بعد. وإذ دخلت مجال الرؤية لديه ابتسم لها.

"كنت أعتقد أننا سنلعب مجموعتين من التنس اليوم". قال لها. لقد بدا أجش الصوت، ولكنه كان يستطيع الآن أن يتكلم بشكل واضح.

كانوا قد حلقوا له ذقنه لتوهم ولأول مرة، وشعر الآن من جديد بأنه أكثر إنسانية، ولكن ما زال الطريق طويلاً أمامه للشفاء الكامل ومغادرة المشفى. كان قد أخبر الطبيب بأن الرؤية لديه كانت ضبابية، ولكن هذا لم يكن مستغرباً. فقد كانت الصدمة التي تلقاها في رأسه كبيرة، وبالتأكيد سيعاني من آثار الغيبوبة لبرهة من الوقت. وكان من المفترض أن يأتي اختصاصي ليفحص ساقيه وعموده الفقري من جديد، وقال له الطبيب المشرف إنهم قد يحتاجون إلى إجراء عملية جراحية له، وهذا يعود إلى رأي الاختصاصي في

الموضـــوع. ولقــد غــدا واضحاً في ذلك الوقت أن شفاء بيل سيستغرق وقتاً طويلاً، ولا يمكن تحديد مدى شفائه بعد. وفيما إذا كان سيسير من جديد كان لا يزال سؤالاً قائماً في ذهن الجميع. كان بيل يدرك ذلك، ولكنه كان يتحاشى أن يناقشـــه مع سنثيا حتى الآن، رغم أنهما كانا يدركان، ونظراً إلى الإصابة في حبله الشوكي، أن هناك احتمال كبير أن يستعمل كرسياً متدولباً بقية حياته.

ما كانت سنثيا على عجلة لمناقشة المسألة معه، فقد كان لديه ما يكفيه من أمور تشغل فكره. ولكنها في الأيام الأربعة السابقة، كانت تفكر مراراً وتكراراً في طبيعة الحياة الزوجية التي سيتشاركان بها الآن. لم تكن لديها فكرة عما إذا كـــان ســيعود إلى العمل من جديد، أو عما ستكون عليه حياته إذا ما اضطر للتقاعد. لم تكن حتى لتستطيع أن تتخيل ذلك، وحتى بيل نفسه كان عاجزاً عن تصور ذلك عندما حاول. ولكن كان يمكن للأمر أن يكون أسوأ من ذلك بكثير، وكانـــا كلاهما يدركان ذلك. فقد كان من المحتمل أن يصاب بشلل كامل. وقد شعر كلاهما بالارتياح لأنه سيستطيع أخيراً أن يستخدم القسم الأعلى من جسمه وذراعـيه بشـــكل كامل. وفيما إذا كان سيستطيع أن يستخدم القسم الأسفل من جسده كان سؤالاً مفتوحاً ويخيفه جداً.

"كـــيف البـــنات؟" ســـأل سنثيا بينما كانت تسحب كرسياً وتجلس عليه. وأمكنها أن ترى أنه كان قلقاً ومتوتراً.

"همـــا في خير، وستذهبان إلى سوق السلع المستعملة اليوم. وقالتا إنهما ســـتأتيان لرؤيـــتك بعد ذلك". لقد كانت الفتاتان قد ارتاحتا للغاية لإدراكهما أن والدهما قد نجا. وشجعتهما سنثيا على الخروج لكي يروّحا عن نفسيهما.

"ينبغـــي أن يعودا إلى المنزل هذا الأسبوع يا سِن. ليس لهما ما يفعلانه هنا".

"لقــد كـــنا بطبيعة الحال ننوي المجيء إلى أوربة خلال أسبوعين. ولا أعـــتقد أنهما تودان تركك الآن". وابتسمت زوجته له، ولكنه تحاشى النظر إلى عينـــيها لدقـــيقة. وتابعت تقول: "ربما سآخذهما إلى باريس لبضعة أيام، إذا ما

كنت ستشعر بتحسن خلال أسبوعين. وعلى كل حال فإنك آتٍ إلى المنزل عما قريب". ولكنها لم تكن متأكدة من ذلك بقدر ما كانت تريده أن يفكر بهذا الأمر. لقد حذرها الطبيب بأن بيل سيُعالج في المشفى لمدة أشهر، وسألت إذا ما كان باستطاعتهم أن يأخذوه إلى الولايات المتحدة في طائرة إسعاف، ولكن الأطباء كانوا يجمعون الرأي على أن الوقت باكر جداً لنقله.

"لا أعـــرف متى سأستطيع الذهاب إلى المنزل يا سن. ولا يمكنهما البقاء هنا طوال الصيف في انتظاري. ولا تستطيعين أنت ذلك أيضاً".

"ليس لدي شيء آخر أفضل أعمله". قالت لـــه بارتياح فابتسم لها.

"لا بـــد أن الأمور تغيرت كثيراً خلال الأسابيع القليلة الماضية. فأنت لا تتوقفيـــن يا سن. أليس لديك دورة كرة تنس، أو لديك مشوار إلى مكان ما، أو ســـتقيمين حفلة لشخص ما؟ سوف تصابين بالجنون إذا ما اكتفيتِ بالمكوث هنا تراقبينني".

"سوف لن أتركك هنا يا بيل". قالت لـــه في هدوء. "سوف أرسل البنات إلـــى المنزل في نهاية الأمر، إلاّ إذا أرادا الذهاب إلى مكان ما وحدهما. (في السراء والضراء)[1] هل تذكر هذا الجزء؟ أنا أذكر ذلك. وسوف لن أذهب إلى المنزل وأتركك وحدك".

"أنـــا غـــلام كبير"، قال لها وقد بدا جدياً أكثر من العادة، ولاحظت في عينـــيه ما ينذر بالسوء. فقلقت، إذ كانت تحاول أن تبقي الأمور هادئة بينهما، ولكنها لم تستطع أن تمنعه من قول ما كان يريد قوله. "لقد كنت على وشك أن أحدثك عن هذا الأمر. أقصد موضوع (في السراء والضراء). لقد مرّ علينا في حياتنا أمور كثيرة سيئة خلال السنوات الأخيرة. وقد كان هذا خطأي، فقد كنت غائباً طوال الوقت، وكنت منهمكاً في معترك السياسة طويلاً، ولم أكن متواجداً

(1) (في السراء والضراء): جزء من التعهد الذي يأخذه العروسان على نفسيهما خلال طقس الزفاف. حيث أن كلاً منهما يعد الآخر أمام الجميع بأنهما سيبقيان معاً في كل الظروف وأنه لن يفرقهما سوى الموت.

كثيراً من أجلك ومن أجل البنات". لقد كان يشعر بالذنب إزاء ذلك، ومنذ زمن طويل، ولكنهما رسّخا نوعاً من التباعد بينهما، وصار من المستحيل إعادة المياه إلى مجاريها في النهاية.

"لقد اعتدنا على ذلك. ولا أحد يلومك على ذلك. أنا أيضاً عشت حياتي الخاصة وكان لدي ما أقوم به. ولست أتذمر حول زواجنا يا بيل". لقد بدت جدية وهي تتحدث إليه. وكانت الممرضة قد تركتهما على انفراد عندما شرعا في الحديث.

"لك الحق أن تتذمري يا سِنْ. وكان يجب أن تشتكي منذ وقت طويل وأنا أيضاً كذلك. ما عدنا نعيش حياة زوجية. وانعدمت هذه منذ سنين. ليس من أشياء مشتركة نعملها معاً، وليس لنا نفس الأصدقاء. حتى إني لا أعلم ما تفعلينه معظم الوقت، ولقد صرت أنسى مؤخراً أن أخبرك أين أكون. ولكي أكون صريحاً، إنني لستُ متأكداً بأنك تهتمين لهذا. حتى إني مندهش من مجيئك إلى هنا. وأحسب أنك كنت لتُسَرّين لو أني فنيت يوماً ما.

لم يكن يشعر بالأسى تجاه نفسه، وكان كل ما يقوله يعبر عن حقيقة مشاعره، ولم يذكر لها بأنه كان يعرف عن علاقاتها الغرامية العديدة خلال السنوات الأخيرة، رغم أنهما تحدثا عن العلاقة التي كان قد أقامها قبل سنوات. لقد كانت سنثيا حانقة بسبب هذه العلاقة، وقالت أنها كانت إهانة لها. ولكنه كان جنتلماناً (رجلاً فاضلاً) لبقاً ولم يُشرْ إلى تلك العلاقات الغرامية السريعة العابرة التي كانت لها مع مدربي التنس ولاعبي الغولف وأزواج صديقاتها التي كانت مهينة له ولسنوات. ما عاد الإخلاص موجوداً في علاقتها الزوجية معه. في البداية كان الأمر نوعاً ما من الانتقام بدافع إحساسها بأنه كان ينبذها عندما كان مهووساً بالسياسة، وكان يفكر أحياناً بأنها كانت نوعاً من استرعاء الانتباه منه، ولكنها اتبعت الطريق الخطأ. وفي نهاية المطاف، اتخذ قراره وحمل نفسه على ألا يهتم بعد. لم يقل لها شيئاً عندئذ، لأنه كان من الأسهل له أن يغض الطرف عما كان يجري، ولكنه كان متأكداً من الأمر، وأدى هذا

في النهاية إلى إماتة الحب الذي كان يكنّه لها. فما كان قد شعر به نحوها قبل ثلاثين سنة قد مات ومنذ وقت طويل. وكل ما تبقى هو صداقة، وكان ممتناً لوجودها هناك معه، ولكنه ما كان يحبها، وما عادت هذه المشاعر كافية للإبقاء على علاقته معها. كان قد أدرك ذلك خلال الساعات التي أمضاها مع إيزابيل قبل أيام.

"هذا أمر مزعج تقوله لي". وأضافت سنثيا قائلةً وقد بدت متألمة: "كيف أمكنك أن تتصور أني سوف لن آتي إلى هنا بعد أن تعرضتَ للحادث؟ لا بد أنك تظن أنه ليس لدي قلب على الإطلاق".

"لا يا حبيبتي. أعلم أن لك قلباً". وابتسم لها بحزن. "ولكنه ليس مكرساً لي ومنذ زمن بعيد، أود لو كان كذلك، وأحياناً أتمنى لو يكون كذلك الآن، ولكنه لم يكن هكذا، وأعتقد أن علينا أن نواجه الأمر الآن. كنت سأتحدث إليك في الموضوع عندما نعود إلى المنزل".

نظرت إليه سنثيا في حزن صامت مطبق طويلاً، والدموع في عينيها. لم تكن لتستطيع أن تصدق ما كان يقول لها. لقد كان الأمر يدعو للسخرية، فبينما أدركت هي لتوها أنها كانت لا تزال مغرمة به، أو أنها أحبته من جديد، تجده يخبرها أنه ما عاد يحبها، وأن كل شيء قد انتهى. لم تكن متيقنة مما يقوله لها. ولكن حتى الآن، لم يَبْدُ التمهيد للموضوع مشجعاً.

"هل السبب في ذلك يعود إلى إيزابيل فوريستر؟" سألته وهي تحاول أن تبدو هادئة. "أنت تحبها أليس كذلك؟" ما عاد ممكناً الاختباء خلف الكلمات. وكانت تتساءل إذا ما كان ينوي الزواج منها. فلم يكن بيل من النوع الذي ليتركها لكي يقيم علاقات غرامية عابرة، لقد فعل ذلك مرة واحدة فقط ولم يكررها، على حد علمها. وقد غدت علاقته تلك مع زوجة عضو الكونغرس جدية جداً وفي غاية الخطورة قبل أن ينهيها. لقد وضع حداً لتلك العلاقة لأنه عرف أنه إذا استمر في علاقته مع تلك المرأة فإنه سيضطر لترك سنثيا والبنات.

"ليس لإيزابيل علاقة بالموضوع"، قال لها صادقاً. وقد كان يجب عليه أن يكون كذلك من أجلهم جميعاً. "إن السبب يعود إليّ. لا أدري لماذا بقينا متزوجين كل هذا الوقت. بدافع العادة، على ما أعتقد. أو ربما الكسل، أو الوهم بأن الأمور ستتحسن، أو الرغبة في الاستقرار، أو لأن الأولاد كانوا صغاراً. ولكن هل هذه الطريقة التي تريدين أن تعيشي فيها؟ متزوجة إلى رجل لا ترينه البتة؟ ما عدنا نتحدث معاً، لم تعد بيننا أية قواسم مشتركة على الإطلاق ما خلا البنات. أنت لك حياتك الخاصة، وأنا لي حياتي. وأنت تستحقين أفضل من ذلك، وكذلك أنا". لقد كان ما يقوله صحيحاً، وكانت سنثيا تعرف ذلك، ولكنها ما كانت ترغب في سماع ذلك.

"لا يزال بإمكاننا أن نسعى لإنجاح الأمر إذا ما رغبنا في ذلك. هذا ما أدركتُ، عندما علمتُ بما حدث لك، بأني لا أزال أحبك. فأنا من كنت حمقاء طوال تلك السنين"، وكان كلاهما يعرف لماذا وكيف، فلم تكن في حاجة لأن تذكر ذلك بالحرف. "أعتقد أني كنت في بادئ الأمر غاضبة لأن حياتك مليئة باللهو والتسلية، ولم يكن لي دور كبير في حياتك... ولذلك قررتُ أن أستمتع أنا أيضاً بالحياة واللهو والعبث. ولكني سلكتُ طريق الضلالة، وشعرتُ بأني تافهة جديرة بالازدراء من نفسي ومنك. ولكن كان يمكن أن يتغير هذا. فأنا الآن أرى مدى ما يجمع بيننا، ومدى حب كل منا للآخر". الدموع التي كانت تترقرق في عينيها انهمرت سريعاً على وجنتيها، وانحنت إلى الأمام ولمست يده. "لقد كدتُ أموت من الرعب عندما شعرتُ بأنني قد أفقدك. أنا أحبك يا بيل. فلا تتخلَّ عنا الآن. لا يزال لدينا متسع من الوقت".

كان ليهزّ رأسه رافضاً الفكرة لو استطاع، ولكن عيناه عبّرتا عن الفكرة التي تدور في رأسه. "لقد فات الأوان كثيراً يا سن. لم يتبقَ لدينا شيء، كل ما بيننا الآن هو هاتان الفتاتان وحقيقة أننا صديقان حقيقيان. ولهذا أنتِ هنا. كنت سأفعل نفس الشيء نحوك. سوف لن تخسريني يا سنْ. ولا يمكنك ذلك. ولهذا السبب أريد أن أضع حداً لزواجنا الآن، حتى تبقى علاقتنا كما هي عليه الآن.

إذا ما تريثنا أكثر، أو استمرينا في القيام بما نفعله، سوف ننتهي إلى أن نكره بعضنا البعض، ولا أريد لهذا أن يحدث لنا أو للبنات. إذا ما أنهينا الأمر الآن فإننا سنبقى صديقين على الدوام".

"أنا زوجتك". قالت وهي تصارع للحفاظ على حياتها الآن، ولكنها ما كانت تحوز انتصاراً معه، وأمكنها أن تدرك ذلك. "ولا أريد أن أكون مجرد صديقة لك".

"هذا أفضل من النقيض. ففي يوم ما سوف تتورطين في علاقة مع الشخص الخطأ، وقد يكون أحد أصدقائي، أو شخصاً يهمني أمره، وعندئذ فسوف أنال منك ومنه. وسوف لن تكون العلاقة بيننا طيبة بعدئذ". لقد كان بيل مستغرباً أيضاً من أنها لم تتسبب بفضائح حقيقية بعد، فعلى الأقل كانت حريصة تجاه هذه الأمور.

"سوف لن أفعل ذلك بعد الآن". قالت وهي تبكي وتتمخط. لقد كان من المهين لها أن يتحدث إليها صراحةً عن حماقاتها وطيشها. ولقد كان محرجاً لها أن تسمع منه بأنه كان يعرف عن كل علاقاتها. فقد كانت تقول في قرارة نفسها أنه لم يعرف البتة. وكانت لترغب أن تقنع نفسها أنه على الأرجح يقوم بنفس الممارسات. ولكنه كان جدياً أكثر إزاء هذه الأمور، ومخلصاً جداً، وعميقاً جداً، وعرفت الآن أنه كان ينبغي عليها أن تدرك ذلك آنذاك. ولربما كان هذا هو السبب في أنه كان مغرماً بإيزابيل. فقد كان رجلاً مهذباً ولطيفاً للغاية، وما كان يشعر به نحو إيزابيل كان جدياً أكثر بكثير. فعندما كان يحب شخصاً ما، كان هذا الحب حقيقياً. "سوف لن أقيم أية مغامرات غرامية. سوف أقلع عن ذلك. أقسم لك. ولستُ الآن على علاقة مع أي أحد". لقد قطعت علاقتها الغرامية العابرة السابقة قبل أربعة أسابيع بعد فترة دامت ثلاثة أشهر مع رجل التقت به في ناديهم الريفي. وهذا كان متزوجاً وله ثلاثة أولاد، وكان يحتسي المشروب المفضل كثيراً. رغم ذلك كان عظيماً في السرير، ولكنها كانت تخشى أن يبوح بعلاقتهما عندما يكون منذهلاً. ولم تكن تريد أن تجازف

وتتعرض للإحراج الذي قد يسببه هكذا رجل.

"سوف تعاودين الكرة. كلانا نعرف أنك ستفعلين ذلك. ولربما تكونين على صواب. فنحن نعيش عزلة شديدة. ويفصل بيننا مليون ميل، حتى عندما نكون معاً. وليس هذا مبتغى أي منا، أو ما يستحقه أي منا"، وبينما كان يتحدث إليها راح يفكر بإيزابيل ثانية.. لقد كان يتملكه القلق عليها خلال النهار، وفي الأحلام، حيث كان يتجول دون هوادة باحثاً عنها طوال الليل.

"هل ستتزوجها؟" وأنهت سؤالها وهي تتشح بالبكاء، وشعر بالاستياء مما كان يريد أن يقوله لها، ولكن آن الأوان لذلك. لقد أدرك ذلك عندما كان مع إيزابيل، ورغم الحادث، فقد أراد أن ينهي الأمر مع سنثيا الآن. فالأمور ستزداد سوءاً، ولم يكن من الإنصاف أن يكون عالةً عليها. فلسوف تكرهه في نهاية المطاف. فهي لم تكن من ذلك النوع من النساء اللواتي يمكنهن أن يمضين سنين، إن لم يكن بقية حياتهن، في العناية برجل مريض. وإذا قُدِّر له أن يكون قعيد الكرسي المدولب بقية حياته، فإن هذا سيكون آخر ما يمكن أن يتقبل أن يبليها به. لقد كان لديه خيار وحيد، وكان يعرف ذلك، وهذا الخيار هو أن ينأى بنفسه ويهتم بنفسه.

"لا. سوف لن أتزوجها. وهي لن تترك فوريستر، إذا ما بقيت على قيد الحياة. إنه ابن حرام نذل، وهو رديء المعاملة معها. ولكن لديها طفل مريض جداً. لقد قلتُ لك أن الأمر لا يتعلق بها. إنه يتعلق بنا. ولسوف تشكرينني على هذا يوماً ما، وذلك عندما تجدين الشخص المناسب. فأنا لم أكن هذا الشخص. لقد أمضينا وقتاً جميلاً في بداية حياتنا، ولكن لم تكن لدينا اهتمامات مشتركة. وأنا ما عدت أثق بالهراء القائل بـ "تجاذب الأضداد"، على الأقل ليس في عصرنا. ففي هذه المرحلة من العمر كلانا بحاجة إلى أناس يهتمون بنفس الأشياء التي نهتم بها. ولكنك كنت دائماً تريدين حياة تختلف تماماً عن تلك التي أردتها أنا. عندما كنا فتيين ما كنت لأهتم لذلك ولكني كنت مخطئاً. أنت بحاجة إلى شخص يحب اللهو، والخروج من المنزل، وحضور الحفلات

وتمضين معه وقتاً طويلاً. ولستِ بحاجة إلى مهووس بعمله ومنهمك به طوال الوقت، ويقلق بخصوص من سيكون الرئيس التالي أكثر مما يقلق بخصوص أولاده". لقد عرف أنه سيشعر بالذنب وإلى الأبد بسبب الوقت الذي قضاه بعيداً عن بناته، مهما تكن العلاقة الوطيدة التي تربطه بهما الآن.

"أنت أبٌ عظيم يا بيل. لقد كنت رائعاً جداً مع البنات. وما كانتا ليحبانك أكثر من ذلك". لقد كانت تعني ما تقول، فقد كانت كلتا ابنتيه تعبدانه، رغم اعتيادهما على عدم تواجده في المنزل. لقد كانتا يحترمان بعمق كل ما كان يفعله وكانتا فخورتين به.

"لم أكن متواجداً بما فيه الكفاية". قال لها بما يوحي بشعوره بالذنب. "أدرك ذلك الآن. سوف لن أتخلى عنهما. ولكن سأحاول يوماً ما. ربما يجب أن أتريث لوهلة". ولكن كان الأوان قد فات تقريباً. لقد كانت كلتاهما في الجامعة، وكانت لهما حياتهما الخاصة، وكان يعرف ذلك أيضاً. لقد فات الأوان على أشياء كثيرة، وتلك الفرص التي ضاعت يوماً سوف لن تعود ثانيةً. وكل ما كان ليمكنه القيام به هو أن يتواجد من أجلهم إلى جوارهم إلى الدرجة التي تسمحان له بها كراشدتين.

"ماذا تريد أن تقول لي؟" سألته وهي تتمخط ثانية. لقد بدت مذعورة وشديدة الاضطراب.

"أعتقد أنه يجب أن أُطلَّق. فهذه هي الوسيلة الوحيدة التي نحافظ فيها على ما تبقى. أريد أن أكون صديقاً لك يا سيندي".

"تباً لك". قالت له ساخطةً ثم ابتسمت وسط الدموع. "ما كنت أظن أنك قد تتخلى عنا". ما كانت لتستطيع أن تصدق ما كان يجري لهما، وخاصةً الآن. كل ما كانت تبغيه قبل ثلاثة أيام هو أن يحيا، ومن ثم وفي ومضة من الزمن تذكرت ما فكرت به صباح ذلك اليوم في كونكتيكوت عندما اتصلوا بها لأول مرة يخبرونها عن الحادث، بأنه إذا ما كان سيُقدّر له أن يبقى مشلولاً بقية حياته فإن الأفضل له لو يموت. لم تكن تريد لذلك أن يحدث له أو لها،

ولكنه حدث الآن، وها هو سيتركها. وكانت لا تنفك تتساءل هل كان مك[illegible]
فقط أم أنه يتفاعل مع الحادث بطريقة هستيرية ما. "هل أنت متأكد بأن هذا [illegible]
ما تريد؟ لقد تعرضتَ لصدمة شديدة. ومن الطبيعي أن...".

قاطعها قبل أن تكمل بقية حديثها، وبدا هادئاً وهو يتحدث إليها: "ك[illegible]
يجب أن نفعل ذلك قبل سنوات يا سن. ولكن لم يكن الأمر بيدي".

"يؤسفني أن تريد ذلك الآن. لقد كنت قد بدأتُ أحبك من جديد طوال [illegible]
الأسبوع. والآن تريد أن تخرج من حياتنا، سأقول لك شيئاً يا بيل روبنسون
إن توقيتك للأمور ليس في محله". وهنا بدأت تبكي بصوت مرتفع أكثر
ونظرت إليه بعينين تدلان على قلب منكسر: "لماذا لم تردعني بما أنك كنت
تعلم بما كنت أفعله كل تلك السنين؟ ولماذا لم تقل أي شيء؟" لقد راعها أ[illegible]
تدرك أنه كان يعرف بعلاقاتها الغرامية. ولكنهما كانا يعرفان كلاهما أنها لـ[illegible]
تكن مسؤوليته أن يوقفها بل كانت مسؤوليتها هي.

"ما كنت أعرف ما أقول. أنا نفسي ما كنت أود مواجهة الأمر. لقد كنت
أضحك على نفسي في البداية موهماً نفسي بأن ذلك ما كان يحدث. ثم اعتدت
على الأمر. لا أدري يا سن... ربما لم أكن أريد أن أكون صادقاً مع نفسي إلى
هذا الحد. أما الآن فليس لدي خيارات. لقد فات الأوان كثيراً وما عاد ينفع
الندم. وما عدت أستطيع أن أكذب على نفسي أكثر. ولربما لن تكون هناك أية
امرأة في حياتي بعد كل هذا الذي حصل، ولكن على الأقل سوف لن يعيش أي
منا أكذوبة. وهذا أفضل. ألا تؤيدينني الرأي؟".

قالت بصدق: "لا. بل إنني أفضل أن أعيش أكذوبة على أن أخسرك.
ولسنا مضطرين لأن نعيش أكاذيب. يمكننا أن نعيش حياتنا بشكل صحيح هذه
المرة، إذا ما أعطيتني فرصة أخرى". وإذ قالت ذلك بدت على نفس شكل الفتاة
التي كان قد تزوجها، ورؤيته لها على هذا النحو حطم قلبه. ولقد تمنى لو أنه
واجه هذه المسألة قبل سنين؛ ولكنه ما كان مستعداً لذلك آنذاك، وانتهى الأمر
بالنسبة له الآن.

"لقد فات الأوان بالنسبة لكل منا. أنت لا تدركين ذلك بعد".

"ماذا سأقول للناس؟" لقد جاء كلامه إليها وكأنه صفعة، ففكرة طلاقه منها
كانت بالإجمال إهانة كبيرة لها حتى إنها تمنت لو تهرب بعيداً وتتوارى عن
الأنظار.

"قولي لهم بأنك أخيراً تعقلتِ ورميتِ بي خارجاً. ربما كان يجب عليك
أن تفعلي ذلك عندما تحامقتُ وبدأتُ أعمل مئة وأربعين ساعة في الأسبوع[1].
لقد قمنا كلانا بأشياء طائشة كثيرة. وهذا ليس خطأك وحدك". وكما هو على
الدوام فقد كان لبقاً، لطيفاً، ومنصفاً وهذا ما جعل الأمور مؤلمة أكثر. لقد كانت
تعرف مدى الخسارة التي ستُمنى بها الآن، وأنها سوف لن تجد مثيلاً أبداً.
فالرجال الذين مثل بيل نادرون جداً.

"ماذا سأقول للبنات؟".

"هذا موضوع آخر. وسيكون صعباً. وأظن أن علينا كلانا أن نفكر به.
فهما ناضجتان راشدتان بما فيه الكفاية حتى يتفهما، ولكنهما على الأرجح
سوف لن يتقبلا الأمر فما من أحد يحب التغيير".

"ولا أنا أيضاً". قالت بصوت متهدج. فهي لم تفكر بالأمر، ولكنه سيكون
أصعب بالنسبة له. إن أمامه طريقاً طويلة شاقة، وقد اختار أن يشقها وحده. لم
يكن واهماً بخصوص شفائه، فقد كان يعرف أن هناك احتمالاً كبيراً ألا يستطيع
أن يسير على قدميه من جديد. وإعادة التأهيل، وحتى إلى الدرجة التي
يستطيعها، سوف تكون عملية مؤلمة وشاقة بالنسبة له، وخاصة وأنه وحده.
ولكنه كان يعرف أيضاً أن سنثيا سوف لن تستطيع تحمل الأمر. ورغم كل
مقدراته في الرعاية التي كانت تتمتع بها منذ زمن بعيد في فترة طفولة البنات،
إلا أنها سوف تفقد صوابها إذا ما عاشت معه وهو معطوب الجسد بأي حال
من الأحوال. فسنثيا لم تكن إيزابيل. وما كان ليمكنها أن تكون مثل إيزابيل لو

(1) متوسط عدد ساعات العمل في الولايات المتحدة يبلغ أربعين ساعة في الأسبوع.

تعـيش مثلها أو أن تعتني بابنها مثلها. وكان بيل على استعداد لمواجهة أعباء الجديدة وحده.

هبت سنثيا واقفةً وسارت نحو النافذة عندئذ، وراحت تحدق في الفضاء، وتـبدو مكسورة الفؤاد، عندما دخل السفير الأمريكي إلى الغرفة. كان قد سمع عن الحادث، وقرأ عنه في صحيفة تريبيون. لقد كان جزِعاً، وبدا مكتئباً وقلقاً عندما دخل. وعندما استدارت سنثيا نحوه بعينين حمراوين منتفختين، أمكنه أن يـرى أنهـا هي أيضاً مضطربة من الجزع عليه. لم تكن لديه أدنى فكرة عن الحديـث الـذي كان يدور بينهما، ولم يخطر في باله البتة أنه دخل إلى خضم درامـا عائلـية، إذ هرع إلى السرير وأمسك بيد بيل وفي عينيه نظرة اهتمام عميق.

"يـا إلهـي يا روبنسون، ماذا حدث لك؟ لقد كان من المفترض أن أراك الأسـبوع المنصرم". لم يكن قادراً على تصديق الأخبار التي سمعها، ولاحظ سنثيا وبيل يتبادلان نظرة غريبة.

"لقد دخلتُ في عراك مع باص يتحرك بأقصى سرعته. وقد تغلب الباص علـي. لقـد كانت حماقة مني أن أدخل في هكذا عراك". قال بيل وهو يبتسم، ولكنه بدا متعباً. فالحديث الذي تبادله مع سنثيا قد أنهكه، وقال لها عندئذ: "سِن: لِمَ لا تتمشين مع البنات قليلاً؟ فسيكون حسناً لك أن تغيري الجو قليلاً". أومأت برأسـها وهـي غير قادرة على أن تقول أي شيء. لم تكن تريد أن تبكي في حضـور السفير، وكانت تعرف أنها ستضطر لذلك إذا ما بقيت. وبالمقابل ما كانـت تـريد رؤية بناتها، فارتأت أن تعود إلى الفندق وأن تبكي هناك لبرهة وحدَها.

"سـأعود الليلة". قالت والدموع تنهمر بغزارة من عينيها من جديد بينما قبّلـت وجنـته. وهمست له: "أحبك"، ثم هرعت خارجة من الغرفة بينما كان السفير يرقبها خارجةً.

"مسـكينة سنثيا. لا بد أنها مصدومة جداً". قال السفير بتعاطف. لقد كان

يعرفهم منذ سنين. فقد كان من نيويورك، وكان قد فكر بأن يسعى إلى الرئاسة يوماً، ولكن بيل لم يشجعه. فما كان ليفوز بذلك، بينما كان يُبلي بلاء حسناً في عملـه كسفير، وكان يحب هذا العمل. لقد كان هناك منذ ثلاث سنوات، وكان بيل يعرف أن الرئيس سيطلب منه البقاء لدورة أخرى.

"هل تسير أمورك على ما يرام؟" سأله السفير وقد ارتسم عبوس على وجهه بدافع القلق.

"هي أفضل الآن". على الرغم من هذا الصباح الذي عانى فيه. لم يكن متشوقاً لمفاتحتها بالموضوع، ولكنه يعرف الآن أنه قام بالعمل الصائب. لقد كان ينوي أن يفعل ذلك عندما يعودون إلى المنزل. وكان يعرف أنه لن يسمح للحادث بأن يغيّر قراره. وما حدث أكد لـه صحة عزمه وزاد من إصراره. ولم يكن يريد أن يترك لها أي مجال للأوهام في علاقتها معه ولو كان الأمر مؤلماً.

"هل تحتاج إلى شيء؟" سأل السفير وهو يجلس. كانت زوجته قد طلبت منه ألا يمكث طويلاً.

"ليس كثيراً. فقط رقبة جديدة، عمود فقري جديد، ساقين قويتين جديدتين، والأشـياء العاديـة الأخرى". حاول بيل أن يمزح مع السفير، ولكن عينيه بدتا حزينتين، بينما ابتسم السفير. لقد كان بيل روبنسون رجلاً طيباً وبارعاً ويتمتع بروح رياضية.

"ماذا يقولون عن حالتك؟".

"لا يقولـون الكثـير. فالوقت مبكر على معرفة ذلك. وأعتقد أنه بما أن فرانكلين ديلانـو روزفلت[1] استطاع إدارة البلاد وهو جالس في مكتبه، فإن إصـابتي هـذه سوف لن تشكل فارقاً كبيراً بالنسبة لي". ولكنهما كلاهما كانا

---

(1) فرانكلين ديلانو روزفلت (Franklin Delano Roosevelt): رجل دولة أمريكي والرئيس الثاني والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية. ولقد كان حاكماً للبلاد لفترة أطول من كل الرؤساء (1933- 1945) بناء على انتخاب لا مثيل لـه لأربع دورات رئاسية متتالية.

يعـرفان حقـيقة الأمر الواقع. فحياته كلها قد تبدلت برمشة عين، وليس فقط حـياته السياسية وحسب، بل على الأرجح أيضاً كل حياته كرجل. لقد كان من الصعب في هذا الوقت تحديد كل مضاعفات الحادث، فإلى جانب أنه لن يكون قادراً على المشي من بعد، فإنه لم تكن لديه أدنى فكرة عما إذا كان سيستطيع أن يمـارس الحـب مع امرأة من جديد. لقد كان عالماً بذلك أيضاً عندما أخبر سنثيا أنه يريد الطلاق. فلسوف لن تستطيع أبداً أن تتأقلم مع هذا الوضع. ولكن كانـت هـناك حتى أسباب قاهرة أكثر تدفعهم للطلاق، وهذه هي التي حفزته للسعي وراء الطلاق. وما كان عجزه إلا السبب الطاغي أو الظاهر.

"هل تعرف كم ستبقى هنا؟".

"وقت طويل على الأرجح". قال بيل وقد بدا مكتئباً. لقد كان متعباً جداً. ولـم يكـن ذلـك الصباح سهلاً عليه، وقد حزن كثيراً لاضطراره لوضع حد لـزواجهما. فهـو لـم يفقد زوجته فحسب، وباختياره، بل بدا لـه أنه، وبفعل الحادث، قد خسر إيزابيل، صديقته المقربة، أيضاً. عندما كان يفكر بذلك، كان يشـعر بالأفق يبدو كئيباً للغاية. فلم يعد لديه ما يصبو إليه، ما عدا عام صعب قـاس للغاية أمامه، سيمضيه في محاولة استعادة صحته من جديد. ولكن على الأقل كان قد نجا من الموت.

"حسناً. يمكنك أن تتكل علينا". قال لـه السفير ستيفنز بمرح: "لقد كانت غريس تنوي المجيء لزيارتك أيضاً، ولكن قالت أنها ستأتي في يوم آخر. فهي لـم تُرد أن تثقل عليك، وكانت تخشى أن أفعل أنا ذلك. إذا احتجت إلى شيء، أي شيء، أريدك أن تتصل بالسفارة. لتتصل سنثيا بغريس. أعتقد أنها ستمكث معك". لقد بدت المرأة البائسة شديدة الاضطراب عندما غادرت الغرفة. وفكّر جيم ستيفنز أن مواجهتها لحقيقة كونه قد يبقى عاجزاً للأبد سيكون أمراً صعباً علـيها. "سـأجعل غريس تتصل بها خلال أيام قليلة". لم يخبره بيل بأنه كان سـيطلب من سنثيا أن تعود مع البنات إلى كونكتيكوت. اكتفى بأن ابتسم لـه وتركه يقول ما يشاء. لقد كانا صديقين حميمين. ومنذ زمن بعيد، ولكنه لم يُردْ

أن يخبره بنبأ الطلاق الآن. لقد كان الأوان باكراً جداً. وما كان يريد أن يخبر أحداً قبل أن يخبرا البنات، وذلك بدافع الاحترام لهما.

نظـر السـفير إلـى ساعته عندئذ، ثم إلى بيل، وقرر أن ينصرف لأنه لمضى وقتاً طويلاً كفاية. لقد كانت غريس على حق. لقد بدا مضطرباً، وترك بـيل في غضون خمس دقائق. وفجأة رأى بيل أن ذلك العجوز الذي كان يبدو مـثل والده قبل أيام فقط، قد بدا لـه الآن مفعماً بالنشاط والحياة والفتوة، وذلك لأنه استطاع أن يسير خارجاً من الغرفة اعتماداً على قوته الشخصية.

بـدت السـاعات تمـر بتـثاقل بعد ذلك. نام بيل لوهلة، وجاء الطبيب المختـص فـي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم. لم يسمع بيل من سنثيا، ولكـنه كان يتوقع أن تكون في فندق كلاريدج تلعق جراحها. لقد كان لا يزال علـى ثقـة بأنـه مهمـا كان الأمر مؤلماً فمن الأفضل أن ينفصلا في نهاية المطاف.

لم يجد المختص في حالة بيل ما يشجع ليقوله له. فذكر لبيل الاحتمالات الممكـنة من أسوأ الأحوال إلى أفضلها. فمن خلال صور الأشعة السينية التي رآهـا، والوثـائق المتعلقة بالعمليات الجراحية، رأى أنه من غير المحتمل أن يسـتعيد بـيل القدرة على السير. قد يستعيد بعض الإحساس في النهاية، ولكن الضـرر الـذي أصـاب عموده الفقري جعل من المرجح أكثر أنه سوف لن يسـتعيد القدرة الكاملة على تحريك رجليه. وحتى لو أمكنه أن يشعر بهما في الـنهاية فإنـه سـوف لن يستطيع الوقوف على رجليه. وقد يحتاج إلى تثبيت سـنادات إلى جسده، ومع التدريب، قد يتمكن من استخدام عكازات وأن يجر سـاقيه جراً، ولكنه كان يعتقد أن بيل سوف يتمكن من الحركة أكثر وبسهولة ويسر أكبر إذا ما استخدم عربة مُدوّلبة. كان هذا الخبر السار. أما الخبر السيئ فهـو أن الأعصاب إذا ما انحلّت أكثر، إضافة إلى الضرر الذي أصاب عنقه، فإنـه قد لا يستعيد أي قدرة على الإحساس أبداً بنصفه السفلي. وقد ينشأ لديه الـتهاب مفاصل، وقد يسبب ذلك فساداً في العظام، وإضافة إلى ما لديه الآن،

فإنه قد يعاني الألم طوال حياته أيضاً. ولكن، وإذ أن بيل في الثانية والخمسين من العمر، فإنه كان يعتقد أن بيل لديه فرصة طيبة في أن يسترد على الأقل بعض القدرة على استخدام ساقيه، حتى ولو لم يستطع أبداً السير بشكل كامل من جديد. قدّر الطبيب أن عنق بيل سوف يستغرق ستة أشهر لكي يُشفى، وأن عملية إعادة التأهيل لساقيه سوف تستغرق سنة أو أكثر. وكان هناك احتمال إجراء عملية جراحية أو اثنتين له، ولكنه كان يشعر أن فوائد هذه العمليات ستكون في الحد الأدنى، وأن المجازفة والمخاطرة سوف تكون كبيرة جداً. فإن حاولوا أن يحسّنوا ما بقي لديه الآن، فإنّ الأمر قد ينتهي به إلى شلل كامل من عنقه إلى أسفل قدميه، وحثّ بيل بقوة على ألا يقوم بهذه المجازفة. وحذّره من أن بعض الجرّاحين قد يرغبون في إجراء تجارب عليه، ويعدونه بتحسينات لا يضمنونها، ولكنه كان صريحاً في قوله له إن أي جرّاح سوف يعده بذلك سيكون أحمق حتى يأخذ هذه المجازفة، وإذ أصغى بيل إليه، وافقه الرأي. لقد كانت الصورة التي رسمها له حيوية ولكن ليست سهلة، وكانت تحتاج إلى شجاعة هائلة لمواجهتها. لقد قال لبيل صراحةً أن عليه أن يعمل خلال العام القادم بكل جهده لكي يحقق بعض النجاح في استخدام ساقيه، وأن عليه أن يقوّي القسم العلوي من جسده لكي يعوّض به عن السفلي، ولم يذكر شيئاً عن الجهد الذي سيبذله من أجل تمرين عنقه. ولكن بمرور الوقت، وبالعمل الجاد، شعر الطبيب بكل تأكيد أن بيل سيحيا حياة جيدة، إذا ما كان مستعداً للتلاؤم نفسياً مع القصور الذي حدث له من جرّاء الحادث. قال بوضوح أنه كان أمراً سيئاً ولكنه ليس نهاية العالم.

وعندها، وإذ كان يقرأ بسهولة ما يجول في ذهن بيل، أجابه على السؤال الذي كان بيل لا يزال خائفاً أن يطرحه. لقد كان واضحاً أنه لن يسير مجدداً، وأنه سيبقى مقيداً إلى كرسي مدولب. ولكن لم تكن لديه أدنى فكرة عما يتعلق بحياته الجنسية، وعما إذا كان سيستطيع أن يعيش هكذا حياة. ولقد كان قلقاً جداً في سره بخصوص هذا الموضوع. لقد أوضح الطبيب عملياً وصراحةً أن

هناك احتمال كبير في أن يستعيد بيل قدارته الجنسية وأن يكون قادراً على أن يحيا حياة طبيعية نسبياً، رغم أن الوقت كان سابقاً لأوانه حتى يستطيع أن يحدد ذلك. لقد قال لبيل أنه من الصعب التكهن بهذا الأمر. ولكنه كان متفائلاً ومشجعاً له، ومهتماً بطمأنة بيل وإراحة باله قدر استطاعته. وفي نهاية المطاف، سيتوجب على بيل أن يجرّب ذلك، ولكنه لم يتقدم في رحلة شفائه بما فيه الكفاية لذلك. يكفيه سوءاً أنه قد لن يستطيع السير من جديد، ولكن الطبيب لم يكن يريد لبيل أن يفقد الأمل كلياً فيما يتعلق بباقي الأمور.

قال الطبيب وهو يبتسم له: "إذا تحلت زوجتك بالصبر لبعض الوقت فإن الأمور يمكن أن تتحسن بشكل كبير". لم يقل له بيل أنه وخلال فترة وجيزة سوف لن يكون له زوجة، وما كان ليتصور أن يجرب حظه مع النساء اللواتي سيحاول أن يخرج معهن. ولكنه، على الأقل، كان يريد أن يعرف هل سينجح إذا ما حاول أن يقوم بتجربة جنسية. ولكن ما من أحد كان ليستطيع أن يعده بذلك. لقد كان ينبغي عليه أن ينتظر ويرى النتائج، وهذا كان يعذبه كثيراً. لقد كان يخطط أنه بعد شفائه، وكمثل العادة، فإنه سوف ينغمس في عمله بشكل كامل. بل وأكثر من ذي قبل، فهذا كل ما كان قد تبقى له.

بعد أن غادر الطبيب، استلقى بيل في سريره وراح يفكر لوهلة. لقد كان مكتئباً بشدة. فقد مرت به أحداث كثيرة خلال بضع الساعات القليلة الماضية، وكان يصعب عليه استيعاب كل شيء. لقد كان من الصعب عليه أن يحصر تفكيره في احتمال أنه قد لن يستطيع أن يمشي من جديد أبداً... ألاّ يسير من جديد أبداً... ظلت هذه الكلمات تتردد في ذهنه. ولكنه كان يعرف أن الأمر كان من الممكن أن يكون أسوأ من ذلك. فلقد كان من المحتمل أن يكون مصاباً بشكل كامل، أو ميتاً، أو أن تسبب له الإصابة في رأسه تلفاً دماغياً دائماً. ولكن ورغم إحساسه برحمة الله التي عليه أن يكون ممتناً لها، فإن فقدان رجولته بدا يفوقها جميعاً، وإذ استلقى في سريره، فقد كان قلقاً ومكتئباً. وإذ راح يفكر بهذا الخصوص، جال فكره نحو إيزابيل من جديد. فاستلقى هناك

وأغمض عينه مفكراً في الوقت الذي أمضاه مع إيزابيل ذلك الأسبوع قبل الحادث. لقد كان يصعب عليه أن يتخيل أن ذلك كان قبل أربعة أيام فقط. فقبل أربعة أيام كان يرقص معها في نادي أنابيل، ويشعر بها قريبة منه، وأما الآن فسوف لن يرقص على الإطلاق من جديد، وها إن الموت يرفرف بجناحيه حولها. لقد كان من غير الممكن له أن يصدق أنه قد لا يستطيع أن يتحدث إليها ثانيةً، أو ألا يسمع صوتها البتة، أو يرى وجهها الحبيب. وإذ راح يفكر بهذا وبكل ما جرى له انهمرت الدموع من عينيه. لقد كان يفكر بها، والدموع تسيل على وجنتيه، عندما خطت الممرضة داخلة غرفته. لقد كانت تعلم أن الطبيب الاختصاصي كان معه ولوقت طويل، وأن الأنباء لم تكن سارة، وفكرت أنه قد يفقد شجاعته وعزيمته من جراء ذلك، فحاولت بلطف أن تسرّي عنه. لقد كان رجلاً وسيماً مليئاً بالحياة، وكانت تستطيع أن تدرك ماذا يعني بالنسبة له أن يصبح عاجزاً عن المشي. لقد كانت الممرضات تشعرن بأن الأمر سيأخذ هذا المنحى منذ اليوم الأول تقريباً. فقد كانت إصاباته بالغة جداً.

"هل تريد بعض مسكنات للألم يا سيد روبنسون؟" سألته، فيما نظر إليها.

"لا. أنا بخير. كيف حال السيدة فوريستر؟ هل من تغيير طرأ على حالتها؟" لقد كان يسأل هذا السؤال كلما رأى إحداهن، وما كانت أي منهن تعرف هل الدافع وراء اهتمامه هو إحساسه بالمسؤولية تجاه الحادث نوعاً ما لأنها كانت معه، أم هو حبه لها. لقد كان من الصعب معرفة ذلك. الوحيد الذي كان يعرف هو الممرضة التي كانت هناك عندما زار إيزابيل الليلة الفائتة، وكانت قد أقسمت للطبيب أنها سوف لن تتفوه بكلمة مما سمعت.

"إنها على نفس الحال تقريباً. لقد كان زوجها هنا قبل هنيهة، وقد غادر لتوه. أعتقد أنه سيغادر إلى باريس لبضعة أيام. فليس لديه ما يمكنه أن يفعله هنا". اللهم ما عدا أن يكون معها، ويتحدث إليها، ويلتمس منها أن تعود. كره بيل غوردون عندما فكّر به. فقد كان بارد المشاعر، ونتناً معها. وهنا خطرت

في ذهنه فكرة. فإن غادر غوردون المشفى سيكون بمقدوره عندئذ أن يزورها من جديد، وذكر ذلك للممرضة. لقد كانت تعرف أنه ذهب إلى غرفتها ليلة أمس كي يراها، وأن طبيبهما المشترك سمح له بذلك، ولكنها ما كانت تعرف ما سيكون رأيه إذا ما طلب بيل ذلك من جديد. ولكن عندما رأت النظرة التي تبدت في عينيه، أمكنها أن ترى أي يوم قاسٍ قد مرّ به، وكم أثر ذلك عليه، فتعاطفت معه.

"سأرى ما يمكنني فعله". قالت له، وتوارت عن ناظريه. وعادت بعد خمس دقائق مع حاجبين حرّرا فرامل سريره، ودفعا به ببطء نحو الباب. لقد توجب عليها أن تفكّ بعض أجهزة المراقبة، ولكنه كان على حال جيدة الآن يمكنه معها أن يستغني عنها لوهلة، وكانت تعرف كم كان مصمماً على أن يعبر تلك الردهة ليرى إيزابيل.

أمسكت ممرضتها بالباب وأبقته مفتوحاً من أجل أن يدخلوا، ودفع الحاجبان عجلات سريره بلطف عبر الردهة إلى داخل الغرفة، ووضعاه إلى جوار سريرها. كانت الستائر في غرفتها مسدولة، وكان جهاز التنفس الاصطناعي يصدر صوته المألوف الذي يشبه إلى حد بعيد صوت هبوب الرياح، في حين تراجعت الممرضات إلى ركن الغرفة ليسنحوا لهما بالبقاء على انفراد. استدار بيل نحوها بأكثر ما استطاع، وكان هذا محدوداً جداً، وأمسك أصابعها بيده من جديد، كما سبق وفعل الليلة السابقة.

"هذا أنا يا إيزابيل... يجب أن تستيقظي يا حبيبتي. يجب أن تعودي. تيدي يحتاج إليك، وأنا أيضاً. أحتاج لأن أتحدث إليك، لقد اشتقتُ لك كثيراً". وسالت الدموع على وجنتيه بغزارة وهو يتحدث إليها، وبعد قليل، اعتراه الصمت وقد استلقى ممسكاً بيدها. وكانت الممرضات على وشك أن تقترحا إعادته إلى غرفته، وقد استلقى بهدوء في سريره إلى جوارها، وبدا في سلام بشكل غريب. لقد بدا وكأنه على وشك أن يغفو، عندما فُتح الباب، ووقف فيه غوردون فوريستر وهو ينظر حوله في أرجاء الغرفة. أجفلت الممرضتان،

وخرج الحاجبان، بينما راح غوردون يتكلم إلى ممرضة زوجته بحدة.

"لو سمحتِ أعيدي السيد روبنسون إلى غرفته في الحال". كان هذا كل ما قاله، وأما بيل فلم يقل شيئاً بينما دفع الحاجبان عجلات سريره خارجيْن به من الغرفة. لم يكن أحد عاجزاً عن فهم ما كان يجري هناك، أو السبب الذي دفعه ليأتي إليها، وفي حين مرّ بيل بسريره بمحاذاة غوردون، شعر بيل برعشة خوف. فلقد كان متأكداً أن غوردون سوف يصر على ألا يسمح لبيل بزيارتها ثانية. ولكن بما أنه سيغادر عاجلاً إلى باريس، فإن بيل سوف يجد طريقة ليأتي لزيارتها مرة أخرى. وإذ استلقى في غرفته يفكر في الأمر وكيف بدت إيزابيل وكأن لا حياة فيها، دخل غوردون فوريستر إلى غرفته.

"إذا وجدتك في غرفتها مرة أخرى يا روبنسون، أو سمعتُ أنك كنت هناك، فإنني سأسعى لنقلك من هذا المشفى. هل هذا واضح؟" كان يهتز من الحنق، وكان وجهه شاحباً. فقد كان بيل ينتهك حرمة ممتلكاته، وهو لن يتساهل معه في ذلك. فبنظره كانت إيزابيل ملكاً له، وسوف لن يسمح لبيل بأي شكل أن يقترب منها أياً كانت العلاقة بينهما. فهي كانت تخصه.

"كلامك هذا لا يؤثر البتة يا سيد فوريستر". قال بيل في هدوء، وهو ينظر في عينه مباشرة وبثبات. "وأعتقد أن السفير ستيفنز سيكون له رأي في نقلي من هنا. ولكني لا أريد أن أدخله في مشاكلي. أنا وإيزابيل أصدقاء، ومنذ زمن بعيد. وهي لم تفعل ما يستوجب استياءك، وإني أؤكد لك ذلك". اللهم ما عدا قبلة واحدة تلك الليلة في السيارة، ولكن غوردون لم يعرف بذلك، فقد كانت بينهما فقط. "إني مهتم لأمرها. أنت رجل محظوظ فهي امرأة رائعة. وإني لأريدها أن تنجو بمقدار ما تريد أنت ذلك، بل ربما أكثر. تيدي يحتاج إليها، حتى أكثر مني. فإذا كان الحديث إليها، أو أن أكون معها، أو على الأقل أن أرغب لها في الحياة بدافع اهتمامي بها، إذا كان هذا سيساعدها الآن، فهذا سأقدمه لها على الأقل".

"ابقَ بعيداً عنها. لقد فعلت ما فيه الكفاية. لقد كدت تتسبب في موتها

معك. ماذا كنتما تعتقدان أنكما تفعلان خارجاً في تلك الساعة من الليل؟ ألم تكن لديكما فكرة عن كيف سيبدو الأمر عليه؟ ثم سمحتما لمصور فضائح أن يلتقط لكما صورة، جاعلين من أنفسكما ومني أضحوكة. هل اعتقدتما أنكما ستنجوان بفعلتكما. يبدو أنكما لم تنجحا في ذلك. والآن إن أفضل ما يمكنك أن تفعله هو أن تبقى بعيداً عن غرفتها، وعن حياتنا. لسنا في حاجة إلى فضيحة بسببك".

"لست أسبب لك أية فضائح". قال بيل منفعلاً.

"لست واثقاً من ذلك. وعلى جميع الأحوال، فإني أمنعك من دخول غرفتها. هل هذا واضح؟".

"لماذا تكرهها إلى كل هذا الحد؟" سأل بيل غوردون الذي كاد يصل إلى الباب، فاستدار غوردون ببرودة وبطء لدى سماعه هذه الكلمات.

"أأنت مخبول؟ أنا لا أكرهها. فهي زوجتي. ولماذا تعتقد إذاً أني هنا؟".

"هل لديك خيار آخر؟ هل كنت تستطيع ألا تأتي وأن تستمر في الإدعاء بأنك تهتم لأمرها؟ بالكاد. كلانا نعرف لماذا أنت هنا. أنت هنا بدافع المظاهر، ولأنه ليس لديك حل آخر بديل. أنت مسؤول عنها. ولكنك لا تهتم بها يا فوريستر ولم تهتم بها أبداً".

"أنت نذل حقير". صرخ غوردون في وجهه، ثم سار خارجاً من الغرفة. ولكنه ما انفك يتساءل إذا ما كانت إيزابيل قد قالت له بأن زوجها يكرهها، وتساءل كم كان بيل يعرف من شؤونهما العائلية. لقد بدا لغوردون أن بيل كان يعرف الشيء الكثير.

كان بيل لا يزال يفكر بالحديث الذي تبادلاه عندما عادت سنثيا والبنات لرؤيته بعد ظهر ذلك اليوم. لقد كانت الفتاتان قد ذهبتا إلى سوق السلع المستعملة واشترتا كومة من الأغراض السخيفة التي كانتا تحبانها، وأما سنثيا فقد ذهبت في نزهة طويلة وهي تفكر في الأمور. لقد فكرت في كل ما كان قد قاله. ولكن لم يذكر أي منهما شيئاً عن ذلك، أو عن إجراءات قانونية، أمام

البنتين. لقد كان كل ذلك سابقاً لأوانه. مكثت الفتاتان هناك حتى موعد العشاء، وأطعمتــه أوليفيا بالملعقة. لقد حاول أن يأكل بنفسه، ولكن مع السناد المزعج المثبت إلى عنقه تعثر طعامه في كل مكان وخاصةً الحساء.

"ماذا قال الطبيب؟" سألته سنثيا بهدوء قبل أن يغادرن.

"قال لي أنه من الأفضل لك أن تخرجي من حياتي". همس لها، وبدت من جديد على وشك البكاء. "أنا أمزح فقط. قال إنه يمكنني أن أستعيد بعض القدرة على تحريك ساقيّ مع بذل الجهد الكبير. إنه تحدٍّ شيق. فمن يعلم؟ قد يستطيعون اجتراح معجزة ويحملاني على السير". كان لا يزال يريد أن يعتقد هكذا، رغم أن هذا الأمر كان غير مؤكد، بحسب قول الطبيب. "سوف أبدأ العلاج وإعادة التأهيل بشكل جدي خلال ثلاثة أسابيع. إنهم يريدون أن يعطوا كل شيء مهلة أكثر للشفاء قبل أن يبدأوا إعادة التأهيل".

"يمكنك أن تكون في المنزل لأجل ذلك". قالت في هدوء. لقد كانت لا تزال تشعر بوطأة القرار الذي اتخذه، وكانت ترجو أن يلين بمرور الوقت.

"ربما، سنرى". قال لها جازماً. لم يُردْ أن يقول الكثير أمام البنات.

"وماذا عنك؟ متى تنوين الذهاب إلى المنزل؟ هل فكرت في ذلك؟" سألها بيل وهو يبدو لطيفاً لبقاً. لقد كانت فترة بعد ظهر قاسية بالنسبة له.

"تريد البنتان أن تبقيا لهذا الأسبوع. وفكرت أني قد أذهب معهما إلى باريس خلال بضعة أيام، إذا كنت على ما يرام، ثم أعود لرؤيتك". كانت لا تزال تأمل بأن يغير رأيه بعد كل ما قاله، ولكنه كان حازماً جازماً في لهجة صوته. لم يشعر بالأسف على ما قاله. لقد كان يعرف أنه يعمل الصواب لكليهما.

"لا. لا ترجعي". قال لها بلطف، "سأكون بخير. عليك أن تعودي أدراجك مع البنات. أعرف أن لديك مخططات لتذهبي لزيارة والديك في مين". لقد كانت قد اتخذت قرارها ألا تعود إلى أوروبة من جديد، وبعد مين، سوف

تذهب مباشرة إلى هامبتون. "سأكون في الولايات المتحدة في القريب العاجل". لقد كان لديه الكثير ليفعله. وإذا ما عاد فإنه سيتوجب عليه أن يجد مركز إعادة التأهيل حيث يمكث فيه لفترة، ثم سيحتاج لأن يجد لــه شقة وينتقل من منزلهم. ولكن كان الأوان باكراً على كل ذلك الآن. وأول شيء، سيتوجب عليهما أن يخبرا البنات عن قرارهما. لم يكن يتشوق لذلك، وكان يريد أن يخبرهما عن ذلك في حضورها، وهكذا تفهم الفتاتان أنه وسنثيا سيبقيان صديقين. لقد كان الأمر يهمه كثيراً، وسوف يهمهن هن أيضاً في نهاية المطاف. لقد كان متيقناً من ذلك.

عـادت سـنثيا والفتاتان إلى الفندق ليتناولن طعام العشاء، واستلقى في غرفته بهدوء طوال الليل. كان ليود لو يرى إيزابيل مرة أخرى، ولكنه لم يُردْ أن يحدث ما لا تحمد عقباه في حال أن يكون غوردون لا يزال في البلدة، ومن ناحـية أخـرى فإنـه كان متعباً. لقد كان يوماً صعباً عليه. قيلَ لــه أنه على الأرجح لن يمشي ثانية، وأنه "قد" يمارس الجنس ثانية أخيراً رغم أن هذا غير مؤكد، وكان قد رأى إيزابيل، وشنّ معركة مع زوجها، وأخبر سنثيا عن رغبته فـي الطلاق. لقد كان كل ذلك شديد الوطأة عليه إضافة إلى الحادثة التي أدت إلى إدخال تعديلات هائلة على حياتهم لا يمكن تغييرها أبداً.

الفصل السابع

غـادر غـوردون فوريسـتر لندن متوجهاً إلى باريس باكراً صباح يوم الإثنين. كان قد اتصل بالمشفى قبل رحيله، وقيل لـه أن ما من تغير يُذكر قد طرأ، فغادر منطلقاً إلى المطار. لقد كان يحمل معه أغراض إيزابيل التي كانت قـد تركـتها فـي غرفة الفندق. لم يكن ثمة داع لأن يترك لها أي شيء في المشفى، في نظره. ففي الحالة التي كانت عليها، لم تكن في حاجة إلى شيء. وإذ كان يطير فوق القنال الإنكليزي، أدرك أنه لم يعرف شيئاً جديداً أكثر مما كـان يعرفه عندما جاء. فليس لدى الأطباء بعد فكرة عما إذا كانت ستعيش أو تشـفى. لقد بدت أعضاؤها الداخلية تتماثل للشفاء ببطء، ولكن كان هناك قلق كبـير بخصوص قلبها ورئتيها، وسوف يستغرق كبدها وقتاً طويلاً كي يشفى. والضربة التي تلقتها على رأسها، رغم أنها أقل خطراً من باقي الإصابات، إلا أنهـا كانت تبقيها في حالة غيبوبة عميقة. لقد كانوا يسكّنون آلامها لكي يعطوا لإصاباتها فرصة للشفاء. ولكن ما كان يمكن الجزم بعد فيما إذا كانت ستستيقظ أم لا، أو فيما إذا كانت ستموت، أو أن تبقى في غيبوبة إلى الأبد. كان لا يزال ثمة أسئلة كثيرة بعد، ولم يكن لدى أي أحد الإجابة عليها. لقد كانت بارقة أمل أنها لا تزال على قيد الحياة بعد انقضاء خمسة أيام على الحادث، وبالتأكيد كان لكـل يوم أهميته. ولكنها كانت لا تزال في حالة خطرة حرجة للغاية. وأدرك غوردون، عندما حطت الطائرة في مطار شارل دي غول في رواسي، أنه ما عـاد بمقدوره أن يؤجّل إعلام الأولاد بالأمر. لقد كان ينتظر من يوم إلى آخر آمـلاً بعـض التحسّن، ولكن لم يكن هناك أيّ شيء من هذا القبيل. وبدا من الخطر أن يتريّث أكثر من ذلك. فصوفي كانت كبيرة بما يكفي لتعرف الحقيقة، بأنها قد تفقد والدتها، وسواء كان مريضاً أم لا، فإنّ على تيدي أن يواجه الأمر

أيضاً. وكان غوردون واثقاً من أنّ صوفي سوف تكون تعزيةً له إلى حدّ ما. لقد كان ينوي أن ينتظر إلى أن تعود صوفي من البرتغال لكي يخبر تيدي، وهكذا يمكنها أن تتدبّر أمر شقيقها. ما كان غوردون ليحبّ هكذا مشهد، أو ليُفلح في هكذا وضع، وبخاصّة أنه ليست لديه علاقة تُذكر بابنه.

وضع غوردون حقيبته وحقيبة إيزابيل في سيارة أجرة في رواسي، وراح يفكّر من جديد ببيل روبنسون والمواجهة المزعجة التي كانت بينهما. كان لا يزال متضايقاً من جرأة وعجرفة سؤال بيل له عن سبب كرهه لإيزابيل.

لقد طرأ في ذهنه احتمالٌ أثار حنقه، ولكنّه لم يكن ليستطيع أن يمنع نفسه من التساؤل فيما إذا كانت إيزابيل قد قالت له ذلك. لم يكن يكره زوجته. كلّ ما هنالك هو أنّه فقدها في فوضى ولخبطة السنين بعد ولادة تيدي. لم يعد يستطيع أن يفصلها في ذهنه عن مشاعر الرعب التي أصابته من غرفة المرضى، وكل ما كانت تجسّده بالنسبة له. ففي نظره، هي لم تعد زوجته بل ممرّضة تيدي وحسب.

وتساءل عمّا إذا كان تفكيرها في أنّه يكرهها كان مبرراً لها لإقامة تلك العلاقة الغرامية التي كان يَفْتَرِضُ وجودَها بينها وبين بيل، أو على الأقل ذلك الغزل الذي كان بينهما. إذا كانا قد ذهبا معاً إلى نادي أنابيل كما قالت الصحف، وكما أوضحت الصورة، فمن المؤكّد أن علاقتهما لم تكن بتلك البراءة التي أوحى بها بيل روبنسون. كان لا يزال ثمّة ألف سؤال في ذهن غوردون حول هذه العلاقة، ولكن ما لم تشفَ إيزابيل، كان يدرك أنه لن يعرف أبداً الإجابات عليها. فبالتأكيد سوف لن يخبره بيل روبنسون أي شيء. هذا ما أزعج غوردون بشكل أساسي، ولكنه في الواقع لم يفكّر بها منذ سنين من الناحية الرومانسية العاطفية أو الجنسية.

كان قد ترك غوردون تعليمات في مكتب الاستقبال في المشفى عند مغادرته له، وهذه تتضمّن عدم السماح لبيل بأن يزورها في غرفتها مرة

أخرى، وكتبت الممرّضة هذه التعليمات جميعها بشكل رسميّ، ولكن كان ينتاب غوردون شعوراً مزعجاً بأنّ ما من رغبة من رغباته سوف تنفّذ. لقد بدا وكأنّ لديهم تعاطفاً شديداً نحو بيل، وليس لديهم أدنى مقدار منه نحو غوردون، ناهيك عن الاحترام والإعجاب الكبيرين نحو بيل روبنسون الذي كان شخصاً مهماً جداً.

عندما غادر غوردون المطار، اتّجه مباشرةً إلى المكتب وأجرى عدّة اتصالات هاتفية. وشرح الوضع لسكرتيرته، وهذا ما لم يفعله قبلاً، ولم تقل له إنها رأت صورة إيزابيل في الإنترناشيونال هيرالد تريبيون. لقد كانت تعرف أكثر منه عن الحادث. ونزولاً عند رغبته، فبعد ظهر ذلك اليوم، أعطته رقم هاتف صوفي في البرتغال. فقد كانت إيزابيل قد تركته معها عندما غادرت إلى لندن، وذلك للعودة إليه إذا لزم الأمر.

كانت صوفي تقيم في منزل تستأجره مع أصدقائها في سينترا، وكانت خارج المنزل آنذاك، ولم يستطع غوردون والحالة هذه إلاّ أن يترك لها رسالة. فعاودت الاتّصال به الساعة السادسة وكان على وشك أن يُغادر المكتب. فأخذ نفساً عميقاً وهو يلتقط سمّاعة الهاتف، واستجمع أفكاره استعداداً لإخبارها بالحادث.

سألته مبتهجة: "كيف الأحوال في لندن؟ هل قضيتما وقتاً ممتعاً أنت وماما؟".

"أنّى لكِ أن تعرفي أني ذهبت إلى لندن؟" فهو لم يخبر أحداً ما عدا تيدي وممرّضته.

"لقد اتّصلتُ بالمنزل في نهاية الأسبوع، وتحدثتُ إلى تيدي. ألم يخبرك؟".

"لم أره بعد، لقد جئتُ من المطار إلى المكتب مباشرةً هذا الصباح". قال غوردون برباطة جأش. لقد كان يُمهّد الحديث ويبحث عن الكلمات المناسبة.

"سأتّصل بالمنزل إذاً. فأريد أن أسأل ماما عن شيء".

فقال باقتضاب: "هي لا تستطيع أن تتحدث إليك". لقد كانت هذه اللّحظة التي يخافها. لقد كان الحادث كابوساً بالنسبة إليه لم يستطع أن يستيقظ منه بل حتى كان مضطراً لإدخال أولاده معه إليه.

"لمَ لا؟ هل هي في الخارج؟".

"لا، إنّ أمك في لندن".

"هذا طريف. هل بقيت هناك؟" لقد كان من غير المحتمل أن تترك والدتها تيدي، على الأقلّ وحده ولستة أيام. لقد كانت صوفي تعلم أن والدتها ذهبت إلى لندن يوم الثلاثاء. "متى ستعود؟" سألته وهي تبدو في حالة من الاضطراب والحيرة.

"لا نعلم بعد". وأخذ نفساً عميقاً ثم دخل في الموضوع مباشرةً. "يا صوفي. إنّ أمك تعرّضت لحادث". ساد صمت مطبق على الطرف الآخر من الهاتف، بينما راحت تنتظر، وكان قلبها يخفق بشدّة. لقد كان هناك ما يخيف نظراً إلى الطريقة التي نقل بها النبأ. واستأنف كلامه فقال: "إنه حادثٌ مريع للغاية. وأعتقد أن عليكِ المجيء إلى المنزل".

"ماذا حدث؟ هل هي على ما يُرام؟" لقد كانت مقطوعة الأنفاس، وبالكاد استطاعت أن تنطق الكلمات.

"لقد كانت تركب سيارة اصطدمت بحافلة". لم يكن باستطاعته الآن إلاّ ذكر التفاصيل. "إنها في حالة غيبوبة ولا يعرفون ما سيحدث لها. لقد تعرّضت لإصابات داخلية خطيرة جداً. وقد لا تنجو. يؤسفني أن أخبرك بذلك على الهاتف. ولكني أريدك أن تقومي بالترتيبات لتعودي إلى باريس بأسرع ما في وسعك". على الرغم من مشاعره نحو صوفي وما يدّعيه نحو إيزابيل، فقد بدا في حديثه وكأنه يرتّب للقاء عمل. لقد كان غوردون يفعل كل ما أمكنه لئلاّ يشعر بألم ابنته. فما كان يسمح لنفسه بالانغماس في المشاعر والعواطف خاصةً المؤلمة.

"يا إلهي... يا إلهي...". بدت صوفي على وشك السقوط في حالة هستيريا، وهذا كان بخلاف طبيعتها. فقد كانت في العادة باردة المشاعر وهادئة وعقلانية وغير عاطفية نسبياً، مثل والدها. ولكن ما قاله لها لتوّه فاقَ أسوأ كوابيسها، فطوال حياتها كانت على استعداد لتقبّل فكرة فقدان شقيقها، ولكن ليس والدتها التي كانت تحبّها بمقدارٍ أكبر مما تسمح لنفسها بالاعتراف به. كان هذا أبعد ما يكون عن فكرها عندما اتّصل بها والدها. "يا إلهي، يا بابا، هل تعتقد أنها ستموت؟" وأمكنه أن يسمع صوفي تبكي، ولوهلةٍ لم يدرِ ما يقول.

"هذا ممكن". قال ذلك وقد بدا غير مرتاح بينما كان يجلس إلى مكتبه يحدّق في الفضاء. لقد كان يستعيد في ذهنه ذكرى موت والدته، ويُحاول جهده إبعاد شبح هذه الذكريات عنه. "إنها لبارقة أمل أن تكون لا تزال على قيد الحياة، ولكنّها في حالة حرجة خطرة جداً، وليس ثمّة تحسّن في حالتها". قال لها صادقاً في حين راحت صوفي تبكي بحدّة أكثر، ولم تستطع أن تتوقّف عن النشيج بينما كان ينتظر، ولم يستطع أن يفكّر بما يمكن أن يقوله ليُطمئنها. فلم يُردْ أن يكذب أو أن يزرع آمالاً وهميّة في نفسها، والحقيقة هي أنّ إيزابيل كان من الممكن أن تموت في أي لحظة. يتوجّب على صوفي أن تواجه ذلك، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تيدي.

وهنا سألته معبّرةً عن مخاوفها: "هل يعرف تيدي؟" لقد كان يبدو على ما يرام في نهاية الأسبوع، ولم يسبق له أن كذب عليها من قبل. ما كانت صوفي لتتخيّل أن يخفي تيدي عنها هذا الأمر سراً، أو أن يدّعي الابتهاج والسرور عندما كانت تتحدث إليه على الهاتف.

"لا، لا يعلم. أريد أن انتظر حتى تأتي إلى المنزل كي أخبره. أعتقد أن عليكِ أن تغلقي الخطّ الآن وأن تسارعي بترتيب أمر عودتكِ إلى هنا. هل ثمّة أحدٌ هناك يمكنه أن يساعدكِ في ذلك؟".

"لا أعرف". قالت ذلك وهي مرتبكة مضطربة. "أريد أن أذهب إلى لندن

"لأرى ماما". لقد بدت وكأنها طفلة في الخامسة من العمر، وفجأةً شعرت وكأنها يتيمة.

"أريدكِ أن تأتي إلى هنا أولاً". قال لها بحزم. لقد كان يريدها أن تكون معه عندما سيُخبر تيدي بالأمر. ما كان يريد تحمّل ذلك العبء وحده.

"حسناً". قالت له وهي لا تزال تبكي دون أن تستطيع تمالك نفسها.

"اتّصلي بي عندما تعرفين بموعد وصولكِ إلى هنا، سوف أبحث عمّن أرسله إليكِ ليُقلّكِ". لم يكن ليُكلّف نفسه هذا العناء حتى في ظلّ ظروفٍ كهذه. أن يكون بارد العواطف ومتحفّظاً كان من طبيعته. حتى إنه ليس بمقدور أيّ كان، حتى ابنته، أن يخترق الجدران التي يغلق بها عواطفه، ولكنّها كانت تعرف طبعه هذا دائماً. كانوا جميعاً يدركون ذلك، حتى هي التي كانت الأقرب إليه.

"سأحاول أن آتي إلى المنزل هذه الليلة". قالت له وهي تبدو ذاهلة. لقد كانت على بعد ساعتين من لشبونة[1]، ولكن ربما تستطيع أن تحجز على طائرة تغادر على متنها إذا ما أسرعت. وإلاّ، سيتوجب عليها الانتظار حتى الصباح التالي.

أغلقا السماعة بعد دقيقة، وأوصل السائق غوردون إلى منزله. وكانت هذه أول مرة يرى فيها تيدي بعد أربعة أيام، وبدا الغلام في معنويات عالية، ولكنّه سأل عن أمه في اللحظة التي رأى فيها غوردون في مدخل غرفته.

"أين ماما ؟ هل هي في الطابق الأسفل؟" وتلألأت عيناه وهو يذكر اسمها.

"لا، ليست هنا". قال غوردون بشكل مبهم غامض، وهو يحاول أن يصرف انتباهه عن السؤال عنها بأن يبدو صارماً متجهّماً. "أعتقد أن صوفي ستعود الليلة من البرتغال".

(1) لشبونة: (Lisbon): عاصمة البرتغال وأكبر مدينة فيها.

"أحقاً ؟" وبدا الطفل مندهشاً، ولكن نجح غوردون في أن يجعله يغيّر الموضوع على ما يبدو، لوهلةٍ على الأقل.

"لقد قالت ماما أن صوفي سوف تغيب أسبوعين. فلماذا ستعود مبكّرة هكذا؟" سأله لأنها لم تذكر له ذلك على الهاتف يوم السبت، وشعر بالغريزة أن ثمة خطب ما. وبعد ذلك وكمثل كلب يعود إلى العظمة، عاد تيدي إلى السؤال نفسه من جديد "أين أمي؟" ولم يجرؤ غوردون على إخباره بأنها لا تزال في لندن، فسوف يعرف أن في الأمر خطباً ما. فقد كان تيدي بارع الذكاء وحساساً حتى تفوته الحقيقة مطوّلاً. كل ما كان يرجوه غوردون هو أن تأتي صوفي إلى المنزل عاجلاً كي تساعده في نقل الخبر إلى الصبي.

"سأراك بعد هنيهة". قال غوردون دون أن يجيبه على سؤاله. "عليّ أن أقوم ببعض الاتصالات الهاتفية". وبهذا غادر غرفة تيدي واختفى. ولكن كان من الواضح أن ابنه كان قلقاً. لقد بدا غوردون متجهّماً عابساً وهو يخطو عبر الردهة إلى غرفته.

"أين أمي؟" سمعه غوردون يسأل الممرّضة بينما كان يغلق الباب. سوف تكون ليلة طويلة حتى تصل صوفي إلى المنزل. لقد قرر أن يحلّ المشكلة بأن يبقى في الطابق السفليّ، في المكتبة، وصُعق بعد ساعةٍ إذ رفع نظره ورأى تيدي يدخل في هوادة إلى الغرفة. لقد أصرّ على النزول إلى الطابق السفليّ بنفسه، ولم تستطع الممرّضة أن تردعه عن ذلك. لقد بدا قلقاً وشاحباً للغاية.

"لا بدّ أن أمراً قد حدث". قال تيدي بهدوء وهو يستند إلى كرسيّ مقطوع الأنفاس وينظر إلى عيني والده بشكل مباشر. كان غوردون طوال حياته رافضاً له منصرفاً عنه، ولكن هذه المرة لن يستطيع أبداً أن يتملّص منه. لقد كانت في عينيه نظرة تصميم ذكّرت غوردون بإيزابيل. لم يسبق له أبداً أن رأى نظرة تيدي هذه. ولأوّل مرة لاحظ أن تيدي ما عاد يبدو مثل طفل. "أريد أن أعرف أين أمي". قال وهو يجلس. لقد كان مستعداً لانتظار الجواب طوال الليل إذا لزم الأمر. وليس في إمكانهم خلافاً لذلك إلاّ أن يجروه أو يحملوه

خارجاً من الغرفة.

لقد بدا غوردون ساخطاً وهو يحاول أن يغطّي الخوف الذي يشعر به. لقد كان الغلام يفقده دائماً الشعور بالراحة. فلقد كان ضعيفاً طريّ العود سهل المكسر، أما الآن فكان يبدو أفضل حالاً مما كان منذ مدة طويلة. فقبل ستة أشهر ما كان ليستطيع النزول إلى الطابق الأسفل. ولكن لم يكن بإمكان غوردون أن يتحاشاه الآن.

تنهّد غوردون وقال: "إنّ أمك في لندن". قال له بلهجة تنمّ عن الصدق، وكان يرجو ألاّ يضطرّ لقول المزيد. ولكن ما كان بإمكانه التهرّب وقد التقت عيناه بعينيّ ابنه.

"لماذا؟".

"لقد ذهبت إلى هناك كي ترى معرضاً فنياً". قال غوردون وهو يشيح بنظره جانباً، محاولاً أن يدفعه لأن يلوذ بالصمت.

"أعرف ذلك. وكان ذلك منذ ستة أيام. فلماذا لم ترجع معك؟" وهنا رفع غوردون عينيه وشعر وكأنه يرى ابنه لأول مرة في حياته. لقد أمضى السنين محاولاً إقصاءه عنه ومقاومته، وأما الآن فكان عاجزاً عن تفادي نظرة تيدي الثاقبة.

لقد كان طفلاً جميلاً، ولكن كانت تسير الأمور معه على غير ما يرام دائماً. وكانت عاهاته وعجزه تخيف والده. وأما الآن، ورغم نفسه، فإن رؤية نظرة العذاب في عيني تيدي قد مسّت غوردون. وما عاد يستطيع تأجيل إنبائه بالحقيقة؛ ولكنّه ما كان يريد أن يتحمّل مسؤولية تدهور صحته من جراء سماعه هذا الخبر. فوجود تيدي بدا على الدوام معلّقاً على طرف خيط. وما كان غوردون يريد أن يكون هو الشخص الذي يقطع خيط حياته بنقل هذا الخبر الكارثيّ عن أمه التي كان يعبدها.

"لقد تعرّضت لحادث". قال غوردون بصوت خفيض، وأمكنه أن يسمع تيدي يلتقط أنفاسه، دون أن ينظر إليه. لم يكن ليتحمّل رؤية النظرة التي

سيُلاحظها في عينيّ ابنه.

"هل هي بخير؟" قال تيدي بصوت يشبه الهمس. لقد عرف لتوّه أن أمراً ما قد حدث، ولكن كان يترقّب بخوف ما سيقوله والده.

"سوف تكون على ما يُرام، على ما أرجو. لا نعلم بعد. إنها مريضة جداً. ويؤسفني أن أخبرك بذلك". قال غوردون بلهجة جافة، ولكن على الأقل لم يبكِ تيدي. لقد جلس هناك يتنفّس بحذر ويُراقب والده منتظراً المزيد ليُخبره به.

"سوف لن تتركها تموت". قال هامساً، وكأنّ غوردون يتمتّع بقدرات تجعله يحول دون ذلك.

"ليس الأمر بيدي. أنت تعلم أني لا أريد لها السوء". ولكن النظرة في عينيّ تيدي كانت تقول الكثير. لقد كان يعلم تمام العلم بالتعاسة التي تعيشها والدته رغم أنها لم توضح له ذلك أبداً. وكانت هذه هي المرة الثانية خلال يومين التي يتّهم أحدهم فيها غوردون بأنه لم يكن لطيفاً في معاملته لإيزابيل، وما كان غوردون ليطيق هذا الاتّهام.

"أهذا هو السبب الذي يجعل صوفي تعود الآن إلى المنزل؟" سأله تيدي، وأومأ غوردون برأسه. لقد كان يجلس في الطرف الآخر من الغرفة قبالة الصبي. ولم يخطر له أبداً أن يجتاز بضع خطوات سيراً نحوه وأن يعانقه بذراعيه. لقد كان من غير المألوف بالنسبة له أن يفعل ذلك، خلافاً لإيزابيل، التي كانت لتضمّ تيدي إلى صدرها بقوة لو كان غوردون هو الذي تعرّض للحادثة بدلاً منها. وحتى غوردون كان يعرف ذلك. "أريد أن أذهب إلى لندن مع صوفي أو معك". قال تيدي بنظرة كلّها عزيمة وتصميم. "فمتى ستعاود زيارتها؟" لقد كان متأكّداً أنه سيفعل ذلك. فما كان يطيق فكرة أن تكون والدته هناك وحدها.

"لا أعلم". قال غوردون صادقاً. "لقد ارتأيتُ أن آتي إلى المنزل من أجلك". لم يؤيده تيدي على ما قاله. كان لا يزال يحاول أن يستوعب ويفهم ما

أخبره به والده للتو. كان غوردون منذهلاً ومتأثراً أن الصبي لم يكن يبكي. لقد كان تيدي أكثر شجاعة مما كان قد اعتقد.

"أريد أن أتحدث إليها. ألا نستطيع أن نتصل بها الآن؟" سأله تيدي، وهزّ والده رأسه دلالة النفي.

"لا. لا نستطيع. فهي غائبة عن الوعي منذ الحادث. إنها في حالة غيبوبة من أثر ضربة تلقتها على رأسها".

"آه. لا". قال تيدي فجأة وهو يتخيلها مصابة بشكل كبير على ذلك النحو، وبـدأ بالبكاء في نهاية الأمر. فقد كان لهذه الصدمة وقع كبير في نفسه. "أريد أن أذهب الآن". قال وهو في حالة اهتياج شديدة.

"سوف لن تعرف أنك هناك". قال لـه غوردون بطريقة عملية. "وسوف لـن يكـون هـذا فـي صالحك. فلستَ قوياً بما فيه الكفاية لتتحمل عبء هذه الـرحلة". لقـد كـان هذا واقع حياة تيدي ولا يمكن التغاضي عنه رغم مدى مرض والدته أو سوء حالتها. فلم يكن السفر إلى لندن خياراً متاحاً أمام تيدي.

"بـل أنـا قوي كفاية". قال تيدي بحنق وهو يمسح عينيه بشجاعة. "إنها تحـتاج إلينـا في المشفى لنكون إلى جانبها. فهي على الدوام إلى جانبي. فلا يمكنـنا أن نـتركها وحدهـا يا بابا. لا يمكن أن نعاملها هكذا". ومن جديد بدا كالطفل وقد عاد للبكاء وهو يشعر باليأس والعجز.

"دعـنا نتريث إلى أن تصل صوفي إلى المنزل". قال غوردون وقد بدا متعباً. "لماذا لا نصعد إلى الطابق الأعلى ونستريح؟ فليس هذا جيد من أجلك". قـال لـه ذلك وكأنه بالغ راشد ولكن تيدي لم يهتمّ. كل ما كان يريده الآن هو أن يكـون بجانب والدته. وما من شيء كان ليمكن أن يمنعه من ذلك. لقد كان لا يزال يتحدث في هذا الموضوع وهو يسير إلى المصعد الصغير الذي كانوا قـد أعدّوه لـه إلى جانب السلالم. لقد كان هناك منذ سنين. وإذ استلقى تيدي علـى سـريره يـتحدث إلـى الممرضة عندما عاد إلى غرفته، كانت عيناه متسـعتين. لـم يستطع أن يتوقف عن الحديث، وبعد العشاء أخذت الممرضة

درجة حرارته وكان لديه حمى. لقد هُيّج كثيراً وكان هذا خطراً عليه. لقد كان هذا بالضبط رد الفعل الذي كان غوردون يتوقعه منه عندما يسمع النبأ.

كـان تـيدي لا يزال مستيقظاً متسع الحدقتين عندما وصلت صوفي في وقـت مـتأخر اللـيلة. لقد تدبرت أمرها لتلحق برحلة طيران الساعة الثامنة، ووصلت إلى باريس في منتصف الليل.

كـان غـوردون في انتظارها، والتقت به في البهو الأمامي عندما سمع صوت السيارة في الخارج. اندفعت بسرعة لترتمي على ذراعيه ما أن لمحته وبدأت بالبكاء.

"آه يـا بابـا... أرجوك لا تدعها تموت...". لم يسبق لـه أبداً أن رآها مستاءة هكذا، وكان يفهم السبب، وحالما هدأت قليلاً صعدت إلى الطابق الأعلى لـترى تـيدي. لقـد كان ينتظرها في سريره. وتعانقا كلاهما وكأنهما لم يريا بعضـهما منذ سنين. فما حدث لم يكن أبداً ليخطر على بالهما وهو أمر مريع. مـا كـان لأحدهما أن يتصور هكذا أمر، لقد كان فوق التصور، فوق الخيال. وبكيا طويلاً وهما متعانقان، إلى أن خطا والدهما أخيراً داخلاً إلى الغرفة وقد بدا عليه الإنهاك. لقد كانت العواطف التي تأججت في ذلك اليوم لها تأثير عليه وعلى الأولاد أيضاً.

"سـوف أذهب معك إلى لندن لرؤية ماما". قال تيدي لصوفي في هدوء، بينما وقف والدهما ينظر إليهما وقد بدا متجهماً. لقد كان رد فعلهما أسوأ بكثير مما كان يخشاه.

"لا أعـتقد أن هذا ممكن بالنسبة له". قال غوردون باقتضاب. "لقد جعله هذا الأمر أشد مرضاً مما كان". لقد تحدث عن تيدي وكأنه لا يستطيع سماعه.

"سـوف لن تكون أمي راضية عن ذلك". قالت صوفي وهي تملّس شعر شـقيقها الأشعث، وبمجرد لمسها لـه كانت تشعر بأنه مرتفع الحرارة. "سوف تستاء جداً إذا ما مَرِضتَ، وهذا سيكون لـه تأثير سيء عليها عندما تستيقظ". قالت صوفي برقة وهي تشدد على كلمة "عندما" بدلاً من أن تستخدم كلمة "إذا".

ونظر إليها تيدي بعينين متسعتين.

"أريد أن أراها بأي حال من الأحوال، حتى ولو كانت في غيبوبة. سوف تعرف أني هناك". لقد كان هذا رأي بيل أيضاً، ولكن والدهما لم يوافق. لقد كان يعتقد أن رؤية تيدي لها ليس له أهمية.

"هي لا تعرف أحداً هنا". قال غوردون بهدوء. وكان متأكداً من ذلك، إذ لم يكن ليعتقد أن الناس في حالة الغيبوبة يمكنهم أن يسمعوا الأصوات أو يدركوا ما يدور حولهم من أمور. فبعد رؤيته لها في تلك الحالة كان مقتنعاً أن ذهاب تيدي ليس له معنى، وسوف لن يسمح للصبي بأن يذهب. فهذا غير معقول، وستكون مجازفة كبيرة على أي أحد يأخذه هناك، فقد كان أضعف وأعجز من أن يسافر، أو حتى من أن يغادر المنزل.

"إذاً لماذا ستذهبين إذا كانت لن تدرك أنك كنتِ هناك؟" سأل تيدي صوفي بشكل مباشر.

"إنها ليست مريضة". وأردف غوردون. "وأعتقد أن عليها أن تذهب. وسوف أبقى هنا معك".

"ألن تعود الآن إليها يا بابا؟" قالت صوفي وقد بدت مصدومة، ولكنها لم تقل شيئاً عندما هزّ رأسه.

"ليس الآن. سوف أنتظر حتى تعودين إلى المنزل. يمكنك أن تذهبي غداً فتمضي النهار هناك، أو تمضي الليل، كما تشائين".

"لقد كنت أفكر بأن أبقى قليلاً هناك، ربما لبضعة أيام".

"سوف نرى كيف هي حالتها، ولكن لا تمكثي طويلاً". قال غوردون ثم غادر المنزل. لم يكن ينوي أن يبقى في المنزل وحده مع ابنه لفترة طويلة. وكان يريد أن تتولى صوفي العناية به، وما كانت لتستطيع أن تفعل ذلك لو بقيت في لندن عند والدتها.

نامت صوفي في سرير تيدي تلك الليلة، وذراعاها تحيطان به،

واستيقظت في اليوم التالي بينما كان هو لا يزال نائماً. فاستحمت وارتدت ثيابها، وكانت جاهزة للانطلاق إلى المطار في الوقت الذي استيقظ فيه.

"هل أنت ذاهبة الآن؟" سألها وهو يشعر بالنعاس. "أريد أن آتي معك". ولكنه كان أكثر تعباً وضعفاً من أن يتحرك. في الليلة السابقة كان قد أرهق عاطفياً، وبدا الآن في حال أدنى مما كان منذ وقت طويل.

"سأعود في أقرب وقت". همست له صوفي، ثم غادرت غرفته. لقد مضت لتودع والدها، ولكنه كان قد ذهب لتوه إلى المصرف. وكان قد رتب لشراء بطاقة طائرة لها في الليلة السابقة، كما وأنها كانت قد حجزت في فندق كلاريدج. لقد كانت تعرف أن والدتها في مشفى القديس توماس. وكان لا يزال لديها بعض النقود المتبقية من رحلتها. كان سائق والدها ينتظرها أمام المنزل، وما هي إلا نصف ساعة حتى وصلت إلى رواسي. لم يكن هناك أي ازدحام للسير على الإطلاق. وبدت أهدأ بكثير وأكثر نضجاً مما كانت تشعر.

كانت رحلة طيرانها في وقت الظهيرة بالتوقيت المحلي، وأخذتها سيارة من فندق كلاريدج مباشرة إلى المشفى. لقد شعرت بأنها راشدة جداً وهي ذاهبة إلى هناك وهي ترتدي فستاناً بسيطاً أزرق اللون وتنتعل حذاءً كانت والدتها قد اشترته لها. كان شعرها ملقىً إلى الخلف، وكانت حسنة الهندام، ولكن كان كل من ينظر إليها، ورغم أنها في الثامنة عشرة من العمر، يرى فيها ملامح طفلة بعينين واسعتين خائفتين مليئتين بالأسى.

ابتسمت الممرضات لها عندما تحدثت إليهن في المكتب. فقدّمت نفسها لهن، وأخذتها إحداهن مباشرة إلى غرفة والدتها. كان الباب المقابل للردهة مفتوحاً، ورأت رجلاً يراقبها. لم يكن لديه خيار آخر، لقد أسندوه إلى جنبه، وكان ينظر باتجاه الباب، وهو غير قادر على الحركة.

خطت بحذر داخلةً إلى غرفة والدتها وسرعان ما صعقت بما رأته هناك. لقد كانت والدتها شاحبة كالأموات، بضمادة كبيرة على رأسها. وكان جهاز تنفس اصطناعي موصولاً إليها ليساعدها على التنفس، وكانت تحيط بها أجهزة

مراقبة وأنابيب من كل الجهات. دنت صوفي من السرير والدموع تملأ عينيها، ووقفت هـنـاك طويــلاً مكتفيةً بالنظر إليها ملامسة يدها، ثم سحبت ممرضة كرســياً ووضعته إلى جوار السرير كي تجلس صوفي عليه، فجلست وراحت صــوفي، غريـزياً، تتحدث إلى إيزابيل وهي ترجو لو أنها تسمعها بشكل أو بآخر. لقد أخبرتْها عن مدى محبتها لها، وتوسلت إليها أن تبقى على قيد الحياة. لم تَبْدُ على إيزابيل أية علائم للحياة. الشيء الوحيد الذي كان يتحرك هو جهاز التنفس الاصطناعي وبعض الخطوط الضوئية الضئيلة التي تظهر على أجهزة المراقــبة. لــم يكن ثمة حركة أخرى أو أي صوت آخر في الغرفة. لقد بدت والدتهــا في حالة مريعة أكثر مما كانت قد توقعت. ولقد كان من الصعب أن تصدق أنها تنجو من الحادثة.

جلست صوفي لفترة طويلة، وأخيراً قامت حوالى الساعة الرابعة وسارت خارجــة من الغرفة. الرجل نفسه الذي كان يراقبها تدخل راح ينظر إليها الآن مــن جديــد. لقد أخبرته الممرضات عمن تكون، ولكن بالتأكيد سيعرف وحده على أي حال. لقد بدت مثل إيزابيل وهي شابة.

"صــوفي؟" ناداها، وأجفلت إذ سمعت صوته يناديها باسمها، وقد اندهشت من أنه يعرفها. واقتربت منه ببطء ووقفت في مدخل غرفته.

"نعم". قالت بصوت متردد، ولكنها كانت مستاءة مما كانت قد رأته للتو. وكان يتمنى لو يحيطها بذراعيه كرمى لإيزابيل ولأنه يحبها شخصياً. وما كان لديه الكثير ليعمله من أجلها.

"اســمي بــيل روبنســون. وإن صداقة تجمعني بوالدتك. ولقد كنت في الســيارة معها عندما وقع الحادث". قال لها ذلك وكأنه يود أن يعتذر لأنه كان السبب في وجودها هناك. "يؤسفني ما حدث جداً". وأومأت برأسها وهي تنظر إلــيه. لــم تذكر أن أمها ذكرت اسمه يوماً، ولكنه بدا رجلاً ظريفاً، وكان من الواضح أنه تأذى كثيراً من الحادث وخلافاً لوالدتها، فقد كان واعياً وعلى قيد الحياة.

"مــاذا جرى لك في الحادث؟" سألته صوفي بحذر وهي تخشى أن تدخل الغرفة. ولم تدرك بعد من يكون أو ما سبب وجوده مع والدتها أثناء الحادث.

"لقد انكسرت عنقي، وأُصبتُ في رأسي. ولكن والدتك أسوأ حالاً من الإصابات الشكلية مني". قال ذلك وهو حزين. "ليتني أستطيع أن أكون مكانها يا صوفي. وأتمنى أن تعرفي ذلك. وإني لأضحي بحياتي من أجلها لو أمكنني ذلك". تأثرت صوفي بما قاله، لقد بدا رجلاً ظريفاً لطيفاً. وكانت تتساءل كيف صار هو ووالدته أصدقاء. فوالدتها ما كانت تخرج البتة بسبب تيدي.

"كيف تلقى تيدي النبأ. هل يعرف؟" سألها.

"لقد أخبره والدي بذلك ليلة أمس". قالت لــه وهي تشعر باستغراب. لقد اندهشت من أنه يعرفهم جميعاً دون أن يعرفوه. "إنه منزعج للغاية. لقد كان يشعر بحمى ليلة أمس، ولكنه أراد أن يأتي. وعليّ أن أعود غداً إلى المنزل لكي أعتني به. كنت لأفضل أن أبقى هنا، ولكني أعتقد أنه يحتاج إليّ هناك". كانت تتنقل حذاء إيزابيل وكان بيل يرغب لو يستطيع أن يمد يده ويلمسها فقد بدت تشبه والدتها كثيراً جداً.

"هل أستطيع أن أخدمك في شيء؟" سألها بيل وهو يشعر بالعجز. مثلها تماماً. ما كان هناك ثمة ما يمكن عمله الآن. ما حدث لهما قد حدث وما كان أحد يعلم إلا الله فيما إذا كانت إيزابيل ستستيقظ من غيبوبتها أم لا.

"لا. أنا على ما يرام". قالت لــه، وقد بدت حزينة في صمت.

"أين تمكثين؟".

"في فندق كلاريدج".

"إن زوجتي وابنتي هناك. إذا احتجت إلى شيء الليلة اتصلي بهن". وإذ قال ذلك دخلت سنثيا والبنتان إلى الردهة، ورأين صوفي تتحدث إليه من مدخل باب غرفته. فعرّفهن على بعضهن بعضاً، ثم قالت صوفي بأن عليها أن تنصرف. فما كانت تريد أن تكون متطفلة عليهم. وشعرت أن ابنتاه كانتا

لطيفتين، وأصابت في تخمينها أن جين هي في نفس عمرها تقريباً. ودعتهم صوفي بلطف وكياسة ثم سارت خارجة عبر الردهة. كانت تنوي العودة لاحقاً تلك الليلة لترى والدتها ثانية. لقد كان هذا كل ما تريد أن تفعله.

"هل هي ابنتها؟" سألت سنثيا في هدوء.

"نعم. ولديها ابن أيضاً، ولكنه مريض جداً". لم تُبْدِ سنثيا أي تعليق، وبدأت بترتيب غرفته، لأنه لم يكن لديها شيء آخر تعمله. وراحت الفتاتان تدردشان معه.

لقد كانتا قد عقدتا العزم على الرحيل في اليوم التالي. فكانتا تعتزمان الذهاب إلى باريس لأسبوع، ثم تعودان إلى الفندق لرؤيته في طريقهما إلى المنزل. وفكر أن هذه فكرة رائعة، وأراد لهما أن تنالا قسطاً من التسلية واللهو. واتفق هو وسنثيا على أن يخبراهما عن موضوع الطلاق في طريق العودة، وهكذا تستطيعان التأقلم مع الفكرة بعد أن تذهبا إلى المنزل. فلم يُرِدْ أن يفسد عليهما رحلتهما إلى باريس. وكانت سنثيا ستخرج معهما إلى العشاء تلك الليلة. ولسوف يستفدن من عضويته في نادي هاري. ومجرد سماعه لذلك جعله يفكر بإيزابيل وذهابه إلى هناك معها.

كان بيل مستلقياً على ظهره، يفكر بها تلك الليلة، عندما عادت صوفي لترى والدتها. وفي هذه المرة عرجت عليه ودخلت غرفته لتسأل عن أحواله.

"كيف حالك يا سيد روبنسون؟" سألته في تهذيب ولباقة في حين ابتسم لها.

"على نفس الحال تقريباً. كيف حالك أنت؟" فهزّت كتفيها بما يوحي بأنها لا تكترث لنفسها، واغرورقت عيناها بالدموع. لقد كان منظر والدتها على تلك الحال يحطم فؤادها، ولم تكن هناك أية علامة تدل على أنها تحرز أي تقدم على الإطلاق نحو استعادة وعيها. لقد كانت معلقة في مكان بعيد ناءٍ لم يعرف أحد على الإطلاق إذا ما كانت ستعود منه. كانت الممرضات قد أخبرنه أنها قد تبقى هكذا لسنوات وأنها قد لا تعود من غيبوبتها حتى تموت في النهاية. لقد

كانت هذه فكرة مخيفة مؤلمة وخسارة هذه المرأة غير العادية مصيبة كبيرة، وليس ذلك من الإنصاف في شيء. ومنذ بداية الحادثة كان بيل قد تمنى لو أنه مات وبقيت هي على قيد الحياة.

"كيف التقيت بماما؟" سألته صوفي وهي تقف إلى جانب سريره. ما برحت تتساءل عن ذلك منذ التقت به بعد ظهر ذلك اليوم. فلم يقل والدها أنها كانت في سيارة مع أحد، واندهلت صوفي عندما خاطبها بيل.

"لقد التقينا منذ زمن بعيد، في السفارة الأمريكية في باريس". لقد شعر فجأة بالحاجة لأن يتحدث عنها، ولقد سُرَّ من سؤال صوفي. "وتناولنا الغداء مرتين كل سنة، وكنا نتحدث على الهاتف في بعض الأحيان. وكانت تخبرني عن كل شيء عنك وعن تيدي". لقد أرادت صوفي أن تسأله إذا كان يحبها، أو إذا كانت أمها تحبه، ولكن بما أن كلاهما كان متزوجاً، فإن هكذا سؤال سيكون فيه وقاحة. ولكنها كانت تستغرب أنها لم تسمع عنه. فوالدتها لم تذكر أبداً اسمه.

"هل تعرف أبي أيضاً؟" سألته، وابتسم، ودعاها للجلوس، فجلست.

"نعم أعرفه. وأعتقد أنه حانق علي جداً منذ الحادث. وأعتقد أنه يظن أن الحادث ما كان ليقع لو لم تخرج للعشاء تلك اليوم. ولو كنت مكانه لانتابني نفس الإحساس".

"إنها ليست غلطتك. قالت الممرضة أن السائق قد لاقى حتفه. إن الأمر مريع. لا يسعني أن أفهم كيف يمكن أن يحدث شيء كهذا". وامتلأت عيناها بالدموع من جديد. "إن أمي طيبة جداً ولا تستحق هذا".

"نعم إنها طيبة جداً". وانهمرت الدموع من عينيه أيضاً، ومدّ يده وأمسك بيدها. بالنسبة له كان يشعر بطريقة غامضة وكأنه يلمس يد إيزابيل، وبالنسبة لها كان تواصلها مع صديق والدتها كأنه تواصل معها هي بالذات. لقد كان يجمعهما رابط غير اعتيادي من خلال إيزابيل.

"لم أكن دائماً لطيفة معها". أقرت صوفي بعد هنيهة. "لقد اعتدتُ أن

أغضب منها. لقد كانت تمضي وقتاً طويلاً مع تيدي، وعندما كنت أصغر سناً، كنت أفكر أنها لا تملك وقتاً كافياً من أجلي". لقد كان إقرارها هذا بمثابة اعتراف عن خطاياها وعن الأشياء التي فعلتها والتي تشعر بالندم عليها الآن، وفهم هو كل ذلك.

"إنها تحبك كثيراً يا صوفي. لم تقل شيئاً عنك إلا أنك فتاة رائعة". ما كان يريده الآن هو أن يعزز ثقتها بنفسها وبمحبة والدتها لها. كان هذا كل ما يستطيع أن يفعله من أجلها.

"هل كانت مسرورة تلك الليلة؟" سألته صوفي بحزن. "هل أمضت وقتاً سعيداً؟" لقد كان سؤالاً غريباً تسأله له، وجل ما أمكنه أن يفكر به عند سؤالها هذا هو قبلتهما الأولى والأخيرة.

"نعم كانت سعيدة. لقد ذهبنا لرؤية معرض فني ظريف بعد ظهر ذلك اليوم، وكانت تشعر بالإثارة حيال ذلك. ثم خرجنا لتناول العشاء. لقد كنت هنا بهدف رؤية السفير الأمريكي". لقد حوّر قليلاً من الحقيقة لكي تناسب كليهما. "لقد التقينا بالصدفة في فندق كلاريدج وقررنا أن نتناول طعام العشاء معاً". لم يكن من داعٍ ليخبر هذه الطفلة بأنهما التقيا في لندن عن عمد وأنه كان يحبها. فما كانت إيزابيل لتريدها أن تعرف وهو أيضاً كذلك. "إننا لم نرَ بعضنا منذ وقت طويل".

"إن والدتي لا يتسنى لها الكثير من وقت التسلية والمرح. فهي دائمة العناية بتيدي وتبقى لأجله في المنزل".

"أعلم. هذا ما تحب أن تعمله. إنها تحبكما كثيراً". ولومأت صوفي برأسها، وجلسا هناك صامتين إلى جوار بعضهما لوهلة، ثم وقفت صوفي في نهاية الأمر. ما زالت تشعر أنها لا تعرفه حقاً، ولكن شعرت أنها وجدت صديقاً جديداً. وقفت تبتسم له للحظة ثم غادرت، وإذ راح ينظر إليها كان يرى فيها إيزابيل، والمرأة صوفي التي ستكون عليها يوماً ما.

"سآتي لزيارتك غداً". وعدته صوفي بذلك. "سأكون هنا في الصباح قبل

أن أرحل".

"تلك من دواعي سروري. شكراً لحديثك إليّ يا صوفي". لقد كانت هذه لحظة شعر فيها بالارتياح خلال فترة عصيبة من العزلة كانت أكبر مما تستطيع هي أن تتخيلها أو تتفهمها. فالحياة، التي عرفها، كانت توشك على أن تتغير وللأبد. سوف لن يسير على قدميه ثانية، أو يقفز، أو يرقص، أو يتسكع في الشوارع. فحركته، مثل حياته، ستغدو معقدة من الآن فصاعداً. لقد قرر هجر حياته الزوجية. وفقد المرأة التي أحب. فلم يعد له ما يتعلق به في الوقت الحالي، وكان ضالاً في بحر مترامي الأطراف وليس من علامة تدل على وجود اليابسة في أي مكان حوله. لقد كان يريحه أن يمضي بضع دقائق مع ابنة إيزابيل بينما يحاولان أن يخمنا أين ستقودهما خُطى الحياة الآن، التي كان ممتناً لها إذ منحتهما فرصة اللقاء.

جاءت سنثيا والفتاتان ليودعنه صبيحة اليوم التالي، في طريقهن إلى المطار. ووصلت صوفي بعيد أن غادرن. فجلست مع والدتها لأكثر من ساعة، ثم جاءت تستودعه الله. وإذ لاحظت أنه مكتئب، افترضت أن ذلك لأن عائلته قد رحلوا الآن وسيبقى وحيداً من جديد. لم تكن لتعلم أن سبب اكتئابه إنما هو أكثر بسبب والدتها. لم تكن تستطيع أن تعرف أنه يحبها، رغم أنها كانت تشك في ذلك.

"إلى اللقاء يا سيد روبنسون". قالت صوفي بلطف وهي تستعد للرحيل. "آمل أن تكون على ما يرام في القريب العاجل". لم يسألها إذا ما كانت ستعود من جديد، فما كان السؤال مناسباً الآن إذ لم يكن أحدهما يعرف بعد إذا ما كانت إيزابيل ستنجو.

"انتبهي جيداً إلى نفسك... كرمى لأمك يا صوفي. أعلم أنها كانت لتشعر بالقلق عليك الآن. اهتمي بنفسك واعتني بتيدي". قال لها والدموع في عينيه. لقد بدا تماماً وكأنه والدتها تودعها وهي تنوي القيام برحلة. "ستبقين في بالي".

"سوف أصلي من أجلك عندما أذهب إلى الكنيسة". قالت له في رقة.

وشعرت بالحزن وهي تفارقه وكأنها كانت تفارق جزءاً من أمها. لقد كان لطيفاً للغاية، وكانت مسرورة من أنهما تصادقا، ومن أنها أمضت وقتاً جميلاً في صحبته.

"سوف أصلي لأجلك أيضاً. ومد يده وأخذ بيدها ولثمها في لطف إذ لم يكن يستطيع أن يصل إلى وجنتها كي يقبّلها، وذلك من وطأة الحالة التي كان عليها. وبعدها غادرت بابتسامة خجول على محياها، واستلقى هو هناك في سريره، وعيناه مغلقتان مفكّراً بها.

وما هي إلا برهة بعد ذلك حتى كانوا يدفعون عجلات سريره ذهاباً نحو غرفة إيزابيل. لقد كانت صامتة هادئة الحركة وعلى حالها المعهود. ولكنه استلقى في سريره الذي وضعوه إلى جوارها، وتحدث إليها عن زيارة صوفي له.

"إنها فتاة رائعة. وأعرف الآن لماذا تفخرين بها". قال لها وكأنها كانت تستطيع سماعه ولكنه كان لا يزال يرجو ذلك. ومكث هناك لوقت طويل يفكر بإيزابيل وهو يتمنى لها أن تستيقظ من غيبوبتها وأن تعود إلى الحياة من جديد. وكان في غاية التعب عندما أعادوه إلى غرفته. وما عادت زياراته المتكررة لها تُقابل بتعليقات بين طاقم التمريض. لقد صاروا يتقبلونها كإيماءة حب تبدر منه نحو إيزابيل. لم يسأل أحد عن سبب ذلك، أو تساءل عما كان يدور بينهما، وكان هناك عدد من الممرضات تعتقدن أنه إن كان لأحد أو شيء يمكنه أن يعيد إيزابيل إلى الحياة فهو بيل.

الفصل الثامن

فكرت صوفي كثيراً ببيل في طريق عودتها إلى باريس، وأمكنها أن تفهم ما جعل والدتها تحبه. لقد بدا رجلاً متحفظاً مهذباً، وشعرت بالأسف الشديد لأجله. قالت لها إحدى الممرضات أنه لن يسير أبداً على قدميه. وبدا وقد تقبل هذه الحقيقة بطريقة فلسفية، وكان يشعر بنفسه محطماً لأن إيزابيل تعرضت للإصابة بينما كانت خارجة معه.

وإذ حطت الطائرة بهم في باريس، كانت أفكار صوفي قد تحولت نحو أمها وأخيها من جديد. لقد شعرت بنفسها متنازعة لا تدري أين يجب أن تكون. لقد قررت أن تعود إلى المنزل لبضعة أيام، وكانت تريد بعدها أن ترجع إلى لندن من جديد كي ترى والدتها.

استقلت سيارة أجرة من المطار، وعندما وصلت كان المنزل غارقاً في الصمت بشكل غريب. لم يكن ثمة أصوات في البيت، وسارت صاعدة إلى الطابق الأعلى، ورأت النور مطفأ في غرفة والدها. وعندما دخلت غرفة تيدي، انصعقت من الحالة التي كان فيها. فقد كان يعاني من حمى شديدة، كانت فيما يبدو توصله إلى درجة الهذيان، وكان الطبيب قد وصل هناك لتوه، وشرحت لها ممرضة تيدي الموقف. قالت لها أن الحمى إذا لم تنخفض خلال الليل، فإن الطبيب سيضطر لوضع تيدي في المشفى في اليوم التالي. ومجرد التفكير بذلك، وخاصةً بعد رؤيتها لأمها، كان أكثر مما تستطيع صوفي تحمله.

"ماذا حدث؟" سألت صوفي وهي تجلس في كرسي، وقد بدا عليها العياء، فقد شعرت وكأنها قد كبرت بين ليلة وضحاها. ولم يدرك تيدي حتى إنها كانت هناك. لقد أُعطي مسكناً للألم، وكان يغط في نوم عميق.

"أعتقد أنه متضايق لما حل بوالدتك"، قالت لها الممرضة هامسةً. "فهو لم

يـنم جـيداً منذ أيام. وهو يرفض أن يأكل ويشرب". وقد ناقشت هي والطبيب إعطاء حقنة وريدية لـه ولكنه رفض وراح يبكي بشدة عندما سمعهما، فاضطر للاتفاق على أن يؤجلا إعطائها لـه إلى يوم آخر، إذا ما وعد على الأقل بأن يحاول أن يأكل ويشرب. لقد بدا لصوفي وكأنه قد خسر وزناً.

"أين أبي؟" سألت صوفي، وهي تشبك يدها في شعرها، فتبدو مثل إيزابيل أكثر من ذي قبل. لقد غدت تشبهها أكثر فأكثر خلال الأيام القليلة الماضية.

"سيكون خارج المنزل هذا المساء". قالت الممرضة دون أن تعلق. لم تره منذ يوم أمس ولكنها لم تقل ذلك لصوفي. "كيف كانت أمك؟" سألتها الممرضة وهي تشعر بالقلق.

"لا تزال على حالها". قالت صوفي، وراحت تفكر في بيل. "ما من أحد يستطيع أن يتوقّع بما يمكن أن يحدث. قالوا أنها قد تبقى في حالة غيبوبة لزمان ليس بيسير، وقد تشفى". بدت صوفي متفائلة وهي تقول ذلك، ولكنهم أخبروها أيضاً أن إيزابيل قد تموت في أي وقت. كل ما كان بإمكانهم أن يفعلوه هو الانتظار والصلاة لأجلها. "سوف أعود خلال بضعة أيام". وأومأت الممرضة برأسها، ثم جسّت نبض تيدي من جديد. لقد كان سريعاً وضعيفاً، فقطبت حاجبيها وقد أبدت ملاحظة للطبيب بهذا الخصوص. لقد بدت متأكدة من أنهم سيضطرون لإدخاله إلى المشفى من أجل العلاج. وقد أيدتهم صوفي في الفكرة. فقد كان هذا أكثر أماناً له.

سهرت صوفي في انتظار والدها تلك الليلة وذلك كي تناقش معه حالة تيدي. وقد اندهشت أنه حل منتصف الليل ولم يحضر والدها بعد إلى المنزل. وسألت الممرضة إذا ما كان والدها يعرف أن تيدي كان مريضاً.

"لقد تحدثتُ إليه بعد ظهر هذا اليوم في مكتبه". قالت دون أن توحي سيماؤها بأية تعابير. "وأنا متأكدة أنه سيكون عاجلاً في المنزل". ودقت الساعة تعلن الثالثة، وكانت صوفي لا تزال مستيقظة ولم يكن قد أتى إلى المنزل بعد. وكانت قد اتصلت بالمشفى في لندن قبل ذلك لتطمئن على والدتها ولم يكن

هناك أيضاً جديد يُذكر. ولوهلة فكرت بأن تتحدث إلى بيل، كي تسلم عليه، ولكنها شعرت بالحرج أن تتصل به، فوضعت السماعة دون أن تسأل عنه.

استيقظت صوفي وهي لا تزال مرتدية ثيابها وجالسة في كرسي في غرفة تيدي في صباح اليوم التالي، تماماً كما كانت ترى والدتها تفعل معظم الأحيان عندما يكون تيدي مريضاً. هي لم تقصد ذلك، فقد كانت تنتظر والدها، وأغفت في نهاية الأمر. ولقد ظنت أنه حرص على ألا يوقظها، وأنه على الأرجح لم يعلم أنها كانت في غرفة تيدي.

كان الغلام مستيقظاً عندما غادرت غرفته لتجد والدها، وبدا تيدي في حال أفضل. قالت الممرضة أن الحمى قد زالت، ولكن صوفي كانت ترى أنه لا يزال على غير ما يرام. وإذ نزلت السلالم إلى الردهة لتتحدث إلى والدها، دهشت لرؤية أبوابه مفتوحة، وعندما نظرت إلى الداخل لم يكن من أحد هناك.

فانعطفت نحو الخادمة مندهشة وسألتها: "هل نام والدي هنا ليلة أمس يا جوزفين؟" فهزت المرأة رأسها نفياً وتوارت تحت السلالم. لم تكن صوفي لتتوقع هكذا جواب تعطيه لابنة في مثل عمرها. ولكن أمكن لصوفي أن تعرف أنه لم يكن هناك. لقد كانت الستائر مسدلةً، والأضواء مطفأة، والغرفة غير مبعثرة. فلم يكن أحد في السرير. ولوهلة شعرت بالذعر. ماذا لو أن مكروهاً قد أصاب والدها؟ سوف يكونان يتيمين، أدركت ذلك بشكل مفاجئ. لم تستطع أن تتصور أين يمكن أن يكون. وبعد ساعة اتصلت بمكتبه، فبدا في غاية الهدوء إذ أجاب على الهاتف. ما كان قد رآها منذ غادرت إلى لندن، ولقد انذهلت من عدم وجوده في المنزل مع تيدي. لقد بدا لها وكأن ليس لديه أي إحساس بالمسؤولية.

"لقد كان تيدي مريضاً". قالت وفي لهجتها لومٌ لوالدها وكأنها كانت غلطته، ولكنه بدا غير مهتم.

"أعلم. لقد أخبرتني مارثي بعد ظهر يوم أمس. وقد جاء الطبيب لمعاينته، واليوم تحدثتُ إليه". ما كان أبداً ليقبل أن تعنّفه أو تلومه ابنته التي تبلغ الثامنة

عشرة من عمرها.

"أنــتَ لــم تأتِ إلى المنزل ليلة أمس". قالت صوفي وهي تكظم غيظها، وكاد يضحك من لهجة صوتها، ولكنها لم تكن مسرورة.

"أعرف. لقد كنت مع أصدقائي خارج المدينة، وتأخر الوقت بنا، ففكرت أن من الحكمة أن أمكث هناك بدلاً من أن أقود السيارة عائداً إلى المنزل".

افترضـــت صوفي أنه كان مترنحاً، وبالنظر إلى ما حدث لوالدتها، فإنها فكرت أن معه الحق في ألا يقود سيارته راجعاً إلى المنزل وهو متعب.

"لقد اتصلتُ الآن بلندن" قال في هدوء "وليس من تغيير".

"أوه". انهـارت معنويات صوفي لسماع هذا النبأ. ولكنها كانت لا تزال غاضـــبة مـــن والدها لأنه لم يعد إلى المنزل الليل الفائت. فلو أن أمراً مروعاً كـــان قـــد حـــدث لتيدي لكانوا سيحتاجون إليه هناك. وما من أحد كان يعرف بمكان وجوده. ولكنه لم يُبْدِ أي اعتذار أو تبرير، وهنا تساءلت صوفي لتعرف ذلك حقاً. ولم تستطع أن تمنع نفسها من التساؤل إذا ما كانت ثمة أشياء تخص والديهـــا لا تعرفها هي، وقد بدأ هذا التساؤل لديها منذ قابلت بيل. لقد كانت لا تـــزال تستغرب أنها لم تسمع بصداقة والدتها لـــه، وتذكرت أنها ما كانت تُقْدم علـــى دخول جناح والدها في الليل أو في الصباح الباكر. ولربما كانت هناك أوقـــات أخـــرى لـــم يكـــن موجوداً فيها في المنزل. لقد كان يخرج كثيراً في الأمســـيات بدافع العمل، وكانت والدتها قلما ترافقه في الفترات الأخيرة. وفجأة انـــتاب صـــوفي إحساســـاً بأن حياتها كلها آيلة للانهيار، ليس بسبب ما حدث لإيزابـــيل وحســـب، بـــل بسبب ما كان قد كشف عنه هذا الحادث. لقد كانت صـــوفي تعتقد دائماً أن والدها كان مثلاً أعلى، والآن تتساءل إذا ما كان لديه أسرار لم تكن هي تدري بها. ربما كانت أسباب أخرى عدا مرض تيدي جعلت والدتها تلازم المنزل وجعلت والديها ينامان في جناحين منفصلين في المنزل.

"هل ستأتي إلى المنزل هذه الليلة؟" سألت والدها وقد بدت في حالة توتر، وتشـــعر وكأنها زوجته أكثر منها ابنته، ولكنها كانت تشعر بانعدام الطمأنينة.

فقد كانت هناك أشياء كثيرة مخيفة تدور حولها.

"نعـــم سأفعل. سوف أكون خارجاً على العشاء. ولكن سأراك في المنزل قبل أن تخلدي إلى النوم". قال لها مؤكداً.

"إذا احتاج تيدي إلى الذهاب إلى المشفى فإني بحاجة إليك هناك". شرحت لـــه صوفي.

"الطبيـــب يبدو أقل قلقاً. أعتقد أن تيدي قد تعرض لصدمة فحسب، وهو في حاجة لبعض الوقت ليخرج منها".

"كلنا في حاجة لذلك". قالت صوفي حزينة. "متى ستعود إلى لندن؟".

"خـــلال بضعة أيام. ليس ثمة ما أستطيع أن أفعله هناك. سوف يتصلون بنا إذا طرأ أي تغيير". ولكن صوفي فكرت بأن والدتها، إذا ما ماتت، لن يكون أحـــد معهـــا هناك، وإذا حدث شيء وكانوا يريدون تحذيرهم منه، فإن الأمر سيســـتغرق ساعات للذهاب من باريس إلى لندن. كانت صوفي تتمنى لو تبقى هناك، ولكنها كانت تعلم بأن تيدي في حاجة إليها أيضاً. وأما الآن وقد أدركت أن والدهـــا كـــان يمكث خارج المنزل طوال الليل أحياناً، فإنها تشعر بأنها لا تســـتطيع أن تـــترك تـــيدي هنا. لقد كان يصعب عليها أن تحدد ما هو الأمر الصائب الذي يجب أن تقوم به. وقد بدا والدها أقل تأثراً بالأمر منها.

بعـــد ذلـــك غـــادر والدها من أجل اجتماع، وأمضت صوفي النهار مع أخيها، تقرأ لـــه، وتسرد عليه قصصاً، وتتحدث إليه عن أمهما. لقد كانت تفعل ما بوسعها، ولكن كلاهما كان يعرف أنها لا يمكن أن تكون بديلاً عن إيزابيل. لقـــد شعرت بأنها نسخة حية عن إيزابيل ولكن منتقصة قليلاً، وذلك في الوقت الـــذي جـــاء فيه والدها إلى المنزل بعد العشاء. لقد كان يبدو في حالة معنوية عالية، وجلس في المكتبة ليدخن سيجارة. سمعته صوفي يدخل ووجدته هناك. وكانـــت مندهشة أنه لم يصعد ليتفقدها فوق في الطابق الأعلى. لقد كان دائماً لطيفاً ومرحاً معها ومهتماً بها ولذلك اندهلت بمدى البعد عنها خلال هذه الأيام، وخاصـــةً وأن أمها مريضة للغاية. وفجأة خطر لها، وهي ترقبه، أن اهتمامه

السابق بها كان مجرد ادعاء وتظاهر وليس حقيقياً، وربما كانت غايته في ذلك أن يــزعج إيزابيل ويشعرها بأنها أقل أهمية بالنسبة له. لقد كان يعامل صوفي دائماً على أنها طفلته المدللة المحبوبة، قد كان دائماً بارد العواطف وبعيداً عن زوجته تماماً كما هو الآن نحو صوفي.

"كــيف كان يومك يا بابا؟" سألته بحذر. وكانت عابسة بسبب قلقها على والدتها من جهة واعتنائها بالصبي المريض من جهة أخرى.

"طويلاً. كيف كان يومك أنت؟".

"كنــت مع تيدي طوال الوقت". لقد كانت تتوقع أن يسألها أكثر عن ذلك، ولكن عندما ذكرت لــه شقيقها، سرعان ما بدا والدها ضجراً فيما راح يسكب لنفسه كأساً من المشروب المفضل.

"ماذا فعلتِ غير ذلك؟" سألها وهو يركز انتباهه على سيجاره، واستغربت أن تجلــس هناك تتحدث إليه وكأن شيئاً لم يحدث. فقد كانت والدتها في حالة غيبوبة في مشفى في لندن، وأخوها تتدهور حالته الصحية منذ أن سمع بالنبأ. وبــدا والدها غير مبالٍ بشكل يثير الدهشة. وإذ راحت تنظر إليه لم تستطع أن تفكر إلا بعلائم الانهيار والانسحاق التي كانت متبدية على وجه بيل روبنسون عــندما كــان يتحدث عن والدتها. لم تجد أياً من ذاك في عيني والدها. لقد بدا بعيداً ومتحجر العواطف كلما أشارت إلى والدتها.

"هذا كل ما فعلته اليوم يا بابا. لقد مكثت مع تيدي. إنه منزعج جداً". أومأ غــوردون ولــم يــرد عليها. لقد بدا وكأنه نسي وجودها هناك، ثم رن جرس الهــاتف. وطلب إليهم أن يقولوا للمتصل أياً كان بأنه سيعاود الاتصال به. كاد قلــب صوفي ينخلع وهي تسمعه. وكل مرة رن فيها جرس الهاتف تخشى أن يكون هذا الاتصال من لندن لينقل لهم أسوأ الأخبار.

"علــيك أن تخلــدي للــنوم" قال غوردون وهو يرتشف كوب المشروب المفضــل ويصرفها. "لقد كان يومك طويلاً". لقد كان جلياً أنه ما كان ليريد أن يتكلم، وتألمت صوفي من موقفه. لم تشعر أبداً بالعزلة في حياتها كما الآن.

"متى ستعود إلى لندن؟" سألته بهدوء قبل أن تغادر.

"عندما أظن أن علي ذلك". قال بجفاء واقتضاب وهو مقطب الجبين. لقد كانت تزعجه. لقد استحالت إلى والدتها في ليلة وضحاها.

"أريــد أن أعــود إلــى هناك معك". قالت لــه وهي تدرك أنه لم يكن مسروراً منها، ولكن ما كان ذلك ليهمها الآن.

"إن أخيك بحاجة إليك هنا".

"أريد أن أرى ماما من جديد". وبدت فتية وعنيدة، ولم يرق لــه ذلك.

"سوف لن تدرك حتى إنك هناك. أنا أحتاج إليكِ هنا. فلا أستطيع أن أشغل فكري بذاك الصبي وممرضاته طوال النهار. فإنهن لا يكففن عن الاتصال بي إلى المكتب طوال النهار، وليس لدي وقت لذلك يا صوفي. عليك أن تهتمي به". لم يطلب منها ذلك، بل اكتفى بأن يقول لها بما عليها القيام به متوقعاً أن تنفذ ما يقول.

"ذاك الصبي هو ابنك يا بابا. وهو يحتاج إليك أنت أيضاً وليس فقط لي أو لماما. وأنت لا تكلمه البتة". كانت متعبة جداً حتى تحتمل كل ذلك.

"ليس لديه ما يقوله". قال غوردون بقسوة وهو يصب لنفسه كوباً آخر من المشروب المفضل. "وليس لك أن تملي علي ما أفعله". كان هكذا حوار قد دار بين إيزابيل وبينه مرات عديدة عبر السنين وكانت إيزابيل قد استسلمت منذ زمن طويل. فالأسباب تعود إليه، وتشتمل على عدة أمور من بينها أشياء في ماضي حياته، كان غوردون مصمماً على ألا تكون بينه وبين ابنه أية علاقة. ولم تستطع صوفي بسذاجتها أن تغير من هذا الواقع. ولو كان تيدي معافى وقوياً وقادراً على المشاركة في الأشياء التي يهتم بها والده لكان الأمر مختلفاً. ولكن في الحالة التي كان عليها، وقياساً بمدى اهتمام غوردون، فإنه لم يكن للصبي أي وجود ولم يكن ليحظى بأي اهتمام منه. ليس هذا فحسب بل كان ليثير حنقه. رغم أنه يشعر بالأسف من أجله الآن. لقد كان تيدي عبئاً ثقيلاً

ومصدر إزعاج في نظر والده. وبحسب غوردون، فإن العناية بتيدي هي من واجب إيزابيل وليس من واجبه هو. وبما أنها غائبة فإن المسؤولية تقع الآن على عاتق صوفي.

وشعرت صوفي بالحزن بمجرد ملاحظتها للطريقة التي كان يتحدث فيها والدها عنه فيما ذهبت إلى غرفتها. لقد كانت قد تحدثت مع تيدي عن ذلك عبر السنين، وكان يقول هكذا أشياء عن والدهما، وكانت هي تخالفه الرأي فيما يقول. ولكنها أدركت الآن أن ما كان تيدي يقوله إنما كان الحقيقة بعينها. لقد كان تيدي يقول إن والدها قاسٍ عديم الشفقة وأناني وعديم الإحساس وأنه كان يكرهه. وأمكنها الآن أن تدرك أن تيدي كان يعرف في والده الجانب الذي ما كانت لتريد أن تراه. وبالنسبة لغوردون، ما كان ليرى أن من دواعي سروره أن يكون لـه ولد كمثل تيدي. لذلك فقد آثر أن يقصيه وينساه، تماماً كما فعل نحو زوجته.

ارتدت صوفي ثوب نومها في غرفتها، ثم عادت إلى غرفة تيدي. قالت الممرضة أن لديه حمى من جديد، وصعدت صوفي إلى سريره والتصقت به. لقد شعرت وكأنهما طفلان فقدا أمهما وشعرت بحزن وعزلة لم تشعر بهما أبداً في حياتها من قبل. وكل ما كانت ترجوه، والدموع تنهمر من عينيها على وسادتها، هو أن تستيقظ أمهما من غيبوبتها عاجلاً. فما كانت لتطيق أن تتخيل كيف يمكن لحياتهما أن تكون إذا ما توفيت والدتهما.

الفصل التاسع

استمرت الأمور على مجراها في المشفى في لندن. وجاء أخصائيو المعالجة الفيزيائية ليعاينوا حالة بيل ويرتبوا لبرنامج إعادة تأهيل بدني له. لقد كانوا يحاولون تقليبه بشكل متكرر في سريره ليحافظوا على جريان دورته الدموية ويتفادوا أن يصاب بذات الرئة، ولكن الأيام مرت ثقيلة عليه مضجرة. وكان يذهب على سريره مرة أو اثنتين يومياً إلى غرفة إيزابيل. لم تلتفت الممرضات إلى تعليمات غوردون، وكانت العديدات منهن يأملن أن تساعد زيارات بيل في شفائها. فهذه الزيارات ما كانت لتسبب ضرراً، كما وأنها رفعت معنويات بيل بشكل ملحوظ. فقد كان يشعر دائماً بالتحسن عندما كان يزورها. لقد كان يشتاق كثيراً إلى مكالماتها التي كانا يجريانها في نصف الليل. وكان يستلقي لساعات في سريره في المشفى يفكر بها وهي مقابل الردهة. لقد كان يتشوق طوال النهار إلى بضع الدقائق التي كان يمضيها إلى جوارها.

كانت إصاباته قد بدأت تشفى قليلاً. وكان عنقه وعموده الفقري لا يزالان يسببان لـه المزيد من الألم، ولكن أمكنه الآن أن يتحرك أكثر من ذي قبل. وكان لديه بعض الإحساس الواهم الغامض بساقيه. ولكن على الرغم من ذلك بقي التكهن بحالته كما هو. لقد كان يحاول الحفاظ على معنوياته عالية، يفكر فيما سيفعله عندما يعود إلى الولايات المتحدة، ولكن التغيرات التي كان يواجهها الآن كانت صعبة قاسية بما يفوق الوصف.

لقد صار طاقم التمريض يحبونه، وكانت هناك همسات تدور بين الناس تتساءل عن طبيعة علاقته مع إيزابيل، ولكن لم يكن هنالك تفسير سهل واضح لما كانوا يرونه. لقد خمّن معظمهم أن ثمة علاقة غرامية تربطه بها، وتناهى

إلى سمع إحدى الممرضات صدفة صوته يقول لزوجته بأنه يريد الطلاق منها، ولكن أياً كانت علاقته بإيزابيل أو الرابط الذي يجمع بينهما، فإنهم جميعاً كانوا يحبونه ويرون فيه رجلاً رائعاً.

"أنا سآخذه. فهو شاب وسيم". قالت إحدى الممرضات وهي تتحدث إلى مجموعة من زميلاتها في الكافتريا. ولكنه لم يحاول أن يغازل أو يتودد إلى أي منهن، ولم يكن جلفاً أو فظاً أو قليل التهذيب، وكان كل من يتحدث إليه يشعر بصدقه ويعجب به. ولاحظوا أيضاً أن السفير الأمريكي كان قد جاء لزيارته مرات عديدة.

"ماذا يعمل؟" سألت ممرضة أخرى وقد بدت حائرة، ولم تتذكر ما سمعت، رغم أنهم كانوا يعلمون أنه رجل مهم.

"شيء له علاقة بالسياسة". قالت إحدى ممرضات إيزابيل. "لا بد أنه كان مفتوناً بها حتى الجنون. ويا للأسف". وكان الجميع يوافقونها الرأي في ذلك.

ما كان غوردون قد عاد لرؤية زوجته، ولا صوفي في الوقت الذي رجعت فيه سنثيا وابنتاها من رحلتهما في باريس. لقد كنّ مبتهجات عندما وصلن، وبدون متزنات متمالكات لأنفسهن عندما غادرن، بعد أن أخبر سنثيا وبيل الفتاتين بأنهما سيتطلقان. فلقد صدمت أوليفيا وجين.

"لماذا؟". سألت أوليفيا وقد جلست في غرفة والدها في المشفى وهي تبكي. "إنكما تحبان بعضكما... أليس كذلك؟ ماذا يا ماما؟ ماذا يا بابا؟...". لقد كانت الفتاتان تعتقدان ذلك دوماً، ولكن بيل حاول أن يوضح لهما أنه وسنثيا قد تباعدا عبر السنين وحل الجفاء بينهما، وأنه يعتقد أن من الأفضل لهما في هذه الحال أن ينفصلا عن بعضهما بعضاً. لم يشأ أن يخبرهما عن علاقات والدتهما الغرامية، أو مدى تعاسة كل منهما في حياتهما الزوجية. فقد احتفظا بذلك لأنفسهما لسنوات. واضطر لأن يقر، بأنه لاحظ أن الأمور قد صارت أفضل بينهما منذ أن قال لها أن كل شيء قد انتهى بينهما. لقد شعر بأنه صادق

وصريح معها الآن أكثر. ولكن سنثيا قد أوضحت له قبل أن يغادرنه بأنه إذا غيّر رأيه فإنها تفضل أن تبقى زوجة له. أما بيل فقد كان لطيفاً ولكن بحزم. فما عاد يريد أن يبقى متزوجاً منها. لقد كانت أحلامه منصبة كلها الآن على إيزابيل.

وأصر على رأيه: "هذا أفضل لكلينا". ولكن سنثيا استاءت من رد فعل البنتين. لم يرد أن يقول أنه ما كان ليطيق أن تبقى متزوجة منه وهو معتل صحياً ومعاق إلى حد ما. بل على الأكثر، أنه لم يعد يحبها. فما كان يشعر به نحو إيزابيل قد دلّ على أشياء كثيرة تتعلق به وبما كان محروماً منه. ما عاد يريد أن يعيش أكذوبة. لقد كان يعلم أنه لن تكون له حياة مع إيزابيل، سواء شفيت أم لا، ولكن حقيقة أنه كان يحبها ولا يزال كانت كافية لتجعله يدرك أنه قد آن الأوان له ليتخلص من زواج لا حب فيه كان يرغب أن يكون مستقراً فيه على مدى زمن طويل.

لقد كان هادئاً ومكتئباً بعد أن غادرن. وكان قد وعد الفتاتين بأن يتصل بهما من وقت لآخر بعد أن يصلا إلى المنزل. وقد سألتا والدتهما في طريق العودة إلى الفندق إذا ما كان قد فقد والدهما عقله من جراء الحادث أو من أثر الصدمة على رأسه، وفيما إذا كانت تعتقد أنه سيغير رأيه. فابتسمت بحزن وهزت رأسها.

"إنه ليس مخبولاً. بل أنا كنت كذلك ولزمن طويل. لم أكن زوجة صالحة له". اعترفت بذلك. "لقد صرت أنظر إلى زواجنا على أنه أمر عادي مسلم به، وكنت أستاء من نجاحه واستقلاليته، وكانت هذه دناءة مني". لم تكن الفتاتان قد رأيتا شيئاً من هذا، لحسن حظهما، وكانتا تشعران الآن بالتمزق لفكرة أن والديهما سيعيشان في منزلين منفصلين.

"كيف سيتدبر بابا أموره الآن؟" سألت جين وقد بدت قلقة. فقد كانت إصاباته خطيرة، وقيل لهم إنه قد لا يقوى على السير من جديد.

"لا أدري". قالت سنثيا وهي تتنهد. "إنه واثق من نفسه ومقتدر جداً.

وسوف يعرف كيف يتدبر الأمر. ولكن إجابةً على سؤالك فأقول لك إني لا أعتقد أنه سيغير رأيه. فهو لا يفعل ذلك أبداً. فعندما تخطر في باله فكرة ما فإنه يستقر عليها مهما كلف الأمر. وما كان ليعترف بأخطائه، بل يتعايش معها. ولكن بقدر ما أكره ما قد قرره تجاهي، إلا أني لا أعتقد أنه مخطئ في ذلك". فمن جهة، لقد عمل ما كان يريده، فقد حافظ على صداقتهما بإنهاء زواجهما، ورغم أسف سنثيا إلا أنها كانت معجبة به من هذه الناحية. لقد شعرت بالأسف من أجل الفتاتين، فقد كانت هذه ضربة لهما، وكانت تشعر بالخوف على نفسها. فقد كانت تعلم أنها سوف لن تجد رجلاً آخر مثل بيل.

"هل تعتقدين أنه كان له علاقة غرامية مع إيزابيل فوريستر؟" سألت أوليفيا بصراحة. وفكرت سنثيا بالأمر. لقد كانت قد فكرت كثيراً بهذا الموضوع بينها وبين نفسها.

"لا أعلم. إنه ينفي ذلك، وهو لم يكذب عليّ أبداً، وأنا متأكدة من ذلك. أعتقد أنه يحبها، ولكن لا أعتقد أنه جرى بينهما ما هو غير لائق. فهي ملتزمة بزواجها من غوردون فوريستر، على حد قول والدكما. أعتقد أنهما كانا متيمان ببعضهما بعضاً، أو مجرد أصدقاء".

"هل تعتقدين أن بابا سيتزوج بها إذا ما نجت من الموت؟" سألت جين باهتمام.

"لا أعتقد أن هذه المسألة مطروحة الآن" قالت سنثيا فالمرأة المسكينة كانت شبه ميتة. "ولكن لا. لا أعتقد ذلك، حتى لو بقيت على قيد الحياة. فوالدكما يقول أنها سوف لن تهجر فوريستر أبداً، كما وأن حياتها متمركزة حول طفلها المعاق المريض".

"ماذا تعتقدين أن والدي سيفعل الآن، بعد أن يأتي إلى المنزل... أقصد بعد أن يعود إلى الولايات المتحدة..." سألت أوليفيا وقد بدا الحزن عليها.

"لا أدري سيحصل على شقة على ما أظن. ويعود إلى عمله. سوف يبقى في مركز إعادة تأهيل لفترة طويلة. ولا أعتقد أنه سيعود قبل شهرين. إنهم

يريدون أن يعالجوه الآن". أومأت الفتاتان والتزمتا بالصمت خلال بقية طريق العودة إلى الفندق. كانتا لا تزالان غير قادرتين على تصديق ما قد سمعتاه لتوهما. وسنثيا أيضاً كانت لا تزال عاجزة عن أن تصدق القرار الذي كان قد اتخذه.

لقد كان بيل دائماً يفعل ما كان يعتقد أنه الصواب، مهما تكن الصعوبات التي تعترضه. لقد انتهى زواجهما مع حفاظها على احترام عميق له، وكانت تدرك تماماً أنها لن تحظى برجل مثله في حياتها. لقد كانت تتمنى الآن لو أنها فكرت في الأمر قبل ذلك. لقد كانت تدرك أن معظم مسؤولية الطلاق تقع عليها مهما كان اللوم الذي كان مستعداً لإلقائه على نفسه.

غادرت سنثيا والفتاتان إلى الولايات المتحدة في اليوم التالي، وكان ذلك في وقت مبكر جداً بحيث لم يستطعن معه أن يعرجن لرؤيته في المشفى قبل رحيلهن. واتصلن به من المطار لكي يودعنه وكانت الفتاتان كلتاهما تبكيان عندما أغلقتا السماعة. ولم يقل لأحد عن ذلك، ولكن بعد رحيلهن، كان حزيناً. لقد بدأ يشعر بالوحدة، وهو يدرك الطريق الشاق الطويل الذي ينتظره. فلسوف يعاني لسنة على الأقل آلام وعذاب إعادة التأهيل لجسده، وربما أكثر. ولكن لم يكن لديه أي خيار آخر. كان يجري الاتصالات المتعلقة بالعمل من وقت لآخر، وكان عدد ضئيل من الناس قد سمع عن الحادث واتصل به. ولكنه عموماً كان يشعر وكأنه يعيش في شرنقة محاطة بالممرضات والأطباء، وكانت إيزابيل لا تزال في حالة غيبوبة عبر الردهة. كان وقتاً عصيباً بالنسبة له.

خلال أسبوعين من الحادث استطاع بيل أن يحقق تقدماً ملحوظاً بالنسبة إلى شفائه، وكان غوردون فوريستر لم يأتِ بعد لزيارة زوجته. وقد تدبر بيل أمره في إحداث عادة الذهاب به على سريره كي يراها كل صباح ومساء. وكان يستلقي في سريره هناك ويتحدث إليها لبرهة آملاً بأنها تسمعه في سباتها العميق، ثم يعود إلى غرفته.

أخـبرته الممرضـات أن فوريسـتر لم يستطع المجيء لأن ابنهم كان مريضـاً، وشعر بيل بالقلق على تيدي طوال الوقت إذ عرف كم كانت إيزابيل تهـتم لأمره. وكان يرجو ألا تكون حالته سيئة جداً. وكان يفكر بصوفي أيضاً بين الفينة والأخرى ويرجو أن تكون على ما يرام.

لقـد كـاد يفقـد الأمل تقريباً في استيقاظ إيزابيل من غيبوبتها في نهاية الأسبوع الثالث من الحادث، وكان يتساءل إذا ما كان غوردون سيتركها هناك منسـية ومحـرومة من الحب. لم يكن ثمة إمكانية لنقلها إلى باريس مع جهاز التنفس الاصطناعي، فقد كان في الأمر خطورة كبيرة عليها، وكان بيل قد بدأ بالقلق حول مصيرها عندما يعود إلى الولايات المتحدة. لقد قال الأطباء أنه قد يكون قادراً على العودة إلى دياره خلال شهر آخر أو نحو ذلك. ما كان ليطيق فكرة البعد عنها، وتركها على ذلك النحو دون أن يكون هناك من يزورها، أو يـتحدث إليها، أو يعزيها، أو يهتم بما يحدث لها. ما كان ليستطيع أن يتصور كيف يستطيع غوردون أن يتخلى عنها الآن، ولكنه فعل ذلك. كان بيل يفكر في هـذا الأمـر فـي إحـدى الليالي وهو مستلقٍ في سريره إلى جوار سريرها، ويتحدث إليها وقد أمسك يدها بيده. ما عادت الممرضات يستغربن هكذا أمور. كـانوا يبتسمون ويدردشون معه، عندما كان يزورها وكأنهم يتوقعون أن يروه في غرفتها عدة مرات في اليوم.

لقد كان يخبر إيزابيل كم أنه يراها جميلة، وكم اشتاق إلى الحديث إليها. وكان ذلك في ليلة دافئة منعشة من شهر تموز. كانت النوافذ مفتوحة، ولمكنهما أن يسمعا الأصوات الآتية من الخارج. ووجد نفسه يفكر في الليلة التي مضيا فيها إلى بار هاري، ثم نادي أنابيل. كان كل ما يتمناه الآن هو أن يعيد عقارب الساعة إلى ذلك الوقت فيعود في الزمان إلى تلك الليلة.

"هـل تذكريـن كم كان ذلك الوقت الذي أمضيناه جميلاً؟" دمدم لها وهو يداعب ويقبّل أصابعها وقد أمسك بيدها. "أحب أن أرقص معك يا إيزابيل' قال لهـا. إذا ما استيقظتِ فقد نستطيع الذهاب للرقص ثانية يوماً ما". ولكن بالنسبة

لـه كـان ذلـك مجرد ذكرى وحلم بعيد المنال. كان لا يزال يتحدث إليها ويذكّرها بتلك الليلة، عندما شعر فجأة بضغط خفيف في راحة يده. لقد فكّر أن ذلـك قد يكون رد فعل منعكس في البداية، وتابع الحديث إليها، ثم شعر بنفس الضـغط الخفيف من جديد. فانذهل من ذلك وتوقف عن الحديث لوهلة، ونظر إلـى الممرضـة عـندما دخلـت. لم يرد أن يقول شيئاً، واستمر في محادثته لإيزابيل بطريقة مقصودة إلى حد ما، ثم توقف، وحاول أن يعدل وضعه بحيث يستطيع أن ينظر إلى إيزابيل.

"شعرتُ بأنك تضغطين على يدي قبل قليل'. قال لها بوضوح. "أريدك أن تفعلي ذلك من جديد". وانتظر لثوانٍ بدت لـه زمناً طويلة، وراحت الممرضة ترقب حركتهما، ولكن لم يحدث شيء، فأشاحت الممرضة بنظرها. 'افعلي ذلك ثانية يا إيزابيل. اضغطي على يدي، قليلاً فقط... أريدك أن تحاولي ذلك حقاً". وعـندئذ شـعر أنهـا كانت تحاول العودة إليه من العالم الآخر، وفعلت ذلك، وبشـكل طفيف. فأشرق وجهه بابتسامة عريضة، وانهمرت الدموع من عينيه. "هذا رائع وراح يشجعها وقد أُخِذَ بما قد شعر به للتو. "والآن أريدك أن تفتحي عينـيك. ولو قليلاً... وها إني أنظر إليك يا إيزابيل. وأريدك أن تنظري إليّ". لـم يكـن هـناك أية علامة تدل على الحياة في وجهها، ولكن عندئذ تحركت أصابعها من جديد، وتساءل إذا ما كانت مجرد ردة فعل انعكاسية عشوائية في نهايـة الأمر. وإذ بدأ حماسه يثبط، غضّنَتْ أنفها، ولكن عينيها بقيتا مغلقتين. وشـعر بدقات قلبه تتسارع. فلقد كانت تصحو من غيبوبتها. "ما هذا؟ لقد كان هذا وجهاً مضحكاً، ولكن ممتاز. ماذا لو تبتسمين قليلاً؟" قال لها ذلك والدموع تـنهمر مـن عينيه وتسيل على وجنتيه، وكان قد وضع كل ثقل جهوده وقوته وحـبه علـيها. وقفت الممرضة بلا حراك في الغرفة وهي تشاهد ما يجري، ولكن من الواضح أنها رأت التكشيرة الخفيفة السريعة التي أبدتها إيزابيل. كان مـن المؤكـد بشـكل قاطع أن هذا ليس برد فعل منعكس. 'هل تستطيعين أن تبتسـمي من أجلي يا حبيبتي؟ يكفي أن تفتحي عيناً واحدة... لقد اشتقت إليك

كثيراً..." لقد كان يتوسل إليها أن تبذل جهدها، راغباً من كل جوارحه أن تستيقظ من غيبوبتها وترجع إليه، ولقد كان كل ما يريده هو أن ينزل إلى أسفل دركات الهاوية حيث هي فيسحبها إليه بأمان. لستلقى هناك يتحدث إليها ساعة أخرى ولكن دون أن يحصل على نتائج جيدة، وبدا منهكاً للغاية، ولكنه أبى أن يستسلم. "إيزابيل... حسناً، أظهري ذلك الوجه المضحك من جديد... هيا... أريني ما تفعلين بأنفك". ولكنها في هذه المرة، وبدلاً من ذلك، رفعت إحدى يديها بضعة بوصات فوق السرير ثم تركتها تسقط، وكأن الجهد الذي بذلته لذلك كان كبيراً جداً. "رائع، رائع جداً. أحسنتِ صنعاً. استريحي لدقيقة الآن يا حبيبتي. وبعدها نحاول من جديد". لقد أراد أن يسترعي انتباه كل حواسها لكي ينشطها، ويعيد إيزابيل إليه وإلى الحياة من جديد. لقد راح يتحدث إليها بشكل متواصل، محاولاً أن يجعلها تطرف عينيها، أو تحرك جزءاً من وجهها، أو تفتح عينيها، أو تضغط على يده من جديد. ومضى وقت طويل لم تحرك فيه ساكناً، ثم لاحظ الرفرفة الضعيفة في عينيها!

"يا إلهي..." همس للمرضة، وهذه هرعت خارجة من الغرفة بحثاً عن أحد الأطباء كي يرى ما يحدث. بعد ثلاثة أسابيع من التحويم قرب هوة الموت، بدأت إيزابيل تعود للحياة. وكان بيل هو الذي أعادها إلى ديار الحياة بمحبته وحنوه وكدّه الدؤوب.

"إيزابيل" ناداها بيل بصوت فيه حزم أكثر. "عليك أن تفتحي عينيك يا حبيبتي. أعلم أن الأمر صعب عليك. فقد كنت نائمة لفترة طويلة. وآن الأوان لتستيقظي. أريد أن أراك تنظرين إليّ. يكفيني أن تفتحي عينيك ولو قليلاً". وبعد أن قال ذلك بدقيقة فعلت ذلك. وحتى إنه لم يكن يتوقع ذلك. فبعد كل ذلك الوقت كان ليشعر بسرور بالغ لمجرد إبدائها أية علامة توحي بالحياة فقد غابت عنهم طويلاً، وها إن العينين النائمتين منذ زمن بعيد قد انفتحتا قليلاً. "نعم... هكذا تماماً... هلا تستطيعين أن تفتحي عينك أكثر الآن... هيا ابذلي جهدك يا حبيبتي... افتحي هاتين العينين الجميلتين...". كان الطبيب قد دخل

الغرفة لتوه، وتنحى جانباً ولم يرد أن يتدخل. فقد كان بيل يقوم بدوره بنفسه، وما كان الطبيب يعتقد أنه سينجح في ذلك مثله. وحاول بيل من جديد: "ها يا إيزابيل. إنني أنتظرك أن تنظري إليّ. إني أنتظرك منذ زمن بعيد". وإذ قال ذلك أبدت إيزابيل تنهيدة طويلة وبارتعاش خفيف فتحت عينيها، ثم أغلقتهما دون أن تنظر إليه، وكأن الجهد الذي بذلته كان فوق استطاعتها. "هيا يا حبيبتي، أبقي عيناك مفتوحتين وانظري إلي. أرجوك يا حبيبتي..." مشاهدته لها وهي تعود شيئاً فشيئاً إلى الحياة بينما هو يتحدث إليها كانت كما لو أنها كانت تحط على الأرض رويداً رويداً وقد جاءت من مكان بعيد. وأخيراً فتحت عينيها من جديد، وأدارت رأسها، ونظرت إليه بشكل مباشر وقد أصدرت صوت أنين خفيف. لقد توقع أن تكون الحركة هذه قد جعلتها تشعر بالألم في رأسها. ثم ابتسمت وقد أغلقت عينيها من جديد وبدت وكأنها تجاهد لأن تنطق بكلمة. حاولت كل طاقتها مطولاً، ثم فتحت عينيها من جديد ونطقت باسمه بصوت كان أشبه ما يكون بالنعيب.

"بيل...". وقبل يدها عندما نطقت باسمه، وتمالك نشيجاً من البكاء راوده كي يستطيع أن يتحدث إليها. لقد كان يريد أن يكافئها على الجهد الذي بذلته الآن.

"أحبك جداً يا إيزابيل... يا لك من فتاة رائعة. لقد بذلتِ جهدك للعودة إلينا".

"نعم". همست له وقد أغلقت عينيها من جديد، وهذه المرة فتحتهما بإرادتها. "أحبك..." همست له ثم نطقت باسمه من جديد وكأنها كانت تتلذذ في لفظ اسمه.

"أعتقد أننا هنا أقلعنا إلى الحياة" قال وهو يبتسم من خلال دموعه. لقد بدا وكأن دهراً أو أكثر مرّ على الليلة التي قبّلها فيها واصطدما بالباص. "لقد غبتِ طويلاً يا حبيبتي. وقد اشتقتُ إليك جداً".

"حَنَنْتُنِي..."، قالت له بنعومة، وهي تبتسم، في حين راح بيل

والممرضة والطبيب يضحكون. لقد كان يتحدث إليها لثلاثة أسابيع خلت، ولساعات في تلك الليلة. لقد بدا وكأنه كان يعرف أنه سيتمكن من إعادتها إلى الحياة. لم يستسلم قط، رغم أنه أحبط مؤخراً، ولكنه لم يتوقف. "... أحب... أن أسمعك... وأنت تتكلم". قالت له ذلك وقد بدت وكأنها متعبة بشكل كبير، وهذا ما أدركه بيل. فقد أنهكت فعلاً.

"أحب أن أسمعكِ أنت تتكلمين. لقد انتظرتُ طويلاً حتى أسمعك تتحدثين إليّ. أين كنتِ يا حبيبتي؟" قال لها برفق وهو لا يزال ممسكاً بيدها.

"بعيداً". قالت ثم ابتسمت من جديد، ونظرت إليه وألف سؤال في عينيها. وكانت تعرف أنه يملك الأجوبة التي لا تعرفها. "كم طال على غيابي؟".

"ثلاثة أسابيع" أجابها صادقاً، وبدت مندهشة.

"كل هذا الوقت؟" لقد بدت وكأنها تصارع لتجد الكلمات، ولكنها كانت تفلح، وكان الطبيب الذي يراقبها يفكر بذلك أيضاً.

"نعم كل هذا الوقت". لقد كان هناك الكثير ليخبرها به، والكثير ليشاركها فيه، ولكن كان الأوان باكراً على ذلك. فقد حطّت لتوها من رحلة بعيدة جداً.

ثم فكرت في شيء ونظرت إليه بعينين قلقتين: "تيدي... وصوفي؟".

"إنهما بخير". لقد كان يرجو ألا يكذب عليها، لأنه لم يكن حصل على أنباء جديدة مؤخراً، وكان يعرف أن تيدي لم يكن على ما يرام. ولكنه كان متأكداً من أن حالة تيدي ستتحسن عندما يعرف أن والدته قد أفاقت من غيبوبتها. "لقد كانت صوفي هنا. جاءت لزيارتك. إنها فتاة رائعة، وهي تبدو مثلك تماماً". ابتسمت إيزابيل وأغمضت عينيها، وعندما فتحتهما من جديد، كانتا تحملان سؤالاً آخر. لقد كان بيل يعرف سؤالها فقد أمكنه أن يقرأ أفكارها. فقال لها: "لقد كان هنا". وأومأت برأسها، ثم أجفلت بسرعة وقالت. "رأسي... يؤلمني". فقال: "أعتقد ذلك ولا ريب". كان من الطبيعي أن يعرف ذلك.

"وأشعر بآلام أخرى... عديدة... أيضاً". وهنا بدا الطبيب مهتماً أكثر

بالاستماع إليها بهذا الخصوص، وعندها سألها عدة أسئلة، ولكنه كان مسروراً للغاية، واقترح عليهما أن يأخذا قسطاً من الراحة فقد مرت بهما ليلة صعبة جداً. بدت إيزابيل قلقة مما قاله الطبيب في حين جاء الحاجبان ليأخذا بيل من الغرفة. "لا... لا تذهب..." وأمسكت بيده بقوة أكثر من ذي قبل. ونظر بيل إلى الطبيب مستفهماً.

"هل لي أن أمكث هنا؟" ساد صمت لوهلة بينما كان الدكتور يفكر في الأمر. لم يكن هناك مانع من ذلك. فقد كانا راشدين، وصديقين، ويمكن للمرضات أن ينتبهن إليهما، فيبدو أن بيل يستحق مكافأة مناسبة على الجهد الذي بذله من أجلها تلك الليلة، وكان هناك شعور طيب حيالهما.

"أعتقد أن هذه فكرة جيدة". فما عاد بيل موصولاً إلى أجهزة المراقبة وكل ما كان يحتاج إليه هو عمود الحقنة الوريدية إلى جوار سريره، ومسكنات للألم إذا ما طلبهم، وكان قلما يفعل ذلك.

"أريدك أن تنام هنا". قالت إيزابيل وهي ممسكة بيده، فابتسم بيل لها في إشراقة. لقد عادت إليه، لقد عادت إلى الحياة. لقد كانت هذه أسعد ليلة في حياته. لقد كانا يبتسمان كلاهما في حين رتبت الممرضات وضعهما وهما مستلقيان. وقام الطبيب بفحص إيزابيل بعناية، وكان راضياً بالنتيجة. سألها بضعة أسئلة أخرى، وأخبرته عن حالة رأسها. وقالت أنها تشعر بجسدها ضئيلاً جداً الآن، وأن كل ما في داخلها منكمش منقبض، وفسر لها الأمر بأن ما تشعر به هو بسبب إصاباتها الداخلية وسيستمر هذا لفترة. لقد كان لديه متسع من الوقت كي يفحصها أكثر في اليوم التالي. أما الآن فكلاهما يحتاج إلى الراحة.

أطفأت الممرضة كل الأنوار ما عدا ضوء صغير خافت، وجاءت ممرضة أخرى لتساعد بيل على الاستلقاء على جنبه. ولقد سره بهذه الوضعية إذ يمكنه معها أن يراها بشكل أفضل الآن. لم يكن يريد أن ينام، بل أراد فقط أن ينظر إليها طوال الليل، ويرى وجهها ويلمس يدها. كانت لا تزال تمسك

بـــيده، وقد استلقيا قبالة بعضهما، وبدت كطفلة وهي تبتسم له. ولقد اندهش إذ رآها على نفس صورة صوفي.

"أنت جميلة جداً". همس لها، "وأنا أحبك جداً". لقد كانت تستحق أن ينتظرها، لقد انتظرها لثلاثة أسابيع خلت، وقبل ذلك مدى العمر.

"لقد اشتقتُ إليك وأنا غائبة عن الوعي". همست له.

"كيف تعرفين ذلك؟" قال لها هامساً في حين ابتسمت الممرضة في ركن الغرفة.

"أعـرف هـذا". لقـد كانا كمثل طفلين يُطلب إليهما أن يخلدا إلى النوم، فراحا يتهامسان في الظلام، في حين كان الطبيب والممرضة الأخرى قد غادرا الغرفة. وتبادل هذان الابتسام والنظر خارجاً. فقد كانا مسرورين من منظر بيل وإيزابيل معاً. فلم يكن أحد ليتوقع أن تنجو إيزابيل.

اتصل الطبيب بباريس تلك الليلة ليخبر غوردون أن زوجته ما عادت في غيبوبة، فقد شعر أن من واجبه أن يقول لـــه ذلك. ولكن غوردون خارج المنزل فطلب الطبيب من المرأة التي أجابت على الهاتف، وهذه كانت ممرضة تيدي، بأن تقول للسيد فوريستر بأنه اتصل به. لم يرد أن يترك لـــه أي رسالة أخرى، وبيل وإيزابيل كانا سيشعران بالامتنان لـــه لو علما بذلك.

لقد بدا وكأنهما كانا ينامان معاً دائماً وهما مستلقيان هناك قبالة بعضهما البعض. حاولت إيزابيل لمرة أن تستلقي على ظهرها، ولكنها تألمت كثيراً وهي تحرك رأسها، وهكذا استدارت من جديد نحو بيل، وقد كان مستيقظاً تماماً ويراقبها.

"ماذا حدث لك؟" سألته، وقد لاحظت لتوها السناد الكبير الحجم حول عنقه، فهي لم تره من قبل. لقد كانت هناك أشياء كثيرة تدور حولهما، وأما الآن فقد بدت قلقة عليه.

"لقد آذيتُ عنقي، وظهري. سأكون على ما يرام" قال لها ذلك وهو يبتسم لهـــا. نعـــم سيكون على ما يرام. فهذا كل ما كان يريده طوال الأسابيع الثلاثة

الماضية.

"هل أنت متأكد؟".

"نعم أنا متأكد. لم أشعر يوماً بأني أفضل مما أنا عليه الآن".

"وأنا أيضاً". قالت ذلك ثم نظرت إليه متفكرة: "أنا لا أتذكر شيئاً... كيف وصلنا إلى هنا؟".

"إنها قصة طويلة يا حبيبتي سأخبرك عنها غداً. فلقد اصطدمنا بحافلة". ما كان يريد أن يقول لها إن أحد عشر شخصاً لاقوا حتفهم، وكادت هي أن تكون الضحية الثانية عشرة للحادث. "آخر ما أتذكره هو أنني كنت أقبّلك، ثم صرت هنا".

"أتذكر ذلك أيضاً". وابتسمت والنعاس يداعبها، وراحت تتثاءب. لقد كان يود لو يقبّلها ثانيةً ولكنه لم يكن يستطيع الحركة. لقد كان يمكنه فقط أن يستلقي وهو في تلك الوضعية، وكل ما أمكنه فعله هو أن يلمس خدها أو يدها. "في أحد هذه الأيام، سأود أن أقبلك من جديد" قالت لـــه حالمةً، ولم يرد بيل. ساد صمت عميق راح بيل خلاله يفكر ملياً في احتمال أن يكون قد فقد رجولته. وأمسك بيدها في هدوء وصمت. لقد كان هذا كل ما يمكنه القيام به الآن. "آمل أن يكون الأولاد بخير". قالت وهي تفكر بهما، وهي لا تدرك بالمخاوف التي يشعر بها بيل.

"سوف يكونان بخير عندما يسمعان عن أحوالك الآن". قال لها مُطَمْئِناً.

ولكن، ولوهلة، بدت غريبة وأمسكت بشدة بيد بيل. "وعندها سوف يأتي ثانيةً، أليس كذلك؟" لم يشأ أن يخبرها أن زوجها لم يعد لرؤيتها خلال أسبوعين فمـا كـان يـريد أن يكون هو من يعلمها بذلك، وقد صار يكره الرجل لكل التقصير الذي كان عنده نحوها والأشياء القبيحة التي فعلها.

"دعـك مـن التفكـير في هذا الآن" قال لها بيل هامساً. "لماذا لا تغلقين عينيك وتحاولين النوم؟" وتمنى لو استطاع أن يداعب شعرها.

قالت لـه مازحة: "كنت أظن أنك تريدني أن أستيقظ". لقد كان من المؤكد أنها ستستعيد عافيتها، بعد غيبوبة دامت ثلاثة أسابيع، وتعرضها لذلك الحادث الذي نجت منه بأعجوبة. لم تكن قد تغيرت بعد كل ما حدث فمعنوياتها لا تزال عالية. وفي نهاية الأمر إن معنوياتها وحبه لها هما من أعاداها إلى الحياة.

"عودي إلى النوم، إنك كثيرة الكلام، وستنهكين نفسك". لم يتوقف عن الابتسام وهو ينظر إليها. لقد بدت لـه حتى أجمل بكثير من قبل.

"أود أن أتحدث إليك طوال الليل". قالت وهي تبتسم ابتسامة عريضة، ثم تذكرت شيئاً آخر فقالت. "أود أن أذهب معك لنرقص من جديد". فابتسم لها، وشعر كأنه يراقصها.

"سوف نقوم بذلك يوماً".

"وأريد أن نعود إلى بار هاري". كانت تضع لـه قائمة بالرغبات التي يشعر بها، وكان يبتسم.

"الآن؟" قال مازحاً، وهو يشعر بأنه لم يكن يوماً سعيداً كما هو الآن. لقد كان مسروراً في استلقائه إلى جانبها والحديث إليها.

"حسناً. غداً. وبعدها نذهب إلى مطعم أنابيل. فيجب أن نعوض عن الوقت الضائع. فأنا لم أرقص منذ أسابيع". قالت وهي تتنهد.

"من الأفضل لك أن تتأدبي وإلا فسوف يعيدك الأطباء إلى الغيبوبة من جديد".

"يكفيني أن أستلقي هنا معك". ثم ضحكت بنعومة في الغرفة المظلمة. "يمكننا الآن أن نقول أننا نمنا مع بعض، أليس كذلك؟".

"يا لتهذيب هذه المرأة التي ما برحت مريضة منذ ثلاثة أسابيع! لا أظن أن عليك التفكير في هكذا أمور" قال لها موبخاً، وتمنى لو أحاطها بذراعيه، ولكنه شعر بأنه قد ضمها إليه في قلبه. فهي مالكة قلبه وحبيبة روحه. لقد

غدت كذلك منذ تلك الليلة، بغض النظر عن نتائج ذلك، وكان يعلم أن هذا لن يتغير. لقد سارت عبر ظلال الموت وعادت إليه، ومهما حدث، وأينما ذهبا، فقد كان يعلم أنه لن يفقدها من جديد.

"لقد سرتُ معك نحو ضوء ساطع جداً... لقد كنا ذاهبين إلى مكان ما سائرين في طريق ضيقة... وبدأ الأولاد ينادوننا، وجعلتني ألتفت إلى الخلف". شعر وكأن البرق صعقه وهو يسمع هذه الكلمات، فقد كانت لديه نفس هذه الذكرى، تماماً كما وصفتها لـه، عندما استيقظ هو أيضاً من غيبوبته.

"كيف كان ذلك؟".

"لقد كان الضوء ساطعاً جداً... وقد كنت متعبة جداً... جلستَ على صخرة. لم أردْ أن أعود، ولكنك بقيت تشدني. قلتَ لي أن بإمكاننا أن نذهب إلى هنا مرة أخرى... لم أردْ ذلك، ولكني تركتك تشدني إلى الخلف". وقد فعل ذلك ثانيةً، تلك الليلة. ففي المرة الأولى أعادها من الموت، وفي المرة الثانية من أعماق العتمة التي كانت تنام فيها إلى ما لا نهاية. ولكن ما وصفته عن الصخرة والنور الساطع كان تماماً ما رآه بنفسه.

"لقد كنتُ هناك أيضاً يا إيزابيل". لقد بدا مشدوهاً، ولم تعرف ما به. "لقد رأيتُ نفس الحلم. وبنفس الطريقة التي تصفينها".

"أعلم أنك كنت هناك". لقد بدا الأمر طبيعياً لها، "لقد رأيتُكَ وأمسكتُ بيدك، وعدتُ معك".

"لماذا؟" كان يبحث في ذاكرته، وأراد أن يفهم ما حدث لهما. لم يكن ليعتقد أن هذا أمراً عادياً. لقد كان الناس يحكون عن هكذا خبرات، ولكن معظم الناس لم يشاهدوا نفس الضوء الساطع في نفس الحلم، ونفس الصخرة، ونفس الطريق، ونفس الذكرى. لقد أدرك عندئذ أن روحاهما التقتا وتعلقتا في مكان ما، وبطريقة عميقة ذات مغزى. ففي حياة أخرى، التقيا وصارا واحداً.

"لقد عدتُ بناءً على طلبك". قالت في هدوء. "ولكني ضللتُ الطريق بعد ذلك. أعتقد أنني غفوتُ على قارعة الطريق".

"بالتأكيد فعلتِ، وإذا قمتِ بذلك ثانية يا إيزابيل، فإني حقاً سأغضب منك. فإياك أن تضيعي مني ثانيةً".

"لن أفعل". قالت وهي تقبل أصابعه ويده. "شكراً لك لانتظارك لي ولإعادتي إلى هنا". كان النعاس يداعب أجفانها الآن، وتثاءبت عدة مرات، وقبل أن يقول لها أي شيء آخر، كانت قد غرقت في سبات عميق هادئ آمن وهي تمسك بيده. وإذ نظر إليها، كان لديه تصور كامل عما وصفته، عن سيرهما معاً نحو الضوء الساطع، وإيزابيل تسبقه على الطريق. وتطلب الأمر منه أن يستخدم كل قوته كي يرجعها عن ذلك الضوء، وها قد عادت إليه الليلة ثانية. لم يكن متأكداً من معنى كل ذلك، ولكنه كان يدرك أن شيئاً فائق الطبيعة كان قد حدث لهما، وإذ كان مستلقياً يرقبها نائمة، كان يعرف أنه ورغم كل ما كان قد حدث لهما، فإنه رجل محظوظ جداً.

الفصل العاشر

اتصل الطبيب بغوردون فوريستر الساعة الثامنة من اليوم التالي ليخبره بالنبأ، ولكن نفس الصوت أجابه من جديد ليقول له أيضاً أنه خارج المنزل، وأخيراً تمكن من الاتصال بغوردون في مكتبه الساعة العاشرة. ذهل لسماعه النبأ وقال إنه كان في غاية السرور، وسأل إذا كان بإمكانه أن يتحدث إليها، ولكن لم يكن عندها هاتف بعد. وقال الطبيب أنه سيجعلهم يضعون هاتفاً لها في غرفتها، وأن بإمكان غوردون أن يتصل بها إلى غرفتها بعد ظهر ذلك اليوم.

"لابد أن الأولاد يودون أن يتحدثوا إليها" قال وقد بدا منذهلاً وهو يجلس إلى مكتبه، ويفكر بها. لقد كان قد تأقلم مع فكرة ألا تستيقظ من غيبوبتها، ولكنه دهش لسماعه النبأ بأنها قد استعادت وعيها. ورغم أنه كان مرتاحاً لذلك من أجلها إلا أن الأمر استغرق منه بعض الوقت حتى يتأقلم مع هذا الوضع الجديد.

"كيف حدث ذلك؟" سأل غوردون ببراءة، فساد الصمت من جهة الطبيب لوهلة. فلم يرِدْ أن يخبره عن بيل روبنسون، إذ كان يعتقد بأنهما لا يريدان الحديث عن ذلك، وقد كان محقاً.

"لقد استعادت وعيها بنفسها". قال له وكان هذا كل ما يريد غوردون معرفته.

"أحسنتم صنعاً". قال غوردون وكأنه يتحدث عن دورة غولف أو مباراة تنس. فعلى النقيض من دموع الفرح التي ذرفها بيل ليلة أمس، بدا غوردون عديم المشاعر وكأنه يتحدث عن صديق بعيد. لقد كان يصعب على المرء أن يصدق أنه إنما يتحدث عن زوجته. ولكن ربما فسّر هذا سر علاقتها مع بيل.

كانت لدى الطبيب أسئلة عديدة لم يُرِدْ أن يطرحها، وبعد رؤيتهما معاً ليلة أمس، ما عاد بحاجة لأن يعرف أجوبة الآن. لقد أمكنه أن يفهم الأمر برمته. وتساءل كم من الوقت سيمضي حتى يعود غوردون إلى لندن ليراها من جديد. لقد كان يرجو، ومن أجل بيل وإيزابيل، ألا يحدث ذلك عاجلاً. لقد أحبهما وأعجب بعلاقتهما، إذ لم يكن من الممكن لأحد أن يقاوم حباً كهذا، ذهب معهما إلى هوة الموت وأعادهما إلى الحياة من جديد. لقد كان هذا الحب من النوع الذي قلما يتشاطره الناس، وإن نعمة وغبطة لهما أن يكونا معاً هكذا. "قل لها أني سأتصل بها بعد ظهر هذا اليوم عندما أصل إلى المنزل". كان هذا كل ما قاله غوردون، وأكد له الطبيب أنه سيفعل ذلك.

نقلت الممرضة الرسالة إلى إيزابيل عندما وضعت جهاز الهاتف في غرفتها. لقد كانت تتشوق للحديث إلى الأولاد، ولكن ليس إليه.

"ماذا ستفعل الآن؟" قالت لبيل بعد ظهر ذلك اليوم، وقد جلست في سريرها في غرفتها، وبقي بصحبتها بينما كانت تتناول أول وجبة غداء لها. كانوا قد أحضروا لها جيليه وزبدية من حساء خفيف. كان قد مضى عليها وقت طويل منذ أن رأت الطعام لآخر مرة ولم يكن لديها شهية للأكل على الإطلاق.

"ماذا تقصدين؟" سألها بيل. "هل تقصدين أن نلعب الكروكي أو الغولف؟ أو أن نتمشى في المنتزه؟" كان يمازحها من جديد ولكنها لم تبتسم هذه المرة.

"سوف يريد غوردون أن يعيدني إلى باريس عندما تتحسن صحتي". كانت تريد رؤية أولادها، بالطبع، ولكنها لم تكن تريد أن تترك بيل.

"لا أعتقد أن هذا سيكون عما قريب". قال بيل وهو يحاول أن يبقى بنفسه هادئاً. "لا أعتقد أن في مقدورك أن تقفزي من السرير وتجري عبر الباب". لقد كان أمامها أن تشفى من الكثير من الإصابات الداخلية، وكانوا يريدون أخذ الحيطة فيما يتعلق بإصابة رأسها. لقد أخبرها الطبيب صباح ذلك اليوم أنه يتوقع أن تبقى هناك لأربعة أسابيع أخرى شاقة على الأقل. لقد كانت تقريباً

نفس الفترة التي سيبقون فيها بيل في المشفى.

"وماذا بعد ذلك؟" سألته بينما كانت الممرضة تطعمها بالملعقة. فما كانت لذراعيها القوة الكافية بعد لتقوم بذلك بنفسها. لقد كانت ضعيفة للغاية ولم يكن هذا موضع استغراب أحد إلا إيزابيل.

"سوف نرى". ما كان قد أخبرها بعد أن رجليه قد أصابهما الشلل بشكل دائم، وما كان متأكداً من أنه سيسير من جديد أبداً. لقد كان يريد أن يفكر في الأمر. لم يكن متأكداً فيما إذا كان من الضروري أن يخبرها بذلك. فحتى لو لم تتغير الأمور بشكل جذري بينما كانت في حالة غيبوبة، فقد كان يعرف أنها ستعود إلى غوردون كي تُعنى بابنها المريض. وكان لا يزال بإمكانه، بالطبع، أن يتصل بها هاتفياً، وأن يراها من وقت لآخر، ولكنه لم يكن يريد شفقتها إذا ما كان سيبقى في كرسي مدولب. لقد كان حبُها هو كل ما كان يريده. وكان يفكر أنه طالما ما عاد يستطيع السير على قدميه من جديد فلربما لا ينبغي أن يراها بعد أن يغادر المشفى، بل أن يكتفي بتواصل علاقتهما عن طريق الهاتف. ما كان متأكداً بعد مما سيفعل، أو كم سيستطيع أن يراها بعد أن تغادر المشفى. حتى الآن، كانت تعتقد أن وضعه آني مؤقت، وقد كان يميل إلى الإبقاء على فكرتها هذه. فهكذا لن تقلق عليه، ولن تشفق عليه. ولم يكن قد أخبرها أيضاً عن طلاقه. لم يكن يريدها أن تشعر بأنه يشكل ضغطاً عليها. لقد كان يدرك تماماً أنه سيتوجب عليها في نهاية الأمر أن تعود إلى عائلتها. كل ما كان يريده الآن إذاً هو أن يستمتعا بهذا الوقت المتاح لهما.

كانت في غرفتها بعد ظهر ذلك اليوم، وكذلك الأمر لبيل، عندما اتصل غوردون. أخبرها أنه كان مرتاحاً للغاية لمعرفته أنها كانت تتحسن. لقد بدا وكأنه يتحدث عن شفائها من التواء كاحل أو من سقطة سيئة. في الواقع كان يشعر وكأنها قد عادت من الموت. في الوقت الذي عادت فيه إلى وعيها، لم يكن يتوقع أن تعيش أو أن تخرج من الغيبوبة. لقد بدا يشعر وكأنه أرمل، واضطر لأن يعيد عقارب الساعة فكرياً إلى الوراء، كي يستأنف حياته

الزوجـية معها. لقد بدا غريباً جداً، وأصابت في تخمينها بأنه كان حانقاً بسبب بـيل، ويعاقبها على ذلك. لقد بدا محرجاً معها، ولكن لم يكن هناك أي إحراج عندما تحدثت إلى تيدي وصوفي. لقد بكت صوفي عندما سمعت صوت أمها، ومـا أمكن لتيدي إلا أن يلهث طالباً للهواء وينشج بالبكاء. لقد شعرت إيزابيل بأنه في حالة سيئة وسألت غوردون عن حالته عندما أنهى الأولاد حديثهم معها وأعطـوه السـماعة. كانـت لا تزال تبكي من العواطف التي غمرتها عندما سمعتهما. لقد كانت قلقة عليهما.

"سوف يكون تيدي في حال أفضل الآن". قال غوردون بلا مبالاة. وكانت صـوفي قـد قالت بأنها تود أن تأتي لزيارتها، ولكن غوردون قال أن والدتها ستكون في البيت في القريب العاجل. "متى سيسمحون لك بالخروج من المشفى في أقرب وقت؟" سألها بطريقة عملية. لم يكن هناك داعٍ ليذهب لرؤيتها، على حد قوله، بما أنها ستأتي إلى المنزل.

"قـالوا لي أن ذلك ممكن بعد حوالى أربعة أسابيع، فهذا يعتمد على حالة كبدي ورأسي وقلبي". لم تكن هذه الأعضاء ضئيلة الأهمية، ولكن غوردون لم يهـتم بالتفكـير في ذلك. فبما أنها الآن خرجت من حالة الغيبوبة فإنه صرف النظر عن باقي الأمور.

"أربعـة أسـابيع فترة طويلة على ما يبدو، أليس كذلك، أنا متأكد بأنهم سـيخرجونك من المشفى أسرع من ذلك إذا طلبتِ ذلك". لقد كان مرتاباً بها، ويتسـاءل إذا ما كانت تنوي أن تتباطأ أو تتوانى لأن بيل كان لا يزال هناك. فمـا كان غوردون ليتساهل في ذلك. "سأتحدث إلى الطبيب بنفسي. إذ بإمكانك أن تحظـي هنا بكل العناية الطبية التي تحتاجين إليها". وشعرت إيزابيل بالهلع عندما أغلقت السماعة، وأخبرت الطبيب بأن غوردون سيتصل به ليضغط عليه كي يخرجوها إلى منزلها سريعاً.

"هـل هذا ما تريدين يا إيزابيل؟ لربما يمكننا نقلك إلى مشفى في باريس خلال أسبوع أو نحو ذلك. لستِ أهلاً بعد لتكوني في المنزل".

"أريد أن أمكث هنا" قالت لـه وقد بدت قلقة وكان كلاهما يعرف السبب.

"سـأهتم بالموضـوع". قال لها مطمئناً. لقد كان مستعداً ليفعل ذلك من أجلها ومن أجل بيل، فقد كان يحبهما كليهما. فقد ذهبا إلى هاوية الجحيم وعادا، وكان يمكن لأولادهما أن ينتظروا. ولكنها اعترفت لبيل، فيما بعد، بأنها كانت قلقة على تيدي. فلم يكن يبدو على ما يرام على الهاتف، وهذا هو الأمر الوحيد الذي جعلها تشعر بوجوب أن تحاول الذهاب إلى البيت أسرع مما كانت تنوي. لقد كانت لتصاب بالجنون لمجرد معرفتها بأن تيدي كان يحتاج إليها جداً وبأن وقـتاً طويلاً مضى عليها بعيدة عنه، رغم أنها كانت تعرف أنه في أيدٍ أمينة. وكان بيل متعاطفاً معها كعادته عندما تحدثا عن الأمر فيما بعد.

"إنـي على ثقة أن هذا كان مضنياً له. والله أعلم بما قاله غوردون لـه عـن حالتك. ولكن بما أنه سمع صوتك الآن وعرف أنك ستكونين في المنزل خـلال بضـعة أسـابيع، فإني متأكد بأن هذا سيجعله يتحسن يوماً بعد يوم". وشعرت بالإطمئنان مما قاله بيل.

"آمـل ذلـك". قالت بحماس متقد. "الحمد لله أن صوفي هناك. لقد كانت تريد أن تأتي لتراني، ولكن لا أعتقد أنها ستفعل ذلك. فتيدي يحتاج إليها هناك أكثر مما أحتاج إليها أنا هنا". ومن جهة أخرى فإن بيل معها هنا. وكانت تود أن تمضـي هذا الوقت معه قبل أن يفترقا وتعود إلى منزلها، ولكن ليس على حساب الأولاد. "ماذا عن سيندي؟ هل تظن أنها ستعود لرؤيتك هنا؟".

"لا". قـال لها ببساطة دون أن يعلل السبب. وستكون الفتاتان مشغولتين طـوال الصـيف. "لقد أخبرتهما أني سأراهما عندما أعود". كان قد طلب إلى الطبيب ألا يخبر إيزابيل عن مدى خطورة الإصابة في عموده الفقري، أو انه لـن يستطيع المشي أبداً. لقد كان هذا الأمر، إضافة إلى موضوع الطلاق، هو الوحـيد الذي لم يرد لإيزابيل أن تعرفه. لقد كان يريد أن ينتظر مرور الوقت لـيعرف كم يمكن أن يتحسن. وكانت هي تعتقد أن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً حتى يشفى، ربما ستة أشهر أو سنة، ولذلك لم تندهش من أنه لم يستطع السير

بعد.

لـو أنهـا كانت مستعدة لهجر غوردون، لكان الأمر مختلفاً له. ولربما أخبرها بالحقيقة عن ساقيه. ولكن بما أنها كانت تعتزم العودة إلى غوردون، فلم يشأ بيل أن يجعلها تشعر بالقلق عليه، فلديها ما يكفيها من الهموم والأعباء مع وجود ذلك الطفل المريض تحت كنفها. وأما الآن وبعد أن رأى غوردون عن كثب فقد أدرك ما سيواجهها، ولقد كان التفكير بها معه يجعله يشعر بالإعياء. فقد بدا أن غوردون ليس لديه اعتبار لها، أو حب، أو لطف، أو احترام، أو دفء عاطفي. فغوردون فوريستر كان يعيش وكأن العالم كله متمحور حول ذاته، ولم تكن إيزابيل بالنسبة له سوى وسيلة راحة وآلة يستخدمها لتحقيق مآربه، وشخص يعتني بابنه المريض. لم يكن لديه أي تقدير أو اعتبار لهذه الجوهرة التي يملكها، كما يرى بيل. وكان يشعر بالقلق لأنها ستعيش حياة قاسية معه، بل قد تكون أقسى من قبل. فقد كان غوردون مرتاباً فيها الآن، وغاضباً منها بسبب بيل، وكان بيل يخشى أن يعاقبها غوردون على خطايا يعتقد أنها ارتكبتها من وراء ظهره. وكان عليها أن تكون شديدة الحذر منه، وأن تواجهه بنفسها، وإلا فإنه سيحيل حياتها إلى كابوس من التعذيب والازدراء. لم يكلف نفسه عناء المكوث معها في لندن عندما كانت في غيبوبة وتحتضر، لبضعة أيام أخرى، ولم يعد إليها منذ ذلك الوقت. أما الآن وقد عادت إلى وعيها، فإنها ستكون مع بيل من جديد، وكان هذا صحيحاً.

عندما تحدث الطبيب إلى غوردون على الهاتف لاحقاً بعد ظهر ذلك اليوم، أصرّ من جديد على رأيه في أن إيزابيل لا يمكن نقلها قبل أربعة أسابيع أخرى على الأقل. ولم يكن زوجها مسروراً بذلك. وكان يعتقد أن الأمر غير معقول وأن الحذر مبالغ فيه بخصوصها، ولكن الطبيب أثار مخاوفه في نهاية الأمر إذ ذكر له المضاعفات السيئة التي قد تنجم عن ذلك، بل إنه افترض أنها قد تعود إلى غيبوبتها من جديد. "وسأفقد رخصة عملي من جراء ذلك". وضحك عندما أخبر إيزابيل وبيل عن ذلك فيما بعد. لقد كان يعتقد أنهما

يستحقان فرصة صغيرة للسعادة على الأقل، ومكافأة لهما إزاء الألم المبرّح الذي عانيا منه. ولم تكن آلام بيل قد انتهت بعد. فقد كان الطبيب يعلم جيداً كم ستكون عملية إعادة تأهيله بدنياً طويلة وقاسية وصعبة. لقد كان قد رتب له لتوه أن يذهب إلى مشفى في نيويورك حيث سيساعدونه على استعادة القدرة على استخدام ساقيه قدْر الإمكان. لم يكن لدى أي من بيل أو إيزابيل أدنى فكرة عما يخبئ المستقبل لبيل.

حتى الآن كان لديهما أربعة أسابيع يمضيانها معاً، يجلسان معاً، يضحكان ويمرحان ويتحدثان ويستمتعان بالحب والعزاء الذي يستمده كل منهما من الآخر. لقد كانت المشفى ملجأ آمناً لكليهما، بعد الآلام التي مرا بها، وقبل أن يعود كل منهما إلى حياته الاعتيادية. فالواقع سيصدمهما بما فيه الكفاية عما قريب.

ناما بحذر معاً في غرفتها مرة أخرى تلك الليلة، وجرّبا ذلك في غرفته بعد ذلك. لقد كانا قد تحررا من شاشات أجهزة المراقبة، وكانا يمضيان ساعات طويلة بعد الظهر يتحدثان عن حياتهما وآمالهما وأحلامهما. لقد كان الوقت الذي يمضيانه معاً منّةً من السماء، وقد استحقاها كلاهما بعد جهد جهيد.

كانا يلعبان بالورق، ويقرآن كتباً، وقد علّمها لعبة نرد الكذّاب. كانا يجلسان معاً ويتحدثان لساعات، وكانا يتناولان وجبات الطعام في نفس الغرفة. كانت حالة كبدها آخذة في التحسن، وكانت تتماثل للشفاء. كان نبض قلبها لا يزال غير منتظم ولكن في حال أفضل من السابق. وكانت تعاني من نوبات صداع شديدة أحياناً. وكانت تتعب بسهولة، وتنام كثيراً، وفي أغلب الأحيان مستلقية في السرير إلى جانبه. أما عنقه فكانت لا تزال مثبتة إلى ذلك السناد المريع الذي كان عليه أن يضعه، وشفي عموده الفقري، وكان يشعر ببعض الألم في ظهره أحياناً، وكانت تدلك له كتفيه وذراعيه برفق. لقد لاحظت كم قلّ استخدامه لساقيه، ولكن بيل كان يؤكد لها بشكل مطرد بأنها ستجده يسير على قدميه في المرة القادمة التي يلتقيان فيها، وكانت تصدقه لأنها أرادت ذلك.

لقد بدا معقولاً لها أنه لا يزال عاجزاً عن السير. فلم يمضِ سوى شهر على الحادث، ولم يكن هذا زمناً طويلاً. وكانا يتحدثان قليلاً عن الآلام والأوجاع المتنوعة التي يعانيان منها. ومعظم الوقت كانا يتبادلان الثقة، ويتحدثان بلا انقطاع، ويمزحان ويضحكان.

كان قد مضى عليها أسبوعان كاملان منذ أن خرجت من الغيبوبة عندما كانا مستلقيان على سريره بعد ظهر يوم مشمس من شهر تموز. كانت النوافذ مفتوحة، وكان النهار دافئاً، وكانا يحكيان القصص عن طفولتهما، فيما كانت تستلقي معه على سريره. لقد كانت حريصة على ألا ترتطم أو تلمس أعضائه التي لا تزال تؤلمه. وكانت حريصة بشكل خاص على عموده الفقري. وإذ راحت تحكي له عن الوقت الذي أمضته مع جديها في هامبشر، كانت تمرر أصابعها برفق على ذراعه. وكانت قد حكّت له عنقه من الخلف، وبعد ذراعه، ومررت أصابعها على كتفيه وإلى أسفل ظهره حيث لا تسبب له أي أذى، وإذ كانت تفعل ذلك نظر إليها وقد انتابته رغبة شديدة فيها، فابتسم لها، وقد بدا كطفل صغير مدلل عابث.

"لماذا تنظر إلي على هذا النحو؟" سألته وهي تتساءل إذا ما كان يضحك منها. "لقد كنت أتحدث بجد عن جدي. لقد كان رجلاً رائعاً".

"بالتأكيد. ولكني توقفتُ عن الإصغاء إليك منذ خمس دقائق قال لها بصدق. 'إن رغبتي فيك تكاد تفقدني صوابي'.

"ماذا في ذهنك؟ لعبة نرد الكذّاب من جديد؟" لقد كان يغلبها في هذه اللعبة بشكل مستمر، وكان يأبى أن يخبرها كيف أمكنه أن يعرف أنها كانت تكذب في اللعبة. لقد كانت تنقصها البراعة في الكذب، وهذا ما أحبه فيها. فقد كانت بخلاف زوجته السابقة.

"لا بل أفضل من ذلك". قال لها وهو يقبّلها بنعومة على شفتيها. لقد تعلّم كيف يستند إلى الأمام بما يكفي ليقبّلها مراراً وتكراراً خاصةً ليلاً وهما يستلقيان جنباً إلى جنب. وقال لها بهدوء: "إيزابيل. لا أدري كيف سينجح الأمر

معي ولكني أريد أن أطارحك الغرام'. لقد انتابته رغبة جامحة بها خلال نصف الساعة الأخيرة. وكان مرتاحاً كثيراً إليها الآن وعلى سجيته حتى إنه رغب لو يحاول. لقد كانا لا يزالان كلاهما هشّين ضعيفين، ولكنه كان يرغب في مطارحتها الغرام ومنذ زمن بعيد، حتى قبل الحادث بكثير، ولكنه ما كان ليطلب منها ذلك قبلاً، وأما الآن فكانت في عينيه نظرة متقاتلة نفذت إلى قلبها.

'حسناً يا حبيبي'. لقد كانت هي أيضاً تريد ذلك، رغم أن كل ما فعلاه حتى الآن هو أن يستلقيا في أحضان بعضهما بعضاً. لقد كانت تفهم تماماً ما كان يدور في خلده الآن. "ما رأيك لو أغلقنا الباب بالمفتاح؟" كانت هناك أقفال على الأبواب لم يستعملها أحد قبلهما أبداً، ولكن كان هذا وقت مناسب لبادرة كهذه.

'هل تظنين أنهم سيرمون بنا خارج المشفى؟" سألها بابتسامة عريضة، في حين نهضت وأقفلت الباب. لقد كان بالكاد يستطيع أن يتحرك، ولكن كانت لديه رغبة لا تُقاوم نحوها، وكان هذا كل ما أمكنه أن يفكر فيه الآن. لقد كان قلقاً جداً بخصوص ذلك منذ وقت طويل وكان يشعر بالتوتر لفكرة أن يجرب ذلك معها، ولكن لم يستطع أي منهما أن يقاوم هذه الرغبة. لقد كانت علاقتهما مليئة بالحنو والحب ومعزّزة بالثقة المتبادلة بينهما.

"لا أدري إذا كانوا قد وضعوا هذه الفكرة في حسبانهم عندما سمحوا بنا بأن ننام في نفس الغرفة" قالت إيزابيل بحذر وابتسامة لعوب على شفتيها.

'يا لسخفهم' قال لها وقد بدا شديد التوتر. 'هذا أحلى شيء'. أو على الأقل كان يأمل أن يكون الأمر كذلك. ولكن ماذا إذا لم ينجح الأمر؟ وارتجف للفكرة.

جعلته يتريث لوهلة، وهي تبدو جدية، ثم قبّلته برفق على الشفتين. 'أود فقط أن أخبرك أن أحلى شيء هو الذي لدينا الآن... أن نحب بعضنا، ونكون مع بعضنا... ونعانق بعضنا... أحب كل ما يتعلق بك يا بيل. وما ننال الآن هو هبة إضافية، ولكنها ليست أحلى شيء. بل أنت هو الأحلى'.

لـم تكـن لديه أدنى فكرة فيما إذا كان يستطيع أن يمارس الحب معها، ولكـنه أراد أن يحـاول ذلك وبشغف شديد. كان الطبيب قد قال لـه أن ذلك ممكن، وكان بيل يرجو أن يكون على صواب. وإذا كان الأمر كذلك فإنه يود أن يشاركها في ذلك. وإن لم يكن، فقد كان يشعر بالتأكيد أنها ستكون خيبة أمل كبـيرة لكليهما، وفشلاً من ناحيته. ولكنه لم يصرّح لإيزابيل عن مخاوفه. لقد كان يخشى أن تشعر بالقلق أو بالأسف من أجله. وكان هذا الأخير هو جل ما كان يخشاه.

لقـد كانت في غاية اللطف معه وهي تنزع عنه لباس المشفى، لقد كان يتمـتع بجسد جميل، وكان يتوق إليها بشدة. لم يكن من خجل أو حياء بينهما، فقـد اعتادا على بعضهما بعضاً، وكان الأمر كما لو أنهما كانا معاً على الدوام وراحت تمسّده وتلاطفه وقد بدا قلقاً. لقد كان يشعر عاطفياً بكل ما كانت تقوم بـه، ولكـنه لـم يكن متأكداً من بقية الأمور. خلعت عنها رداء النوم، وكأن الأجسـاد التي كانت قد تهشمت وتأذت بشدة نسيت آلامها فجأة، وراحت تقبّله بكـل لطـف وأناة، مبتدئة بفمه ثم أخذت طريقها ببراعة نحو الأسفل. لقد كانا يعلمان كم يحب أحدهما الآخر، وكان هذا الجانب الخفي الوحيد الذي لم يتطرقا إلـيه، بل اكتشفاه رويداً رويداً معاً. وكان مغموراً بعواطفه نحوها. لقد راحت تحاول إثارته وهي حريصة جداً على ألا تلقي بأي ثقل عليه، بل بما يكفي وفي المكان المناسب، وشعر هو بمتعة كبيرة أرادتها لـه، ولكن التأثير المطلوب لم يحدث، ويا لروعه.

وحتى ما شعر به كان بيل يدرك أنه كان يشعر به مخموداً مكبوتاً نوعاً مـا. ورغـم إحساسه برغبة جامحة نحوها، إلا أنه كان يشعر في نفس الوقت بأنه لم يكن مالكاً لنفسه. لقد كان يشعر بثمة انفصال في داخله، ولم يكن يعرف أهـو فـي عقله أم في حبله الشوكي. ورغم توقه لممارسة الحب معها إلا أنه شعر بخوف مثبّط بشكل عائقاً له. لقد بدا يدرك وهي مستلقية بتوازن عليه أن الأمـر لن يفلح، وشعر نفسه ليس أنه أحمق فحسب بل مخبول أيضاً لأنه أراد

أن يجرب ذلك.

كانت إيزابيل مدركة تماماً لما كان يحدث لـه، ولكنها كانت تحبه للغاية حـتى أرادت أن تسـعده وتجعله يشعر بأنه محبوب ومرغوب فيه. لقد كانت تـدرك فـي قـرارة نفسها أن هذا قد لا ينجح، أبداً، أو على الأقل في المرة الأولـى. فقد كانت إصاباته بالغة وكان من المنطقي أن نتوقع أن الأمر يتطلب صـبراً حـتى يستعيد قدراته الجنسية من جديد. لم تكن تريد لـه أن يخوض تحدياً مع نفسه، بل أن تعطيه الأمل والحياة. ولكن بدل الأمل شعرت باليأس في عينيه، وأخفقت محاولاتها بأن يشبع رغبته.

"حسـناً يـا حبيبـي... حسناً... أعطِ الأمر وقتاً كافياً" همست لـه وقد التصـق بها، ثم شعرت به ينكفئ إلى الوراء ويصرف انتباهه عن الموضوع. لقد شعر بالإتلاف لأنه عجز عن أن يطارحها الغرام. كل ما كان يفكر فيه بيل وهـو مستلقٍ إلى جوارها هو أنه قد أخفق، وما كان لشيء مما تقوله أن يغير هذه الحقيقة. ولقد أقسم لنفسه، وهو يضمها إليه، أنه سوف لن يحاول ذلك أبداً مـرة أخرى. ورغم حنوها وحبها لـه، فقد شعر بالخزي وبالاكتئاب والقنوط الآن أكـثر مما شعر به منذ الحادث. لقد كان هذا أسوأ يوم في حياته. فهو لم يعـد رجلاً. وفكر في نفسه أن ما من شيء على وجه الأرض يمكن أن يدفعه لأن يحاول مرة أخرى. وبالتأكيد ليس معها.

"ارتدي ثيابك". همس لها، فترددت، وهي تشعر بالرغبة لأن تفعل كل ما يمكـنها لأجله. ولكنها رأت كم كان محبطاً وأدركت أن أية محاولة لإسعاده أو إراحـته، أو ملاطفـته، أو تدليله سوف لن تؤدي إلا إلى استيائه أكثر. فدسّت نفسها تحت الغطاء معه، وتدثرت بالملاءة وهي مستلقية قربه.

"حسناً يا بيل". همست لـه في حنان. "سوف ننجح في نهاية الأمر". لقد كان كلاهما يدرك كم كان يحبها بعمق، ولكنه كان يريد أكثر من ذلك، ولأجل كلـيهما. "هـذه هي البداية فقط" قالت وهي تقبله برقة على وجنته وتحاول أن تضـع يده في يدها، ولكنه سحب يده. لقد كان يحاول أن يقاوم دموعه، وكان

يتمنى الآن لو يفر هارباً مبتعداً، ولكن لم يكن بيده حيلة.

"لا. ليست هذه البداية". قال غاضباً. فقد كان مستاءً من نفسه، وليس منها. "إنها النهاية". إنها نهاية حياته كرجل في نظره.

"إنها ليست نهاية أي شيء". قالت له كما لو كانت تخاطب طفلاً. "لقد قال الطبيب أن الأمر يستغرق وقتاً حتى تعود الأشياء إلى وضعها الطبيعي من جديد". ولكن بيل كان يخشى أن يكون فشله في القيام بالعمل الجنسي دائماً. لقد كان يصعب على أي امرأة أن تتصور ما يعنيه له الفشل في ممارسة الحب. لم يكن هذا أمراً يمكن تجاوزه بسهولة. فكل ما أمكنه أن يتصور أمامه الآن هو مستقبل مخيف ليس فيه حياة جنسية، إذ أدرك أنه لن يكون في مقدوره بعد الآن أن يقوم بدور وظيفي كرجل. كان قد حدث له هذا مثل أي رجل بين وقت وآخر من حياته، وذلك عندما كان متعباً جداً، أو منزعجاً جداً، أو قلقاً جداً بخصوص السياسة، أو عندما يكون قد أسرف في الشراب. ولكن هذه التجربة الآن كانت الحد الفاصل، ونقطة تحول، إذ إنها المرة الأولى على الإطلاق التي يمارس فيها الحب مع إيزابيل. فبعد الحادث، كان يرى أن هذه هي فرصته الوحيدة ليثبت أنه لا يزال رجلاً، سواء استطاع أن يمشي أم لا. إن ما كان قد اكتشفه غيّر كل شيء حوله، إن لم نقل حولها. كانت إيزابيل متفهمة ومدركة تماماً للموضوع ومتقبلة له دون استياء. وكانت متأكدة أنه سينجح في نهاية الأمر. وحتى وإن لم يكن، فقد كانت على استعداد لتقبل أي عجز لديه، وأن تحبه مهما يكن من أمر. لم يبدل هذا الحدث شيئاً من جهتها، ولكنه غيّر عالم بيل كلياً. لقد كان على يقين بأنه إذا لم يستطع أن يستعيد رجولته، إن لم يكن ساقيه، فليس من مجال أمامه ليبقى في حياتها. لقد خسر الكثير تلك الليلة، احترامه لنفسه وتقديره لها، وإحساسه بذكوريته، وكل أمل من أي نوع في مستقبل مع إيزابيل، إذ كان قد فقد قدراته كلياً، وهذا ما كان يخشاه. وبالنسبة لها فقد كان من الجنون أن يصل إلى هكذا استنتاجات بسبب محاولة واحدة فاشلة في أن يمارس الحب معها. ولكن مخاوف بيل كانت شديدة

الوطأة عليه. لقد كان يخشى أن تكون هذه نهاية المطاف بالنسبة لهما، رغم أن عجزه عن ممارسة الحب لم تكن بذات أهمية بالنسبة لإيزابيل. فرغم كل شيء، وبنتيجة ذلك، صارت تحبه أكثر، وتشعر بحنان غير محدود نحوه.

الفصل الحادي عشر

تلقت معنويات بيل صدمة قاسية بعد محاولتهما الفاشلة في ممارسة الحب. ورغم أنهما ظلا ينامان في نفس الغرفة، إلا أنه كان مصمماً على ألا يعيد الكرّة. لقد وجد نفسه عرضة لكل الخزي الذي أمكن أن يتحمله، وحاولت إيزابيل أن تشجعه كي يكون متفائلاً، ولكنها لم تفرض نفسها عليه. بل في الواقع كانت حريصة على ألا تفعل ذلك. لقد كانت هادئة ومشجّعة، وقد أصرت، عندما أعطاها فرصة للحديث عن الموضوع، على رأيها في أنه بمرور الزمن وبالصبر سوف يستعيد على الأرجح قدراته الجنسية. أما هو فقد كان يشعر بشكل كبير، حتى خلال محاولتهما السريعة الصغيرة، بأنه سيبقى فاقد الحس إلى الأبد. بل حتى كان يأبى أن يتقبل الاحتمال البعيد بوجود أمل له. فبالنسبة له، صار يعتبر أن الباب إلى استعادة حياته الجنسية كرجل كان مغلقاً. وبقي وإيزابيل قريبين وحميمين، وكانا يستمدان عزاء وارتياحاً كبيرين كلٌ من الآخر، ولكن لم يكن ينوي أن يحاول ممارسة الحب معها ثانيةً أبداً.

وبينما أخذت علاقة بيل وإيزابيل تزداد حميمية عاطفياً، بدا الزمان وكأنه يتحرك بسرعة لم يسبق لها مثيل. وكان المعالجون الفيزيائيون قد بدأوا يعملون على معالجة بيل، وخضعت إيزابيل لمجموعة من الفحوصات، التي كانت تشمل صورة التخطيط الدماغي وصولاً إلى تخطيط الرنين المغناطيسي للقلب. ورويداً رويداً راحا يتقدمان في عملية الشفاء، وكانا يدركان بشكل متصاعد أن أيامهما معاً سوف تنتهي في القريب العاجل. لقد كان الحادث باهظ الثمن ليدفعا ثمنه حوالي شهرين يمضيانهما معاً، ولكن مع مرور الوقت بدأ يشعران وكأنهما متزوجين.

لقد كانا يجلسان في غرفة أحدهما طوال النهار، وكان يرافقها من أجل

إجراء الفحوصات، ويقرأان الجرائد ويتناولان طعام الإفطار معاً صباحاً، وينامان ليلاً في سريرين من أسرة المشفى قد وُضعا إلى جانب بعضهما بعضاً. الشيء الوحيد الذي كان ينقصهما من الحياة الزوجية هو ممارسة الجنس، وهذا الأمر الذي كان لا يزال مؤلماً بالنسبة له. ورغم أنهما لم يكونا على اتصال جسدي في علاقتهما، إلا أن إيزابيل لم تكن يوماً سعيدة مثل تلك الأيام في حياتها.

"أشعر أني أدير منتجعاً على شاطئ البحر هنا" قالت إحدى الممرضات ملاطفة إياهما وهما عائدان من جلسة تحت الشمس. شعرت إيزابيل بالصداع ذلك اليوم، وكانوا قد أجروا لها فحص تخطيط للدماغ قبل الغداء، ولكن الطبيب قال أن كل شيء على ما يرام فيما يبدو. لقد كانوا يتابعون رحلة شفائها بانتباه وعناية، وكانت تحرز تحسناً ملحوظاً. وكان غوردون يضغط عليها بشأن موعد عودتها إلى المنزل، وكانت تعلم، مثل بيل، أن عودتها إلى باريس سوف تكون بعد أسابيع فقط. لم تكن تخشى أن تحدث مضاعفات لأي منهما بقدر ما كانت تخشى أن تفارق بيل وهي لا تعلم متى سيمكنها أن تراه من جديد.

لقد كانت تتصل بأولادها كل يوم، وكانت تشعر أن صوفي مكتئبة للغاية، وهذا ما جعلها تشعر بالقلق. فالمسؤولية نحو تيدي كانت تقع كلياً على كتفها، ورغم أن إيزابيل كانت تتحدث إليه بشكل مستمر، إلا أن حالة الغلام ما كانت تبدو كما في الفترة التي كانت أمه برفقته. وشعرت إيزابيل بالذنب لبقائها بعيدة عنه كل ذلك الوقت، ولكن في هذا الوقت، ليس من خيار آخر لديها سوى أن تكون في مشفى في باريس. ولكنها كانت تعلم أنه بمقدار سعادتها لرؤية أولادها من جديد، سيكون أيضاً من المؤلم جداً بالنسبة لها أن تترك بيل.

تحدثا عن هذا الموضوع أحياناً، وقالت أنهما قد يستطيعان في المستقبل الاستمرار برؤية بعضهما بعضاً في مكان ما، كما فعلا في حزيران. لم تكن تعرف كيف ستخرج من المنزل ولكنها فكرت بأنها ستستطيع ذلك. فما كانت تشارك بيل به الآن لم يكن بأمرٍ يسهل التخلي عنه، حتى ولو التقيا بضع مرات

في السنة. أما بيل فكان غامضاً مبهماً عندما كانت تتحدث عن لقائه كل بضعة أشهر. بل حتى لم يكن ليستطيع التفكير في ذلك الآن، ورغم أنه كان يحقق تقدماً مطرداً، إلا أن شفاءه كان أبطأ منها، وكانت معنوياته آخذة في الانحدار. لم يشأ أن يتعهد برؤيتها إلى أن يعرف كيف ستسير أمور إعادة تأهيله البدني. وكان لا يزال يأبى أن يكون عبئاً عليها. ولم يكن أيضاً ينوي الامتناع عن رؤيتها. فبعد ما تشاركا فيه في المشفى، والوقت الذي أمضياه معاً، كان من الصعب عليه أن يتخيل الاكتفاء بالمكالمات الهاتفية.

"لا أعتقد أنك تفكرين بواقعية عندما تتحدثين عن لقاءاتنا في باريس". قال بيل مرة في هدوء. "فغوردون لا يعرف بما حدث هنا، ولكنه يعلم أننا كنا معاً تلك الليلة. ولقد طلب إليّ أن أخرج من غرفتك بدون أي قيد أو شرط عندما كان هنا. ولا أعتقد أنه سيكتفي بأن يقف متفرجاً بينما تخرجين وتجولين هنا وهناك. أعتقد أنه سيرتاب بنا كثيراً، وبك". لقد كان بيل يدرك أنه قد يراقب حتى مكالماتها الهاتفية. فقد صُدم غوردون عندما أدرك أن زوجته كانت قد أقامت علاقة صداقة مع رجل دون علمه.

لم يقل بيل ذلك لإيزابيل، ولكنه كان قد قرر قبل أسابيع أنه إذا ما ظل حبيس الكرسي المدولب لبقية حياته فإنه سيرفض أن يشكل عبئاً عليها، أو على أي شخص آخر. ولقد كان هذا أحد العوامل، وليس العامل الأهم، الذي دفعه لطلاق سنثيا. وعلاوة على ذلك، فإن لم يستطع أن يكون رجلاً مع إيزابيل بكل معنى الكلمة فإنه سينهي العلاقة بينهما.

لو أمكنه أن يتعلم السير من جديد لكان سيقابلها بهدوء في مكان ما من فرنسا عندما تستطيع أن تجد طريقة أو حجة للخروج من المنزل. ولكن المسألة الجنسية بقيت علامة استفهام بالنسبة له. فإن لم يستطع مركز إعادة التأهيل في الولايات المتحدة النجاح في جعله يسير على قدميه أكثر من الأطباء في إنكلترا، كما يعتقد، فإنه سوف لن يراها من جديد. فالجنس لن يكون موضع بحث آنذاك. فما كان ليود أن يثقل عليها بعجزه إذا ما قدر له البقاء في

كرسي مدولب طوال حياته. لقد كان هذان الموضوعان يعذبانه ويؤرقانه كثيراً خلال الأيام الأخيرة لهما في المشفى وهما موضوع أن يمشي على قدميه من جديد، وفيما إذا كان سيستعيد رجولته مع الأيام. وما كان ليريد أن يحمّل إيزابيل وِزْرَ أي من هاتين المعضلتين، اللتين ما كانت لتعرف مدى الإجهاد واليأس الذي يشعر بهما بسبب ذلك. لقد حَرِصَ بيل على ألا يعبّر لها عن مدى تشاؤمه، رغم أنها أحياناً كانت تشعر بذلك دون أن يحكي عنه.

واعترف مرة للطبيب أنه كان قد حاول أن يمارس الحب معها، وعن مدى الألم الذي شعر به بسبب فشله في ذلك، وكان قد طمأنه الطبيب قدر استطاعته.

"هل تعلم. أنا لستُ مندهشاً من ذلك". قال له الطبيب الجراح بتفهم فائق لمشكلته. "في الواقع إن الأمر يدعو إلى التفاؤل نوعاً ما، بالنسبة لأول مرة، وبعد كل هذه الإصابات البالغة التي تعرضت لها، أعطِ وقتاً لهذا الموضوع، وأعتقد أن ما حدث من المفترض أن يشجّعك أكثر. فلا يزال من المتوقع جداً والمنطقي جداً أن يمكنك أن تحقق الانتصاب وهزة الجِماع كليهما خلال أول سنة. أعتقد أنك كنت متسرعاً ومتحمساً ومتفائلاً قبل الأوان. فلا يزال ثمة متسع من الوقت أمامك". ولكن وعلى الرغم من الارتياح الذي كان يمكن أن تحدثه كلمات الطبيب في نفسه إلا أن بيل لم يصدقه. لقد لازمه الخوف من أن حالته ميئوس منها، وأن الأمر لن ينجح معه على الإطلاق. وكان قد عقد العزم على ألا يحاول ذلك أبداً في أي وقت من الأوقات في المستقبل القريب، رغم أن إيزابيل كانت ستبذل جهدها لتكون مبدعة خلاقة في هذا الشأن أكثر منه. لقد طرد من ذهنه كل فكرة بعلاقة جسدية مع إيزابيل في الوقت الحاضر، وربما إلى الأبد. ولم تكن لديه أدنى فكرة عن الوقت الذي سيمنح له هكذا فرصة ليحاول ذلك من جديد أو فيما إذا كان هذا الأمر متاحاً.

ولكن وعلى الرغم من العذاب المرير الذي كان يعاني منه بيل، إلا أنه بقي وإيزابيل يتشاطران غرفة واحدة، وكانت تفكر ملياً بما تفعله بحياتها.

كانت تعلم أنها لن تتخلى عن زواجها أبداً وذلك بسبب تيدي وصوفي، ولكنها ما كانت مستعدة الآن للتخلي عن بيل. فأن يكون عشيقاً لها يشكل جانباً من حياتها لم تكن لتتصوره من قبل أبداً، ولكن كان هذا ما أرادته الآن وكل ما كان ليمكنها أن تحظى به. لقد كانت تجمعها وبيل أشياء لم تعرفها أبداً من قبل. لقد كانت معظم الوقت تشعر وكأنهما جسدان في روح واحدة. وما كان لشيء في الكون ليستطيع أن يجعلها تتخلى عن ذلك.

كانت تتحدث إلى غوردون مرة كل بضعة أيام. لقد كان يجعل سكرتيرته تتصل بقسم الممرضات كل يوم كي يطمئن على حالتها، ولكنها كانت غالباً تريد أن تتصل به في المكتب بدافع من احترامها له ولظروف عمله، ولتطمئن على حال تيدي. وكانت صوفي تتصل بها في العادة لتنقل لها أخباره. وكانت إيزابيل تتصل بتيدي شخصياً كل يوم. وعندما كانت إيزابيل تتحدث إلى غوردون، كان يبدو، كما هي العادة، بعيداً وبارد العواطف. وصارت تشعر معظم الوقت وكأنها كانت تقاطع عمله لو أنها اتصلت في وقت غير مناسب. ما كان لديه الكثير ليقوله لها، منذ الحادث. وأمكنها أن تشعر أنه ما عاد يثق بها، رغم أنه لم يتحدث صراحة عن ذلك. لقد كانت تشعر وكأنه كان يعاقبها، وكانت تعلم أنها عندما تعود إلى باريس وتكون معه، فإن لديها بعض التفسير لتقدمه له. ولكن حقيقة أنها كانت مع بيل في نادي أنابيل وفي بار هاري، وأنها كانت معه في ساعة الحادث عندما اصطدمت الحافلة بسيارتها، كان سيحول دون قيامها بذلك. قال لها مرةً في إحدى مكالماتها: "أنت لستِ المرأة التي تزوجتها يا إيزابيل. وفي الواقع، لستُ متأكداً من أني أعرف من أنت". وشعرَتْ بالذنب أحياناً بسبب قوله هذا، وأدركت أنه لم يكن من الصواب أن تقيم علاقة مع بيل، ومع ذلك فقد كان بمثابة دواء لها الآن، وحياتها تعتمد عليه، وما كانت لتريد أن تتخلى عن ذلك.

كانت تتحدث إلى بيل في هذا الموضوع في إحدى الليالي بينما راحت تدلك ساقيه. وقال إنه ما زال يشعر بخدر في ساقيه، ولكن لديه بعض

الإحساس كما في أمكنة أخرى، وكانت ساقاه تؤلمانه أحياناً كما لو أنه مشى مسافة طويلة. كانت تخبره عن الحوار الذي دار بينها وبين غوردون ذلك اليوم. لقد كان يتحدث إليها بطريقة عملية مقتضبة، وتنفست الصعداء عندما أغلقت سماعة الهاتف.

"لا أعتقد أنه سيثق بي من جديد على الإطلاق". قالت لبيل، "وبالطبع هو على حق. ولا يسعني أن أتصور حتى كيف يمكن أن تكون عليه حياتي عندما أعود إلى المنزل. وماذا عنك؟ إلى أي درجة سنثيا غاضبة منك؟" فقد لاحظت إيزابيل أنه لم يتحدث أبداً عنها، بل عن الفتاتين فقط. ولكن علاقتهما كانت مختلفة كثيراً عن علاقتها مع غوردون، فقد كانت لهما حياة منفصلة أكثر، ويكاد لا يكون هناك من علاقة حقيقية بينهما بل مجرد إدّعاء بذلك وحسب بعد الآن. ما كان قد أخبر إيزابيل بعد عن الطلاق. لقد كان هذا هو السر الوحيد الذي أخفاه عنها. ما كان يريدها أن تعلم أنه سيكون مطلق الحال عما قريب. لم يكن يريد لها أن تشعر بالأمل. لقد كان يعلم أنها ستحافظ على زواجها، وبدا له أن من الأفضل أن تعتقد أنه هو أيضاً سيبقى متزوجاً.

"لا أعتقد أنها كانت مسرورة عندما رحلت". قال بيل بصدق. "لقد كنت صريحاً معها فيما يتعلق بمشاعري نحوك، ولم أكن مضطراً لذلك. ولكنها تعرفني، وكانت تعرف كم كنت قلقاً عليك".

"ألم تنزعج من ذلك؟" سألته إيزابيل باندهاش.

"بالتأكيد انزعجت، ولكنها تعرف أن من الأفضل لها ألا تثير جلبة كبيرة. إذ أن ماضي حياتها حافل بالأسرار التي تحرص على ألا تنكشف". وابتسم لإيزابيل وتابع قوله: "لا يمكن زجّ إنسان في السجن لأنه عاشق. كما وأن سنثيا قد عاشت حياتها الخاصة على هواها على مدى زمن طويل. فما كانت لتبقى بدون علاقة خلال السنوات العشر الأخيرة".

كانت إيزابيل غارقة في التفكير وهي تصغي إليه. "لا أعتقد أن غوردون قد خانني يوماً". قالت في هدوء. "إنه أكثر محافظة ولباقة وعقلانية من أن

يفعل شيئاً كهذا". ولكن ما كان يعرفه بيل عن طبيعة الحياة الزوجية بينهما جعله غير متأكد مما كانت تقول، ولكنه لم يشأ أن يقول لها ذلك. فقد بدا غريباً من زوجها أن يكون رجلاً على هذه الدرجة من البرودة والقسوة نحوها دون أن يكون له راحة أو عزاء في مكان ما آخر. وعلى العكس من ذلك، فعندما التقى به، لم يرَ في غوردون ذلك النوع من الرجال المخلصين الصادقين نحو أي كان. فقد كان على الدوام خارج البيت سعياً وراء مرضاة نفسه. وكان بيل يعتقد أن وجود عشيقة ما في مكان خفي يفسر سلوك غوردون المخيف نحو زوجته.

"ما الذي يجعلكِ تعتقدين ذلك؟" سألها بيل بحذر، فلم يكن يريد أن يعكّر صفاء الأمور، خاصة وأنها عائدة إليه. لقد كان يريدها أن تحيا حياة سالمة آمنة، لا أن يساعدها على شن حرب على الرجل الذي بإمكانه أن يكون شديد القسوة عليها وأن يحطمها.

"العواطف لا تهمه، وكذلك الجنس". قالت بصراحة. "فنحن لم ننم في نفس الغرفة منذ سنين". لقد كان يدرك ما تعنيه بقولها هذا، فابتسم لها. لقد كانت امرأة تتصرف بخجل ولباقة بكل معنى الكلمة. ولكنها صريحة وصادقة معه جداً. وشعر أنها ساذجة إزاء ما تفكر به نحو زوجها.

كان بيل وإيزابيل سعيدين معاً وللغاية، ولكن الأسبوع الذي أعقب ذلك بدأا يشعران بالتوتر. كان أمامها مجموعة اختبارات عليها أن تخضع لها ضمن جدول محدد، وإذا كان الأطباء راضين عن النتائج فإنها ستذهب إلى منزلها. كان ذلك في أواخر شهر آب (أغسطس)، وكان قد مضى عليهما شهران في المشفى. وكان غوردون يزداد غيظاً وغضباً يوماً بعد يوم، ويتهم أطباءها بالتباطؤ والتواني في إخراجها من المشفى. وتم ترتيب لاستقبال بيل في مركز التأهيل لعدة أشهر قادمة. وكان يتوجب على إيزابيل العودة إلى باريس، وهو سيعود إلى الولايات المتحدة. وشارفت قصتهما الرومانسية على الانتهاء. وهذا ما كان صعباً على كليهما أن يواجهاه.

"هـل تقسم أن تتصل بي كل يوم؟" سألته وهي حزينة وواجمة في إحدى الليالي وهما مستلقيان في السرير. وكان من المفترض أن تجري آخر تخطيط دماغ لها في اليوم التالي. كان كبدها آخذاً في الشفاء، وبدا قلبها طبيعياً في تخطيط الرنين المغناطيسي الأخير الذي أجرته، وكانت رئتاها سليمتين أخيراً.

"كنت لأتصل بك عشر مرات لو استطعت". قال لها وهو يدنيها منه أكثر. "وتعلمين أنك تقدرين على الاتصال بي".

"سوف أفعل. سأستيقظ باكراً جداً كي أتمكن من الاتصال بك قبل أن تذهب إلى النوم ليلاً". ولكنها كانت تعلم أيضاً بأنها إذا أكثرت من الاتصال به فإن غوردون أو سكرتيرته سوف يرى أرقامه على فواتير الهاتف. لم يكن بوسعها الاتصال به بقدره هو. وكانت تدرك كم سيكون مريباً أن تستمر في علاقتها معه عبر الهاتف، ولكنها ما كانت لتطيق فكرة أن تكون بمنأى عن الاتصال به. فما برحا يعيشان معاً منذ شهرين.

لقد تمتعا بفترة وجودهما في المشفى، وكانت لتخيفها فكرة فراقه الآن. ولم تكن لديها أدنى فكرة متى ستراه مرة أخرى. كان الأطباء قد أخبروه أن من المتوقع أن يبقى في مركز إعادة التأهيل في نيويورك لفترة تتراوح بين الستة أشهر والسنة. وقد بدا الأمر وكأنه حكم بالسجن المؤبد على كليهما.

"عليك أن تسعى جهدك لتتماثل للشفاء بسرعة". قالت له وهي تقبل صدره وتنحني فوقه على السرير. "أريدك أن تأتي إلى باريس بأسرع ما تستطيع". إذ كان من المستحيل عليها أن تستطيع الذهاب إلى نيويورك. فقد حملت صوفي عبء تيدي لوقت طويل بما فيه الكفاية، وكانت على وشك العودة إلى الجامعة. وكانت إيزابيل تدرك أنه لن يمكنها أن تغادر باريس ثانية إلا بعد وقت طويل. وكانت تشعر بشوق كبير لترى تيدي بنفسها. فقد كان يبدو ضعيفاً أكثر فأكثر على الهاتف.

ولكن بيل تحاشى أن يقول أي شيء عندما ذكرت موضوع قدومه إلى فرنسا، ولم تلاحظ إيزابيل ذلك. لقد كان قد قطع على نفسه وعداً بأن ينسل

تدريجياً من حياتها إذا عجز عن استعادة قدرته على المشي أو في حال أسوأ، إذا ما ظل فاقداً لرجولته. لقد كان هذا اتفاقاً أجراه مع نفسه ولم يقل لها أي شيء عنه. لم يخبرها عن تقديره القاتم لمستقبله، وكم كان يخشى ألا يستطيع السير على قدميه من جديد. لقد كان يريد أن يعرف أولاً ما سيقولونه له عندما يعود إلى الولايات المتحدة. فكان لا يزال عاجزاً عن أن يصدق أنه سيبقى مقيداً إلى كرسي مدولب. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فيكفيها إذاً شخصٌ واحد عاجزٌ في حياتها، ولن يسمح بأن يكون هو الثاني أيضاً.

لم يكن بيل يحتمل فكرة أن تشفق عليه، أو أن تعتني به لأن عليها أيضاً العناية بابنها. لقد أمضت أربعة عشر عاماً مع طفل عاجز للغاية. ولم يشأ أن يجعلها تعتني به أيضاً أو حتى أن تفكر نحوه هكذا. ولكن حتى لو كان لن يراها من جديد، ما كان ليستطيع أن يتخيل ألا يتحدث إليها على الهاتف. لم يكن ليطيق أن يتصور أن يصحو في الصباح، أو في الليل، دون أن تكون إيزابيل بجانبه. لقد آلمه حتى مجرد التفكير بأن تكون بعيدة عنه دون أن يستطيع أن يراقبها، أو يعتني بها، أو يراها تبتسم له وهي داخلة إلى غرفته. لقد كان الوقت الذي أمضاه معها أجمل أيام حياته. ولقد كان يتمنى لو أخذت الأمور منحى آخر، ولو أن تيدي كان أوفر صحة، وأن غوردون كان أقل سطوة وتسلطاً عليها. لقد كانت لديه أمنيات لا تعد ولا تحصى من أجلها، وكان يخشى ألا يتحقق أي منها.

بدت الأيام القليلة الأخيرة لهما في المشفى تمر بسرعة الصوت. كانت نتائج اختباراتها جميعاً طيبة واستعادت بعضاً من قوتها وعافيتها من جديد. لقد كانت أهلاً لمغادرة المشفى، وتم ترتيب وإعداد كل شيء لأجل ذلك. كان من المفترض أن يأتي غوردون من باريس كي يعيدها إلى الديار، ولكن في آخر دقيقة، أخبرهم أنه استخدم ممرضة لتقوم بالرحلة معها بدلاً منه. قال إنه لديه أعباء كثيرة. ولكن إيزابيل آثرت ذلك، فلم تكن تريد لأحد أو لأي شيء أن يمنعها من البقاء مع بيل في ليلتها الأخيرة معه.

وتركتهما الممرضات وحدهما في ليلتهما الأخيرة. لقد كانا في أمس الحاجة إلى بعض الوقت الهادئ معاً، ليكونا على مقربة وبسلام معاً. لقد كانت مزمعة أن ترحل في الصباح وبيل سيغادر في الأسبوع التالي. فكان لا يزال لديه بضعة اختبارات أخيرة عليه أن يعملها.

قالت إيزابيل حزينةً. "يصعب علي أن أتخيل أن أفارقك غداً". وارتقت سريره، وتعانقا بحرارة. لقد كانت تود لو تجد طريقة ليتطارحا الغرام فيها، ولكنها لم تُرِد أن تزعجه إذا لم ينجح الأمر وخاصةً في ليلتهما الأخيرة. لم تكن لتتصور عودتها إلى غوردون الآن، وشعرت بالارتياح لأنها وغوردون حافظا على فجوة تباعد بينهما. بالكاد كانت تستطيع أن تتذكر كيف كانت حياتها مع غوردون، فقد كانت تشعر أنها متزوجة إلى بيل أكثر بكثير.

"أريدك أن تهتمي بنفسك يا حبيبتي". قال لها وقد ضمها إليه أكثر. لقد استبدلوا له سناد العنق الضخم بآخر أصغر حجماً، فأمكنه أن يحرك رأسه قليلاً. لقد كان هذا يعطيه مجالاً لأن ينظر إليها بسهولة أكثر، وكان كل ما أمكنه أن يراه الآن هو النظرة في عينيها. لم يكن أحدهما في حاجة إلى كلمات ليعبرا عما يشعران به. لقد غدت علاقتهما أقوى من ذلك بكثير، والآن ستزداد متانة أكثر. كان عليهما أن يتعلما أن يعيشا دون أن يرى أحدهما الآخر كل يوم، دون أن يلمس كل منهما الآخر، دون يداها الحانيتان على كتفيه عندما يكون متعباً، أو ذراعه تحيط بها عندما تغفو. ولم تكن هي لتتصور ذلك ولكن كانت تدرك أن كل هذا سيكون حقيقة واقعة في اليوم التالي عندما تخطو داخلة إلى منزلها في شارع رو دي غرينيل. ولقد تحطم فؤادها لمجرد فكرة فراقه.

"لا أستطيع ذلك". همست بصوت ناعم والدموع تنهمر على خديها وهي مستلقية إلى جواره. "لا أستطيع ذلك من دونك".

"بل تستطيعين. وسوف لن أكون أبعد من الهاتف بالنسبة إليك". ولكن كان كلاهما يعرف أن الأمر سيكون مختلفاً الآن. وانتابها شعور غريب حول

رجوعها إلى غوردون. لقد كان قاسياً بارداً معها على الهاتف مما جعلها تدرك أنه سيعاقبها بسبب التجاوزات التي ارتكبتها، وعلى وجودها مع بيل عندما وقع الحادث. وكأن ما كان قد حدث تلك الليلة لم يكن عقاباً كافياً. ولقد صدق حدسها في أنه كان حانقاً عليها لأنها كانت مع بيل في السيارة، وكل ما كان يعنيه ذلك، وما يدل عليه الآن.

استلقيا هناك في صمت ولوقت طويل يراقبان البَدْر في سماء الليل. وسرعان ما انبلج الصبح عليهما. لقد رقدا في السرير معاً لآخر بضع دقائق يمضيانها معاً، ودخلت ممرضة لتذكّر إيزابيل أن عليها أن تستيقظ. فاستحمت وارتدت ملابسها وجلست إلى مائدة الفطور مع بيل. ولكن لم يستطع أي منهما أن يأكل شيئاً. لقد جلسا وراحا يتبادلان النظر، في حين راحت إيزابيل تنشج بالبكاء، ثم عانقته وقد راح يعزّيها ويشجعها.

"سأكون على ما يرام يا إيزابيل. سوف أتصل بك الليلة". قال لها وتمالك نفسه وانكفأ إلى الخلف. "لا تبكي يا حبيبتي...". لقد بدت كطفلة محطمة الفؤاد، وكانت كذلك حقاً بشكل أو بآخر. فأن تفارقه كان أصعب بكثير من أن تترك منزلها. لقد كان مصدر العزاء والحب الوحيد في حياتها.

كان غوردون قد أرسل لها بعض الثياب من باريس: طقم بسيط أسود اللون من ماركة شانيل قد ارتدته الآن، وحذاء جلدي أسود شعرت أنه واسع على قدميها. لقد فقدت الكثير من الوزن، وتغير شكل جسدها. وكانت نحيفة ممشوقة القوام، ولكن بيل رآها الآن أجمل بكثير من أي وقت مضى. لقد كانت قد سرحت شعرها إلى الخلف على شكل ذيل الفرس، ولم تكن قد وضعت شيئاً من المكياج، ولكن أحمر شفاه فحسب. ورؤيته لها على ذلك الشكل ذكّره بها عندما وصلا إلى لندن في حزيران، وذلك في أول يوم عندما خرجا للغداء، وإلى بار هاري تلك الليلة. لقد حدثت أمور كثيرة، واجتازا جسوراً عديدة. ما كان أحد ليصدق أنهما قد كادا يصلان على حد الموت، ثم وجد كل منهما الآخر من جديد. والآن قاربت أحلامهما على الانتهاء. كان يجب أن يعودا إلى

العالم الحقيقي، العالم الذي ما كان ليمكنهما فيه أن يكونا معاً، وفي الواقع سيفترقان عن بعضهما بعضاً مدى العمر.

"انتبه جيداً إلى نفسك". قالت له وهي تعانقه بشدة. "عد إليّ سريعاً". همست له في حين ابتسم لها وسط عينيه الحزينتين. "ولا تنسَ كم أحبك".

"كوني قوية يا إيزابيل... أنا أيضاً أحبك" قال لها وهو يشعر وكأن جزءاً يُنتزَع منه. مشت بشجاعة وثبات نحو الباب، ثم توقفت، ونظرت إليه للمرة الأخيرة وابتسمت وسط الدموع، وخرجت من الغرفة.

شكرت الممرضات، وودعت كلا الطبيبين اللذين جاءا لإلقاء تحية الوداع عليها، ووقفت الممرضة التي استخدمها غوردون لأجل الرحلة على مقربة منها لكي تساعدها إذا ما سقطت أو تهاوت، ورافقتها إلى المصعد. وأثناء ذلك، كان كل ما تتمناه هو أن تعود أدراجها إلى الغرفة لتعيد عقارب الساعة إلى الوراء، لتعود إلى الغيبوبة إذا لزم الأمر، وذلك فقط كي تبقى معه. صعدت إلى المصعد وقد طأطأت رأسها، ولمكن للجميع أن يروها تبكي فيما لوحوا لها وأغلقت الأبواب.

لم يدخل أحد إلى غرفة بيل بعد أن غادرت إيزابيل، وذلك احتراماً له. لم يره أحد يبكي، أو ينظر بعينيه إلى السقف ونظرة من الألم المبرّح تبدو فيهما وهو يفكر فيها. ولو كان قد أصغى أحد من خلف الباب إليه لسمعه ينشج بالبكاء لبرهة. لقد كان صوت أمل يحتضر وأحلام ضائعة. كان صوت رجل عرف أنه لن يرى أبداً المرأة التي أحبها ثانية. وعندما دخلت الممرضات عليه في نهاية الأمر بعد ساعات كان قد بكى إلى أن غلبه النعاس فنام.

الفصل الثاني عشر

حطت الطائرة التي حجزت عليها سكرتيرة غوردون مقعداً لإيزابيل في مطار شارل دي غول بعد الساعة الثانية بقليل. لم يكن معها الكثير من المتاع، بل حقيبة صغيرة وحيدة مع عدة المكياج وبضعة كتب وبعض الصور لأولادها ولبيل. لم تجمع أي مقتنيات شخصية وهي في المشفى، وبنظرة إلى جواز سفرها، أشار لها موظف الهجرة بالمرور. لم يكن هناك من ينتظرها، فغوردون لم يأتِ، ولم يخبر صوفي عن رقم الرحلة التي ستكون والدتها على متنها.

في الوقت الذي استقلت فيه السيارة التي كان غوردون قد أرسلها لها، كانت في غاية الدهشة من شدة الإرهاق الذي شعرت به. فبالكاد كانت تستطيع أن تنقل خطاها. كانت تعرف أن بعض هذا الإنهاك يعود إلى سبب عاطفي، ومن ناحية أخرى فقد كان تغيراً هائلاً عليها التأقلم معه وقد عادت الآن إلى العالم من جديد. واكبتها الممرضة في المطار وهي على كرسي مدولب، حيث كانت إيزابيل تجلس في هدوء تفكر في بيل. وقد حاولت أن تتصل به قبل أن تركب السيارة، ولكن الممرضات في لندن قلن لها أنه كان نائماً. لم تُرد أن توقظه، وبطبيعة الحال لم يكن لديها ما تخبره به، سوى أنها تحبه وأنها تمقت أن تكون بعيدة عنه. لقد بدأت لتوها تشعر بالوحدة والعزلة والاشتياق إليه، مع أنها لم تصل إلى البيت بعد. وكانت بالمقابل تعلم أنها ستكون سعيدة لرؤية أولادها من جديد ما أن تصل إلى المنزل.

تحدثت إليها الممرضة بعض الشيء خلال رحلة الطريق إلى باريس. لقد كانوا قد استخدموها في المشفى، وكانت تعمل كممرضة شخصية. كانوا قد حجزوا لها كي تعود إلى لندن الساعة السادسة من تلك الليلة. لقد كانت مجرد

جليسة أطفال خلال رحلة الطريق كما كان قد قال بيل، وقد ظن أنها فكرة جيدة ألا يرافقها غوردون. فإن شعرت إيزابيل بالدوار، أو سقطت أرضاً، أو خافت أو ارتبكت فمن الأفضل لها والحالة هذه ألا تكون وحدها. لقد كانت مريضة منذ وقت طويل وتحملت صدمة كبيرة. سألتها تلك المرأة بضعة أسئلة تتعلق بالحادث، قرأت مخطط الرحلة، ومن ثم التزمت بالصمت، وقرأت كتاباً في الطائرة.

كانت إيزابيل تشعر بالاكتئاب على نحو غريب فيما كانت السيارة تسير بهما إلى البلدة. لم تكن متشوقة لرؤية باريس من جديد، وعندما رأت برج إيفل لم تشعر بأنه يعني لها أي شيء. لقد كانت تريد أن تكون على الجانب الآخر من القنال الإنكليزي، في المشفى مع بيل. وحملت نفسها على التفكير في تيدي وصوفي عندما وصلا إلى باريس وعبرا إلى الضفة اليسرى. وشعرت بالإثارة بشكل مفاجئ وغريب عندما انعطفت السيارة بهما إلى شارع رو دي غرينيل. كل ما أمكنها أن تفكر به الآن هو أولادها، وما كانت تطيق صبراً لتراهم من جديد، وفي نفس الوقت لجتاحها شعور غامر بالاشتياق والحزن وهي تفكر في بيل.

كانت الأبواب البرونزية الضخمة المؤدية إلى الفناء مفتوحة، في انتظارها. وكان الحارس يترقب السيارة، وإذ دخلت السيارة إلى الفناء، نظرت إيزابيل إلى الأعلى باتجاه المنزل. لم تستطع أن ترى أحداً ولكن غرف الأولاد كانت في مواجهة الحديقة، مثل غرفتها تماماً، ولم تكن لتتوقع وجود غوردون في المنزل في ذلك الوقت من النهار. لقد أخبرها أنه سيكون في المنزل الساعة السادسة، وكان يومه حافلاً بالمواعيد في مكتبه، وقالت له بأنها تتفهم ذلك. لقد كان يشعر بنفوذ أكبر إذا تجنب أن يكون هناك لدى وصولها أو أن يأخذها بالسيارة أو يلاقيها. لقد كانت هذه طريقته ليظهر لها أنها لم تكن لتتحكم به وسوف لن يكون لها ذلك أبداً. ولم يكن هناك أحد في استقبالها فيما ترجلت من السيارة.

انحنى الحارس ولمس بيده قبعته دون أن يتفوه بكلمة، وأومأت له، ودار السائق بالسيارة، في حين تبعتها الممرضة صاعدة الدرجات القليلة المؤدية إلى المنزل.

قرعت إيزابيل الجرس، ولم تلقَ جواباً لدقيقة، ثم ظهرت جوزفين، مدبرة المنزل. وما أن لمحت إيزابيل حتى انفجرت بالدموع وارتمت عليها تعانقها.

"آه، سيدتي...". لقد كانت تظن أن إيزابيل سوف تموت، وكانت سعيدة لرؤيتها الآن بدون تكلف. لقد كانت معها طوال سنين حياة إيزابيل الزوجية. ومسحت عينيها في حين عانقتها إيزابيل وهي تبتسم.

"تسرني رؤيتك". قالت إيزابيل ذلك ودخلت إلى الردهة المألوفة، وأجالت الطرف حولها. لقد بدت مختلفة عما كانت تذكرها. بدت أكبر، وشاحبة أكثر، ومثيرة للحزن أكثر نوعاً ما. غريب كيف أن الدماغ يخدع المرء، ولكن ما عاد البيت يُشْعِرُ بالراحة. لقد بدا غريباً، وكأنها دخلت إلى المنزل الخطأ. وتساءلت هل الحادث والإصابة التي تعرضت لها في رأسها جعلاها تشعران على ذلك النحو، أم أن الأمر كان حقيقياً. لقد غابت لفترة طويلة، فقد مضى أكثر من شهرين على رحيلها لتمضي يومين في لندن في شهر حزيران. أشياء كثيرة قد حدثت، وبدا كل شيء غريباً بالنسبة لها وقد عادت الآن. لقد كانت تشعر بأنها ما عادت تنتمي إلى هذا المكان، وما عادت تريد هذا الانتماء إلى ذلك المنزل في شارع رو دي غرينيل. والشيء الوحيد الذي أبقاها هناك كان أولادها.

شكرت الممرضة على إحضارها لها إلى المنزل، وتركتها مع جوزفين، وسارت في تؤدة وصعدت السلالم لترى أولادها. وقفت على قمة السلالم لبرهة تلتقط أنفاسها، وأمكنها أن تسمع أصواتاً في البعيد. ولوهلة خبا كل ما حولها ما عدا صوت ابنها. لقد أمكنها أن تسمعه يتحدث إلى أحد ما. وبخطى صامتة سارت نحو غرفته وفتحت الباب.

لم يرها تيدي لأول وهلة، إذ كان مستلقياً على سريره، ويتحدث إلى ممرضته المفضلة، مرتا. واستطاعت إيزابيل أن تسمع دون أن تراه وشعرت أنه كان متعباً ومكتئباً. لم تقل له أي كلمة تنبيه، بل دخلت الغرفة وهي تبتسم.

نظر إليها لأول وهلة وكأنه لم يستطع فهم ما حدث ثم أطلق صرخة هتاف كبيرة من الطرب وقفز من على سريره وركض نحوها. وضمها بشدة حتى كاد أن يوقعها أرضاً.

"ماما. لقد عدتِ". لقد كان يعانقها ويضمها ويشدها إليه ويقبلها بشدة، حتى شعرت أنهما على وشك أن يتهاويا على الأرض كلاهما، وحاولت أن تتمالك نفسها لئلا يسقطا، في حين نبهته الممرضة أن يهدأ قليلاً. وكانت معانقتها له على هذا النحو والإحساس به ولمسه وشم رائحة شعره النضرة العطرة كفيلة بجعلها تذرف الدموع من عينيها.

"يا الله. لقد اشتقتُ إليك كثيراً... لا أصدق ذلك... تيدي. أنا أحبك...". لقد كانت كمثل أم مع جرو صغير، في حين كان يسحبها ويشدها، ويقبلها، ويبدي مدى محبته لها. وشعرت فجأة كم أنها كانت مشتاقة إليه، وعندما انتزعت نفسها منه قليلاً وجلست على سريره وهي لا تزال تمسك بيديه، لمكنها أن ترى كم كان شاحباً. لقد كان هزيلاً أكثر مما سبق وبدا ضعيفاً أكثر منه عندما رحلت، وشرع يسعل عندما جلس إلى جانبها على السرير، ورأت كم كان يصعب عليه أن يتوقف عن السعال أو أن يتنفس.

نظرت إيزابيل إلى الممرضة، وكانت الدموع على وجنتيها وهي تراقبهما أمامها. ولكن لم الصبي أمكنها أن تدرك من كمية مجموعات علب حبوب الدواء والعقاقير الدوائية إلى جانب سريره أنه لم يكن على ما يرام. لقد كان في حال جيدة عندما تركته. ولكن تبدلت حالته جذرياً للأسوأ خلال الشهرين الماضيين.

"ماذا تفعل في سريرك في مثل هذه الساعة؟" سألته، وقد بدا القلق في

عينيها، فابتسم لها مسروراً وهو يسحب نفسه إلى الخلف على السرير ويستند إلى الوسائد وينظر إليها.

"لم يسمح لي الطبيب بالنهوض". قال وكأن الأمر برمته لم يكن بذي أهمية. فإذ إنها الآن في المنزل ما عاد يأبه لمدى مرضه. قلت له أن هذا من الحماقة. لقد أردت أن أخرج إلى الحديقة البارحة، ولكن صوفي لم تسمح لي. إنها أسخف منك حتى، فهي تقلق طوال الوقت. ولا تسمح لي بأن افعل أي شيء على الإطلاق".

"هذا يبدو معقولاً". قالت الأم وهي تبتسم في وجهه بارتياح. "يبدو أنها اعتنت بك كثيراً من أجلي خلال فترة غيابي".

"أأنت على ما يرام؟" سألها، وقد بدا قلقاً. كان قد توقف عن السعال، ولكن عندما نظرت إليه عن كثب أكثر رأت رجفة في يديه. وتوقعت أن يكون ذلك من جراء إحدى الأدوية التي كان يأخذها، ولكن لم يَرُقْ لها ذلك على كل حال. لقد كانت بعض أدوية جهاز التنفس التي كان يأخذها قبلاً تسبب له ارتعاشاً وارتجافاً. وكانت إيزابيل تكره في هذه الأدوية تأثيرها الشديد على قلبه. ولكن صوفي ما كانت تعرف ذلك، وكانت إيزابيل متأكدة بأنها قد قامت بعمل جيد. "قال بابا أنك كنتِ في غيبوبة، ثم أنك استيقظتِ، وها أنت على ما يرام".

"هذا صحيح إلى حد ما، ولكن لم يكن الأمر بهذه السرعة التي تتصور. ولكني بخير الآن".

"كيف كانت الغيبوبة؟ هل كانت جميلة؟" سألها وفي عينيه نظرة حزن غريبة. "هل تتذكرينها؟".

"لا. لا أذكر. ما أذكره فقط هو حلم وحيد رأيته، وكنتَ أنت فيه. كان هناك ضوء ساطع وكنت أتجه إليه، وأنت جعلتني أرجع، وها قد فعلت". لقد كان نفس الحلم الذي رآه بيل وتحدثا عنه مرات عديدة. ولكن لم تكن لتستطيع أن تخبره عن بيل. وشعرت بألم الشوق له الآن وهي تفكر فيه. لقد كانت

تتمنى لو أمكنه رؤية تيدي، فلقد تحدثا عنه كثيراً، وبدا من غير الإنصاف ألا يلتقيا، رغم أنها كانت ترجو أن يحدث هذا يوماً ما.

"هل تألمتِ كثيراً؟" لقد كان في غاية القلق عليها. لقد بدا كالأمير الصغير في كتاب سانت إكزوبيري، فيما جلس على سريره واضعاً رِجْلاً على رِجْل، وشعره الحريري المجعد الناعم يحيط بوجهه. لقد بدا أصغر بكثير من سنه. لقد كان في الرابعة عشرة من عمره، ولم يتسنَ له الذهاب إلى المدرسة، وكان قلّما يغادر المنزل، ولم يكن له أصدقاء. كل ما لديه كان صوفي ووالديه. وكان اعتماده الكبير على إيزابيل دائماً.

"تألمتُ في البداية. وبعد ذلك استرحتُ كفاية، وأجريتُ اختبارات، وأخذتُ أدوية، وتحسنتُ وهكذا استطعتُ أن أجيء إليك في المنزل".

"لقد اشتقت إليك". قال ببساطة. ولم تكن كلماته لتصف لها كم كان مشتاقاً لها وخائفاً أن يفقدها إلى الأبد.

"وأنا أيضاً اشتقت إليك". ونظرت إيزابيل حولها عندئذ وهي تجلس إلى السرير. شعرت بالارتياح في هذه الغرفة أكثر بكثير منها في الردهة الأمامية أو حتى في غرفتها. فقد كانت هذه الغرفة هي المكان الذي تمضي فيه وقتها دائماً عندما تكون في المنزل. "أين صوفي؟".

"لديها بعض المهمات تنجزها لنا. سوف تعود إلى الجامعة الأسبوع المقبل. فحسناً أنك عدتِ إلى المنزل. لقد كان بابا خارجاً طوال الوقت، وكانت صوفي منزعجة من ذلك".

"إذاً سوف يكون لك ولي متسع من الوقت للقراءة، وللعمل في اللوحات التركيبية. فبما أن الجميع مشغولون سيكون لدينا وقت أكثر نكون فيه معاً وحدنا، أليس كذلك؟" قالت ذلك وهي تبدو غير مبالية بما قاله عن غياب غوردون، ولكنها لم تكف عن التفكير أين غوردون يذهب. وكانت تعلم أيضاً أن هذا ما فهمه تيدي، ولكن ربما لم يتغيب غوردون خارج المنزل بالقدر الذي يظنه تيدي.

لقد كانا يتحدثان ويضحكان ويتعانقان عندما خطت صوفي داخلة إلى الغرفة تحمل كدسةً من المجلات من أجل تيدي، وأطلقت صيحة صغيرة عندما رأت أمها مستلقية في السرير إلى جانبه.

"ماما". وركضت نحوها وكادت ترمي بنفسها عليها، ثم خشيت فجأة أن تكون قد آلمتها. وعلى نفس هيئة أخيها، فقد بدت أمها ضعيفة سهلة المكسر. "تبدين نحيفة جداً".

"كان الطعام في المشفى مريعاً". وابتسمت إيزابيل لها. لم تخبرها أنها وفي مناسبات عديدة قد حصلت وبيل على وجبات جيدة قد أُرسِلَتْ لهما. ولكنها لم تكن تجوع، وكانت شهيتها للطعام ضعيفة جداً هذه الأيام. وكانت الثياب فضفاضة عليها.

"هل تشعرين أنك على ما يرام؟" سألتها صوفي قلقة. لقد غدت الشخص الذي يعنى بالعائلة في غياب والدتها في المشفى في لندن.

"أنا بألف خير الآن إذ أستطيع أن أراكما كلاكما من جديد". وابتسمت إيزابيل مبتهجة وكانا هما أيضاً مسرورين. وأمضت إيزابيل معهما ساعة أخرى قبل أن تعود إلى غرفتها كي تستلقي قليلاً. لقد كانت منهكة للغاية، وقالت لها مرتا، ممرضة تيدي، أنها ستفتقدها.

استلقت إيزابيل في سريرها، وخلعت حذاءها، وراحت تجول بنظرها في أرجاء الغرفة وهي مستلقية هناك. لقد كانت الغرفة كلها مليئة بالحرير ذي الزخارف الوردية الدقيقة الباهتة. كانت هنالك ورود زهرية وبيضاء وأرجوانية شاحبة على خلفية عاجية اللون. والأثاث في أرجاء الغرفة كان يعود إلى عهد الملك لويس الخامس عشر. وعموماً كانت تشعر بالارتياح لكونها هناك، وشعرت أنها بصحة وعافية من جديد الآن وقد رأت أولادها. ولكن في نفس الوقت كان جزء من قلبها في حالة شوق فقد كان يغمرها شوق كبير إلى بيل. وهذا جعلها تشعر بالخوف. لقد كانا رابطي الجأش عندما افترقا، ولكن لم تكن لديها أدنى فكرة متى يلتقيان من جديد. لقد اشتاقت لسماع

صوته، ورؤيته يبتسم لها، أو يلمس يدها، وشعرت بالوحدة الآن في هذا المنزل الذي كانت تعيش فيه مع ولديها ومع زوج غدا غريباً بالنسبة لها منذ وقت طويل.

لقد كانت تنوي أن تستريح لبضع دقائق وحسب، ولكن النعاس غلبها رغماً عنها، ولم تستيقظ إلا عندما دخلت صوفي إلى الغرفة ولمست كتفها برفق.

"ألنت بخير يا ماما؟" لقد نضجت كثيراً خلال هذا الصيف، وبدت كما لو أنها قفزت من الطفولة إلى مرحلة الرشد بكل أعبائها. وإذ أصغت إليها شعرت أنها غدت والدة الآن أكثر منها ابنة. تقلبت إيزابيل في سريرها واستلقت على ظهرها ونظرت إليها وهي تبتسم. ودون أن تقول شيئاً، شعرت بحميمية جديدة بينهما.

"أنا بخير يا حبيبتي. لا بد أني غفوتُ. إني متعبة قليلاً فقط".

"لا تدعي تيدي يرهقك. إنه في غاية السرور لرؤيتك، إنه يشبه جرواً كبيراً. لقد أصابته الحمى من جديد خلال بضعة الأيام السابقة". قالت صوفي وهي تبدو قلقة.

"إنه يبدو نحيلاً هزيلاً جداً". علّقت إيزابيل وهي ترتب السرير إلى جانبها كي تجلس صوفي إلى جوارها.

"وأنت أيضاً". قالت صوفي وهي تنظر إلى والدتها عن كثب. لقد بدت مختلفة عما كانت عليه قبلاً، وكأن أمراً جللاً حدث لها، وقد كان كذلك بالفعل. فقد شارفت على الموت ثم وُلِدَت من جديد. وأحبت رجلاً رائعاً حباً عميقاً. لقد كانت التغييرات التي طرأت عليها بادية حتى لابنتها التي تبلغ الثامنة عشرة من العمر.

"لقد أحسنتِ صنيعاً مع تيدي". أطرت عليها إيزابيل، وقد كانت تستحق الثناء فعلاً. فقد كانت تعرف حق المعرفة أن الاعتناء بطفل مريض كتيدي كان عملاً ليس سهلاً. كان محباً ودائماً يقدّر الأشياء التي كان الناس يعملونها

لأجله، ولكن كانت حاجاته كبيرة، وكان يجب أن يكون موضع عناية ومراقبة دائمة. لقد كانت حياة من اليقظة الدائمة حيث لا يجد فيها أولئك الذين يهتمون به الراحة. "أنا آسفة لأني تأخرت كثيراً حتى عدتُ إلى المنزل" قالت إيزابيل برقة.

"يكفيني سروراً أنك على قيد الحياة" قالت لها صوفي بابتسامة متعبة.

"أريدك أن تستريحي الآن". قالت لها إيزابيل وقد بدت قلقة عليها. "سأعود إلى العناية بتيدي من جديد غداً. وأريدك أن تستمتعي وتلهي قليلاً قبل أن تعودي إلى الجامعة". وإذ ابتسمت صوفي هذه المرة، بدت كفتاة من جديد. لم تُرد أن تشكي لو أن تخبر أمها كم كانت صعبة تلك الفترة وكم شعرت بالوحدة فيها. فما كان حولها من تتحدث إليه أو تشاطره مخاوفها، ما عدا أصدقائها عندما كانوا يتصلون بها. وقد جاؤوا لزيارتها من حين إلى آخر، ولكن بعد بضعة أسابيع تعبوا من تقيّدها الشديد. وكان أصدقاؤها بعيدين عنها معظم الصيف. لقد كان هذان الشهران طويلين قاسيين وحافلين بالوحدة والعزلة بالنسبة لها. ولم يقدم لها والدها أية معونة. لقد بدا وكأنه لم يشأ أن يعرف شيئاً عن تيدي. لقد كان لديه زوجة مريضة، وابن مريض، وحياة خاصة به. كان نادراً ما يتحدث إلى صوفي في غياب أمها، وشعرت بنفسها وكأنها مستخدَمة مثقلة بأعباء العمل أكثر منها ابنة.

نهضت إيزابيل، وغسلت وجهها، وسرحت شعرها، وفكّرت أن تتصل ببيل، ولكنها فكرت أنه لن يكون لديها متسع من الوقت قبل أن يصل غوردون إلى المنزل. فقد تبيّن أنه كان يأتي إلى المنزل الساعة السابعة فقط. كانت إيزابيل في غرفة تيدي، تقرأ له كتاباً، عندما رأت هيئة رجل طويل داكن يمر. لا بد أنه ميّز صوتها، ولكنه اكتفى بأن يعبر دون أن يتوقف ليلقي نظرة إلى الغرفة أو أن يحيّيها.

أنهت إيزابيل الصفحة، وألقت الكتاب جانباً. كان تيدي قد تناول طعام عشائه على صينية قبل ساعة، وكان متعباً من المشاعر والعواطف التي

اعتملت في نفسه لرؤية والدته من جديد. وكانت صوفي قد خرجت مع أصدقائها لقضاء المساء خارج المنزل لأول مرة خلال شهرين. وبعد أن قبّلت تيدي برقة على خده ووعدته بأن تعود إليه، سارت إيزابيل في الردهة بهدوء كي ترى زوجها. عندما وجدته، كان غوردون في غرفة الملابس الخاصة به يجري اتصالاً هاتفياً. بدا مندهشاً لرؤيتها هناك، وكأنه نسي أنها كانت عائدة إلى المنزل. كانت تعلم أن هذا غير ممكن، ولكن كان هذا أسلوبه ألا يحدث جلبة عند الوصول أو المغادرة. كان قلما يلقي عليهم تحية الوداع عندما يذهب في رحلة ما، ولا يفعل ذلك عندما يذهب إلى مكتبه صباحاً، وعندما كان يعود، كان يذهب عادة إلى غرفته فيرتاح قليلاً قبل أن يذهب لرؤية إيزابيل وأولاده. ولم يكن في هذه الليلة مختلفاً عن باقي الأيام. لقد أصاب في تخمينه أنها كانت مع تيدي، وعرف أنه سيراها في الوقت المناسب. لقد كان واضحاً أنه لم يكن على عجلة.

"كيف كانت رحلتك؟" سألها وهو يبتسم لها من على بعد. لم تبدر منه أية حركة تعبر عن رغبته أن يخطو نحوها حيث وقفت بحذر في مدخل الغرفة.

"عظيمة". لقد بدا وكأن الشهرين الماضيين لم يكونا. شعرت فجأة وكأنها قد غابت ليومين فقط، ولم ينتبه إلى أنها قد غابت لشهرين وأوشكت على الموت خلال غيابها. فهي لم تره منذ أن غادرت إلى باريس، ذلك لأنها كانت غائبة عن الوعي عندما زارها في المشفى في لندن. "كانت الممرضة معوانة. وكان من الصعب أن أسافر بدونها. ويبدو الأولاد في حال جيدة". قالت إيزابيل بهدوء، وطبعاً ما قالته كان صحيحاً إذا ما أهملنا حقيقة أن تيدي قد فقد وزناً وكان يتعرض للحمى، وأن صوفي قد كبرت خمس سنوات خلال شهرين وفيما عدا ذلك كان كل شيء "عظيماً". ولكنها كانت تعلم أنه ما كان ليود أن يسمع ذلك. فبالنسبة لغوردون، إن الأمور التي تتعلق بالأولاد والمنزل لم تكن ضمن دائرة اختصاصه أو اهتمامه.

"كيف حالك؟" بدا قلقاً وهو يسألها عن ذلك، وهذا ما أدهشها. لقد كانت

تتوقع منه أن يريد منها أن تدّعي أنها لم تكن مريضة على الإطلاق. فقد كان يكره كثيراً المرض والناس الذين يمرضون، وكأنها علامة ضعف أن يمرض الناس. وكان كلاهما يعرف أن المرض بكل أشكاله كان يذكره بوالدته وألمه عليها. ففي فكره، كانت طفولته كلها معوقة ومقيدة بسبب مرضها.

"أشعر أني بخير. متعبة فقط. أعتقد أن الأمر سيستغرق مني بعض الوقت لأعود على سجيتي من جديد". كان عليها أن ترى اختصاصياً في الأسبوع القادم من أجل قلبها وكبدها، وكان الطبيب قد حذرها أنها إذا ما عانت من صداع، ولو بشكل معتدل، فعليها أن ترى طبيباً في الحال. وتوقع الطبيب في لندن أن تُشفى بشكل كامل خلال سنة، إن لم يكن أكثر.

"تبدين على ما يرام". قال غوردون مبتهجاً وهو يتمنى لو كانت كذلك. فلأسباب عديدة كان يتمنى لو أن الشهرين الماضيين لم يمرا. وكان لا يزال متمنعاً عن أن ينهض ليعانقها أو يقبلها. ولم يقترب نحوها وهما يتحدثان. لقد كان مختلفاً عن بيل كثيراً. ومن جديد راحت تتساءل إذا ما كان غوردون غاضباً منها. لقد كان يعرف بصداقتها معه، وقال لها بيل أن غوردون قد طرده من غرفتها. ولكنه لم يوجه إليها أي سؤال، ولم يذكره أمامها. لقد كانت تعرف أن بيل روبنسون قد أصبح موضوعاً محظراً كلياً ذكره بينهما. ما كان غوردون في حاجة لأن يحذرها، كانت تدرك هذا. "هل تناولتِ العشاء؟" سألها في برود.

هزّت رأسها، ومع هذا شعرت بدوار خفيف صارت تشعر به كثيراً في هكذا أحوال. يجب عليها أن تتذكر ألا تقوم بأي حركة مفاجئة برأسها، لفترة على الأقل. "ليس بعد. لقد كنتُ أنتظرك. تيدي تناول طعامه وصوفي خرجت مع أصدقائها". فقطب غوردون حاجبيه إذ قالت ذلك.

"لقد كنت أفترض أنك تحتاجين إلى النوم عندما تصلين يا إيزابيل. فقد كان يومك هذا طويلاً، وهو أول يوم تمضينه خارج المشفى. لدي عشاء عمل الليلة مع عميل هام من بانغكوك".

"حسناً". وابتسمت له. كانت لا تزال واقفة قرب مدخل الغرفة. لم يدعها للدخول فعلياً، وكان من الرسميات التي تحترمها. لقد كان يوضح للجميع أنه لا يسمح لأحد بدخول غرفته ما لم يدعوه هو، وكان هذا ينطبق عليها أيضاً. "سأطلب من جوزفين أن تأتي بالطعام على صينية. ولست جائعة على كل حال". ما كانت تحتاج إليه هو بعض الحساء أو ربما توست وبيض.

"فكرة جيدة. سوف نتناول معاً طعام العشاء غداً". في الماضي ما كانت لتستغرب عادته ألا يحدث جلبة عندما تعود من غياب طويل. أما الآن وقد عرفت بيل بشكل حميمي ورأت كيف كان يعاملها، فقد أجفلت لرؤية غوردون على ذلك النحو من البعد والجفاء والبرودة. فيا للمفارقة الكبيرة بين الرجلين. لم يكن هناك أي اعتبار لمرضها، أو احتفاء بسلامتها، أو ورود. بل إنه حتى لم يأتِ ويعانقها قبل أن تغادر غرفته بهدوء. وكانت تعلم أنها سوف لن تراه من جديد تلك الليلة. وقد تعجبت في الواقع عندما توقف لرؤيتها لدقيقة في طريقه خارجاً. كان يرتدي بذلة زرقاء غامقة، وقميصاً أبيض، وربطة عنق بلون أزرق بحري من ماركة هيرميس، ويضع بعض الكولونيا. لقد بدا وكأنه ذاهب إلى حفلة عشاء، ولكنها لم تسأله عن ذلك.

"هل أكلت؟" كان هذا السؤال علامة جزع غير مألوف، وقد تأثرت بهذه المبادرة. لقد كانت هي فتات المشاعر المتبقية من أيام الماضي السحيق حيث كان الرضى والمودة سائدة بينهما.

"لقد تناولتُ بيضاً وبعض الحساء". قالت بلباقة، وأومأ برأسه.

"خذي قسطاً من الراحة. لا تسهري مع تيدي الليلة. فلديه ممرضة تهتم بهذا الأمر". لقد كانت تود أن تبقى مع تيدي، ولكنها شعرت بأنها لا تستطيع السهر بعد.

"لقد نام لتوه". قالت لغوردون. لقد اطمأنت بنفسها عليه لتوها، ثم عادت إلى سريرها قبل أن يدخل غوردون ويتحدث إليها.

"من الحكمة أن تفعلي أنت أيضاً كذلك". قال لها وأيضاً دون أن يقترب

من سريرها. لقد كان نادراً ما يلمسها، ولم يعانقها البتة أو يقبلها منذ سنين، وكان يحافظ على تباعد ملحوظ بينهما عندما يكونان في نفس الغرفة. الوقت الوحيد الذي كان فيه محباً عاطفياً معها هو عندما كانا معاً علانية. فقبل سنين كانت تنخدع بذلك، معتقدة أنه أصبح أكثر مودة واهتماماً، ثم، عندما يعودان إلى المنزل يرجع إلى برودته معها حالما يغلقان باب غرفة نومهما. كان من أصعب الأمور بالنسبة لغوردون أن يكون على علاقة حميمة مع أي كان في هذا العالم، وبهذا كان على النقيض من إيزابيل، التي كانت دافئة، عاطفية، ومحبة. وكان أيضاً بذلك على بعد سنوات ضوئية مما قد اختبرت لتوها مع بيل، الذي كان دائماً يرغب في أن يمسك بها ويلمسها ويعانقها. "أراكِ غداً". قال لها غوردون وقد تردد قليلاً. ولوهلة ظنت أنه قد يقترب أكثر فيدخل إلى غرفتها، ويدنو منها. ولكنه، وبدون أن ينطق بكلمة أخرى، استدار على عقبيه وغادر المكان. لم يكن هذا هو نوع الزواج الذي كانت قد حلمت به، ولكن لم يكن من فائدة أو داعٍ للتفكير بذلك الآن، فقد كان هذا هو الزواج الوحيد في حياتها. وما كان عليها الآن إلا أن تتأقلم من جديد معه، بعد تلك الأشهر التي أمضتها مع بيل. ولم يكن هذا بالأمر السهل.

بعد أن غادر غوردون ببضع دقائق، رفعت إيزابيل السماعة واتصلت بلندن. وعندما أجاب عامل المقسم طلبت أن تتحدث إلى بيل. لقد بدا مكتئباً عندما رد على الهاتف، وإذ سمع صوتها على الطرف الآخر من الخط أشرق وجهه بالابتهاج.

"لقد كنتُ مستلقياً هنا أفكر فيكِ". قال لها ببساطة، وكانت نبرة صوته تناقض تماماً تحية غوردون لها. "كيف حال الأولاد؟".

"بخير". وابتسمت لسماعه. لقد بدا وكأنه زوج مسافر يطمئن عن يومها. "لقد كانا مسرورين جداً لرؤيتي. والمسكينة صوفي تبدو منهكة".

"كيف تيدي؟".

"نحيل جداً. وقد عادت إليه الحمى من جديد. ولكنه بدا في حال أفضل

هذه الليلة. سوف أمضي نهار الغد معه".

"لا ترهقي نفسك. فأنت لست في كامل قوتك وعافيتك بعد".

"أعلم يا حبيبي. كيف كان يومك؟" لقد كان مريعاً بالنسبة لــه، ولكنه لم يصارحها بذلك. لقد كان يشعر بالوحدة طوال النهار بعد أن رحلت، ولكنه كان يعرف أن عليه أن يعتاد على الأمر. فكل ما تبقى لهما الآن هو مكالمات هاتفية وحسب، كمــا فــي الأيام الخوالي. ولكن بعد حوالى شهرين من العيش معاً تقريباً، صارت الاتصالات الهاتفية لا تسد رمقهما. لقد كانا يشتاقان إلى الدفء والحميمية التي كانا يعيشانها معاً.

"كــان لا بــأس بــه". قال لها وقد كذب عليها. "لقد اشتقت إليك.. إنهم يحـاولون إعــدادي للمغادرة الأسبوع المقبل. وأشعر كما لو كنت أستعد لشن معــركة". فقـد كان ذاهباً إلى مركز إعادة التأهيل البدني ذي البرنامج الأشد قسـاوة، ذلك لأنه كان يعتقد أنهم سيحاولون الحصول على أفضل النتائج. لقد كان مستقبله يعتمد على ذلك، بل ربما مستقبلهما أيضاً. ورغم ما قد قالوه لــه عــن ســاقيه في لندن، إلا أنه كان متفائلاً. لقد كان لا يزال متأكداً أنه سيكون للأطباء في الولايات المتحدة رأي آخر. لقد كان لديه ثقة أكبر بهم.

راحا يتحدثان لبرهة عن عودتها إلى منزلها، وعن الأولاد، وأخبرها أن جيــن قد اتصلت به بعد ظهر ذلك اليوم وهذا ما أبهج نفسه بعض الشيء. ولم يسألها عن غوردون إلا في نهاية المكالمة.

"كيف كان معك؟".

"كــان غوردون. لقد كان كما هو. جاء متأخراً من المكتب، وهو خارج المــنزل هــذه الليلة. وهذا لا يهمني". فقد تركت قلبها مع بيل في لندن ما عدا الجــزء مــنه الذي يخص أولادها. ولكن لم يتبقَّ لزوجها مكانٌ فيه. لقد فات الأوان، وأمــور كثيرة كانت قد جرت عبر السنين. وحتى لو لم ترَ بيل ثانيةً، إلا أنهــا كانت تعرف أنه قد فات الأوان كثيراً عليها وغوردون. فكل ما تبقى لهما الآن هو قشور زواج فارغ أجوف، بل مظهر هذا الزواج وليس جوهره.

"هــل يــبدو غاضباً منك؟" لقد كان بيل قلقاً إزاء ذلك. فقد بدا غوردون حانقاً جداً خلال تلك الأيام التي رآه بيل فيها في لندن.

"لا، لــيس كذلك. ولكنه لن يظهر ذلك. وإن كان كذلك فإنه سينفس عن غضــبه يوماً ما عندما لا أتوقع ذلك. فهذا هو أسلوبه في التعامل والحياة. إنه يكبــت ويدخر. وأما العودة إلى الوراء ونبش الماضي فتأتي لاحقاً". ولكنها لم تشعر بذلك الآن. فقد بدا منفصلاً مستقلاً عنها، وكان كذلك على مدى سنين. لم يكن قد بدا منه أي شيء مختلف الآن. لقد كان كل شيء على حاله تقريباً.

"ما أرجوه هو ألا يعاقبكِ لأنك كنتِ معي خلال الحادث. لأني أعرف أنه كان مستاء جداً من ذلك. لديه سبب وجيه في ذلك". بل حتى صار هناك سبب أكثر أهمية الآن ولكنه لم يعرف عن ذلك.

"هــل تحدثــت إلــى سنثيا؟" سألته محاولةً أن يبدو السؤال عرضياً. فقد لاحظــت في لندن أن زوجته لم تتصل به أبداً. كان قد أجرى عدة أحاديث مع محامــيه في المشفى في لندن وأعدّ أوراق الطلاق دون أن يخبر إيزابيل عن ذلــك. "قالــت حين أنها في ساوثامبتون. سأراها عندما أكون في المشفى في نيويورك".

"آمل ذلك". قالت إيزابيل ذلك وهي تشعر بالانذهال من مدى لا مبالاتها.

بعد ذلك وعد إيزابيل بأن يتصل بها في اليوم التالي. وقالت أنها ستكون في المنزل طوال النهار. لقد صار الاتصال أكثر سهولة بالنسبة لهما الآن لأن الفــارق في التوقيت هو ساعة واحدة فقط بين باريس ولندن. لقد كان أصعب بكثير عندما كان في نيويورك، ولكن إيزابيل كانت تعلم أنهما سيتدبران الأمر تمامــاً كما فعلا على مدى سنوات. قال لها بيل بأنه يحبها وهو يغلق السماعة، وإذ اســتلقت فــي سريرها تلك الليلة، في المنزل الذي كان من المفترض أن يكون بيتها، شعرت وكأنها في مكان غريب. شعرت كما لو أن منزلها هو مع بيل في لندن.

لــم تســمع غوردون وهو يدخل تلك الليلة، ولكنها كانت نائمة بعمق في

غرفة نومها. وصادفته في الردهة صباح اليوم التالي وهي في طريقها لرؤية تيدي. لقد نامت لوقت متأخر أكثر من العادة، وكانت الساعة قد قاربت التاسعة عندما استيقظت. كانت ترتدي ثوب نوم، وقد غسلت وجهها وسرحت شعرها ورأت غوردون آنذاك منطلقاً نحو السلالم وفي يده حقيبة يده. لم يتحدث إليها، ولكنه لوّح لها بيده وهو ينزل السلالم بسرعة. كان يتحدث على هاتفه الخليوي، وما هي إلا دقيقة حتى سمعته يقود السيارة خارجاً من فناء الدار.

أمضت مع تيدي يوماً طيباً. قرأت له الكثير، واستلقت إلى جواره في السرير. وذكّرها هذا قليلاً بالوقت الذي أمضته مع بيل في المشفى في لندن. لقد كانا يقرأان ويتحدثان ويلعبان بالألعاب، وبعد الغداء أخذ قيلولة طويلة ثم جاء الطبيب لرؤيته. ووجد أن الصبي قد تحسن كثيراً الآن حيث أمه في البيت، ولكن إذ شايعت إيزابيل الطبيب إلى الباب، التفت نحوها وعلى وجهه تعبير غريب.

"تعلمين أن حالته تنهار. أليس كذلك يا إيزابيل؟" فأصابها الذعر مما قال، ولكنها ظنت أن هذا مجرد عارض مؤقت. وأما الآن وقد صارت في البيت، فهي سوف تبذل كل جهدها لكي تعيده إلى حالته الجيدة التي كان عليها قبل شهرين، عندما غادرت إلى لندن. وكانت على ثقة بأنها تستطيع ذلك. كانت صوفي قد اعتنت به جيداً في غيابها، ولكنها لم تعرف كل أساليب الاحتيال على المرض التي كانت إيزابيل تعرفها.

"إنه يبدو شاحباً، وقد فقد وزناً، ولكنه يبدو في حال أفضل هذا الصباح". قالت للطبيب وقد بدت متفائلة.

"إنه مسرور أكثر. ولكنه يضعف وينحدر. عليك أن تواجهي ذلك. إن عمل قلبه الوظيفي يزداد سوءاً، وكانت رئتاه في حال سيئة طوال الصيف".

"ماذا تقول أيها الطبيب؟" سألته جزِعةً.

"أقول أن جسده يجاهد لكي يصمد معه. ولكن بما أنه يكبر، فإن قلبه ورئتيه يواجهان تحدياً لم يسبق له مثيل".

"وماذا لو أجرينا له عملية زرع؟" سألت من جديد.

"سوف لن ينجو منها". وبدونها، كانت تعلم أن أيامه معدودة. لقد كان هذا كثيراً عليها لتواجهه بهذه السرعة وقد جاءت لتوها إلى المنزل، وهي نفسها لا تزال ضعيفة. ذكّرها الطبيب ألا ترهق نفسها. "أود أن أراه يزداد وزناً، وأنت أيضاً كذلك يا إيزابيل". لقد كان قلقاً عليها. فقد تحمل جسدها صدمة رهيبة كانت واضحة على محيّاها.

"سأهتم بهذا الأمر. سوف نتبع نظام تسمين معاً". وابتسمت وهي مستغرقة في التفكير فيما قاله الطبيب لتوه. لقد كان هذا الصيف قاسياً على تيدي، بل على كليهما، ولكن بما أنها الآن في البيت فقد كانت عازمة على أن تحدث تغييراً جذرياً في الأمور، وشعرت بنفسها قادرة على ذلك من دون ريب.

"سأعود لرؤيته بعد يوم أو يومين وإذا ما طرأ أي خطب اتصلي بي".

ولكن الخطب الذي حدث لم يكن له علاقة بتيدي، بل بغوردون. لقد عاد إلى المنزل متجهم الوجه تلك الليلة، ولم يفسر لهم سبب ذلك. وتناول العشاء على صينية في غرفته ولم ينزل ليتناول العشاء معها. ولم يتحدث إليها على الإطلاق، ولم يدخل إلى غرفتها. وفيما بعد في تلك الليلة، وإذ كانت مستلقية في سريرها تفكر بالأمر سمعته يخرج من المنزل. لم تكن لديها فكرة عن أين يذهب عندما يخرج ليلاً، ولم تره مرة ثانية حتى صباح اليوم التالي. فالتقته صدفة عندما كانت تنزل إلى الطابق الأسفل لتتناول طعام الفطور. كان يجلس في غرفة الطعام، يقرأ الجريدة ويشرب فنجان قهوة. وظل هكذا طويلاً دون أن يشعر بوجودها إلى أن ألقى الجريدة جانباً وأنهى قهوته. فولّد لديها انطباع بأنه كان غاضباً منها، ولم تكن تدري ماذا فعلت حتى ينزعج منها.

"هل سمعتِ شيئاً من صديقك في لندن؟" سألها بطريقة حادة جافة، وأجفلت من السؤال. لم تكن تريد أن تكذب عليه، ولكنها لم تُردْ أن تقول له أن بيل اتصل بها مرتين في اليوم السابق.

"نعم فقد تحدثت إليه". كان هذا كل ما قالته. لقد اندهلت من سماعها له يذكر بيل. فلم يكن قد قال أي كلمة عنه في اليوم الذي وصلت فيه إلى البيت، وبدا غوردون حانقاً عليه.

"ألا تظنين أنه من غير اللائق منه أن يتصل بك هنا يا إيزابيل؟ أفترض أن يكون خجلاً محرجاً من ذلك. فقد كاد يتسبب في موتك".

"لقد كاد الباص يقتل كلينا، لم تكن هذه غلطته".

"لو لم تكوني خارجاً معه، لما حدث هذا. لا أتوقع أنك تريدين لأولادك أن يعلموا أنك كنت خارج المنزل مع رجل آخر عندما وقع الحادث". كان هناك تهديد مبطن في كلامه في أنه سوف يخبرهما، وقد فهمت ذلك. وكان هذا تحذيراً.

"لا. لا أريد. ولكن ليس الأمر كما تراه في الظاهر. فنحن أصدقاء". قالت في هدوء، رغم أن قلبها كان يخفق بشدة.

"وهل تقولين لي إن هذه الصداقة قد انتهت؟".

"لم أقل ذلك. لقد مررنا بأمور كثيرة معاً". ونظرت إلى زوجها بإمعان وحذر. لقد كانت تعلم كم يستطيع أن يكون حقوداً محباً للانتقام، ولم تكن لتريد أن تشن حرباً معه. إذ كانت تعلم أنها لو فعلت ذلك لكان هو المنتصر. لقد كان دائماً كذلك. لقد كان يتمتع بكل النفوذ والسيطرة، وكانت تعلم أنه لا يتساهل معها إذا جابهته. ما كانت لتريد الآن حسماً لهذه القضية المثيرة للجدل، إذا كان بالإمكان أن تتحاشى ذلك. "لا داع لأن تخشاه يا غوردون. فأنا في المنزل الآن".

"ليس هذا هو جوهر الموضوع. أقول لك أن تقلعي عن هذا الأمر يا إيزابيل. فإنك تجازفين كثيراً بإغضابي. وأنت تعرفين ما أقصد".

"ليس في نيتي إغضابك. ويؤسفني أن الحادث خلق وضعاً محرجاً جداً". وخفضت نظرها وهي تقول ذلك.

"يا لهذا الانتقاء الجميل للكلمات". نظر إليها بحدة، وكانت نظرته تحمل إليها تحذيراً. "فأن تقعي ضحية حادث كاد يودي بحياتك وأنت تخونينني هو بالتأكيد 'محرج'".

"لم أكن أخونك. لقد كنا نتناول طعام العشاء". قالت بهدوء.

"وترقصان. لقد كنتما خارجاً الساعة الثانية بعد منتصف الليل". لم تسأله أين كان ليلة أمس، أو أين يذهب عندما يغادر المنزل في وقت متأخر من الليل. لم تسأله ذلك على الإطلاق. وما كانت لتجرؤ على ذلك. فمنذ بداية زواجهما عوّدها على أن يضع هو القوانين وأنه حر أن يفعل ما يحلو له. وكان يتوقع منها أن تلتزم بالقوانين والقواعد التي يضعها، وكان هذا الأمر متفقاً عليه ضمنياً من قبل كليهما وما كان لها أن تطرح أسئلة، أو تتحدى سلطته أو استقلاليته. فعقوبة ذلك ستكون شديدة إذا ما تجرأت على ذلك. وكان هذا الأمر مفهوماً بينهما. لم يكن هناك أي اعتبار بالمساواة بينهما في زواجهما. فهو لم يكن يظهر ذلك أو يعدها بذلك، وما كان ليريد أن يبدأ الآن بالسماح لها بذلك. وفهمت هذا أيضاً. الأمر الوحيد الذي أدهشها الآن هو أنها كانت دائماً على استعداد لتقبل حكمه الفردي المستبد. ورأت الآن أن هذه كانت ديكتاتورية وليست زواجاً. "أنتِ امرأة متزوجة" ذكّرها وقال "وأتوقع منك أن تتصرفي على هذا الأساس، آمل أنك قد تعلمتِ درساً". وتساءلت ما هذا الدرس: هل هو أن حافلة تدهسها إذا ما تعشّت مع رجل آخر؟ وقالت في نفسها ماذا سيفعل إذا ما عرف أنها كانت تشارك بيل الغرفة في المشفى في لندن، أو أن أحداً أخبره بذلك. لقد كان يعبر لها عن موقفه بوضوح شديد. سوف لن يتساهل معها إذا ما سلكت بطريقة غير نموذجية. وأي تصرف أدنى من هذا المستوى سيعاقبها عليه بالصمت، أو بالتهديد، أو الرفض، أو الإهانات إذا لزم الأمر، أو ربما بالطرد، وربما حتى أن يطردها وحدها دون أولادها. وإذا ما طلقها فليس لديها الإمكانية لأن تُعنى بتيدي وهذا هو الأمر الوحيد الذي كان يهمها.

"من حسن حظك أني على استعداد لأن أسامحك. ولكن إذا اكتشفتُ أنك تسيئين التصرف، أو أنه يزورك هنا، فإن الأمور ستأخذ منحى سيئاً بيني وبينك. وأقترح عليك أن تقولي لـــه أن يكف عن الاتصال بك". ولكنها كانت تعلم أنها سوف لن تفعل ذلك أبداً. فاتصالاتهما الهاتفية كانت كل ما تبقى لها الآن. بالتأكيد سوف لن تجد عند غوردون أي دفء عاطفي أو دعم معنوي. نهض عن الطاولة بعدئذ، والتقط حقيبة يده، وسار خارجاً من الغرفة. لقد نقل لها رسالته، وسمعته يغادر إلى المكتب بعد دقيقة.

جلست في غرفة الطعام لبرهة، تستجمع أفكارها، وهي تشعر بنفسها ترتجف. كانت تتساءل إذا ما كان سيعاقبها والآن عرفت الجواب. لقد كانت سجينة، مُدانة مع إطلاق سراح مشروط، وإذا ما خرجت على القوانين من جديد، واكتشف الأمر، فإن الله وحده يعرف ما سيفعل بها. وقد يطلقها حتى ويحتفظ بحضانة تيدي. وسيكون هذا أسوأ كابوس تعيشه على الإطلاق. وكانت تعرف أنه كان قادراً على جعل ذلك يصبح حقيقة. أرادت أن تتصل ببيل، ولكنها لم تجرؤ. فانتظرت أن يتصل هو بها، وقد فعل ذلك، عند الظهيرة، بعد أن أمضى الصباح في العلاج الفيزيائي. لقد بدا متعباً، ولكن معنوياته كانت معقولة ومقبولة، وقد سرّه أن يتحدث إليها.

"مرحباً يا حلوتي، ما أخبارك؟" سألها مبتهجاً، ولكن حالما سمع صوتها، أدرك أن شيئاً ما قد حدث. "ما الخطب؟ تبدين قلقة؟".

"لا. أنا بخير". كذبت عليه. ولكنها انهارت وأخبرته بما حدث عندما ضغط عليها. فحكت لـــه عن الحديث الذي تبادلته مع غوردون ذلك الصباح.

"إنـــه يحاول أن يخيفك فقط، من مبدأ السيطرة بالإرهاب". كان بيل يكره كـــل مـــا فيه، وأدرك الآن أن غوردون لم يعد لرؤيتها في المشفى وذلك لكي يعاقـــبها ويخـــيفها، وتجعلهـــا تشـــعر بانعدام الطمأنينة والأمان. ما لم يعلمه غوردون هو أن ذلك كان بالنسبة لهما نعمة من السماء. "لا يمكنه أن يفعل أي شيء. ولا يمكنه أن يأخذ تيدي". لقد حاول أن يطمئنها ولكن دون جدوى. ومن

خلال الحديث أدرك أن إيزابيل كانت خائفة حقاً.

"إن المحـــاكم هنا تؤثر الأب على الأم. ولربما استطاع أن يقنعهم أني أم غـــير مناسبة". لقد فطر قلب بيل أن يسمعها تبدو قلقة إلى تلك الحد. لقد كانت مستاءة من الأمر طوال الصباح.

"أنى لـــه أن يقنع أي أحد أنك غير مناسبة؟ أبإخبارهم أنك أمضيتِ أربع عشرة سنة تعتنين به ليلاً ونهاراً؟ لا تكوني سخيفة يا حبيبتي. إنه يحاول فقط أن يرعبك، ويبدو أنه ينجح في ذلك". كان خوفها لا أساس لـــه، ولكن غوردون كان يرعبها على الدوام. لقد كان يبدو متنفذاً وماهراً في تحقيق مآربه.

"إنه شديد الإقناع". لقد كان هكذا في نظرها دائماً.

"ولكـــنه لا يقنعني". قال بيل وقد بدا غاضباً. لقد كان يود لو يجابهه على المعاملة السيئة التي يعامل بها زوجته. فقد كان غوردون فوريستر يتنمّر على من هم أضعف منه. "يكفي أن تحاولي أن تتجاهليه، وأن تهتمي بشؤونك".

"هذا ما أفعله".

"هل ستتناولين العشاء معه الليلة؟".

"لا أدري. فهو لا يخبرني عن ذلك مطلقاً".

لقد كان بيل شديد الاهتياج لسماعه عما تعانيه، ولكنه كان عاجزاً عن فعل أي شيء إزاء ذلك. لقد كان يرغب لو أنها طلقته ولكنه كان يعلم أنها سوف لن تفعل. فقد كانت لديها أشياء كثيرة فيها خطر هنالك، وكانت شديدة الخوف مما قد يفعل بها وكان هذا ما يريده غوردون بالضبط. حاول بيل أن يشرح لها ذلك، ولكنها قالت بأنها تحت رحمته كلياً. فليس لديها نقود خاصة بها، ولديها طفل مريض معاق، وبحاجة إلى عناية طبية باهظة جداً. وإذ سمعها تقول ذلك استاء بيل للغاية. لقد كان يود لو يتزوجها ويُعنى بالصبي. ولكن فات الأوان على ذلك، الآن على الأقل. فما كان ليقدر أن يطلب منها الزواج إذا ما كان سيصاب بالعجز. كان مكبّل اليدين. وكان الرجال مثل

غوردون يجدون دائماً السلاح المناسب ليشهروه على ضحاياهم. وفي مثل حالتها كان الخوف هو سلاحه. وتساءل كم طال بها الأمر وهي على هذه الحال، وكم من سوء المعاملة قد تعرضت لها عبر السنين. لقد بدا وكأن معاناتها كانت بلا حدود، فالرجل كان يعاملها بقسوة لسنين، وبلقائها بيل في لندن وتكشف الأمور بالحادث كانت كأنها تلقم له المسدس. لقد كان من سوء الحظ أن اكتشف غوردون علاقتها ببيل.

"حاولي أن تبتعدي عن طريقه. وسوف أتصل بك". لقد كان يعلم أنه من الأفضل ألا يظهر رقم هاتفه في فواتيرها. فقد كان هذا كل ما يحتاج إليه غوردون ليقاصصها. "اتصلي بي فقط في حالة الضرورة القصوى". قال لها بيل. "سأتصل بك". شعرت إيزابيل بالوحدة والوحشة والعزلة إذ أدركت الوضع الذي تعيش فيه. كانت تشعر بالخزي، أكثر مما كان يتوقع، وكان غوردون على استعداد لأن ينتزع منها الثمن كاملاً على ذلك. حتى آخر فلس.

تحدثا لبرهة، ثم اضطر للعودة إلى العلاج من جديد. ووعد أن يتصل بها في وقت لاحق بعد ظهر ذلك اليوم، وذلك قبل أن يعود غوردون إلى البيت من مكتبه.

إبان ذلك فأجأها غوردون بحضوره إلى البيت مبكراً. لقد جاء إلى المنزل في الساعة الرابعة ويبدو وكأنه كان يتوقع أن يفاجئها ترتكب عملاً سيئاً ما. ولكن بيل كان قد اتصل قبلاً. وكانت هي مستلقية على سرير تيدي تلعب معه الورق. كان لدى تيدي شغف بلعبة رومي الجن. وكان يحب أن يلعب السوليتير أيضاً، ولكنه كان يفضل أن يلعب الألعاب مع أمه.

لوّح غوردون بيده بينما عبر أمام الغرفة، ولكنه لم يتوقف ليتحدث إلى الصبي أو إلى إيزابيل. لقد كان هذا نفس السلوك الذي رأته منه صوفي طوال الصيف. لقد أعطى هذا لصوفي صورة حقيقية جديدة عمن يكون والدها، ولم تحب ذلك فيه. لقد كانت تمقت طريقته في الحديث إليها، وتجاهله الكامل لتيدي، وكأنه كان غير مرئي أو ليس له وجود على الإطلاق. كان الصبي

غير ملائم في نظر غوردون، وضعيفاً للغاية، وصرف الاهتمام عنه. لم يكن يستحق اهتمامه، وكان تيدي يعرف ذلك. لقد مرت سنين ما عاد يكن لوالده فيها أي احترام، اللهم ما عدا بعض المحبة. أما غوردون فلم يظهر له شيئاً على الإطلاق، ولم يَبْدُ أية عواطف نحو إيزابيل أيضاً وذلك ليس الآن فقط بل منذ سنين. وقد بدأت صوفي الآن فقط تدرك ذلك. وعلّقت على ذلك لاحقاً بعد ظهر ذلك اليوم عندما كانت في زيارة لوالدتها قبل أن تخرج ذلك المساء من جديد مع أصدقائها.

"لماذا تسمحين له بأن يعاملك هكذا؟" قالت صوفي لأمها بلهجة تأنيب. كانت تريد من والدتها أن تقف في مواجهته، وكانت مستاءة لأنها لا تفعل ذلك. ورغم أنها كانت تنفر منها وتتشاجر معها لسنين، إلا أن صوفي صارت الآن أقوى حليف لها.

"إنه لا يقصد الأذى بذلك يا حبيبتي. كل ما هنالك هو أن طبعه هكذا". كانت إيزابيل تسارع دوماً للدفاع عنه أمام الأولاد ولو كانوا على صواب عندما يشكون منه. "إنه شخص لا يعبر عن عواطفه". أوضحت لها، في حين بدت صوفي غاضبة. لقد عرفت الكثير عنه خلال ذلك الصيف، أكثر مما كانت تريد. وما عرفته عنه حطم كل الأوهام التي كانت تضعها في ذهنها حول والدها. وصار تعاطفها الآن مع والدتها بشكل كامل. وقد غدت إيزابيل بطلة في نظرها.

"إنه يظهر اللامبالاة، والرفض، والدناءة باستمرار. إنه شنيع وبغيض في تعامله معك، وهو لا يأبه لتيدي". قالت صوفي غاضبةً.

"بل بالطبع يفعل يا صوفي". وبدت إيزابيل متوترة وهي تصغي إلى ما كانت صوفي تقوله، رغم أنها كانت تعرف أن كلامها فيه الكثير من الصحة.

"بل إنه لا يهتم إلا بنفسه. وحتى أنا لا يهتم لأمري".

"إنه فخور جداً بك". لم تجادلها صوفي في ذلك، ولكنها لم تصدقها بالمقابل.

"حتى ولو كان كذلك، فليس له الحق في أن يعاملك أنت أو تيدي على ذلك النحو". لقد كان في تعامله مع صوفي أفضل قليلاً منه مع الآخرين، ولكنه صار أقل لطفاً معها مؤخراً، ولم يمر الأمر دون أن تلاحظه صوفي. فهو لم يشكرها أبداً على الجهود التي بذلتها، وعلى المناسبات والفرص التي تخلت عنها، أو على وابل الحب الذي أمطرت به على أخيها في غياب والدتهما. وصارت صوفي ترى في والدها رجلاً بارداً، قاسياً، عديم المشاعر، متحجر القلب، وقد كان هكذا تماماً بالفعل. لقد كان ناجحاً جداً في عمله، ولكن هذا لا يمنحه ميدالية أو ثناء في منزله في تعامله مع زوجته وأولاده.

"أرجو ألا تقلقي بخصوص ذلك". وأردفت إيزابيل: "إن والدك رجل طيب صالح". ولكن ولو كانت تقول ذلك، إلا أنها كانت تعرف أنها أكذوبة، وصوفي أيضاً كذلك. لقد كان أبعد ما يكون عن الطيبة أو الصلاح أو حتى اللطف. "أبوك وأنا قد اعتدنا على بعضنا بعضاً. فنحن نعرف ما نتوقع، وكيف نشعر تجاه بعضنا البعض، فليس الأمر بهذا السوء كما يبدو من الخارج". ولكن صوفي كانت تعرف أنه كان أسوأ من ذلك. لقد صارت تفهم الآن السبب الذي يجعلهما ينامان في غرفتي نوم منفصلتين، وأدركت أن والدها كان خارج المنزل طوال الوقت. فقد كان نادراً ما يمضي أمسية في المنزل عندما كانت إيزابيل في المشفى في لندن، وأكثر من مرة اكتشفت أنه كان خارج المنزل طوال الليل، ولكنها لم تخبر والدتها عن ذلك. فقد كانت تعرف أنها ستتألم كثيراً لمعرفتها ذلك. لم تكن صوفي تعتقد أن له صديقة عشيقة. لم يَبْدُ من ذلك النوع. ولكن لم تكن لديها أدنى فكرة عن مكان ذهابه على الإطلاق. فلم يكن يترك لها أي رقم هاتف عندما يذهب. "كل شيء على ما يرام". كررت إيزابيل ولكنها لم تقنع ابنتها. لم تكن إيزابيل تجد أي داعٍ لتخبر ابنتها كم كان الوضع مذرياً بائساً.

"هل كان دائماً هكذا؟" أما الآن وقد فكرت بالأمر ولاسيما خلال الشهرين الماضيين لم تستطع أن تتذكر أبداً أن والدها قد عامل والدتها بطريقة مختلفة

يوماً. لم تتذكر أي مرة كان فيها دفء وعواطف بينهما. ولم تتذكر والدها يوماً يقبل والدتها أو يضمها. وبعد ذلك صارت لهما غرف منفصلة منذ ولادة تيدي. قالت والدتها أن سبب ذلك هو كي تستطيع أن تعتني بتيدي دون أن تزعج والدها، ولكن صوفي أدركت الآن أن السبب كان أكبر من ذلك بكثير. واستغربت كيف أنها لم تُصدم بذلك عاجلاً. لقد كانت صوفي دائماً تؤثر والدها وذلك منذ بداية طفولتها، ولكنها الآن شعرت بالذنب من جراء ذلك. لقد تعلمت الكثير، ونضجت في غياب والدتها. ولأنها كادت تفقدها في الحادث فإن صوفي الآن راحت تدلل والدتها أكثر من ذي قبل. "هل كان مختلفاً عندما تزوجتما؟" سألتها صوفي وقد بدت حزينة من أجل أمها. وكانت تشعر الآن بحنان كبير نحوها.

"لقد كان شهماً جداً عندما تزوجنا، قوياً جداً، وشديد العزيمة، وشعرت أن هذا كان يعني أنه يحبني. كنت فتية جداً. وكان رائعاً جداً عندما وُلدتِ. كان في غاية السعادة". لم تقل إيزابيل لصوفي إن غوردون كان يود لو كانت صبياً ذكراً. وبعد ذلك أجهضت، ثم أنجبت تيدي بعد أربع سنوات من ولادة صوفي. لقد كان يؤنبها بسبب ولادة تيدي المبكرة، ويصر على أنها ولا بد قد قامت بعمل ما أدى إلى حدوث ذلك، وأن تلك كانت غلطتها.

وتملّص غوردون من مسؤولية هذا الطفل المريض المزعج من البداية. وخلال أشهر، كان قد عزل نفسه عن إيزابيل أيضاً. لقد كانت تحتاج إلى دعمه وحبه، إذ كان ذلك الوقت عصيباً بالنسبة لها. وكادوا يفقدون تيدي عدة مرات أول سنتين من حياته، وهذا ما أصابها بالذعر. لقد كان ضئيلاً جداً وضعيفاً جداً وفي حالة خطرة. ولكن غوردون جعلها تفكر على الدوام أن الغلطة غلطتها. كان يقول لها باستمرار أنها غير ملائمة، وغير قادرة، وأنها مخطئة. لقد قوّض ثقتها بنفسها من الأساس، وكل إيمان بنفسها، كأم، وامرأة، وزوجة له. وخلال سنتين من ولادة تيدي كان قد أقصاها عنه كلياً. لم تفهم السبب الحقيقي، ولكنها صارت تعتقد أن ذلك ذنبها. وكانت لا تزال تشعر بذلك أحياناً.

لقد كان لديها دائماً الشعور بأنها لو عملت الأشياء بشكل أفضل، لظل يحبها، ولسارت أمورها كلها على ما يرام. وكما فعل هذا الصباح منتقداً سلوكها والحادث الذي وقع في لندن، كان يلومها بشكل متواصل، وكانت تتقبل اللوم والإحساس بالذنب معاً. ولكن هذه المرة، وبفضل بيل، صار هذا الإحساس بالذنب أقل عندها. لقد كانت تعرف أنه من الخطأ أن تلتقي به في لندن وبشكل سري، ولكن في ذلك الوقت على الأقل، لم تكن قد ارتكبت أي خطأ. كانت تنوي أن يكون لقاء بريئاً، وكانت قد قالت له أنها كانت تُجل زواجها منه. ولكن فقط في المشفى، وبعد الحادث، كان قد تغيّر كل شيء. وأصبحت تحب بيل جداً الآن، وكانت على استعداد لتتحمل الإحساس بالذنب، فقط لكي يكون له وجود في حياتها. وما كان بإمكانها أبداً أن تتخلى عنه الآن.

"لا أدري ما الذي جعلك تتزوجين منه يا ماما". قالت صوفي وهي تستعد للانصراف للقاء أصدقائها. فما اكتشفته في ذلك الصيف عن والدها، من بين أشياء أخرى، كان يبرر دناءة نفسه لدرجة أنه كان قاسياً في معظم الأحيان. وكرهت هذا فيه.

لقد تزوجتُه لأني أحببتُه". قالت إيزابيل بابتسامة حزينة، واستأنفت: "لقد كنت في الحادية والعشرين من العمر، وكنت أعتقد أننا سنعيش حياة رائعة. لقد كان وسيماً وذكياً وناجحاً. وكان والدي في غاية السرور منه وقال لي أنه سيكون زوجاً مثالياً لي، وقد صدقتُه. لقد كان متأثراً بوالدك. فقد كان رجلاً بارعاً". ففي الثامنة والثلاثين من عمرها، كان مديراً للبنك، وكان غوردون متأثراً بعلاقاتها الاجتماعية وارتباطاتها بالعائلة الملكية. واستخدم هذه لتعزيز مكانته الوظيفية والحياتية في بداية الأمر. ومن خلال والديها كان لها أصدقاء قدموا له فائدة كبيرة. ولكن بعد أن كون علاقة معهم بنفسه، أقصاها جانباً. وصار من غير الممكن أن يظهر العاطفة أو الحب لها. لقد كان فاتناً ساحراً في البداية، ولكنه استحال قاسياً سريعاً بعد ذلك، ومتمحوراً على نفسه كلياً، وكأنها ما كانت موجودة، إلا لخدمته.

بعد خمس سنوات ما عاد يهتم لتبديد سحره عليها. ولم يعد في الواقع كذلك آنذاك. وفي الوقت الذي توفي والدها فيه، كان زواجها قد صار كابوساً، ولكنها لم تعترف بذلك لأحد. كانت تشعر بالخجل والخزي، وقد أقنعها غوردون آنذاك أن الذنب هو ذنبها. ومنذ ذلك الحين أغدقت بكل محبتها على صوفي وتيدي. واعتقدت، على الأقل، أنها كانت مصيبة في ذلك. وخلافاً لخبرتها مع غوردون، فقد بدا بيل وكأنه يؤيد صحة كل ما فعلته. وكان لا يزال من الصعب عليها أن تصدق كيف أن رجلين ينظران إليها بطريقة مختلفة تماماً. ولكنها كانت تثق ببيل الآن، وتحترم آراءه. وأما قرارها بالبقاء مع غوردون فقد كان رغماً عنها، وذلك من أجل الأولاد، وكان عليها أن تقدم لهما كل ما أمكنها.

غادرت صوفي المنزل بعد برهة قصيرة، وتناول غوردون وإيزابيل العشاء في غرفة الطعام. ولكن نظراً لطبيعة الجو والأحاديث التي دارت بينهما في الصباح لم يتبادلا إلا ما ندر من الكلمات. ما كانت إيزابيل تريده أن يغضب أكثر، وقد كانت هيئته كلياً تحذرها من الحديث إليه. لم يقل لها ألا تتحدث إليه بل فهمت ذلك عن ذاتها فكأن بعض الحوار معه كان يشكل عبئاً ثقيلاً عليه، ولن يكون موضع اهتمام لديه. وكان كل ما تتحدث إليه فيه هو عن الأولاد بأي حال من الأحوال، وهذا كان يثير ضجره. لم تقل إيزابيل أي كلمة خلال العشاء، وبعد القهوة، عادت إلى الطابق العلوي إلى غرفة تيدي. وحبس غوردون نفسه خلف أبوابه كالعادة. وإذ غادرها اكتفى بالقول أن لديه عمل يريد إنجازه. وإذا استلقت في سريرها فيما بعد، كانت تفكر في كل ما قالته صوفي. كانت متألقة، موفورة الصحة، متفهمة، وكان سلوك والدها ومواقفه تروعها، ولكن أمها أزعجتها أكثر. فقد كانت تريدها أن تجابهه، أما إيزابيل فبدلاً من ذلك راحت تدافع عنه، رغم كل ما فعله من سوء تجاهها. وهذا ما جعل صوفي تحزن لأجلها.

لم تسمع إيزابيل غوردون يغادر المنزل تلك الليلة. ولكنها اكتشفت أنه لم

يَنَمْ في سريره عندما ذهبت لتقول له أن يرد على اتصال هاتفي هام من نيويورك في الصباح. لم تكن تتخيل أين يمكن أن يكون، ولم يكن هناك من تسأله عن ذلك. لقد أجفلت بما شاهدت، ثم تساءلت إذا ما كان يفعل ذلك معظم الأحيان. لم تكن مدركة لذلك من قبل. ولكنها صارت الآن على استعداد أكثر لأن تبقي عينيها مفتوحتين لتراقب ما يجري. لم تقل أية كلمة لأحد، وأخبرت الناس على الهاتف أن يتصلوا به في المكتب. لقد كانت تود لو تتصل به وتسأله بنفسها أين كان، ولكنها ما كانت لتتنازل إلى هذه الدرجة. وبدلاً من ذلك، استمرت في حياتها اليومية كما اقترح عليها بيل، واهتمت بتيدي، وانتظرت غوردون لأن يعود في المساء. وعندما جاء لم تسأله عن شيء ولم تقل له شيئاً. فالمواجهة لم تكن أسلوبها، كما وأن نبذ غوردون لها ما عاد يهمها. فلديها بيل الآن والحب الذي يعيشانه معاً. مضت إلى سريرها بعد العشاء، وبعد مرور وقت طويل عليها وهي نائمة، خرج غوردون وأغلق الباب خلفه بهدوء وهو يحرص على ألا يسمعه أحد.

الفصل الثالث عشر

غادر بيل المشفى في لندن بعد خمسة أيام من عودة إيزابيل إلى باريس. كانت الأيام التي أمضاها هناك مثيرة لكآبته بما لا قياس له. كان يشعر بالوحدة بدونهما، ولكن كان يعلم أن عليه أن يعتاد على ذلك. وفي حياته الخاصة الآن كان عليه أن يبذل جهوداً مضنية وكأنه سيتسلق جبل إفرست. كان المعالجون قد رسموا له مخططاً لما عليه القيام به في العام المقبل، ولكن رغم أنهم وضعوا كل شيء، إلا أنهم نبهوه لئلا يفرط في الأمل. فاحتمال استعادة كامل قدرته على تحريك ساقيه سيتطلب معجزة، في نظرهم. وبالرغم من أنهم أعجبوا بعزمه وتصميمه، إلا أنهم لم يشاؤوا له أن يتحطم إذا كان كل ما يحققه هو تدبير أمر وقوفه اعتماداً على سناد أو على عكاكيز، أو إذا ما بقي أسير كرسي مدولب طوال حياته. لقد كانوا شبه متأكدين أنه سيبقى حبيس كرسيه. لقد كانوا يرون أنه من شبه المستحيل أن يستعيد الإحساس برجليه نظراً إلى مدى الأذى الذي تعرض له عموده الفقري. وأوضحوا أنه شتّان ما بين تحسسه نوعاً ما لساقيه وقدرته على السير عليهما.

عانقته الممرضات جميعاً وبكين عند رحيله. لقد أحبوه جميعاً وتأثروا بعمق علاقته مع إيزابيل. وكانوا يرون أن نجاتهما من الحادث كانت منّة من السماء عليهما. وهذا أعطاهم جميعاً إيمان ورجاء جديدين. لقد كان جميع من في جناح العناية المشددة مذهلين من نجاتهما معاً.

لقد وعدهم جميعاً بأن يرسل لهم بطاقات تذكارية من نيويورك، وقدم هدايا لهم من محل هارودز. فابتاع لكل منهم سواراً جميلاً من ذهب، وأهدى طبيبه ساعة من ماركة باتيك فيليب. لقد كان كريماً، ولطيفاً، ومراعياً للآخرين ومقدراً لهم، وسوف يفتقدونه كثيراً. هذا وقد رافقه ممرضة ومساعد ممرِّض



إلى المطار وأسنداه إلى كرسيه في طائرته، واستقبله مندوبون عن مركز إعادة التأهيل في مطار كينيدي في نيويورك.

كان بيل قد اتصل بابنتيه ليخبرهما أنه قادم إلى نيويورك، ووعدتاه بزيارته في اليوم التالي في مركز إعادة التأهيل. لم يتصل بسنثيا عن عمد. فقد كان يحاول أن يبقي على بعض المسافة بينهما. فقد فكّر أن هذا أفضل نظراً إلى موضوع الطلاق. لقد وضع من ضمن بنود عقد الاتفاق أن يمنحها مبلغاً كبيراً من المال، وأن يعطيها ممتلكاتهما وعدة سيارات وسندات استثمار جيد. وكان قد بدأ معاملة الطلاق قبل شهر. وفوجئت سيندي من سرعته في التحرك نحو هذا الأمر، ومن كرمه وسماحة نفسه، وكانت لا تزال تعتقد أنه فعل ذلك لأنه كان يرجو أن يتزوج إيزابيل، ولكن بيل قال لها بوضوح وصدق أنه لن يفعل ذلك. ولو أن سنثيا لم ترَ مدى حبه لها لكانت صدقته.

استطاع أن يجلس في كرسيه في الطائرة بارتياح لأول بضع ساعات، ولكن بعد برهة بدأ عنقه وظهره يؤلمانه. كان يضع سنادات إلى كليهما، تمدد، وشعر بالارتياح لأنه يسافر على طائرته الخاصة. لقد كان هذا يشكل فارقاً كبيراً بالنسبة له. اقترح طبيبه أن يمتنع عن الطعام والشراب خلال رحلة الطيران، فالتزم بذلك. واقترحوا عليه أيضاً أن يأخذ ممرضة معه خلال رحلة الطيران، ولكنه رفض الفكرة، وشعر بالندم عندما أقلعت الطائرة بهم. ولكنه أراد أن يبرهن لنفسه أنه مستقل ويعتمد على نفسه. وعندما حطت الطائرة بهم في نيويورك كان منهكاً للغاية ويتألم بشدة.

كان هناك ممرضان وسائق في انتظاره في المطار. وقد مرّ عبر الجمارك دون أن يفتشوا أغراضه، وكانت هناك سيارة مغلقة في الخارج مزودة بـنقّالة. أخذه الممرضان إلى الحمام أولاً، ثم فكر أن يتريث ويتصل بإيزابيل، ولكنه قرر أن ينتظر إلى أن يصلوا إلى مركز إعادة التأهيل. لقد كان في غاية الألم، وكان يتوق إلى أن يستلقي في السيارة المغلقة.

"كيف ترى هذه؟ أفضل؟" سأله أحد الممرضين وقد أضجعاه في السيارة،

وابتسم بيل.

"لقد كانت رحلة طويلة". وحتى الاستلقاء لجزء من الرحلة كان قاسياً بالنسبة له. كان قد أحنى مقعده إلى الوراء ليصير مثل سرير، ولكن حتى في هذه الوضعية كان هناك زاوية انحناء خفيفة سببت له ألماً مبرحاً. لقد ذكّره ذلك، وبانزعاج شديد، بأنه لا تزال هناك رحلة طويلة للشفاء تنتظره. ولكنه كان لا يزال متأكداً أنه سيقطعها في نهاية الأمر. ولكنه استاء إذ أدرك مدى طول هذه الرحلة المفروضة عليه.

كانوا قد أحضروا له ترمساً من القهوة، وبعض المشروبات الباردة، وسندويشة. وشعر بتحسن أكبر بكثير عندما سحبوه خارجاً. لقد كان يوماً خريفياً جميلاً، وكان الجو لا يزال دافئاً.

استغرقهم الوصول إلى مركز التأهيل نصف ساعة، وكان هذا مكاناً ممتداً على رقعة واسعة تحيط به أراضٍ مشذبة في ضواحي نيويورك. لقد بدا أشبه إلى نادٍ ريفي منه إلى مشفى، ولكن بيل كان متعباً جداً عندما وصلوا لدرجة أنه لم يستطع معها أن ينظر حول المكان. كل ما كان يريد هو أن يصل إلى السرير. سجّل دخوله ولاحظ رجالاً ونساءً في كراسي مدولبة وعلى عكاكيز في كل أرجاء المكان. وكان هناك فريقان يلعبان كرة سلة وهم في كراسيهم، وكان هناك أناس على النقالات يتفرجون عليهم ويشجعون الفريقين. كان الجو مليئاً بالنشاط والمودة، وبدا الناس بمنتهى الحيوية والنشاط في معظمهم. ولكن أصاب هذا بيل بالاكتئاب على كل حال. فهنا ستكون إقامته خلال العام القادم، أو على الأقل خلال تسعة أشهر. شعر وكأنه طفل أُرسل إلى المدرسة، إذ كان يشعر بالحنين إلى إيزابيل ومشفى القديس توماس، وكل الوجوه اللطيفة المحبة المألوفة الذين تعرّف عليهم هناك. ولم يسمح لنفسه حتى أن يفكر بمنزله في كونّكتيكوت. لقد صار هذا جزءاً من الماضي السحيق الآن. وعندما كانوا يدفعون بعربته إلى غرفته، كانت الدموع تملأ عينيه. ولم يسبق له أبداً في كل حياته أن شعر بالضعف والوحدة كما هو عليه الآن.

"هل كل شيء على ما يرام، سيد روبنسون؟" ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى الإيماء برأسه.

لقد بدت كغرفة نموذجية في فندق نظيف محترم. وعلى الرغم من السعر، والذي كان باهظاً، فإنها لم تكن مترفة، إذ كانت خلواً من الزخارف، مع وجود بعض وسائل الراحة. كان هناك أثاث بسيط معتدل، وسجاد نظيف وسرير مشفى مفرد، مثل ذاك الذي كان ينام عليه إلى جوار إيزابيل، وملصق وحيد لجنوب فرنسا على الجدار. لقد كان رسمة من ألوان مائية لمكان بدا مألوفاً له، واعتقد أنه سانت- تروبيز. لقد كان له غرفة حمام خاصة به، وكانت الإنارة في الغرفة جيدة. وكان هناك فاكس في الغرفة، ومأخذ لكمبيوتر، وهاتفه الخاص. قالوا أنه ليس مسموحاً له بميكرويف في غرفته، ولم يكن هذا ليهمه. لم يقولوا له السبب، ولكنه كان يعرف أن ذلك هو لئلا ينعزل العملاء أو يأكلوا وحدهم. لقد كانوا يريدونه أن يتناول طعامه في الكافتريا مع الجميع، وأن يشترك في الفرق الرياضية، ويستخدم غرف النشاطات الجماعية، ويكوّن أصدقاء. لقد كان هذا كله جزءاً من عملية إعادة التأهيل التي أعدوها له. وكان التواصل الاجتماعي في ظروفه الحالية جزءاً من ذلك. فلا يهم من يكون، أو من كان، أو ربما من سيكون، إذ كانوا يريدونه أن يكون عضواً فعالاً في مجتمعهم بينما هو هناك.

رؤيته للمأخذ في غرفته ذكّره بأنه يجب أن يتصل بسكرتيرته. فمتابعاته السياسية قد تضاءلت حتى الصفر تقريباً خلال الشهرين والنصف الماضيين. فما كان بإمكانه أن يقوم بما يجب وهو في سريره، وكان عليها أن تلغي كل شيء. فما كان بإمكانه تعريف الناس ببعضهم بعضاً، أو أن يخطط لحملات انتخابية، أو يرعى من يساندهم عن طريق شنه لمعركة انتخابية ناجحة. فلهذه الغاية كان لزاماً عليه أن يكون على إطلاع وعلم بكل التفاصيل وأن يكون في ساحة المعركة. وأدرك من جديد، وهو يجيل الطرف حوله في الغرفة، أنه حتى وإن أمكنه أن يعود إلى معترك الحياة السياسية، فإن هذا الجانب من

حياته يجب أن يبقى معلقاً لسنة أخرى.

كان هناك براد صغير في غرفته مليء بنفس الأشياء التي تجدها في بار صغير في فندق جيد: صودا، ووجبات خفيفة وألواح شوكولا، وكان مسروراً ومندهشاً إذ وجد نصفي زجاجة من المشرب المفضّل. وفيما فتح زجاجة كولا بصوت مفرقع، بعد أن تركه الممرضون، أخذ رشفة منها ونظر إلى ساعته. لقد كان يريد أن يتصل بإيزابيل، ولكنه خشي بالمقابل أن يكون غوردون في المنزل. ولكنه كان يشعر بوحدة قاتلة هذه المرة لدرجة لم يستطع معها إلا أن يتصل. وكان ينوي أن يغلق السماعة إذا ما أجاب غوردون على الهاتف.

رُفعت سماعة الهاتف على الطرف الآخر من الخط، وسمع صوتها، كانت الساعة الحادية عشرة عندها، ولكنها بدت في حالة يقظة تامة. ونفذ صوتها العذب المألوف إلى قلبه كالسهم إذ كان مشتاقاً إليها.

"هل هذا وقت مناسب؟" سألها مباشرة، فضحكت.

"مناسب لماذا يا حبيبي؟ في الواقع إنه مناسب جداً، فقد كنت الآن أتمنى لو أنك كنت هنا. فغوردون في ميونيخ[1] لهذه الليلة. كيف كانت الرحلة؟".

"مؤلمة". قال بصراحة، دون مراوغة. "أنا في سجن". نظر حوله من جديد، ورغم أنه كان يعرف أن الأمور لم تكن سيئة، إذ إنها كانت آخذة في التحسن وبلغت ذروتها الآن، إلا أنه كان مكتئباً جداً على كل حال، "أكره هذا المكان هنا". قال وقد بدا كمثل طفل يشعر بالحنين فيتصل بأهله من مدرسته الداخلية.

"هيا، هوّن عليك. ولتكن لديك روح رياضية عالية. وسوف أعمل لك أشياء رائعة". قالت تشجعه، كما فعلت عندما ذهبت صوفي إلى المدرسة في أول يوم. وأردفت قائلة: "سوف تعتاد على الأمر، وقبل أن تعرف ذلك، فإنك

---

(1) ميونيخ (Munich): هي العاصمة وأكبر مدينة في بافاريا (Bavaria) في جنوب شرقي ألمانيا.

ستنجح فيه. ربما لن يفترض بك إلا البقاء بضعة أشهر وحسب". كانت تحاول أن تشجعه، ولكنه بدا في حالة إحباط كبيرة، وانفطر قلبها عليه. كانت تود لو تستطيع فعل شيء له، ولكن من تلك المسافة البعيدة كان ذلك أمراً صعباً جداً. لقد كان على كل منهما أن يخوض معاركه وحده. ومن نواحٍ كثيرة كانت معركتها أقسى منه.

"وماذا لو بقيت هنا لسنتين؟" سألها وقد بدا من جديد كأنه طفل.

"هذا لن يحدث. وأراهن على ذلك. ما نوع الناس الذين في المركز؟" لقد كان كلاهما يخشى أن يكون المركز يعج بأناس طاعنين في السن يخضعون لعلاج ليشفوا من الإصابات، وبالتالي سيكون لديه عناصر قليلة مشتركة معهم. ولكن من الأشياء القليلة التي رآها، عرف أن معظم المرضى الذين رآهم في طريقه داخلاً إلى المركز بدوا شباناً يافعين، بل حتى أصغر منه سناً. كان كثيرون منهم هناك بنتيجة حوادث تزلج، أو غطسات قاتلة إلى أحواض السباحة، أو حوادث سيارات، أو مآسي جمباز. والناس الذين هناك، كانوا في معظمهم شباناً ستكون لهم حياة مديدة مثمرة في انتظارهم.

"يبدو أن لا بأس فيهم، على ما أظن". وتنهد وهو ينظر خارج النافذة إلى بركة السباحة في الهواء الطلق التي تبلغ الحجم القياسي في الألعاب الأولمبية، وأمكنه أن يرى عدداً من الناس يسبحون وقد انتشرت الكراسي المدولبة في كل مكان. "لا أرغب في أن أكون هنا. أود أن أعود إلى واشنطن وأن أعمل، أو أن أكون معك في باريس. أشعر وكأن الحياة تتجاوزني". ولكن لم يكن أياً من المكانين متاحاً له. وما كان يخشاه أكثر هو ألا يتمكنا من اللقاء معاً من جديد. لقد كان ينبغي عليه أن يجلس لفترات طويلة، وأن يظل واقفاً لساعات عديدة، وأن يسافر وحده بشكل حر، وأن يُعنى بنفسه، وأن يتحلى بالصبر، والقدرة على الحركة، وصفاء الذهن، إذا ما كان سيعود إلى مهنته. وكان يخاف أيضاً أن يواجه بعض الإعاقة أو العرقلة النفسية الآن. مفاهيم الناس وآراؤهم غريبة جداً، وربما يشعرون أنه إذا ما كان في كرسي مدولب ولديه عجز بشكل أو

بآخر، فإنه كان من الصعب أن يتكهّن بمواقف الناس وآرائهم المجحفة. ولأسباب كثيرة إذاً كان يهمه أن يستعيد قدرته على الوقوف على قدميه والسير من جديد.

ما كانت إيزابيل لتأبه لعجزه عن ذلك، ولكنها كانت تريد ذلك كثيراً من أجله. إلا أن حبها له ما كان ليتأثر فيما إذا استطاع أن يسير أم لا. لقد أخبرته ذلك مراراً وتكراراً، ولكنه كان يُشغل بالها. وكان يأبى أن يكون اتكالياً أو معتمداً على أي شخص: سنثيا، أو بناته، أو زملائه، أو أصدقائه، أو بالتأكيد ليس إيزابيل. فإن كان عاجزاً عن أن يحميها،ويُعنى بها، ويقف إلى جوارها كرجل، ويمارس الحب معها، ففي هذه الحالة لا ينوي أن يكون في حياتها. وكان يعرف في قرارة نفسه أن هناك الكثير مما ينتظره نحو شفائه. ورغم أنه لم يقل ذلك حرفياً لإيزابيل، إلا أنها شعرت بأن ثمة مقدار كبير من المخاطرة والمجازفة أمامه. وكل ما كان بإمكانها أن تفعله الآن هو أن تكون إلى جانبه عن طريق الاتصال الهاتفي وأن تصلي من أجله.

"كيف حال تيدي؟" سألها وهو قلق جزع. "وكيف حالك؟".

"أنا بخير. صوفي عادت إلى الجامعة البارحة. وتيدي لا يزال متعباً جداً، وأنا قلقة على قلبه. أحياناً أشعر أن حالته تسوء، ثم يمر عليه يوم طيب فيشعر بتحسن. من الصعب التكهّن بحالته. ولكن روحه المعنوية عالية". وقد كانت كذلك منذ عودتها إلى المنزل، ولكن حدسها الغريزي أنبأها أن ما قاله الطبيب كان صحيحاً وأن تيدي كان أضعف مما كان عليه أي يوم على الإطلاق منذ زمن طويل. لقد خسر معركة هامة جديرة بالاعتبار.

"لقد عادت أوليفيا وجين إلى الجامعة الأسبوع الماضي، ولكنهما أخبرتاني أنهما ستأتيان لزيارتي في نهاية هذا الأسبوع".

"هل تأتي سنثيا أيضاً؟" لقد كانت تشعر بالغيرة نوعاً ما منها، ومع ذلك فما كانت لتعترف له بذلك. وكان يعرف ذلك بحال من الأحوال، وكان هذا بمثابة إطراء له. وفي الواقع كانت سنثيا قد اقترحت أن تأتي مع الفتاتين،

ولكنه فكر أن من الأفضل ألا تأتي. لم يشرح ذلك لإيزابيل لأنه لم يكن قد أخبرها بعد عن موضوع الطلاق. فكان لا يزال يعتقد أن الضغط سيكون أقل عليها إذا ما كانت تعتقد أنهما كانا لا يزالان متزوجين. وهكذا لن تفكر بأنه ينتظرها، أو يبحث عن شخص ما آخر. ولو كانت قد تحررت من غوردون لكان سينتظرها. ولكنه فكر أن هذا سوف لن يؤدي إلا إلى زيادة تعقيد الأمور إذا ما أخبرها عن ذلك. ولذلك حافظ على ما في مخيلتها بأنه وسنثيا لا يزالان متزوجين وأن الأمور على ما يرام.

"أعتقد أن سنثيا خارج البلدة لبضعة أيام". قال لها عرضياً. وكانت إيزابيل تفكر في قرارة نفسها أنها لقسوة قلب من سنثيا أن تحيا حياتها على ذلك المنوال، ولكنها لم تعلق على ذلك لبيل.

"سيمضي غوردون الليلة في ميونيخ، فقد ذهب إلى هناك من أجل مؤتمر يتعلق بالمصرف. وسوف يأتي إلى المنزل في نهاية الأسبوع. أعتقد أن لديه مخططات معينة". وذكرت له بالتفاصيل، ولكنها لم تعد أبداً جزءاً من مخططات غوردون بعد الآن، ولم تكن لديها رغبة حقيقية بذلك. فمنذ الحادث في لندن، وعلاقتها الحميمة مع بيل، صارت تشعر بأنها منفصلة كلياً عنه، وما عادت تتضايق لأن غوردون لم يعد يدعوها إلى أية مناسبة. فقد كان يفترض أنها ترغب في البقاء في المنزل مع ابنها، وكان محقاً في ذلك. وكانت لا تزال في غاية الإرهاق. مضت إلى النوم باكراً تلك الليلة، وجلست مع تيدي طوال النهار. وكانت قد خرجت مع صوفي من أجل الغداء قبل أن تغادر، وهذا فقط كان جديراً بجعلها تشعر بنفسها مستنزفة. كان لا بد من مضي عدة أشهر أخرى، على حد قول الطبيب، حتى ترجع إيزابيل إلى سابق عهدها. والأمر سيستغرق أكثر مع بيل. ولقد عرف ذلك الآن. فقد كانت رحلة الطائرة مصدر عذاب وألم له، ولم يكن قد شعر بمثل هذا الألم منذ أشهر وكان لا يزال يشعر به وهو يتحدث إليها.

"ما الذي ستفعله هذه الليلة؟" سألته إيزابيل بصوت لطيف. لقد كانت

تستطيع أن تعرف من صوته كم كان متعباً وحزيناً، وشعرت بالقلق عليه.

"أعتقد أنني سأنام. ليس هناك خدمة غرف هنا، ولكني لستُ جائعاً". لقد كان يتألم لدرجة لا يستطيع معها أن يأكل، وما كان يريد أن يأخذ مسكنات للألم. لقد انقطع عنها قبل أسابيع، وكان دائماً يخشى أن يدمن عليها. ولم يحدث ذلك، لحسن الحظ، ولكنه ما كان يريد أن يعود لأخذها من جديد.

"ربما عليك أن تقوم بجولة في الجوار". لم تكن لتحب فكرة أن يبقى وحده في غرفته، فقد بدت الفكرة موحشة وتثير الإحساس بالعزلة، وكانت تخشى أن يصاب بالكآبة.

"سأفعل ذلك غداً. إنهم لا يقدمون لنا الكثير من الخيارات. سأبدأ العلاج غداً الساعة السابعة صباحاً، ولن أعود إلى غرفتي حتى الساعة الخامسة". لقد كان نظاماً صارماً، ولكنه اختار المشفى لهذا السبب تماماً. لقد كان يفكر أنه إذا ما بذل جهده أكثر فإنه يحصل على نتائج أسرع. ولكن كل ما أراده الآن، وحتى قبل البدء بذلك هو أن يرحل. "سأتصل بك في الصباح عندما تستيقظ". سيكون ذلك الوقت هو الظهيرة بالنسبة لها، وكان يعرف أن هذا الوقت مناسب جداً. فلو اتصل بها عندما يعود إلى غرفته في نهاية النهار، فإن الساعة ستكون الحادية عشرة ليلاً عندها. وإذا رد غوردون على الهاتف، فإنه سيسبب لها المشاكل.

"يمكنني أن أتصل بك أحياناً"، اقترحت عليه ذلك، ولكنه قال لها أن من الأفضل أن يتصل هو بها، وكان محقاً في ذلك.

"سأتصل بك غداً يا حبيبتي". قال لها في النهاية، وهو متعب جداً ولا يقوى على الكلام أكثر حتى معها. كان ظهره يؤلمه للغاية، وكانت رقبته متيبسة، ومعنوياته كانت في الحضيض، وشعر كأنه في كوكب آخر بعيد عنها وعن الحياة التي عرفها يوماً. لقد عاد أخيراً إلى الولايات المتحدة، ولكن لم يستفد من ذلك بشيء. لقد كان وسط اللامكان على جزيرة صحراوية، كما كان يراها، وكان محكوماً عليه أن يبقى هناك لسنة. ولم تكن هذه الفكرة لتسره.

"أحبك يا حبيبي"، همست له على الهاتف. وبعد أن أغلقا السماعة، استلقت في سريرها تفكر فيه لفترة طويلة. وكانت تتمنى لو تعانقه وتضمه وتريحه، ولكن وعلى هذا البعد جلّ ما كانت تستطيع أن تفعله هو أن تحبه وتوحي له بالأفكار الجميلة.

استيقظ بيل الساعة السادسة صباح اليوم التالي. لم يكن قد غادر سريره بعد أن تحدث إليها. تقلب في سريره ونام بثيابه، واستيقظ بعد أن رن جرس المنبه. كان قد سافر جواً وتعب من جراء مناطق التوقيت المختلفة، وبالكاد أمكنه أن يتحرك. رنّ الجرس ينادي الوصيف كي يساعده للجلوس في كرسيه من جديد، واتخذ طريقه ليأخذ دوشاً. بعد نصف ساعة شعر بتحسن، واتصل بإيزابيل قبل أن يغادر الغرفة.

"كيف تشعر يا حبيبي؟" سألته باهتمام. وبدت في حال أفضل وروح معنوية أعلى من الليلة السابقة.

"أفضل بكثير من ليلة أمس. لقد كنت محطماً".

"أعلم ذلك". وكانت تبتسم. فقد كان تيدي قد استيقظ وبمعنويات جيدة، وكان ذلك يوماً جميلاً من أيام أيلول (سبتمبر). وكان الوقت ظهراً عندها.

"أنا آسف لأني بكيت وشكوت لك ليلة البارحة. فقد كنت أشعر وكأني طفل في مدرسة داخلية". فابتسمت إذ قال ذلك، فقد بدا لها هكذا حقاً.

"أعلم. لقد كنت أود لو أطير وآتي بك إلى المنزل". قالت بتعاطف.

"هذا ما تفعله الأمهات. أما الآباء فيخبرون الولد أن يتكيف. وهذا فرق جوهري بين الجنسين. لقد كانت البنتان تشعران دائماً بالحنين عندما كانتا تذهبان إلى المخيم. كانت سيندي تريدنا دائماً أن نقلهما باكراً، بينما كنت أعتقد أن عليهما أن يتحملا المشقات حتى النهاية".

"ومن كان يغلب؟" بدت إيزابيل مرحة. لقد كان هذا جانباً لطيفاً من سنتيا لم تكن قد سمعته يتحدث عنه من قبل، وصارت تميل إليها أكثر من ذي قبل

لأجل ذلك. فقد كانت لتقول نفس الشيء. فهي لم تدع أحداً من أولادها يبتعد عنها إلى أن ذهبت صوفي إلى الجامعة وشعرت إيزابيل أن هذا قبل الأوان. لقد كانت تريدها أن تبقى في باريس وأن تدرس في جامعة السوربون بدلاً من الذهاب إلى غرينوبل.

"هي التي غلبت في الواقع. لقد كنت بعيداً دائماً وما كنت أستطيع أن أفرض قوانيني. وفي الوقت الذي سأعود فيه ستكونان في المنزل".

"هذا جيد من أجلك".

"حسناً. سأضطر لأن أستميحك العذر الآن، لأذهب وأرى كيف سيتفننون في تعذيبي. فأنا متأكد أنهم قد استعدوا لذلك هنا". ولكنه لم يكن مستعداً للنظام المكثف الذي كانوا قد وضعوه له.

فبعد المعالجة المتواضعة التي أخضعوها له في لندن، كان العلاج الوشيك يشبه إلى حد بعيد الانتساب إلى المارينز. لقد نفّذ التمارين البدنية بأفضل ما أمكنه من كرسيه. لقد جعلوه يرفع الأثقال بغية تقوية نصف جسده العلوي، واستخدموا أيضاً تمارين باستخدام الآلات. وكان هناك علاج خاصّ متعلق بعنقه، وتمرينات طويلة في حوض السباحة، وتدريبات خاصة لرجليه. وكان قد أعطي فترة نصف ساعة من أجل الغداء، وبالكاد كان هذا الوقت يكفي لكي يذهب إلى الكافتريا أو يتحدث إلى أي كان. وفي الساعة الخامسة عاد إلى غرفته وكان متعباً جداً حتى إنه بالكاد استطاع أن يتحرك. بل حتى لم يستطع أن ينتقل من كرسيه إلى السرير، واضطر ليقرع الجرس لينادي الوصيف، الذي ابتسم عندما سمع بيل يتأوه.

"لقد أجريتَ تمارين جيدة اليوم يا سيد روبنسون، أليس كذلك؟" كان هذا شاباً أمريكياً أفريقياً كان قد تدرّب في سلاح الطيران، وتعرض للإصابة قبل خمس سنوات. كان يدرس كي يصبح معالجاً فيزيائياً. كان بيل قد تشجع عندما رأى أنه لم تكن تبدو عليه أية علائم من إصاباته السابقة وأنه كان في مظهر لا يُصدّق، وكان في السادسة والعشرين فقط من عمره.

"هل تمزح؟" نظر إليه بيل ببؤس. "أعتقد أنهم حاولوا قتلي اليوم".

"سوف لن تشعر بالتعب هكذا لمدة أسبوعين من الآن. فسوف تكون هذه التمارين خفيفة وسهلة بالنسبة لك كما لو كنت تأكل قطعة من الكيك". لقد كان من الصعب على بيل أن يتصور ذلك. وقد أجرى الشاب مساجاً لبيل. وبعد أن غادر، قرر بيل أن يتجاوز طعام العشاء وأن يبقى في السرير. كان يغفو وإذا بالباب يُقرع فاستيقظ من جديد، وسأل وهو يشعر بالنعاس من يكون الطارق. وعندما فتح عينيه وجد شاباً في كرسي مدولب قد صار داخل غرفته.

"مرحباً. أنا جو أندروز. أنا في الغرفة المجاورة لك. هل لي أن أدعوك إلى مباراة كرة سلة الساعة الثامنة؟" تأوّه بيل وهو ينظر إليه ثم أطلق ضحكة. كان أندروز يجلس في كرسيه دونما ارتباك، وبدا أنه يستخدم إحدى ذراعيه فقط. لقد كان فتى وسيماً وبدا في بداية العشرينات من العمر. لقد تعرض لحادث سيارة أودى بحياة أربعة آخرين قبل ستة أشهر.

"مباراة كرة سلة؟ هل تمزح؟ يمكنك استخدامي ككرة. فلا أعتقد أني سأستطيع أن أجلس مستوياً مرة أخرى، فكيف بأن أتحرك وحدي!".

"الأمر يكون قاسياً في البداية". قال لـــه جو أندروز وهو يبتسم. "ولكنه يصبح أسهل بعد حين. هذا المكان رائع هنا. فقبل ستة أشهر كنتُ مشدوداً إلى لوح مثبت إلى جسدي، وما كنت أستطيع أن أحرك إلا عينيّ آنذاك. وكنت سأعتبر نفسي في غاية السعادة إذا ما استطعت أن أحك أنفي". لقد كان من المؤلم أن يفكر بتلك الطريقة، ومع آهة أخرى نهض بيل.

"إن الشباب حليف لك"، قال بيل موضحاً لــه، ولكنه كان دائماً ممشوق القوام إلى أن اصطدم به الباص. "أما أنا فرجل عجوز".

"ليس هـــنا شيء من هذا القبيل. إن رئيس فريق كرة السلة يبلغ الثانية والثمانيـــن مـــن العمر، وهو يعاني من سكتة دماغية. كان يلعب لصالح فريق اليانكيز لستين سنة خلت".

"أنا لستُ في عصبتي. وإلا لكنت سُجّلتُ في المارينز".

"ســتكون أسهل، ولكن ليس هذا بطريف. وهناك بعض النساء الجميلات المـــنظر حقـــاً". لقد كان ذلك كمثل الذهاب إلى الجامعة بشكل يثير الضحك، وشعر بيل على الفور بمحبة تجاه هذا الفتى. لقد كانت لـــه عينان ضاحكتان، وابتسامة جميلة وشعر أحمر لامع.

"يبدو أنك أمضيتَ وقتك مشغولاً هنا". لم يكن جو كذلك، ولكن كان سيعيد النظر في الأمور. كانت الفتاة التي خطبها قد ماتت خلال حادث السيارة، ولكنه لم يذكر ذلك لبيل.

"أنا أذهب إلى نيويورك في نهاية كل أسبوع. ولربما تود أن تأتي معي يوماً ما. تستغرق الرحلة عشرين دقيقة بالقطار".

"إنها لفكرة. ولكني لا أظن الآن أني أستطيع أن أتحرك".

"لماذا لا تأتي وتتفرج؟ سأعرفك على بعض الشباب".

لقد كان مصمماً أن يأتي ببيل إلى مركز الحياة حولهم. كان جو هو المشرف على المسنين، وكان قد تطوع للقيام بهذا العبء لكي يقوم بدوره معهم كما يفعل مع بيل الآن. لقد كان من المهم جعل النزلاء يشاركون في عدة أشياء إضافة إلى علاجهم الشخصي. وهذا ما أنقذ حياة جو. فعندما جاء إلى مركز التأهيل كان يفكر بالانتحار بعد أن تعرض للحادث. والآن مَرّ بأسوأ مرحلة في حياته التي كان ينوي فراقها ثم ارتد إليها.

"وماذا عن النساء؟" قال بيل ممازحاً وملاطفاً.

"هل أنت متزوج؟" سأله جو وهو يدفع بكرسيه خارجاً. لقد كان حلو المعشر مع الناس، وأمكن لبيل أن يرى فيه فتى ظريفاً حقاً. ولقد حزن لرؤيته جالساً في كرسي مدولب.

"لا. فسوف أتطلق".

"هذا سيء جداً. هناك فتاتان في الفريق إحداهما في الثامنة عشرة من العمر".

"أفضل أن أكون خارج نطاق سجنها إذا استطعت. وكم يبلغ عمر الأخرى؟".

"ثلاث وستون". قال جو وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

"سوف آخذ هذه. إنها أقرب إلى عمري".

"كم عمرك؟".

"اثنان وخمسون وسأغدو في التسعين اليوم".

"هل تناولت طعام العشاء أم ليس بعد؟".

"أعتقد أني فوّت العشاء الليلة". وكان قد فعل ذلك الليلة السابقة أيضاً. ففي الواقع كان من المزعج جداً بالنسبة له أن يخرج من غرفته مرة أخرى.

"تلك فكرة سيئة. سوف أمر عليك الساعة السادسة والنصف، ويمكنك أن تقرر بعدها بخصوص المباراة". لم يسأله رأيه، وقبل أن يستطيع بيل الاعتراض كان جو قد غادر غرفته.

لقد كان ينجز عمله بشكل جيد، ورغم نفسه، فقد كان بيل جالساً في كرسيه المدولب الساعة السادسة والربع، وشعر بتحسن أكثر مما كان عليه قبل ساعة. أخذ دوشاً وحلق ذقنه وسرّح شعره. كان يرتدي قميصاً قصير الكمين لا قبة له وبنطال جينز، وبدا هو وجو كطفلين وهما يدفعان معاً عجلات كرسيهما نحو قاعة الطعام. بدا جو وكأنه يعرف جميع الذين يلتقيهم في طريقه، وعرّف بيل على الجميع بقدر ما استطاع. علم بيل إبان ذلك أن جو كان في الثانية والعشرين من العمر ومن مينيابوليس. لقد تخرّج من الجامعة، وكان يريد أن يذهب إلى كلية الحقوق في العام المقبل. كان له شقيقان وأخ توأم مطابق له تماماً كان معه أثناء الحادث. وأودى الحادث بحياة شقيقه التوأم وخطيبته، ومات كلا الشخصان اللذان كانا في السيارة الأخرى. كان شقيق جو هو الذي يقود السيارة عندما اصطدمت بهما السيارة الأخرى في المقدمة خلال ليلة ثلجية. كان العديد من الناس في المشفى لديهم قصص

قاسية، وفتيان كانوا يمرحون ويلهون مثلهم مثل معظم الفتيان، وامرأة أصيبت بطلق ناري في العمود الفقري خلال عملية سطو مسلح على متجر عندما توقفت في وسط النهار لتشتري كولا لأولادها، وأناس كانوا قد تعرضوا لإصابات في حوادث من كل الأنواع. والكثير من هؤلاء كانوا يخضعون، ليس فقط لعلاج فيزيائي بل أيضاً لمساعدة نفسية، مثل جو والمرأة التي أصيبت بطلق ناري في عمودها الفقري. عندما كان هؤلاء يغادرون المشفى، كانت لديهم الفكرة بأنهم قادرون على أن يحيوا حياة كاملة مثمرة وطبيعية بشكل مذهل.

كان هناك حوالى مئتي نزيل في المركز، وثلاثمئة آخرين أو أكثر يأتون إلى المركز كمرضى غير مقيمين كل يوم. ولكن أولئك النزلاء الذين عاشوا هناك كانوا يشكلون نواة بشرية يهتم كل منهم بالآخر فيصبحون عائلة واحدة خلال فترات مكوثهم الطويلة الأمد. الضجة التي في الكافتريا ذكّرت بيل، ليس بالجامعة بقدر ما ذكّرته بحفلة كوكتيل يرقص الناس فيها جميعهم على أنغام موسيقى السوينغ. كان الجميع يضحكون، ويتحدثون، ويضعون الخطط، وبعضهم يتفاخر بانتصاراته عبر الأيام، والبعض الآخر يتذمرون من أنهم كانوا يعملون بجد كبير. ولكن بيل شعر أنه لم يشاهد مثل كل هذا العدد من الوجوه المبتسمة منذ أمد بعيد. ولم يكن أبداً يتوقع ذلك عندما وصل إلى المشفى.

"هناك دورة تنس الأسبوع المقبل، إذا كنت تحب أن تلعب".

وزوده جو بمعلومات عنه بينما كان يتحدث إلى ستة أشخاص بنفس الوقت، وكان أربعة منهم على الأقل من الفتيات. ولكنه لم يكن غريباً هناك، فقد كان الكثير من الشبان الجميلي الطلعة في كراسيهم المدولبة، واعتقد بيل أن نصف الناس الذين رآهم هناك، كانوا في العشرينات من العمر وذكوراً. أما النصف الآخر فكان يشمل أناساً من أعمار مختلفة، وكان أقل من النصف منهم نساء أو فتيات. وكان ثلاثة أرباع السكان ذكوراً. وبدا أنهم تعرضوا لمشاكل،

أو صـــادفهم حــظ عاثر أو كانوا يقودون سياراتهم بسرعة هائلة، أو خاضوا مخاطـــر ومجازفات كبيرة، أو كانوا يمارسون ألعاباً خطرة. وكان هناك أيضاً عــدد مــن الرجال والنساء في مثل عمر بيل. وإلى طاولتهم كانت هناك فتاة جميلة ذات وجه فاتن جذاب وكانت تلفظ الكلمات بشكل متداخل وغير واضح. كانت هذه فتاة موديل وقد سقطت على درجات سلم رخامية خلال التقاط صور لهـــا وتعرضـــت لإصابة شديدة في رأسها. وقد ظلت في حالة غيبوبة ثمانية أشهر، وإذ تحدث إليها بيل أدرك كم كانت هي وإيزابيل محظوظتين. كان اسم الفـــتاة هيلينـــا، وكانت صديقتها المفضلة في مركز التأهيل راقصة باليه شابة كانت قد تعرضت لحادث سيارة، وكانت قد صممت على أن ترقص من جديد. كان المركز يحفل بأناس يواجهون تحديات كبيرة لافتة للانتباه، وكانوا يبذلون جهوداً تثير الإعجاب للتغلب على الإعاقات التي تعرضوا لها. وكان الإعجاب يغمر بيل تجاههم.

فـــي الوقت الذي انتهى فيه تناول طعام العشاء، كان بيل يشعر بالتحسن مـــن جديـــد، ودعاه جو وهيلينا للمشاركة في المباراة، ولكنه لم يكن يريد أن يلعب. كان يريد فقط أن يتفرج.

"إنهم رائعون حقاً"، قالت هيلينا مبتسمة معلقة بحديثها غير المفهوم بشكل واضـــح. كانت في كرسي مدولب أيضاً، وسبب ذلك فقط هو أنها كانت تعاني مـــن دوخـــة أو دوار من جراء إصابة رأسية لديها وكانت تسقط أحياناً على الأرض دون ســـابق إنـــذار. فكانت تشعر بالأمان أكثر في الكرسي. كان بيل مذهلاً بجمالها، ورأى أنها كانت تبدو مثل إيزابيل. لقد علم من جو أنها كانت تعمل في نيويورك، وباريس، وميلانو وكانت فتاة الغلاف في مجلة فوغ ومجلة هاربـــرز بـــازار قبل الحادث. وبحسب جو، فقد كانت ناجحة في عملها. "في المرة القادمة عليك أن تلعب". قالت هيلينا تشجع بيل.

"ولِـــمَ لا تلعبين أنت؟" قال ممازحاً إياها، فقد كانت أطول من العديد من الـــرجال، وأمكنه أن يعرف ذلك من خلال ساقيها الطويلتين. وقد كانت ترتدي

بـــنطالاً قصيراً وصندلاً وهي تجلس في كرسيها إلى جواره، وتعتني بأصابع قدمهـــا بشكل جميل، وكان هناك طلاء أظافر أحمر اللون براق على أظافرها. وكان العديد من الشبان قد أعجبوا بها، ولكن صديقها كان المصور الذي كانت تعمـــل لـــــه يوم التصوير حين وقعت، وكان يحبها بإخلاص منقطع النظير. وكانـــا ســـيتزوجان عندما تخرج من المشفى، وكانت تضع في إصبعها خاتم خطبة كانت سنثيا لتصفه بأنه بحجم بيضة.

جاؤوا يتفرجون على المباراة جنباً إلى جنب، وكان هناك الكثير من الصراخ والصياح وهتافات التشجيع للفريقين. وكان الجميع يبدون مسرورين مستمتعين أياً كان الفريق الذي يسجل النقاط. إن حقيقة كونهم يلعبون بحد ذاتها كانت تشكل انتصاراً لهم جميعاً. وكان بيل مذهولاً من الصالة الرياضية المثيرة للدهشة.

"هل أنت متزوج؟" سألته هيلينا عرضياً، لقد كان الجميع يعرفون أنها كانت مخطوبة، ومفتونة بخطيبها. لقد سألت بيل ذلك بدافع الفضول. لقد كان رجلاً وسيماً، ولو لم تكن مخطوبة لكانت أعجبت به، ولكنها كانت سعيدة الآن مع خطيبها.

"مطلّق. تقريباً. خلال بضعة أشهر".

"يا للأسف". قالت متعاطفة. "ستكون محبوباً وذا شعبية هنا". وابتسمت ابتسامة عريضة. ولكن بيل كان يعتقد انه لم يرَ مثل هذا الكم الهائل من الرجال الجميلي المحيّا في مكان واحد، وكان معظمهم في نصف عمره. لم يكن هذا الموضوع ليهمه، كما وأنه لم يكن مستعداً له. فقد كان يحب إيزابيل. "هل لديك صديقة؟" كان على وشك أن يقول لا، ولكنه بعدئذ قرر أن يكون صريحاً معها فقال:

"نعم".

"هل ستتزوجان؟" دخلت في لب الموضوع بشكل مباشر.

"لا". وعندها ألقى بحذره وحيطته في مهب الريح. لم يكن يحتاج لأن يكون لديه أسرار هنا. "إنها متزوجة من شخص آخر، وسوف تبقى هكذا. هذا هو الحال الآن".

"ما معنى ذلك؟" نظرت إليه بإمعان، وفاتها أن ترى إحدى النقاط الرئيسية في اللعبة. كانت الضجة حولهما في الصالة تصم الآذان، ولكنها كانت مهتمة أكثر بما قاله بيل.

"يعني أنها ليست في حاجة إلى مشاكلي تضيفها الآن إلى مشاكلها الخاصة. فلديها طفل مريض. وليست بحاجة إلى زوج في كرسي مدولب". لقد بدا الأمر واضحاً بالنسبة له.

"لم لا؟ ما الفرق الذي يشكله ذلك؟ يجدر بك أن تزيل هذه الفكرة من رأسك. هل تفكر هي على هذا النحو؟".

"لا، على الأرجح. ولكن هذا ما أشعر أنا به. فسوف لن أكون عبئاً عليها".

"هذا لطف منك. وماذا عنهم؟" وأشارت إلى الشبان الذين يلعبون في المباراة، وهم يتدافعون نحو بعضهم بعضاً، ويدفعون عجلات كراسيهم حول الملعب بأقصى سرعة وابتسامة عريضة على شفاههم والعرق يتصبب من وجوههم. لقد كانوا يمضون وقتاً رائعاً. "هل يبدون عبئاً في نظرك؟".

"أنا لست متزوجاً منها. ولكن ربما أفكر هكذا لو كنت كذلك. انظري يا هيلينا، أنا لا أستطيع أن أرقص، ولا أستطيع أن أقف على قدمي ولا أن أسير في الشارع، بل حتى لا أعرف إذا كنت سأعمل بعد الآن. ولا أستطيع أن أفرض ذلك على أي شخص آخر". ولم يذكر لها عن محاولته ممارسة الحب معها وفشله في ذلك.

"ماذا كنت قبلاً؟ متزلج على الجليد؟" سألته وقد رفعت حاجبها نحوه. لقد كانت فتاة لامعة، وقد أحب عشرتها.

"أنا أعمل في المجال السياسي".

"ألا تستطيع أن تقوم بهذا العمل وأنت جالس؟ يا للغرابة".

"أنت تعلمين ما أقصده".

"نعم. لقد اعتدت أن اشعر كذلك أيضاً، ثم وجدت أني كنت حمقاء. ستضحك إذا قلت لك. أحياناً أنسى الأشياء، وأسقط بينما أنا أتحدث إلى شخص ما. هذا محرج جداً. ولا أعرف إذا كنت سأستطيع أن أعمل أشياء أخرى. فأنا لا أزال أبدو مقبولة تقريباً". قالت له بتواضع. فاتسعت عيناه اندهاشاً، وقد أصبحا صديقين الآن. كانت الصداقات تنشأ سريعاً هناك، فقد كان المركز مثل سفينة، والرابط الذي ينشأ بين النزلاء يجعلهم يقيمون العلاقات مع بعضهم بعضاً بشكل سريع. "لا زلت أتمتع بالذكاء، حتى ولو بدوتُ حمقاء. وإذا كان هذا لا يكفي لشخص ما، فليذهب إلى الجحيم. خطيبي لا يأبه لكل ذلك، وإلا فلن أريده عندئذ. لربما ينبغي عليك أن تعطي السيدة الفرصة لتتخذ قرارها بنفسها".

"إن الأمر معقد أكثر من ذلك".

"وهل من شيء ليس فيه تعقيد؟" قالت هيلينا بلا اكتراث، وقد عاودت متابعة المباراة لدقيقة، وبعدئذ عادت بنظرها على بيل وأردفت قائلة: تأكد ألا تتخذ قرارك لأسباب غير صحيحة. فإني أراهن على أنها إذا كانت تستحق حبك لها، وعلى الأرجح هي كذلك، فإنها لن تبالي إذا ما كنت قادراً على المشي أم لا". لقد كان يعلم أن ما كانت تقوله كان صحيحاً. ولكن بالنسبة لإيزابيل كانت مشكلة تيدي لا تزال قائمة. وأما بالنسبة لبيل، فأن يستمر في رؤيتها أو لا يعود على قدرته على المشي أم لا. لقد كان هذا شرطاً فرضه على نفسه، وكانت إيزابيل تجهل ذلك.

"وأنا أقبل رهانك يا هيلينا". كان يرد لها المجاملة. ولكنه قد سمع كل ما قالته، وتأثر بعمق، ليس فقط بشجاعتها، بل أيضاً بصراحتها معه. وكانا في مزاج طيب.

جلسا معاً كصديقين قديمين حميمين بقية المباراة.

ربح فريق جو المباراة عندما انضم إليهم في النهاية من جديد. لقد كان فتى سعيداً ومبللاً بالعرق وبهي الطلعة، لاحظ بيل ذلك من جديد، بينما كان هو وجو وهيلينا عائدين إلى الكافتريا ليشربوا شيئاً بعد المباراة، وقد رافقهم معظم أعضاء الفريقين ومشجعيهم أيضاً. لقد كانت أمسية طريفة جميلة، وعندما تركتهما هيلينا في النهاية لكي تذهب إلى غرفتها، ابتسم جو إلى بيل وقال:

"إذاً هل ستفسخ خطوبتها؟" سأله جو بابتسامة عريضة. "فلقد حاولنا جميعاً معها".

"أعمل على هذا الأمر، ولكن ليس بعد". لقد كان كلاهما يعلم، أنه كان يمزح وحسب. لقد كانت متيمة بعشق خطيبها، وقال جو إنه شاب رائع. لقد كانا ينويان الزواج في الربيع، وكانت هيلينا مصممة على أن تسير في ممشى الكنيسة مستندة إلى ساقيها. ومن خلال ما رآه تلك الليلة، وروحها التي لا تقهر والتي شعت منها مثل المنارة، كان بيل متأكداً من أنها من الممكن أن تنجح في ذلك.

"إن لها أختاً تأتي لزيارتها". علّق جو قائلاً لبيل وهما يدفعان عجلات كرسيهما عائدين إلى مهجعهما. "إنها تبدو مثل ضفدعة". فقهقه بيل ضاحكاً. "لا بد أن لهما أماً مختلفة أو شيء من هذا القبيل. لقد طبّقتها هيلينا لي، وقد كنت فعلاً مندهشاً. ولكنها ظريفة جداً". تبادل الرجلان الغمزات وضحك بيل من جديد.

"الأمور تنجح بهذه الطريقة أحياناً".

"وإذاً هل ستلعب معنا في المرة المقبلة؟" سأله جو وهما يعبران الردهة باتجاه غرفهما.

"أعتقد أني أفضل أن أتفرج". كان قد استمتع بالحوار مع هيلينا، وكان يفكر بما قالته، وهو لا يزال يخالفها الرأي. فلن يرضى أن يكون حملاً ثقيلاً أو رجلاً عاجزاً في حياة أي شخص كان، وبالتأكيد ليس إيزابيل، حتى ولو التقيا مرتين في السنة وحسب. إنها ورطة هي ليست بحاجة إليها. يكفيها ما

لديها من مشاكل في حياتها.

"هل تريد أن تأتي إلى نيويورك غداً؟ بعض الشباب الآخرين قادمون معي. سوف نذهب إلى العشاء وعرض مسرحي".

"كنت لأود ذلك"، قال بيل بلطف، "ولكنّ بنتيّ آتيتان لرؤيتي. فسوف تجيئان من المدرسة". كانت أوليفيا آتية من جورجتاون، وجين من جامعة نيويورك.

"كم تبلغ أعمارهما؟" سأل جو باهتمام. لقد كان مهتماً كثيراً بالفتيات رغم أنه لم يخرج مع أي فتاة منذ وفاة خطيبته.

"تسعة عشرة وإحدى وعشرين. أود أن أعرّفك عليهما إذا كنت هنا عندما تصلان".

"سوف ان نذهب إلى المدينة حتى الساعة السادسة". قال جو وقد وصلا إلى غرفة بيل. "لدي اجتماع لفريق السباحة غداً، ولكن سأكون هنا". لقد كان رئيس فريق السباحة في كلّيته.

"سأبحث عنك". وعده بيل، ثم ذهبا إلى غرفهما. واستاء بيل لأنه لم يكن لديه وقت ليتصل بإيزابيل تلك الليلة، ولكن كان الوقت قد تأخر حتى يتصل بها الآن. كانت الساعة آنذاك الخامسة صباحاً في توقيتها. وقرر عندئذ أن ينتظر ساعة ويتصل بها عندما تستيقظ.

استلقى في السرير وراح يقرأ لساعة محاولاً ألا يغفو. وبعدئذ، وفي منتصف الليل، اتصل بها. وسارعت إلى الرد على الهاتف، وبدت مرتاحة لسماع صوته.

سألته: "هل أنت على ما يرام؟ لقد كنت قلقةً عليك".

"أنا بخير. لقد ذهبت لمتابعة مباراة كرة سلة. إنهم يتعبونني هنا. ولكنه مكان ظريف". وأخبرها عن الناس الذين التقى بهم والقصص التي سمعها منهم، والعلاج الذي خضع له طوال النهار.

"يا إلهي! لا أعتقد أني أستطيع القيام بأي من هذا". قالت لـــه بتأثر.

"ولا أنـــا علـــى يقيـــن من ذلك. وليس لدي إلا يوم عطلة وحيد. البنتان ســتأتيان غداً، وسيسعدني أن أراهما". لم يكن قد رآهما منذ شهرين، واشتاق لهمـــا كلـــيهما. وقد تعجب من أنه اشتاق لسنثيا أيضاً. ولكنه لم يخبر إيزابيل بذلك. فبعد ثلاثين سنة صار وجود سنثيا عادةً في حياته ومن الصعب الإقلاع عـــنها، حتى ولو كان يرى أن هذه العادة ما عادت تمت لحياته بصلة. "كيف حالك يا حبيبتي؟".

"بخـــير. اســـتيقظتُ لتوي. لا يزال تيدي نائماً. وراحا يدردشان لبعض الوقـــت، ثم أغلقت السماعة عندما سمعت الطفل يتحرك، وكانت لا تزال تفكر ببيل عندما ذهبت لتطمئن على تيدي. أعطته أدوية الصباح، وعاد مباشرة إلى الـــنوم. فذهبـــت إلى غرفتها وارتدت ثيابها، ووقفت تنظر إلى الحديقة مطولاً، وهي تفكر ببيل. لقد حزنت إذ أدركت أنه سيمضي وقتٌ طويل حتى يلتقيا من جديـــد، ولكـــن السبب معقول واضطراري. وكانت تعلم أن هذا قد يطول لمدة سنة.

وفـــي ســـريره تلك الليلة، كان بيل يبتسم في قرارة نفسه وهو يفكر بها واستسـلم للـــنعاس. واســـترجع في ذهنه كلمات هيلينا بينما كان يغفو، وبدت معقولة لـــه، ومع ذلك فقد ظل يفكر أنها ليست صحيحة بالنسبة إلى حالته. ما عـــاد ينتمي إلى حياة إيزابيل أو حياة أي شخص كان، طالما أنه لا يستطيع أن يمشي. لقد كان يؤمن بذلك إيماناً مطلقاً رغم أن اعتقاده كان يتناقض مع كل ما يـــراه هنا. ولكن هيلينا جميلة وفتية، وامرأة... فما كانت لتستطيع أن تفهم ما كـــان يشعر به... لقد كان الأمر مختلفاً بالنسبة له... فهو رجل. وكان يعرف أنـــه إذا لـــم يسر على قدميه ليعود إلى حياة إيزابيل، فإنه لن يكون في حياتها على الإطلاق.

الفصل الرابع عشر

عـــندما جاءت أوليفيا وجين لزيارة بيل في اليوم التالي، كانتا في شوق لرؤيـــته، ورأت كلـــتاهما أنه كان يبدو على ما يرام. فأخذهما في جولة حول المشفى والأراضي المحيطة بها، وعرّفهما على الناس الذين التقى بهم، ثم وجد ركناً هادئاً ليجلسوا فيه في الهواء الطلق في جو سبتمبر (أيلول) الدافئ. كانت فترة بعد الظهيرة من يوم مشمس، وكانت الفتاتان تبدوان سعيدتين وبخير. لقد كـــان لديهما الكثير ليقولانه لـــه، وتحدثتا كثيراً عن والدتهما، وعن اشتياقهما لـــه، ورغـــبوا لـــو أنه يأتي إلى المنزل. لقد كانتا لا تزالان مستاءتين من موضوع الطلاق، ولكن الجامعة كانت تشغلهما كثيراً.

مضـــوا إلى الكافتريا طلباً للهمبرغر في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك الـــيوم، قـــبل ذهـــابهم، وعندما وصلوا إلى هناك التقوا بجو صدفةً. وقام بيل بـــتعريف الأحـــداث الثلاثة ببعضهم البعض، وسرعان ما ساد جو من الوئام والألفة بينهم. وكانت أوليفيا تعرف شخصاً كان زميلاً لها في الدراسة في مينيا بولـــيس[1]. لقد كان عالمَ طلاب الجامعة صغيراً. وسألها عن رأيها في جامعة نيويورك، فقد كان ينوي الالتحاق بكلية الحقوق فيها. فأخبرته أنها كانت تحب هـــذه الجامعـــة، واستمر الحوار يدور بينهم في جو من المودة والحيوية دون مشاركة كبيرة من بيل. وانضم جو إليهم في تناول الهمبرغر، وتحدثوا عن كل المواضيع التي كانت تهمهم. وأما حقيقة أن جو كان يستخدم عربة مُدَولَبة فقد بـــدا لا يشـــكل عائقـــاً أبداً لهم جميعاً. لم يلاحظ ولم يهتم أحد بذلك، وهذا ما لاحظه بيل عندما غادروا الكافتريا وساروا عائدين إلى مهجعه، فسارت أوليفيا

(1) مينيا بوليس (Minneapolis): أكبر مدينة في مينيسوتا وهي ولاية في جنوب وسط الولايات المتحدة الأمريكية.

جنـباً إلى جنب مع والدها، في حين كانت جين تتمشى إلى جوار جو. لقد بدا مـأخوذاً بهـا للغايـة، وسألها إذا كانت لتحب أن تذهب إلى السينما معه ومع بعض أصدقائه تلك الليلة في نيويورك. ولكنها قالت أنه كانت لديها مخططات أخرى، وبدت آسفة لأنها لم تستطع الذهاب معه. فطلبت منه أن يتصل بها مرة أخرى، أو ستتصل هي به. لقد بدا وكأن هناك أشياء كثيرة مشتركة بينهما، وقد ظـل ملازماً لهما إلى أن انصرفتا تقريباً، وعندها غادرهم بتحفظ تاركاً إياهم لاجـتماعهم العائلي. لقد كان حساساً ومهذباً وذكياً، وعلّق بيل بعد ذهابه بأنه أحبه كثيراً.

– "إنه ظريف". اكتفت جين بهذا القدر من القول، وضحكت أوليفيا مازحةً.

_لا بأس، ظريف؟! إنه جذاب الشخصية". لقد كان فتىً حسن المظهر، وكان بيل يجد من الطرافة أن يرى كيف تقارب أولئك الأحداث مع بعضهم بعضاً وهم في مثل هذا السن. لقد ذكّروه بجراء تلهو.

كانـت الفتاتان تزمعان أن تمضيا تلك الليلة مع والدتهما. وعاد بيل إلى غرفـته عندما غادرتا. وعندما وصل إلى هناك، كان جو ينتظره وقد بدا عليه الاهتمام والقلق.

فسأل بعصبية: "أود أن أطرح عليك سؤالاً".

أجاب بيل ظناً منه أن الحديث يدور حول لعبة كرة سلة أخرى: "حسناً يا جو، ما الأمر؟".

– "أردتُ أن أعرف... فعلاً... لقد كنت أفكر..." يبدو أن الأمر كان جدياً، فالفتى الجذاب الشخصية صار فجأة معقود اللسان، محمّر الوجه حتى جذور شعره الأحمر.

فمازحه بيل: "عسى خيراً. تبدو وكأنك ستستعير سيارتي. وفي الواقع ليس لدي سيارة، وما من أحد منا بمقدوره قيادة سيارة".

ضحك جو أندروز وقال: "كنت أتساءل إذا كنت تمانع إن..." وأخذ نفساً

عمـيقاً وغاص في كرسيه واستأنف يقول: "... إذا كنت تمانع إذا ما اتصلت بجيـن يومـاً مـا؟ سوف لن أفعل ذلك إذا كنت تعارض، وهي قد لا تريد أن تراني بعد... أقصد... كما تعلم... إن... حسناً...".

"أعتقد أنها فكرة عظيمة". لقد كان لديها صديق عشيق كانوا جميعاً يكرهونه، واستمرت علاقتهما سنتين، ولسرور بيل الشديد فإن هذه العلاقة قد انتهت العام الماضي، ولم تهتم بأحد آخر منذ ذلك الوقت. "بحسب معلوماتي، فإنها غير مرتبطة، ولم يطلب أحد ودها، ولكني لست مهتماً بالإطلاع على التفاصيل. يجب أن تتحقق بنفسك عن ذلك منها".

"لقد قالت لي أنه يمكنني أن أتصل بها، وأعطتني رقم هاتف والدتها ورقم هاتفها في المدرسة. ولكني أردتُ أن أسألك أنت أولاً". لقد كان حسناً منه أن يفعل ذلك، ولقد تأثر بيل بذلك.

– "أود أن أقول أنها بارقة أمل". وابتسم في وجه الفتى. "أهي إذاً أفضل من شقيقة هيلينا؟".

"هل تمزح؟ لا يمكنك أبداً أن تقارن بينهما. إن جين رائعة. أقصد... إن شقيقة هيلينا كانت فتاة ظريفة ولكن...".

"أعرف. لقد كانت تبدو مثل الضفدع".

"لا تقل لهيلينا أني قلت ذلك، لقد كانت في الحقيقة فتاة لطيفة وذكية للغاية". لقد بدا مذعوراً من فكرة أن يخبر بيل هيلينا عما قاله.

– "أعدك ألا أفعل ذلك. إنه إطراء لي أن تعجبك جين. إني لفخور بهما كلتيهما". وكان جو يعرف السبب. لقد كان يحب أوليفيا أيضاً، ولكنها كانت تبدو أكبر وأكثر نضجاً، وأكثر تحفظاً. لقد كان يشعر بالارتياح أكثر إلى جين وكان معجباً بشكلها.

– "قد أتصل بها الليلة".

– "الأمـر عـائد إليك". قال لـه بيل بلهجة أبوية. واستأنف: "من الآن

فصاعداً، أنا خارج الدائرة. فهي فتاة ناضجة راشدة". ولكنه تأثر بأن هذا الفتى الـذي أحبه كثيراً قد شعر بهذا التقارب نحو جين. وفكر أنه سيكون لخيرهما معاً. لقد كانت في حاجة إلى شخص متألق، مهذب، ولطيف في حياتها، وكان هـو يسـتحق بعض السعادة بعد ما قاساه. لم يخطر لـه البتة لأول وهلة أن المقارنـة كانـت فـي غـير محلها المناسب، وذلك لأنه كان في كرسي ذات عجـلات. لقد شعر على هذا النحو بخصوص نفسه، من منظار إيزابيل، وأما بالنسـبة لجو وجين فقد فكر أن الأمر كان لا بأس به. لم يستطع أن يفرّق بين هاتين الفكرتين أبداً.

سُرّت الفتاتان بزيارتهما لبيل. واتصلت كلتاهما به قبل أن تعودا إلى الجامعة في اليوم التالي. لم تذكر جين جو ثانية، ولذلك لم يعرف بيل إذا ما كان قد اتصل، كما وأنه لم يكن يريد أن يتطفل. وسارعت سنثيا إلى الهاتف قـبل أن ينهيا المكالمة، وسألته إذا كان بإمكانها أن تزوره ذلك الأسبوع. تردد ثم وافق. فليس من ضرر في ذلك. فهو نفسه كان قد أخبرها أنه كان يريد أن ينطلقا كي يبقيا صديقين. وكما الحال مع الفتاتين، فهو لم يرها منذ شهرين.

بعـد يوميـن، ومع قدوم يوم الثلاثاء، جاءت سنثيا لتتناول طعام العشاء معـه. واندهشت بينما دخلا الكافتريا معاً. فقد كان الناس يبتسمون ويضحكون والسعادة بادية عليهم، وما كان يهمهم حال المرء، سواء كان يسير على قدميه أم يتحرك على عربة ذات عجلات أم أن جسده مثبت إلى ألواح نقالة، فبدا أن الجميع كانوا يعرفون بعضهم البعض ولديهم ما يتحدثون عنه. لقد كان هذا أحد أكثر الأمكنة حميمية التي رأتها على الإطلاق.

عرّجـت هيلينا عليه كي تسلم عليه، وقدّمها إلى سنثيا التي عرّفها بأنها زوجته.

– "من هذه؟" سألته سنثيا بعد أن غادرتهما هيلينا.

– "إنها عارضة أزياء".

– "هل تواعدها أو تخرج معها؟" سألته وقد التمعت الغيرة في عينيها إذ ضحك.

– "إنها مخطوبة".

– "فتاة محظوظة". قالت سنثيا وقد بدت مرتاحةً.

ضـحك بـيل وقال: "هذا ما قلتُه أنا أيضاً". وبعد ذلك عادا إلى غرفته، وتحدثا لبعض الوقت. لقد بدت على ما يرام، ولكنها غدت حزينة عندما تحدثا عن الطلاق.

– "هل أنت واثق أن هذا ما تريده؟" سألتْه ثانيةً، "إذ يبدو أن من الحماقة القيام بهكذا أمر الآن، وفي عمرنا، وبعد كل هذه السنين".

– "لم يبقَ من شيء يربط بيننا، يا سِنْ. وأنت تعلمين ذلك." قال لها ذلك بلطف ولكن بحزم.

– "بل كان هناك ولا يزال. انظر إلينا الآن. ها إننا نتحدث معاً منذ ساعات. لا أزال أحبك يا بيل. أفلا يمكننا أن نمنح أنفسنا فرصة أخرى؟".

– "لم يبقَ لدي ما أعطيه". قال لها بصدق. "أنا أيضاً أحبك، ولكن ما عدتُ أنفع. سوف أحبك دائماً، ولكن إذا حاولنا ثانية فإني أظن أننا سنعود إلى ما كنا عليه. فأنا سأعود إلى العمل وأنهمك فيه، وأنت ستنزعجين من ذلك، وستعودين إلى تصرفاتك السيئة السابقة". لم يُرد أن يذكر لها صراحةً ما يقصده بالضبط، ولكن كلاهما كان يعرف ما يعنيه بكلامه. فقد كانت لها علاقات غرامية. "وإذا لم أستطع العودة إلى العمل فسوف أبقى في المنزل متضايقاً بينما تعيشين حياتك على هواك، وفي هذه الحال أنا سأنزعج. فأفضل أن أعيش وحدي. وأنت أيضاً كذلك، إلى أن تجدي الشخص المناسب لترتبطي به".

– "لقد كنتَ أنت الشخص المناسب". قالت ذلك وقد بدا الحزن عليها. فما كانـت تستطيع أن تقول لـه بأنه مخطئ. ولكن كان يسوءها أن تتركه وحده معتمداً على نفسه.

– "ربمـا كنـتُ الشخص المناسب، وربما لا. ولكن لو كنت فعلاً كذلك لكان زواجنا أكثر نجاحاً مما كان".

– "لقد كنت حمقاء آنذاك. ولكني نضجتُ الآن".

– "كلانـا صـرنا أكثر رشداً ونضجاً. فدعينا نعالج هذا الأمر بنضج".

توقفت عن الحديث لوهلة، ثم تنهدت. لقد أدركت أنه كان قد اتخذ قراراً حاسماً لا تـراجع عنه. فعندما كان بيل يعتزم أمراً ما، ما كان أبداً ليغير رأيه. هكذا كانت طبيعته.

– "وماذا عن إيزابيل؟" سألته سنثيا عندها.

– "ماذا عنها؟" لم يكن بيل يريد أن يتطرق إلى إيزابيل في حديثه معها. "ليس عندي ما أقول".

– "لم لا؟" كانت سنثيا مستغربة ومتعجبة. فلقد كان بيّناً جداً أنه كان مغرماً بها، وكان يصعب التصديق أنه سيتخلى عن هذا الموضوع أيضاً. وتساءلت إذا ما كان مكتئباً محبطاً.

– "إنها متزوجة. وأنا هنا. وهنا ينتهي الأمر".

– "لا أعتقد أنك ستتخلى عن الأمر بهذه السهولة. لماذا تفعل ذلك؟ فليس بإمكانها أن تكون سعيدة مع ذلك الجبل الجليدي الذي رأيته في لندن. لقد كان يبدو نذلاً حقيقياً".

– "إنه كذلك فعلاً. ولكن لديها ابن مريض جداً. وسبق أن قلتُ لك ذلك. فهـي لا تستطيع أن تترك فوريستر، إذ إنها تعتقد أن هذا قد يسبب المزيد من الضـرر للغـلام، كما وأنها لا تستطيع أن تعول الطفل. صدقيني يا سن، إن المسـألة في غاية التعقيد. وفيها نظر أيضاً. سوف لن أحمّلها مشاكلي فوق كل شيء. إنها تستحق أكثر من ذلك. وأنت أيضاً كذلك".

نظـرت إلـيه سـنثيا بإمعـان: "أهذا هو السبب الذي جعلك ترغب في الطلاق؟" وارتعبت من هذه الفكرة.

أجابهـا صراحةً: "جزئياً. ولكن لدينا أسباب أخرى أيضاً. إني أقْدِمُ على ذلك من أجلي. وسأبقى بعيداً عنها من أجلها. اللهم ما لم يصنعوا معجزة هنا".

فقالت لـه موبّخة: "أنت تعلم ما أخبروك به في لندن. هذا لن يحدث. ولسوف لن تستطيع أن تخرج من هنا على مزلّج رولربليد[1] يا بيل. فلا تصنع هذا بنفسك. ولا تأمل أكثر من اللازم".

"لستُ كذلك. وأعتقد أن أي تحسّن أحصل عليه سيكون نعمةً كبيرة. ما أردتُ أن أقوله هو طالما أنا على هذا الشكل فإني سأبقى خارج نطاق حياتها".

"وهل تعرف هي ذلك؟" بدت سنثيا مستاءة من أجله. لقد كان هذا السبب أسوأ بكثير من الأسباب الأخرى التي تدفعه إلى الطلاق. وشعرت سنثيا بأنه محق نوعاً ما في سعيه إلى الطلاق رغم أنها ما كانت لتقر لـه بذلك. فلو كان مستعداً للعودة إليها لكانت سترحب به من كل قلبها. ولكنها كانت تعرف كم كانت مهملة لـه ولسنين طويلة. لقد أدركت الآن فقط بشكل كامل أي كنز كان لديها. ولكن كان الأوان قد فات. "هل تعرف هي السبب الذي يجعلك تنهي المسألة معها؟" سألته هكذا إذ كانت تشعر بالأسى عليهما.

هزّ بيل رأسه نفياً: "إنها حتى لا تعرف أنني سأنهي الموضوع. ولكن يمكننا الإبقاء طويلاً على علاقتنا طالما أننا على هذا المقدار من البعد ولا نرى بعضنا البعض. وفي النهاية سوف تنفصم علاقتنا. فأنا سأبقى هنا. وهي لها حياتها الخاصة. وسوف تتغلب على هذه المشكلة".

"لستُ على ثقة كاملة مما تقول. إذ يبدو أن ما من أشياء كثيرة أخرى في حياتها. والأهم من ذلك هو هل ستستطيع أنت أن تتغلب على هذا الأمر؟ ولماذا ينبغي عليك ذلك؟ فإن كانت أقل مما أظنها عليه فهي لن تبالي بحالتك هذه. فأنت أفضل من كثير من الأشخاص القادرين على السير على أقدامهم".

(1) رولربليد (Rollerblade): ماركة (علامة تجارية) لنوع من المزالج التي تتوضع فيها العجلات على صف واحد مستقيم.

هذا ما كانت هيلينا أيضاً قد قالته له. "ولكن ليس الحب هكذا".

"ربما لا. ولكن هذا ما أنا عليه. سوف لن أشكل عبئاً عليها. وهي لن تترك فوريستر بأي من الأحوال. ولا تستطيع ذلك". لم تكن سنثيا مسرورة مما سمعت. وبعد أن غادرت بقي بيل هادئاً ساكناً لبعض الوقت. لماذا يصر الجميع أنه ليس مهماً أن يكون على كرسي مدولب على الدوام؟ لقد كان يهمه هذا الأمر. وكان يعرف أن الأمر سيهم إيزابيل بمرور الزمن. لقد أبى أن يسير في ذلك الاتجاه مع إيزابيل أو مع أي امرأة أخرى رغم ما قالته سنثيا. لم تكن لتعلم حقيقة الأمر. وكان على يقين أنها لن تتحمله. وكانت ستكرهه للأبد بالنتيجة بسبب كل ما لم يكن عليه أو لم يعد يستطيع أن يكونه أو يفعله. وسوف لن يفعل هذا بإيزابيل، حتى ولو اضطر للكذب عيها مدّعياً أنه ما عاد مهتماً بها. لقد كان مصمماً على ألا يعود لرؤيتها في باريس إن لم يستطع أن ينزل من الطائرة سيراً على قدميه. وإذ ذكّرته سنثيا بحالته، فقد أحسّ أنه ليس له أي أمل تقريباً في ذلك. ولو أراد ذلك لتوجّب عليه الذهاب إلى لورد[1] للصلاة وطلب الشفاء.

وبمرور الوقت شعر بيل بالأسابيع تمر بسرعة في مركز إعادة التأهيل بشكل غير معقول. لقد كان مشغولاً جداً ومتعباً جداً وكان يبذل قصارى جهده في كل أساليب العلاج المطلوبة منه حتى إنه بالكاد كان يتسنى له الوقت ليخرج لتنشق الهواء.

ولقد أحب بيل معظم المعالجين الذين كانوا يشرفون على إعادة تأهيله بدنياً، إذ كانوا لامعين ونشيطين ويافعين، وكانوا يعتنون بمرضاهم عناية فائقة. ولقد تكوّن لديه انطباع جيد عنهم من البداية. كانت هناك معالِجة واحدة فقط لم يرتح للتعامل معها، وكان مستاءً عندما عيّنوها له. لقد كانت هذه معالجة المشاكل الجنسية وتُدعى ليندا هاركوت، وقال لها منذ أول لقاء معها بأنه لا

(1) لورد (Lourdes): بلدة في جنوب غرب فرنسا يؤمّها الناس للصلاة والشفاء.

يهتم بمعالجتها له من هذه الناحية.

"لم لا؟"، سألته وهي تنظر إليه بهدوء من خلف طاولة مكتبها. لقد كانت امرأة ذات نظرة ثاقبة وملامح محببة ووجه ينم عن الذكاء، وفي مثل سنه تقريباً. "هل تنوي التخلي عن الجنس؟" سألته مبتسمة، "أم أن كل شيء على ما يرام؟" لقد خطر له أن يكذب عليها، ولكن الصدق الذي لمحه في عينيها منعه من ذلك. لم يُرِدْ أن يتحدث إليها عن انعدام الحياة الجنسية لديه، ولكن الطريقة التي نظرت فيها إليه جعلته يشعر بأن اهتمامها بشأنه سيقل إذا ما حاول التهرب منها. ولم يدرِ ما الذي جعله يهتم بنظرتها إليه، ولكن ذلك كان يعنيه بالفعل. لقد كانت من ذلك النوع من الناس الذي يسترعي الانتباه والاحترام. لقد بدت له امرأة جدية، وكمثل باقي المعالجين في المشفى، بدت مهتمة وحميمة. "أرى في سجلك أنك متزوج"، قالت في هدوء، "هل تعتقد أن زوجتك ترغب في التحدث إلي؟" لقد كانت شبه متأكدة أن الوظيفة الجنسية قد تعطلت لديه من جرّاء الإصابات التي تعرض لها في الحادث. وإذا لم يشأ أن يناقش هذه المسألة معها فلربما تود زوجته ذلك. فلم يكن من المستغرب أن يتردد الرجال في البداية من مصارحتها بشؤونهم الجنسية. وأحياناً كان من المفيد والأكثر لطفاً أن تتحدث إلى زوجاتهم بهذا الخصوص، عندما يكون لهم زوجات. ولكن بيل كان قد سارع لهز رأسه رافضاً الفكرة.

"سوف نتطلّق". قال لها ذلك بهدوء وبساطة مغلقاً باب النقاش هذا معها بحزم.

"ممتع. وهل كان الحادث أحد أسباب هذا القرار؟" تنحى بيل بنظره جانباً، ومرت دقيقة قبل أن يجيب برأسه نفياً ويقول: "ليس تماماً. فقد كان ينبغي أن نقوم بهذه الخطوة منذ سنين. وما كان الحادث إلا تذكيراً لنا بذلك".

وعندها أصبحت الطبيبة أكثر مباشرة في الحديث. "هل كان لك أي اتصال جنسي منذ الحادث، أو حاولتَ ذلك؟" سألته هكذا دون نية في التعقيب على جوابه ولذلك فقد استغرب أنه أجابها "نعم". لقد أجابها بكلمة واحدة

مقتضبة لا تدل على كثير من التفاصيل.

فسألته بصوت لطيف دونما إفراط في التعاطف، إذ كانت امرأة عملية وصريحة، بدون أن يوحي وجهها بالشفقة: "كيف كان ذلك؟".

"بالنسبة لي؟" وضحك إذ تذكر المنشار المثلم، فابتسمت. لقد كان الرجال يستعملون هذا التعبير عادةً للتعبير عن حالتهم عندما لا يفلحون في الأمور الجنسية. فأدركت ما سيقول بعدئذ، "لم ينجح الأمر عملياً".

"ألم يحدث انتصاب، أم أنه لم يحدث قذف، أم كلا الأمرين؟" سألته بلهجة جدية كحديث علمي، فكأنها كانت تسأله إذا كان يحب أن يشرب قهوته بالحليب أم بالسكر أم بكليهما. وهذا ما سهّل عليه الإجابة أكثر مما كان يعتقد.

"كلا الأمرين. فلم نصل إلى ذلك الحد".

– "هل كان اهتياج؟" فأومأ من جديد. "مكتوم أم واضح؟".

– "واضح فعلياً. ولكن لم يحدث انتصاب معي، لقد شعرتُ بكل شيء... تقريباً بكل شيء. ولكن لم ينجح الأمر معي".

"غالباً ما يستغرق ذلك وقتاً. ورغم ما تخبرني به، إلا أنه لا يزال ممكناً للأمور أن تتحسن إلى الحد الذي تستطيع معه أن تمارس حياة جنسية طبيعية نسبياً فيما بعد. إن قسطاً كبيراً من العلاج يعتمد على معنوياتك. والنجاح في هذا المجال يمكن أن يكون أمراً مبدعاً للغاية". وإذ راح يصغي إليها شعر بالاكتئاب والإحباط. فلم يكن يريد أن يكون "مبدعاً" أو أن يعيد تحديد تعريفه لـ "النجاح". في الواقع، لم تكن لديه حتى الرغبة في أن يحاول من جديد. ومع من سيحاول؟ مع إيزابيل؟ لقد كانت في باريس، وليس لديه نية في أن يصبّ إخفاقاً آخر عليها، وما عادت لديه أية رغبة في أن ينام مع سيندي ثانية: بل حتى سيكون من المهين أن يحاول ذلك معها. فما عاد يحبها. سألته الدكتورة هاركورت ببساطة: "هل لديك شريكة؟".

– "لا، ليس لدي".

– "حسنٌ. يمكننا أن نتحدث عن ذلك، كما ويمكنك أن تجري بعض التجارب على نفسك. إن شعورك حيال هذا الأمر وكيفية تعاملك معه لـه دور كبير، وليس فقط شعورك الجسدي، أو كيفية ممارستك للجنس".

– "لا أريد أن أتعامل مع هذا الموضوع على الإطلاق" قال ذلك بتبلد، موحياً لطبيبته أنه ما كان يريد الخضوع للمعالجة الجنسية. "لا أعتقد أن هذا الأمر يعنيني في شيء في الوقت الحالي".

– "ألن يعنيك لاحقاً أبداً؟" والتقت عيناها بعينيه بشكل مباشر، فأومأ.

– "نعم يا دكتورة. سوف لن أجعل من نفسي أضحوكة، لأني أعلم أن الأمر لن يفلح".

– "وماذا لو نجح؟ إن هذا الجانب من الحياة على درجة من الأهمية فلا ينبغي أن تتخلى عنه وأنت في مثل هذا السن".

– "أحياناً تسير الأمور على هذا النحو. ثم أني منهمك بعملي جداً".

– "وأنا أيضاً". وابتسمت لـه وناولته كتاباً من فوق طاولة مكتبها. بدا الكتاب فكرياً وطبياً موجهاً للغاية، فتردد ولكنه أخذه منها في نهاية المطاف. "المطلوب قراءته. وسوف يكون لديك امتحان الأسبوع القادم". بدا مذعوراً مما قالته، فضحكت. "ليس تماماً. ولكن قد تجد الكتاب ممتعاً".

وهنا أنهت اجتماعها به إذ تحدثا بما فيه الكفاية بالنسبة لأول يوم في العلاج. لقد كانت تدرك وجهة نظره، وخبرته الوحيدة التي مرّ بها بعد الحادثة، وكان لديه الآن هذا الكتاب الهام ليقرأه في الوقت الحالي. وسيكون لديها متسع من الوقت لتعمل على علاجه، وكانت متفائلة أكثر منه عندما عاد إلى غرفته. فقد رمى الكتاب إلى سريره في غيظ، وجلس يجيل النظر من النافذة لوقت طويل. لم يكن يريد أن يخضع للعلاج الجنسي، أو أن يتعلم كيف يكون "مبدعاً". لقد كان جل ما يريده هو أن يكون رجلاً، وإذا كان لن يفلح في هذا، فإنه سيتخلى عن كل ما كان يعتبره عزيزاً عليه، أو عن إيزابيل على الأقل.

وبالتأكيد ما كان سيشرع في مواعدة النساء، وأن يجرب أن يحقق انتصاباً. لقد كان مصمماً، على الأقل، أن يصون كرامته أو يحفظ ماء وجهه.

لم يخبر إيزابيل عن لقائه بليندا هاركورت في المرة التالية التي تكلم معها، ولقد كان هذا هو الجانب الوحيد من مشفى إعادة التأهيل الذي لم يصفه لها أو يحدثها عنه. ولكنه كان لا يزال مستاءً من لقائه مع المعالجة الجنسية، ومرت أيام عديدة عليه حتى التقط الكتاب أخيراً ليقرأه، ولقد انذهل من غنى المعلومات التي كان يحويها. وبحسب ما قرأ، فإن خبرته الأولى لم تكن مثالية أو كافية، وقد يحصل على تحسن ملحوظ إذا ما شفيت إصاباته. ولكن كانت لا تزال لديه شكوك عندما أنهى الكتاب. فقد كان لا يزال يعتقد أنه من الممكن أن يصير واحداً من الزمرة الكبيرة من الرجال الذين لديهم اهتياج ولكن دون ضبط كافٍ ولف، وانتصاب يمكن أن يتلاشى بسهولة. وما كان ليرغب في أن يتحقق من حدوث تقدم معه، سواء مع شريكة أو من نفسه. وكما بدا في حديثه مع ليندا هاركورت من جديد بعد أسبوع، لقد كان مصراً على أن يتجاهل ببساطة هذا الجانب من حياته. قال لها أيضاً أنه ما عاد يريد لقاءها ثانية، وبعد أن أعطته كتابين آخرين، اقترحت عليه أن يلتقيا مرة واحدة أخرى فقط. قالت أنها تريد أن تعرف انطباعه[1] بالنسبة للكتب التي كانت جديدة بالنسبة لها. لقد كانت امرأة في غاية الذكاء، وكانت تتبع أسلوباً سهلاً وصريحاً. لقد أحبها في الواقع. كل ما في الأمر هو أنه لم يرد أن يناقش معها موضوع حياته الجنسية المحتملة. فبحسب اعتقاده، إنه قد صار مخصياً وكان ينوي أن يبقى على هذا النحو. وما عاد يهمه الشعور بالإذلال أو الإخفاق أو الخيبة. لقد صار يفضل أن يبقى عازباً ووحيداً.

في ذلك الوقت اكتشف بعض أصدقائه السياسيين أنه كان موجوداً هناك، وطار اثنان منهم من واشنطن وحضرا لرؤيته، وقاد عدد منهم سياراتهم من

(1) الانطباع (feedback): تعليقات، على شكل أفكار أو ردود فعل، على شيء معين يُقصد بها تقديم معلومات هامة تساعد على اتخاذ قرارات مستقبلية أو تطورات حاسمة.

نيويورك وقاموا بزيارته. لقد بدا وكأنهم يتغاضون عن حالته الجسدية كلياً عندما كانوا هناك، وأمضوا كل الوقت يسألونه النصح والإرشاد. وبحلول العيد كان يتلقى مكالمات هاتفية مطردة. ولقد غدا من الصعب عليه جداً أن يركّز في أساليب العلاج المختلفة التي كان يخضع لها، وحاول أن يحافظ على القضايا السياسية في حالة هدوء. ولكن جماعاته القديمة كانوا مصممين على إعادته إلى الحياة السياسية من جديد. وعلى الأقل كان في هذا إطراء له، وكان يحب أن يسمع عما يقوم به كل واحد منهم، وأن يعرف عن آمالهم، واستراتيجيتهم، ومخططاتهم. وكان ما يطلبونه منه، كالعادة، هو مساعدته لهم لكي يضمنوا نتائج الانتخابات.

وكان قد وافق على أن يمضي العيد في القصر في غرينويتش مع سنثيا والفتاتين. ورتب لأن يذهب بسيارة ليموزين إلى هناك ليلة العيد، وكان قد وعد البنتين بأن يمضي تلك الليلة معهن. شعر ببعض الغرابة في ذلك، ولكن سنثيا قالت له أنه كان بإمكانه أن يمكث في إحدى غرفتي الضيوف في الطابق الأرضي. وكان قد سمع من الفتاتين أنه قد صار لديها رجل جديد في حياتها. وكان بيل مسروراً لأجلها، وكل شيء بدا على خير ما يرام.

جاءت السيارة لتأخذه الساعة الرابعة، وبعد ساعة كان في غرينويتش تسير به السيارة في الطريق إلى منزله القديم. لقد كان بيتاً كبيراً وفخماً، وكان دائماً يحبه، ولكن وجوده هناك أحدث فيه حنيناً غريباً إلى الماضي. ولكن حالما رأى بيل الفتاتين شعر بالتحسن من جديد.

كانوا يزينون المنزل عندما دخل إلى غرفة الجلوس. كانت هناك ترانيم العيد في جهاز التسجيل، وبدت سنثيا أفضل حالاً مما رآها منذ سنين. وعندما استدار ليسلّم على أوليفيا وجين، اتسعت عيناه من الدهشة إذ رأى جو أندروز في غرفة الجلوس، في كرسيّه.

فسأله بيل متذهلاً: "كيف جئت إلى هنا؟". كان قد رآه بعد ظهر ذلك اليوم في ردهة الطعام، فضحك جو وبدا خجلاً مرتبكاً في حين ابتسم بيل ابتسامة

عريضة. كان جو مرتاحاً ولم يبدُ عليه الاستياء، وجاءت جين إلى جوار جو وأمسكت بيده.

لقد أقلّتني جين في طريقها عائدة من المدرسة". أوضح جو. واستأنف يقول: "لقد أردنا أن نفاجئك". كان كلاهما يبتسم مبتهجاً، وكان بيل مأسوراً بهما. لم يكن جو قد قال له أي شيء عن جين منذ اللقاء الأول الذي تم بينهما. ولم تكن لديه فكرة عن أنهما كانا يلتقيان، ويبدو أن الأمور قد تطورت على نحو جيد بينهما خلال الأشهر الثلاثة الماضية.

- "إنني مندهش". قال بيل وهو يبتسم لهما، فقد كان مسروراً أيضاً. وقد كان يرى أن جو فتى رائع.

تناولوا طعام العشاء معاً تلك الليلة، وذهبوا بعدها إلى الصلاة، وفي صباح اليوم التالي ذهب مع جو على العربات المدولبة إلى غرفة الجلوس بينما نزلت الفتاتان إلى الطابق الأسفل. كانت سنثيا قد أعدت لهم الفطور لتوها، وكان صديقها الجديد قد انضم إليهما على الغداء. لقد بدا رجلاً ذكياً حلو المعشر. لقد كان أرملاً وله أربعة أولاد راشدين، وبدا مغرماً كثيراً بسنثيا، وهذا ما أبهج بيل. لقد كان مندهشاً من نفسه لأنه لم يشعر بالغيرة أو بالامتلاكية نحوها، وهذا ما أكد له من جديد أن الطلاق كان أمراً صائباً.

ركب وجو السيارة عائدين إلى المشفى معاً ليلة العيد، وتحدثا عن هذا العيد الرائع الذي أمضوه معاً. الأمر الوحيد الذي افتقده بيل هو إيزابيل. اتصل بها عدة مرات وأخبرته أن كل شيء كان على ما يرام هناك، ولكن استشعر من نبرة صوتها أنها كانت حزينة ومجهدة. لقد كان غوردون قاسياً معا خلال الشهرين الماضيين. لقد كان لا يزال يعاقبها على العلاقة الغرامية التي كان يرى أنها كانت تقيمها من دون ريب، وكأن الحادث لم يكن عقاباً كافياً. وبدا تيدي يفقد قوته ببطء. وكانت صوفي تأتي إلى المنزل في العطلات والإجازات، وفي اليوم الذي تلا العيد كانت ذاهبة للتزلج مع أصدقائها في كورشفيل.

"لا أعتقد أنك مستاء مني بسبب علاقتي مع جين؟" سأل جو بيل بحرص وهما في السيارة في طريقهما عائدين إلى المنزل، فابتسم له بيل وهز رأسه.

- "إنها تستحق شاباً ظريفاً مثلك، وأنت تستحق أفضل بكثير من فتاة تشبه الضفدع". وضحكا لتذكرهما الموعد المتدهور مع شقيقة هيلينا. كانت هيلينا قد ذهبت إلى نيويورك لقضاء العيد مع خطيبها. وكانوا قد تبادلوا الهدايا جميعهم قبل أن تغادر.

كان بيل متأكداً أن أياً من جين أو جو لم يكن جدياً في علاقته، ولذلك لم يكن مهتماً أو قلقاً. لقد كانا فتيين أكثر من أن يفكرا بهذا الأمر، ولكنهما كانا شخصين رائعين، وكان من دواعي سروره أن يراهما معاً. واعترفت أوليفيا بأن لها عاشق جديد أيضاً. لقد كان مساعداً لسيناتور كان بيل يعرفه. ولقد فوجئ وهو في طريق العودة عندما وجد أنه كان هناك حبيب لكل واحد منهم في حياته، ما عداه هو. لقد كان لا يزال مغرماً بإيزابيل، ولكن بمكوثها في باريس مع غوردون وأولادها بدا وكأنها على مسافة سفر سنين ضوئية. ولأول مرة ومنذ وقت طويل شعر بالعزلة والحزن عندما عاد إلى غرفته. كان جو قد مضى مع أصدقائه حالما عاد إلى المشفى، وجين كانت ستأتي لزيارته في اليوم التالي. أوى بيل إلى سريره، وحاول أن يقرأ كتاباً ولكنه لم يستطع أن يحصر تفكيره في الكتاب. ولقد ارتاح كثيراً عندما اتصلت به جين في وقت متأخر من تلك الليلة.

"هل أنت غاضب مني يا بابا؟" سألته جين في حذر. لقد كانت لها نفس نبرة الصوت عندما أخبرته يوماً بأنها حطمت له السيارة في سنتها قبل الأخيرة من المدرسة الثانوية، وضحك بمودة.

"بالطبع لا. ولماذا سأغضب منك؟" وابتسم وهو يفكر بها وبالوقت الجميل الذي أمضاه معها لتوه.

- "لا أدري ما شعورك حيال علاقتي مع جو".

- "بماذا تشعرين نحوه؟" سألها هكذا وقد بدأ يتمنى لو أن هذا الحديث

كان قد دار بينهما قبل ذلك وفي المنزل، حتى يتسنى له أن يرى وجهها وهما يتحدثان. فلقد كان في صوتها نبرة من الجدية.

"أنا أحبه كثيراً. ولم أعرف أي شخص مثله قبلاً".

"أنا أيضاً أحبه. ولقد مرّ ببعض الظروف القاسية جداً". فقد خسر قدرته على تحريك ساقيه، وتعرض للإصابة في الحادث، وفقد خطيبته وشقيقه التوأم، وتغيرت حياته كلياً وللأبد.

"أعرف. لقد أخبرني عن كل ذلك. وقد ماتت خطيبته يا بابا بين ذراعيه. ويقول أنه لن يغفر لنفسه البتة".

"من خلال ما أعرفه، لم يكن الحادث خطأه. ما يشعر به هو إحساس الناجي بالذنب لأنه بقي على قيد الحياة بينما مات الآخرون. وسيتغلب على هذه المشكلة بمرور الوقت".

"أحب أن أكون إلى جانبه في هذا يا بابا". وساد صمت طويل إذ أدرك بيل العبء الثقيل الذي كانت ستأخذه على عاتقها.

"ما الذي تريدين قوله يا جيني؟" لقد فوجئ إذ شعر أنها تريد أن تقول له بأنهما سيتزوجان، وما كان ليرى أن هذه الفكرة جيدة. فقد كان كلاهما صغيراً في السن، وأمام جو طريق طويل قاسٍ. ولم يكن ثمة أمل في أن يستطيع أبداً استعادة قدرته على السير. وشعر بيل أن هذه مسؤولية كبيرة جداً عليها. كان الأمر سيكون ظريفاً لو كانت مجرد علاقة رومانسية، ولسنتين مثلاً، إذا ما نجحا في ذلك. ولكن كان بيل يعتقد أن أي شيء جدي أكثر من ذلك سيكون خطأً بالنسبة لكليهما.

"أقول لك بأني أفكر بالموضوع جدياً يا بابا".

"لقد بدأت أفهم. وهل يشعر هو بنفس الشعور؟".

"أعتقد ذلك. نحن لم نتحدث فعلياً عن ذلك، ولكنه فتى رائع". لقد كان بيل يحب هذه الميزة في شخصية جو، فقد كان جو رجلاً لا يرقى إليه الشك في

جوهره. ولكن بيل لا يزال مع ذلك يعتقد أن هذا القرار ليس بالصائب بالنسبة لهما.

– "لا أعتقد أنك تستطيعين أن تأخذي هذا الأمر على محمل الجد كثيراً الآن. فأنت لا تزالين في الجامعة، و... ولسوف نتحدث عن هذا الموضوع يوماً ما". وهنا غيّر مجرى الحديث، وتحدثا عن العطلة الرائعة التي قد أمضياها معاً كما في الأيام الخوالي، بل حتى أفضل منها. لم يكن ثمة توتر بينه وبين سنثيا، وقد استلطف بيل صديقها الجديد. وهنا قالت له جين بأنها ستعرّج عليه عندما تأتي لرؤية جو في اليوم التالي.

ما أن أغلق سماعة الهاتف حتى صار لدى بيل، ومن جراء المحادثة، الكثير من الأمور التي يجب أن يفكر بها، وأخبر إيزابيل عنهما في وقت متأخر من تلك الليلة عندما اتصل بها.

"لا أريدها حتى أن تفكر بالزواج من ذلك الفتى". قال لها بصراحة: "وإنه لأمر مؤسف، إذ إن هذا الشاب رائع".

"إذاً لماذا لا يستطيعان أن يتزوجا؟ فالكثير من الناس يتزوجون وهم في مثل أعمارهم. هما فتيّان، ولكنها تبدو أكثر نضجاً ممن في سنّها، وهو عانى الكثير، يا له من فتى بائس".

"سيكون زواجها كارثة لها يا إيزابيل. إنها في حاجة إلى من يحافظ عليها. إنها تحب التزلج على الثلج والركض وركوب الدراجات. وسترغب أن يكون لها أولاد يوماً ما. أما هو فسوف يكون عالقاً بذلك الكرسي بقية حياته. إنها تستحق أكثر من ذلك". وهو أيضاً كذلك، ولكن لم يكن لديه خيار خلافاً لجين.

"ما هذا الكلام المريع الذي تقوله؟" قالت له إيزابيل في لهجة استياء، "وما الفرق الذي سيشكله أن تتزلج مع أصدقائها، أو ترقص مع شخص آخر؟ هل تريد القول أنك لا تريده أن يتزوجها، رغم حبهما لبعضهما البعض، لأنه لا يستطيع أن يمتطي دراجة؟ إنها بحق محدودية منك. لا أستطيع أن أصدق

أنك تقصد كلاماً لحمق كهذا".

"أنا أعرف ما أقول". قال بعناد وقد قطب جبينه.

"لا. لستُ كذلك". قالت له بحزم. كانت هذه أول مجادلة تدور بينهما. واستأنفت كلامها: "آمل أن والدة جين أذكى منك. لم أسمع أبداً بمثل هذه الحماقات. آمل ألا تقول هذا لجين. فسوف لن تسامحك أبداً عليه، وستكون هي على صواب".

عندئذ تطرقا إلى مواضيع أخرى، وهدأ كلاهما. فأخبرها عن احتفاله مع سنثيا والبنات بالعيد، وبالطبع لم يذكر لها شيئاً عن عشيق سنثيا الجديد لأن إيزابيل لم تكن تعرف أن بيل قد صار خارج نطاق حياتها. وقالت لبيل أن غوردون كان مغادراً إلى سانت موريتز في اليوم التالي لكي يذهب على التزلج مع أصدقائه. وأما هي فستمكث في باريس مع تيدي، وسوف يمضيان عيد رأس السنة وحدهما. فقد كانت صوفي قد غادرتهما لتوها.

لم يتوقف بيل أبداً عن الاندهال من مدى إهمال غوردون لإيزابيل. ولكنه من جهة أخرى كان مرتاحاً لأن غوردون لن يكون هناك كي يعذبها. فقد كان غيابه نعمة من السماء. تحدثا طويلاً تلك الليلة، وكان بيل يشعر بنفسه صريحاً واضحاً وحزيناً نوعاً ما. فهو لم يرها منذ أربعة أشهر، وقد اشتاق لها للغاية، وهي أيضاً كذلك. ولم يستطيعا حتى أن يتحدثا عن اللقاء ثانية، فلا تزال أمامه أشهر من إعادة التأهيل.

بعد المكالمة، استلقى بيل هناك لوقت طويل وهو يفكر بما قالته إيزابيل له بخصوص جين وجو. كان لا يزال يخالفها الرأي، فهي ما كانت تدرك ما كانت تقوله، أو مدى التحديات التي سيواجهانها. لقد كان يتمنى شيئاً أبسط وأسهل لجين، بغض النظر عن مدى محبته لجو. ورغم اختلافه في الرأي بشدة مع إيزابيل، إلا أنها كانت بغاية اللطف والمثالية حتى تفهم مضاعفات ما كانت قد قالته عن رأيها في زواج جين وجو. وكان بيل عازماً أن يصارح جين برأيه إذا لزم الأمر. على الأقل لم يبْدُ عليهما أنهما على عجلة من أمرهما

لاتخاذ أية قرارات حتى الآن. وكان بيل يأمل أن يعقلا الأمور بأسرع ما أمكن.

غفا بيل وهو يحلم بزينة منزله، ولأول مرة منذ وقت طويل، حلم بالضوء الأبيض الساطع من جديد. لقد كان يسير نحوه، ممسكاً بيد إيزابيل، وعندما استدارت نحوه، قبّلها، وحتى في منامه كان منزعجاً لرؤية جين وجو قادمين نحوهما في نفس الطريق. وكان هو في كرسيه المدولب، أما هي فكانت تسير إلى جانبه وتبدو متألمة، وعندما توقفت في الحلم، استدارت نحو والدها وسألته لماذا لم يحذرها بأن حياتها ستكون قاسية صعبة من جراء اختيارها جو.

الفصل الخامس عشر

عندما غادر غوردون إلى سانت موريتز[1]، وصوفي إلى كورشفيل، ساد الصمت المنزل، بينما جلست إيزابيل في غرفة تيدي طوال فترة بعد الظهر من ذلك اليوم، وهي تقرأ لــه. كان الجو عاصفاً وبارداً في المنزل فدثّرت تيدي بكنزة فوق بيجامته، وغطته بلحاف.

لقد أمضى العيد مسروراً، وأهدوه مئات الكتب والألعاب الجديدة. واشترت لــه لعبة على شكل دب محشو بالفراء ليبقى برفقته. وكل ما تمنت إيزابيل لو تستطيع أن تقدمه لــه كان الصحة الجيدة والعافية. لقد كان مصدر قلق مطرد لها.

اتصل بيل بإيزابيل أكثر من العادة لأنه كان يعرف أن غوردون كان قد غادر، وهي اتصلت به مرة أو اثنتين. كان بيل يتصل بها مرتين في اليوم. وكانت تشتاق إلى الأيام التي قضياها في المشفى معاً، وكانا يستطيعان فيها أن يتحدثا معاً في أي وقت. لم تكن لديها رغبة في الخروج من المنزل أو رؤية أصدقائها. وعندما فتحت البريد بعد مغادرة غوردون، اندهشت لرؤية دعوة موجهة لكليهما. لقد كانت مرسلة من زوجين كانت إيزابيل تعرف أنهما من الطبقة الراقية. كانت الزوجة مديرة دار أزياء، وأما زوجها فكان طاعناً في السن، وكان يتمتع بلقب شرف، وكان مديراً لمصرف هام. لم تتذكر إيزابيل إذا ما كانت قد التقت بهما، ولكنها افترضت أن يكون غوردون قد التقى بهما خلال بعض نشاطاته الاجتماعية التي لم تحضرها هي، أو ربما يكون قد عرف زوجها من خلال المصرف. لقد كانت بطاقة الدعوة جميلة جداً، وكانت

---

(1) سانت موريتز (Saint- Moritz): بلدة في جنوب شرق سويسرا على بعد 14كم من الحدود الإيطالية فيها منتجع سياحي هام.

لحضور زفاف ابنتهما في كانون الثاني (يناير). وضعت إيزابيل في بالها أن ترسل هدية إلى العروس، ثم أهملت الموضوع. فما عادت تذهب إلى هكذا مناسبات، وما عاد غوردون يدعوها لأن ترافقه عندما كان يذهب.

أمضـــت الأيـــام القليلة التالية مع تيدي، وفي الحديث إلى بيل. لقد كان ينوي البقاء في مركز إعادة التأهيل من أجل عيد رأس السنة، وكانوا يخططون لكل أنواع اللهو والاحتفال. وعدها بأن يتصل بها في منتصف الليل في باريس فـــي الـــيوم الحادي والثلاثين، وهكذا يستقبلان العام الجديد معاً، وهي سوف تتصل به في منتصف الليل بتوقيت نيويورك. كانت تنتظر مكالمته عندما رن جرس الهاتف، وأجفلت لمرأة على الطرف الآخر لسماع صوتها.

"يا لغبائي. أنا آسفة للغاية. يبدو أني طلبت الرقم الخطأ. لقد كنت أتصل كـــي أخـــبرهم أنـــه فاتتـــني رحلـــة الطيران". هذا ما قالته المرأة، وقد بدت مضطربة، ومترنحة نوعاً ما، وأغلقت السماعة. ولم تعرف إيزابيل من تكون هذه المرأة وإلى أين كانت تنوي الذهاب بالطائرة. وافترضت إيزابيل أن المرأة قد طلبت الرقم الخطأ، وأغلقت السماعة بالتالي.

وفـــي الحـــال اتصل بيل، كما وعد، وعايدها بالعام الجديد في باريس، وكـــان تيدي نائماً آنذاك. واتصلت به إيزابيل بالمقابل الساعة السادسة صباحاً حيث كان الوقت منتصف الليل عنده. لقد كانت هذه الاتصالات طريفة ومسلية لهمـــا. وبعد أن تحدثت إليه، نزلت إلى الطابق الأسفل لتعد فنجاناً من الشاي، وتقرأ الصحيفة، ثم عادت إلى الصعود إلى الطابق الأعلى. لقد كانت قد أعطت هـــذا الـــيوم كعطلة لممرضة تيدي من أجل عيد رأس السنة، وكانت مسرورة للاعتناء به بنفسها.

كان قد نام في وقت متأخر ذلك اليوم، وبدأت بقراءة الصحيفة من جديد، واندهلت لرؤيتها اسم غوردون في عمود الشائعات، حيث يذكرون أنه يمكث في سانت موريتز. فقد ذكر الخبر أنه كان هناك مع أصدقائه، وحددوا اسم آغا خان، والأمير شارلز، وعدداً من الناس المرموقين. ورأت عندئذ اسماً آخر.

فقد ذكر العمود أن الكونتيسة لين كان متوقعاً أن تنضم إليهم وأيضاً للاحتفال بعيد رأس السنة. لقد كانت نفس المرأة التي دعتها في اليوم السابق إلى عرس ابنتها، واعتقدت إيزابيل أنها قد تكون من أصدقاء غوردون. وهنا وإذ راحت تفكر بالمسألة، تذكرت الاتصال الذي تلقته ليلة أمس من امرأة قالت أنه فاتتها رحلة الطيران. وللثانية شعرت إيزابيل بالقشعريرة تسري في عنقها. لماذا اتصلت المرأة بمنزل غوردون؟ ولماذا لا تكون هذه المرأة هي الكونتيسة دي لين؟ كان اسمها الأول لويزا. ما كانت إيزابيل لتتخيل أبداً أن تكون لها أية علاقة بغوردون أياً تكن، لربما تكون صديقة أولئك الناس الآخرين الذين ذهبوا إلى سانت موريتز. ولكن المصادفة شغلت فكرها طوال النهار. وفي الساعة السادسة قررت إيزابيل أن تفعل شيئاً يدل على جنون مطبق. لم يكن لديها ما تفعله غير ذلك، وأرادت أن تسمع صوت لويزا دي لين. فاتصلت بالاستعلامات وحصلت على رقم هاتفها بسهولة، وجلست تفكر بالموضوع طويلاً، ثم طلبت الرقم. وفي الحال رفع الطرف الآخر السماعة:

"ألو؟ نعم؟".

"هل هذه السيدة دي لين؟" سألت إيزابيل مع خفض الألقاب.

"نعم".

"أتصـــل بك لأؤكد رحلة طيرانك إلى سانت موريتز". قالت إيزابيل دون أن تكون لديها أدنى فكرة عما يمكن أن تقوله بعد ذلك.

"كما قلتُ لك قبل ساعة، لا أستطيع السفر حتى يوم الغد. فزوجي مريض جـــداً". قالت ويبدو عليها الاهتياج، ولكن إيزابيل سمعت ما أرادت أن تعرفه. لقد كان نفس الصوت الذي تحدث إليها ليلة أمس وكان مضطرباً بعض الشيء ومنذهلاً في الظاهر حيث قالت أنه فاتتها رحلة الطيران.

"آه. أنا في غاية الأسف. لا بد أنك تحدثتِ إلى زميلتي. لا ريب في ذلك. أعتذر منك يا سيدة دي لين".

"هـــل هناك حاجة لأن أؤكد ذلك من جديد؟" سألت الكونتيسة ويبدو عليها

نوع من الغطرسة. غريب. لقد كان في صوتها نفس ميزة التكبر المنفرد التي تميز غوردون كما لاحظت إيزابيل. لقد بدا وكأنهما توأمان.

"لا لستِ مضطرة لذلك. أتمنى لك رحلة سعيدة". قالت إيزابيل بحيوية، ثم أغلقت السماعة. ودون أن تعرف السبب، كانت ترتجف، وهي تحاول أن تستجمع المعلومات التي عرفتها. لم تدري لماذا كانت ترتاب فيها، ولكنها أدركت أن ثمة ما يريب. وفجأة، ودون أن تستطيع أن تمنع نفسها من ذلك، راحت تتساءل عن السبب الذي جعل الكونتيسة تتصل بغوردون الليلة الفائتة. لم تشأ أن تقفز إلى استنتاجات، ولكن بدا الأمر واضحاً بالنسبة لها. بحاستها السادسة شعرت أن ثمة علاقة ما بين غوردون والكونتيسة. ولا بد أنها كانت تريد أن تتصل به في سانت موريتز لتخبره أنه فاتتها رحلة الطيران، ومن الواضح أنها كانت تحتسي مشروباً مفضّلاً فاتصلت بمنزله في باريس بدلاً من ذلك.

"من هذا؟" سأل تيدي وهو يتجول داخلاً غرفة أمه، التي قلما كان يدخلها. ولكنه أجفل عندما رأى منظر وجه أمه، فسألها: "هل من خطب؟".

"لا، أنا... أنا كنت أتصل بوالدك في سانت موريس. ولكنه في الخارج".

"علــى الأرجح أنه يتزلج، أو ذهب إلى حفلة عشاء". قال تيدي بعقلانية، وأومأت هي برأسها.

وعندما اتصل بيل بعد ذلك، ذكرت الأمر له.

"أنا أستبعد هذا الأمر". قال لها بحذر. "ولكن للنساء حدساً مذهلاً بخصوص هكذا أمور. أنا أثق بإحساسك أكثر من عقلي. لقد كنت دائماً أعلم عندما كانت سنثيا تنام مع أحدهم. فقد كانت عندها تبدو مختلفة، إذ تكون أكثر لطفاً وودّاً ومرحاً. وأعتقد أنها كانت تجد في علاقاتها تلك مسرات كبيرة ما كانت لتشعر بها معي". لقد حدث هذا كثيراً معه، وكان دائماً على صواب عندما شك بوجود علاقات غرامية معها.

"لا أدري حتى لماذا اتصلت. فقد يكون مجرد خطأ في الرقم، ولكنها

كانت في غاية التهذيب في حديثها. ولو كان الأمر كذلك لكانت اكتفت بإغلاق السماعة. ولماذا تدعونا إلى حفل زفاف ابنتها؟".

"إذا كانــت فرضــيتك صحيحة، فإنه أخبرها على الأرجح أنك لن تأتي، وهي تريده هناك. وهكذا احتالت على الأمر بطريقة لبقة". وعلق بيل على ذلك بطريقة جافة. "وكان يمكنها أن تكتفي بدعوته".

"سوف أخيفهما وأقبل الدعوة". قالت إيزابيل.

"وهل يهمك الأمر؟" سألها بيل وقد استغرب رد فعلها. فقد كان يعلم أنها لم تنَم مع غوردون لسنوات، ولكنها لا تزال متزوجة منه. وكان غوردون بغيضاً جداً معها منذ الحادث، فسيكون من المريح لها أن يكون لديها أشياء تستخدمها ضده. لم يكن هذا بالأمر الحسن، ولكن هذا ما شعرت به. لقد صار يعاملها بعد عودتها من المشفى وكأنها جرحت كرامته، وكانت إيزابيل مستاءة من معاملته لها وكأنها مجرمة وهي في منزلها.

"لا أدري ما أحس به". قالت لبيل بصدق: "غاضبة، متألمة، مرتاحة، راغبة في الانتقام، مُهانة، لستُ متأكدة. ربما كانا مجرد صديقين وأكون أنا على خطأ".

"سيكون ممتعاً أن نعرف حقيقة الأمر". قال بيل في هدوء.

"أنى لي أن أعرف؟ فإن كنت محقة، لن يعترف لي بذلك. ولسوف يُصاب بالجنون إذا ما اكتشفتُ حقيقة الأمر. ليس لدي فكرة عما يفعله، أو أين يذهب، أو من يرى". فهو لم يخبرها بأية معلومات كهذه عنه على مدى سنين.

"استأجري تحرياً". اقترح بيل عليها بشكل عملي.

"سيكون في هذا جرأة ووقاحة. وسيحنق عليَّ جداً إذا ما عرف. سوف يعذبني أكثر بكثير كي يغطي على ذنبه". ووافقها بيل الرأي في أن ما تقوله صحيح على الأرجح.

"إذاً أبقِ أذنيك مصغيتين. قد تجدين شيئاً في الصحف بعد أن تذهب إلى

سألت موريتز".

"إن غوردون أكثر ذكاء وحذقاً من أن يكشف نفسه إلى ذلك الحد". قالت إيزابيل وهي تمعن التفكير في الموضوع، وبعد أن أغلق السماعة، طرأت في ذهنها فكرة أخرى. فكانت تعرف امرأة منذ سنوات تعمل في عالم تصميم الأزياء. كانتا تذهبان معاً إلى المدرسة وكانتا صديقتين حميمتين، ولكن إيزابيل لم ترها منذ سنين، منذ أن وُلِدَ تيدي قبل أوانه وكان مريضاً للغاية. كان اسمها نتالي فيفيير، وكانتا على علاقة حميمة قبل زواجها.

اتصلت إيزابيل من جديد بالاستعلامات وحصلت على رقم هاتف نتالي. وهذه لم تكن قد تزوجت أبداً، وكانت شخصية مرموقة في مجال ابتكار الأزياء. لقد كانت على نفس الدرجة من الأهمية مثل لويزا في مؤسسة منافسة. وشعرت إيزابيل وكأنها تحل لغزاً كبيراً، وكانت مضطرة للبحث والتقصي لتعرف كل ما أمكنها عن لويزا دي لين. فصار هذا هوساً لديها خلال الساعات الاثنتي عشرة الماضية.

انتظرت إيزابيل حتى حان وقت مناسب واتصلت بنتالي. لقد كان يوم سبت، وأجابت بنفسها على الهاتف. واندهلت عندما عرفت من المتحدث.

"يا إلهي، لم أتحدث إليك منذ سنين... كيف هو ابنك الصغير؟" وشرحت لها إيزابيل أنه كان مريضاً خلال السنوات الأربع عشرة الماضية وقد غدا كل حياتها.

لقد شعرتُ أن شيئاً كهذا قد حدث. فالكل يقول أنك أصبحت ناسكة[1]. ألا زلت ترسمين؟".

"ليس لدي وقت لذلك". وسألت كل منهما عن أحوال الأخرى لبعض الوقت. لقد كانت والدة نتالي قد ماتت، وتزوج والدها من جديد، وعاشت مع

(1) الناسك: (recluse): هو شخص يختار أن يحيا منعزلاً عن الناس في الصلوات والتأمل. يُستخدم هذا التعبير هنا للدلالة على العزلة التي تعيش فيها إيزابيل بابتعادها عن الاختلاط بالناس والمجتمع.

سيناتورة لعشر سنوات. عاد بعدها إلى زوجته المحتضرة. لم يسبق لها أن تزوجت أو أنجبت أطفالاً، وقالت إنها لا تزال تحب عملها. وبدا كما لو أنه لم يمضِ وقت طويل منذ أن التقتا آخر مرة. لقد كانتا صديقتين حميمتين في المدرسة، ثم تباعدتا عن بعضهما بعضاً عندما تزوجت من غوردون. لقد كانت نتالي تبغضه، وترى أنه مغرور ومتكبر، وكانت مقتنعة أنه تزوج من إيزابيل من أجل علاقات أهلها الاجتماعية. لم تثق به أبداً، ولكنها لم تذكّر إيزابيل بذلك الآن. لقد كانت إيزابيل هي من ذكر اسمه أولاً.

"أريدك أن تسدي لي خدمة كبيرة. لست مدينة لي بشيء يا نات، كل ما هنالك أنني أريد أن أعرف شيئاً معيناً ولا أظن أن أحداً غيرك يمكن أن يساعدني في ذلك". لاذت نتالي بالصمت على الطرف الآخر من الخط وهي تتساءل إلى أي درجة من الصدق يمكنها أن تكون عليها. كانت تتساءل فيما إذا كانت ستتلقى هذه المكالمة، ولم تكن مستغربة تماماً من اتصال إيزابيل بها، رغم أنه بدا من الغريب أن تسأل الآن بعد كل هذا الزمان.

"ماذا تريدنني أن أفعل؟" سألت نتالي بهدوء.

"أريد أن أسألك عن شخص، وأريد أن يبقى هذا سراً بيننا. وأتمنى أن تخبريني الحقيقة. ماذا تعرفين عن لويزا دي لين؟".

أبدت نتالي تنهدة خفيفة وقررت أن تجيب بشكل مباشر. "إنها موهوبة جداً، وصعبة المراس جداً، ومتألقة جداً، وجميلة المظهر، رغم أنها أكبر منا قليلاً، وأحياناً تكون فظة جداً. وهي باردة العواطف وطموحة جداً على ما أعتقد. يقولون أنها الممولة للمؤسسة التي تعمل فيها. أعتقد أن زوجها اشترى لها قسماً كبيراً من هذه المؤسسة، وهو يبلغ من العمر حوالى المئة، ولا علاقة له بشيء البتة، على ما أعتقد، وهو مريض جداً. وسوف ترث أمواله عندما يموت. كان متزوجاً من قبل، وأولاده يكرهونها على ما أسمع. ولكنها شديدة الذكاء لدرجة تستطيع معها أن تضع حداً لهم. ولقد تبجحت كثيراً بقدرتها على ذلك. لقد تزوجت منه طمعاً بأمواله عندما كان في حوالى الثمانين من العمر

وأنجبت منه طفلاً لكي تضمن مستقبلها معه، وها هو الآن قد دخل في التسعينات من العمر. لا يمكنه أن يعيش بعد أكثر. إنه يملك إحدى أكبر الثروات في فرنسا. كانت هذه المعلومات شيقة ولكن ليست هي بيت القصيد عند إيزابيل.

"ما الذي تعرفينه أيضاً؟".

"إيزابيل، لا تبحثي عن الأشياء التي قد تؤلمك. فالحياة مؤلمة بما فيه الكفاية. لماذا تسألينني ذلك؟".

"لأني أريد أن أعرف. ويبدو أن ثمة شيئاً تعرفينه أليس كذلك؟".

ساد صمت طويل بينهما ومن ثم تنهيدة أخرى. "إنه ليس سراً تماماً. فنصف باريس تعرف". وهنا شعرت إيزابيل بقلبها يتسارع لسماع هذه الكلمات.

"هل هي على علاقة مع غوردون؟" سألتها إيزابيل أخيراً عما أرادت فعلاً أن تعرفه، وضحكت نتالي. لقد كانت إيزابيل لا تزال ساذجة بعد كل تلك السنين. وكان هذا ما كانت قد أحبته نتالي فيها عندما كانت في المدرسة. لقد كان لدى إيزابيل براءة تلمس بها قلوب الآخرين. ولكن كان عليها أن تنضج وتصبح راشدة. ولربما آن الأوان لذلك.

"إنها عشيقته منذ عشر سنين أو اثنتي عشرة سنة تقريباً. إنهما يذهبان معاً إلى كل الأماكن. ويدهشني أنه ما من أحد أخبرك بذلك من قبل. إنهما يخرجان معاً بشكل علني في كل المجتمع، وهما على ذلك منذ سنين. والجميع يعرفون".

"ما عدت أحتك بأحد". قالت إيزابيل ويبدو عليها التأثر. "هل أنت جادة؟".

"نعم. إنه يشتري لها مجوهرات، واشترى لها سيارة. وأعتقد أن لهما شقة في مكان ما في الليفت بانك. أعتقد أنها في رو دو باك. ويذهبان إلى فندق دو كاب في الصيف. التقيتُ بهما صدفة في سانت تروبيز العام الماضي". لقد كانت لديه حياة كاملة، عالم كامل، يعيشه معها، ولم تكن إيزابيل تعرف أي

شيء البتة عن ذلك. لقد كان هذا أسوأ بكثير مما كانت تخشى. "هل سيهجرك؟" سألتها نتالي عملياً. "إذا كان سيفعل فإن عليك أن تتدبري أمرك بعيداً عنه. فمما سمعتُه، لقد صرف ثروة طائلة عليها".

"لا أستطيع أن أصدق ذلك يا نتالي. هل أنت متأكدة مما تقولين؟".

"بالطبع. وإن كنتِ لا تصدقينني، اتصلي بعشرة أشخاص تعرفينهم وسيقولون لك نفس الأشياء تماماً. إنهما يعيشان كقرينين منذ سنين".

"إنه لا ينوي أن يهجرني". قالت إيزابيل متفكرة. "لقد فكرت بذلك البارحة، أو خمنتُ ذلك، ولكني لم أتوقع ذلك أبداً". بل الأسوأ من ذلك أنها كانت تتوقع عملاً طائشاً مؤخراً بينهما، أو علاقة غرامية عابرة، وليس حياة أخرى كاملة قائمة بينهما لاثنتي عشرة سنة بينما هي في منزلها تقوم بالعناية بابنها.

"ليس من داعٍ لديه بعد ليهجرك. فهي لا تستطيع التصرف بشكل كامل إلى أن يموت زوجها. وعندما يحدث هذا فإني أعتقد أن غوردون سوف يستغلها بكل ما في وسعه. إنها ذات نفوذ وثرية. ومن يعلم، لربما تكون قد ملّت من غوردون الآن. لا يمكن معرفة ذلك. احترسي منها، فهي سيئة الأخلاق جداً. إذا شعرتِ بأنك تشكلين تهديداً لها فإنها سوف تلاحقك. لقد رأيتُها تفعل ذلك في مؤسسة تصميم الأزياء. إنها امرأة مبدعة. لقد كانت خيّاطة صغيرة في أحد الزوايا النائية في مكان ما عندما التقت بالرجل العجوز، وجعلها كونتيسة وساعدها على أن تدير شؤون ذلك العمل الخيالي. وهي بارعة فيه، وإني أشهد لها بذلك. ولكن لا يمكن العبث معها إذا ما اعتبرتك تهديداً لها بشكل أو بآخر. فعندها سوف تتخلص منك برمشة عين وستعمل كل ما بوسعها لأجل ذلك. فإن كانت تريده، فلسوف تأخذه منك رغم أنفك". وفي الواقع كانت كلتاهما تعلم الآن أنها كانت تريده.

"أنا لا أشكل تهديداً لها" قالت إيزابيل وهي تبدو متألمة. لقد شعرت بنفسها حمقاء للغاية. وفوق كل ذلك، فقد كان قاسياً معها ولسنين. لقد كان من

الدناءة أن يسلك معها هكذا.

"قد لا تـنظر هي إلى الأمر على هذا النحو. يؤسفني أن أقول ذلك يا إيزابيل". لقد كانت نتالي منزعجة من أنها الشخص الذي ينقل لها النبأ السيئ. فقد كانت تحبها دائماً.

لقد كان مذهلاً أن تفكر بأن غوردون كان مرتبطاً بعلاقة مع امرأة أخرى إلـى ذلك الحد. ولم تستطع إيزابيل أن تتوقف عن التساؤل هل كان ذلك ذنبها لأنهـا كانت منهمكة جداً بابنها. لقد قالت لها نتالي بأن العلاقة بينهما قائمة منذ حوالى عشر أو اثنتي عشرة سنة. وكان غوردون قد أغلق دونها غرفته وقلبه وحياته بالضبط منذ ذلك الوقت. ومن هنا بدأت الأمور تتضح لها.

"مـن الأفضـل لك أن تهجريه يوماً ما يا إيزابيل" قالت لها نتالي بلهجة صـادقة. "ومـن أجـل تلك المسألة بشكل خاص. وإنه أناني لا يقيم اعتباراً للآخريـن، وكنت أعتقد دائماً أنه يكره النساء". فأخبرتها إيزابيل عن الحادث، ولكـن لـيس عـن بيل، ووعد كل منهما الآخر بأن يتصل به ثانية في أقرب فرصـة. لقد كانت إيزابيل تشعر بالامتنان لسماعها الحقيقة مهما كانت مؤلمة بالنسبة لها. بعد أن أغلقت السماعة جلست إيزابيل تحدق في الفضاء طويلاً، ثم اتصلت ببيل. لقد أيقظته من نوم عميق، ولكن ما كان بإمكانها أن تنتظر حتى تخبره بما سمعته.

سـردت لـه كل شيء دفعة واحدة بينما كان يحاول أن يستيقظ، وعندما أنهت حديثها كان قد استوى جالساً في سريره، مستغرباً ومذهولاً. لقد بَدَتْ هذه المسـألة فرنسـية جداً. فأن يكون للمرء عشيقة على مدى طويل لمدة حوالى عشـر سـنوات أو أكثر أمر غير مألوف في الولايات المتحدة. معظم الناس لجأوا إلى الطلاق. أما الكونتيسة فكانت تنتظر موت زوجها كي ترثه.

"يا لهذه القصة المخزية. هل أنت واثقة من صحتها؟" لقد أكدت لـه هذه القصة ما كان يرتاب فيه وأظهرت لـه كم كان غوردون نذلاً.

"تعـرف نتالـي دائمـاً كل شيء. وإني أستغرب لماذا لما يخبرني أحد

بالحقـيقة من قبل؟" لقد كان مهيناً لها أن تدرك أن كل الناس في باريس كانوا يعلمون. وهذا ما جعلها تشعر وكأنها حمقاء.

"لـربما ظـنوا أنك تعلمين وما أرادوا أن يجرحوا شعورك. فالكثير من الـناس يسـلكون هكـذا خاصة في أوروبة، وحتى هنا يعملون هذا أيضاً". لم يخبره أحد قط عن علاقات سنثيا الغرامية، وأدرك ذلك لتوه.

"مـا عاد الناس يلجأون إلى هكذا علاقات سرية طويلة الأمد ذلك لأنهم يستطيعون أن يتطلقوا. ماذا يجب أن أفعل برأيك؟" لم تكن لديها فكرة عن كيفية استخدام هذه المعلومات التي جمعتها.

سألها بيل بعقلانية: "ماذا تريدين أن تفعلي؟".

"لا أدري. أود أن أواجهـه بكل ما عرفته حالما يأتي إلى المنزل، أو أن أتصـل به في سانت موريتز، ولكني أشعر أن ليس هذا من الحذق في شيء". لقد كانت تعلم أنه سيهاجمها بضراوة إذا ما فعلت ذلك.

"أنا أرى أن تنتظري وأن تواجهيه بذلك في الفرصة التالية التي يهاجمك فـيها. هـل تريدين أن تهجريه؟" لقد كانت تريد ذلك، ولكن ما كانت تعتقد أنه يجب عليها ذلك. فالتغيير كان لا يزال قاسياً جداً على تيدي، ولم تكن لديها أية ضمانات بأن غوردون سيعطيها ما يكفي لتنفق على الصبي. كما وأن صديقته لن يكون بمقدورها أن تتزوج بأي حال من الأحوال، ولذلك فسوف لن يتشوق لطلاق إيزابيل، أو يكون سخياً معها إذا ما فعل. سوف لن يريد فضيحة لنفسه، خاصـةً نظـراً إلـى شـهرته وسمعته التي تخلو من الشوائب والعيوب، في المصـرف. لقد بدا أنه من الذكاء أكثر إبقاء الأمور هادئة والانتظار كما قال بـيل. لقد كان لديها أشياء كثيرة تفكر فيها، وقرارات عديدة عليها أن تتخذها. قال لها بيل: "انظري. إن لديك بعض الذخيرة الآن تستخدمينها عند الضرورة. إن أفضـل ما تفعلينه الآن هو أن تخبئي ذخيرتك إلى أن يحين الوقت المناسب وعندها تطلقين ذخيرتك عليه في عينيه".

"بما أن الجميع يعرفون بعلاقته هذه فسوف لا تكون فضيحة كبيرة إذا ما

تطلقنا أليس كذلك؟".

"نعم، ستكون. أن يكون للمرء عشيقة بالسر حتى لو كان الناس يعرفون عن ذلك هو شيء. وأن تكون له زوجة غاضبة هو شيء آخر تماماً، فهذه سوف تفضح كل شيء، وتتحدث إلى الصحافة، وتقوم باتهامه علانيةً، وتكلفه المال الكثير، وتحول الرأي العام ضده. فأنت تبدين طاهرة ومعك طفل مريض وعاجز. أنا أتعاطى الشؤون السياسية منذ زمن طويل. وعندما كان أحد المرشحين لديه بعض العبث كهذا، كنت لأقول له أن يختبئ ويحتمي، وأن يبقى متزوجاً، وأن يظهر للناس محترماً ما أمكنه ذلك، وأن يبدأ بإطعام الأيتام أو يكرس المال والاهتمام لصالح راهبات عميان. وبالتأكيد ما كنت لأنصحه بأن يتخلى عن الغطاء الذي يحتمي به، ويخبر الجميع، ويطلق زوجته. سيكون في حاجة إلى أن يخفي كل عبثه وطيشه بكل هدوء ممكن. وفي مثل حالتك، إن الأمر يعتمد عليك يا حبيبتي. إن الكرة، بل حتى مصيره هو، هي في ملعبك وفي يدك. الأمر الوحيد الذي سوف لن يريده هو فضيحة علنية، أو طلاق. وخاصة أنها ليست مطلقة الحال بعد. سوف يريد أن يتفادى أية مشاكل عندما تصبح هكذا، وليس قبل ذلك مطلقاً. وإذ أعرف شخصيته، فإني لا أعتقد أنه سيعتذر لك ويصبح لطيفاً معك بأي شكل من الأشكال. وفي خاتمة المطاف سوف يلقي اللوم عليك. وكلما ازداد ما يحب أن يخفيه، كلما صار أكثر ضراوة. فإن تواجهيته فإنه سيهددك وسيثبت لك عملياً إلى أي درجة من الحقارة والدناءة هو عليها، وسوف يحاول أن يخيفك لئلا تزيحي الغطاء عنه. كوني حذرة جداً حبيبتي. إن تحشريه في الزاوية، ينشب مخالبه في عنقك. أعرف هذا النوع من الرجال، فهو لن يهدأ لو تقر عينه بالنوم لو يرتاح باله ما لم يقتلك. فهذا الزواج على جميع الأحوال كان في صالحه مهما كانت طبيعة هذا الزواج، ولن يسمح لك أبداً بأن تعبثي فيه. إنه يريد الحفاظ على زواجه منك كي يحفظ ماء وجهه. فهي لن تتخلى عن العجوز قبل وفاته. أعتقد أن أموراً كثيرة تجري هناك لا تعرفينها، فكوني حذرة، ولا تدفعيه لأن يتهور".

لقد كانت نصيحة حكيمة صائبة، وكانت إيزابيل تعرف أنه على صواب، ولم تعرف ما تفعل إزاء ما عرفته الآن. وأدركت، وهي تفكر بالأمر الآن، أن الليالي العديدة التي لم ينم فيها في المنزل كان على الأرجح يمضيها مع الكونتيسة في الشقة التي لمّحت إليها نتالي. لم تشعر إلا مؤخراً بالارتياب من كثرة نومه خارج المنزل، وكذلك الأمر صوفي. وعادت بذاكرتها إلى الرحلات التي ذهب فيها مع أصدقائه، والمناسبات التي حضرها وحده، والحفلات التي ذهب إليها، والأماكن التي زارها، وشعرت أن نتالي كانت على صواب، فقد كان ذلك كله قد بدأ منذ حوالى اثنتي عشرة سنة.

"إنه لأمر مثير من دون ريب، أليس كذلك؟" قالت إيزابيل ولا يزال الذهول بادياً عليها من جراء الصدمة. لقد بدا غوردون فجأة غريباً عنها. وكانت لويزا دي لين أكثر فحشاءً وحنكةً بكثير مما كانت تعتقدها. شعرت إيزابيل بأنها في غاية الغباء لأنها لم تكن تدرك ما يجري حولها كل تلك السنوات الطوال.

"أريد أن أفكر بالموضوع أكثر. لا تفعلي شيئاً الآن". قال لها بيل وهو غارق في التفكير. على الأغلب ما كان ليريدها أن تتأذى بأي شكل من الأشكال، وكانت عرضةً لذلك بكل سهولة.

"حسناً. لن أفعل أي شيء".

"وتذكري، إنْ تحصريه في الزاوية سيهاجمك. هذا الأمر أنا متأكد منه تماماً". ووافقته الرأي مئة بالمئة. فكان يمكن لغوردون أن يصبح أشد ضراوة إذا ما هاجمته بأي وسيلة. ولقد اكتشفت ذلك بنفسها منذ سنين.

في الأيام القليلة التي تلت ذلك، راحت تتحدث إلى بيل عن الموضوع، ولكن لم يتوصلا إلى حلول جديدة، وعندما عاد غوردون إلى المنزل، بدا سعيداً وأسمر اللون مصفرّه، وكان ودوداً ولطيفاً معها بشكل عجيب. بل حتى سألها عن حال تيدي، وأكدت له أنه بخير، ولم تنبس ببنت شفة عن الكونتيسة دي لين.

الإزعاج الصغير الوحيد الذي سبّبَتْه لـــه كان عندما ناولَته بريده. فاستثنت جزءاً من بريده، لأنه كان موجهاً إلى كليهما، وذكرت لـــه عَرَضاً بأن الكونت والكونتيسة دي لين يدعوانهما إلى حفل زفاف. وقالت بأنها قبلت الدعوة الموجهة لهما معاً وقالت له أنه سيكون من الطريف حضور هذه الحفلة. لقد بدت بريئة للغاية، ولم تظهر في عينيه أية إيماءة وهو يصغي إليها. بل لم تظهر عليه أية ردة فعل على الإطلاق.

"يقول طبيب تيدي أنه يجب علي أن أسرّي عن نفسي قليلاً بالخروج من المنزل لفترة، وأعتقد أنه على صواب. لقد افترضتُ أنك تعرفهم، وبما أن الدعوة جاءت لكلينا لذا فقد اعتقدت أنك لن تمانع في ذهابي". قالت لـــه بعذوبة وبعينين متسعتين.

"لا، أبداً". قال لها وهو يبدو غير مبالٍ على الإطلاق. ولوهلة تساءلت إذا ما كانت نتالي مخطئة فيما قالته، ثم ما لبث غوردون أن استدار نحوها وتعابير غريبة على محيّاه وقال: "إنهما شخصان مملان قليلاً. وهما طاعنان في السن. أعتقد أنك ستصابين بالسأم إذا ذهبت. فإن كنت تفكرين بالخروج من المنزل فأعتقد أن من الأفضل أن تختاري القيام بأمرٍ أكثر إمتاعاً". لقد بدا جَزِعاً أكثر منه خائفاً.

"كـــم يمكـــن أن يكون عمرهما طالما أن لهما ابنة على وشك الزواج؟" سألت إيزابيل ببراءة، وهز غوردون كتفيه بلا مبالاة.

"لا أعـــتقد أن ابنـــتهما فتية جداً، أعتقد أنها عانس كبيرة في السن وغير جذابة. ولا أجد المناسبة مسلية".

لقـــد كان موطد العزم على ألا تذهب إيزابيل، ولأول مرة خلال سنوات طويلة، وإذ تتعامل معه، فإنها كانت تشعر بالتسلية.

"معـــك حق. فلا يبدو الأمر مسلياً. هل ينبغي أن أكتب لهما وأعتذر لهما عن الحضور، أم أن هذا سيدل على عدم اللباقة؟".

"سوف أهتم أنا بالأمر. أين هي الدعوة بالمناسبة؟".

"إنها على طاولة مكتبي".

"سوف آخذها في طريقي خارجاً. وسوف أجعل سكرتيرتي تهتم بالمسألة".

"شكراً يا غوردون. وسوف أرسل لهما هدية ظريفة معتذرة منهما".

"سوف أجعل إليزابيث تهتم بذلك أيضاً. يكفيك ما تعانيه من أعباء".

شكرته بلطف، وغادر إلى مكتبه وبطاقة الدعوة لا تزال في يده وضحك بيل كثيراً عندما أخبرته عن ذلك عندما اتصل بها.

"يا لك من شريرة ماكرة. ولكن تذكري ما قلته لك. كوني حذرة منه، فهو ليس بالأحمق. ولربما يراقبك ليعرف ما تكون عليه ردة فعلك وما تنوين أن تفعليه. لربما يعتقد أن أحدهم قال لك شيئاً ما، اللهم إذا كانت صديقتك مصيبة، وأن كل من في باريس يعرف بالأمر".

قالت: "لن أقدم على أية خطوة". وخلال الأيام القليلة التي تلت ذلك الحديث، اكتفت بأن تتحقق من وجوده في غرفته في آخر الليل وعند الفجر عندما تستيقظ. ولاحظت ما كانت تتوقعه تماماً، فقد كان يغيب عن المنزل طوال الليل متوقعاً أنها لن تعرف بذلك، إذ إنه كان محظوراً عليها ضمنياً أن تأتي إلى غرفته. ومن المفترض إذاً أن يكون في الشقة في شارع رد دو باك مع لويزا.

وفي الشهر التالي بدا وكأن إيزابيل وغوردون يلعبان لعبة الهر والفأر، ولم يتغير شيء في حياتهما، إذ بقيت الأمور على حالها كما كانت منذ سنين. كانت لـــه حياته مع تلك المرأة، وشقة، وعلاقة، وكان متزوجاً بها، بمعنى من المعاني، أكثر مما كان متزوجاً بإيزابيل. على نفس المنوال، كانت تشعر هي بأنها أكثر ارتباطاً ببيل من غوردون وكأن بيل هو زوجها.

كـــان قـــد مضـــى عليه عشرة أشهر في مركز إعادة التأهيل حتى ذلك الوقت، وقد غدا أقوى، وشعر بأنه في حالة صحية أفضل مما كان عليه خلال ســـنين. مـــا عاد عنقه يسبب لـــه أية مشكلة تُذكر، ونما كتفاه، وكانت أوراكه

نحيفة، وعندما كان يرتدي لباس السباحة كي يسبح، كان يبدو كمثل شاب فتي. وعـادت إليه معظم القدرة على الإحساس بساقيه، وصار بمقدوره أن يتحرك بسهولة أكبر في كرسيه ذي العجلات، ولكن لم يكن ليستطيع المشي أو الوقوف. فما كانت لساقيه القوة بعد ذلك، وكانتا تخونانه تحت وطأة ثقله عندما كـان يحاول الوقوف على قدميه. وحتى السنادات التي كانت قد ثبتت إليه كي تساعدانه على الوقوف والحركة لم تفلحا في مساعدته على ذلك. بل إنه كان يتهاوى أسرع عندما كان يستخدمها. أما فيما يتعلق بإيزابيل فما كان قد أحرز تقدماً فيما يعتمل في نفسه نحوها.

كـان لا يزال يقابل الطبيبة هاركورت، المعالجة للشؤون الجنسية، رغم تمنعه لذلـك في البداية. لقد كان لا يزال مصراً على التفكير بأن الجنس قد انتهى من حياته. لقد كان جارحاً لـه جداً عندما فشل في محاولته مع إيزابيل. وتولـدت لديه قناعة أنه لن يحدث لـه أي تغيير من هذه الناحية. ولكنه على كـل حال كان يروق لـه الحديث إلى ليندا هاركورت. لقد كانت تعطيه الكثير من الكتب الممتعة على الدوام. ولكنه بقي غير مقتنع.

ومما زاد الطين بلة، أن جين وجو جاءا إليه في آذار (مارس)، وأخبراه أنهمـا يعتزمان الزواج، ورغم أنه كان يحب جو كثيراً، إلا أن بيل استاء من الأمـر، وتحـدث مطولاً إلى سنثيا مرات عديدة على الهاتف بخصوص هذا الموضوع. لقد كانت أكثر تفهماً منه لهذا الأمر، وتجادلا في هذا الشأن أسابيع عديـدة. وأخـيراً، تحدث بيل حديثاً طويلاً إلى جين عندما جاءت من جامعة نيويورك بغية زيارته.

"يا بابا، نحن نعرف ما نفعل. فلسنا أطفالاً. فأنا أتردد إلى هذا المكان منذ سبعة أشهر. وأعرف إلى أين تقودني قدماي". بسبب طبيعة إصاباته، كان جو يستعمل حفاضاً، ويأخذ الأدوية، وكان بمقدوره استعمال ذراع واحدة فقط. لقد كـان عجزه ومحدوديته أكبر بكثير من بيل. وكان قد قُبِلَ في كلية الحقوق في الخـريف، وكان متقد الذكاء. وكانَ الأطباء يعتقدون، ولكن ليس بشكل مؤكد،

بأنـه قـد يستطيع إنجاب أطفال في نهاية الأمر. وشرحت ليندا لبيل أن بعض الـرجال، رغم عجزهم عن ممارسة الجنس اعتماداً على أنفسهم، بإمكانهم أن يخصـبوا زوجاتهن اعتماداً على المعونة الطبية. لم يكن واضحاً فيما إذا كان جـو واحداً من هؤلاء. لقد كان هو أيضاً واحداً من مرضاها. ولكن بيل كان يشـعر أن جـو يتمتع بالشباب وهذه نقطة في صالحه. أما بيل، وهو في هذا السـن، فمـا عاد يرضى بأن يكون "موضوع تجربة"، أو أن يجعل من نفسه أضـحوكة. لقد كان يفضل أن ينقطع كلياً عن ممارسة الجنس ما بقي لـه من العمر. وخلافاً لجو، فقد تقبل بيل ذلك وكأنه أمر محتوم لا يمكن اجتنابه.

"أنـت لا تدركين عواقب هذا الأمر" قال لها بيل مجادلاً إياها، واستأنف: "سوف يكون معولاً عليك بشكل كامل، جسدياً وعاطفياً".

"لا أعـتقد ذلك. فجو يهتم بي، وهو الرجل الوحيد الذي اعتنى بي، اللهم مـا عـداك. سوف يكون محامياً، وقد استثمر المال التعويضي الذي أخذه من جـراء الحادث، وإن لديه مليون دولار في سوق البورصة في شركة موثوقة، إضـافة إلى استثمارات جيدة أخرى عديدة. لقد اطلع عليها سمسار البورصة الذي تتعامل معه ماما، وقال أن جو قد قام بالعمل الصائب. ولا يهمني إن كان لا يستطيع تسلق الصخور، أو رقص الفالس".

"ربما سيهمك هذا يوماً ما".

"لـم تفعـل ذلك أنت أو أمي، وكنتما تستطيعان أن تسيرا على أقدامكما. فلماذا سنهتم نحن بذلك؟ لماذا ستكون حالتنا أسوأ مما كانت عليه حالتكما عندما تزوجتما؟".

"لأنه مُعاق". قالها بيل بحزم. "وهذا سيكون عبئاً ثقيلاً عليك. صحيح أننا أنـا ووالدتـك لم نقم بهكذا أشياء عندما كنت أستطيع المشي، ولكن لو كانت حالتي آنذاك كما هي الآن لما كنت أقدم على الزواج من والدتك".

"هذا أمر محزن. لا يمكنني أن أصدق أنك تفكر بهذه الطريقة". لقد شعر فجـأة بالأسـف لأنها زارته يوماً في المشفى وعرّفها على جو. لقد كان يفكر

آنذاك بأنه ليس من ضرر في ذلك، ولكنه كان مخطئاً. لقد ناقش الموضوع مع إيزابيل وسنثيا، وكلتا ابنتيه في الأسبوعين التاليين، وفي نهاية الأمر جلس مع جو وتحدث إليه بهذا الشأن. لقد كان جو يتوقع الكثير من الضغط الجدي عليه، وكان واضحاً وحتى قبل بدء المحاورة بينهما، أن بيل كان مستاءً من هذا الأمر. ولكنه لم يكن يتوقع من جو الإجابات التي أدلى بها.

"أعرف حقيقة ما تشعر به يا بيل". قال جو بهدوء. لقد كان قد سمع عن كل شيء من جين. لقد كانت غاضبة من والدها بسبب هذا الموضوع، وأرادت أن تتزوج من جو دون موافقة والدها. ولكن جو كان يحترمها ويحترم بيل في نفس الوقت... "لا أستطيع أن أقول أنك مخطئ. ولا أستطيع القول أن الطريق ستكون سهلة أمامنا. كلانا نعرف ذلك. نعم، وإني أتفهم ذلك أكثر من جين. وكلانا يافع فتيّ. الزواج ليس سهلاً حتى في أفضل الأحوال. والداي تطلقا، وأنت وسنثيا أيضاً. ليس من ضمانات في الحياة. ليس من شيء مضمون. ولكنني أيضاً أعتقد أن رابطاً خاصاً يجمعني بجين، وأصدقك القول أني أظن أن بمقدورنا أن نجعل الأمر ينجح بيننا. فسوف أعمل كل ما في وسعي كي أحميها وأحبها وأعتني بها". وكانت الدموع آنذاك تترقرق من عينيه، فأشاح بيل بوجهه إذ لم يُرِدْ أن يتأثر. "وبالمقابل فإني أحترمك جداً ولا يمكن أن أقوم بأي أمر لا توافق عليه. إني أثق بعقلك الراجح وحكمك الجيد على الأشياء، رغم أني أعتقد أنك مخطئ فيما تفكر به بخصوص زواجنا. أعتقد أني وأنت لنا الحق بأن نحظى بحياة سعيدة، وزواج سعيد، كما كل الناس. وإن كنت لا أستطيع أن أمشي أو أن أستخدم ذراعي اليسرى فهذا لا يعني أنه ليس لي الحق بأن أحب. آمل أن تؤمن أنت أيضاً بذلك، ومن أجلك. ولكن إن كنت لا تريدني أن أتزوجها، أو كنت ستمانع، فإني سأقول لها بأني أعدتُ النظر في الموضوع وغيّرتُ رأيي. إن كان هذا ما تريده، فإني أفضل أن تكرهني أنا على أن تكرهك أنت. فأنت والدها، وهي في حاجة إليك، ربما أكثر مما تحتاج إلي. ولن أرضى بأن أكون عضواً في عائلتك إن كنت لا تريد ذلك. الأمر

يعود إليك". كان بيل يشعر بالألم وهو يصغي إليه. لقد كان يود أن يصبح كل ما يقوله حقيقة، ولكنه كان يعتقد أن الأمر سيكون بالغ الصعوبة بالنسبة لكليهما، وكان يريد أن يحمي ابنته الصغيرة. كان يريد لها أن تتزوج رجلاً يستطيع أن يسير معها عند غروب الشمس معتمداً على ساقيه.

"ماذا لو اكتشفت بعد المحاولة أنك لا تستطيع أن تنجب أطفالاً؟" لقد كانت هذه قضية هامة بالنسبة له، وكان يعرف أن جين ستفكر بهذا الأمر الذي سيصبح مشكلة لها أيضاً يوماً ما.

"في هذه الحالة سنتبنى طفلاً. لقد ناقشتُ هذا الأمر مع جين. ليس هناك ضمانات لأيٍّ كان. فالكثير من الأزواج ليس عندهم عجز أو نقص ما، يجدون أنه ليس بمقدورهم إنجاب أولاد. سوف نفعل كل ما نراه صائباً ومناسباً لكلينا".

كان بيل يعرف أنه لا يستطيع أن يسأل أي رجل المزيد من الأسئلة. لقد كان جو لطيفاً، محباً، ومفتوناً بجين، وذكياً، ومهذباً، ومراعياً لمشاعر الآخرين، ومثقفاً، وبحال مالية جيدة، ولكنه كان مقيداً إلى كرسي مدولب لبقية حياته. لقد كان هذا أصعب قرار يمكن لبيل أن يتخذه. أصغى إلى جو طويلاً، وبعدها، وبدموع في عينيه رفع ذراعيه وتعانق الرجلان.

"حسناً أيها الوغد الصغير". لقد كانت الدموع تنهمر من عينيهما، وكانت شفتا بيل ترتجفان وهو يصارع لئلا يقول شيئاً. "إلى الأمام. ولكن الويل لك إذا سببتَ لها التعاسة. فعندها سأنال أنا منك".

"أقسم لك أني سأفعل كل ما أمكنني لإسعادها ما حييت". ولم يكن هناك المزيد ليُقال، فكان هذا كل ما يمكن أن يطلبه رجل ممن سيتزوج ابنته. مسح كلا الرجلين عينيه وابتسما، وأخرج بيل إحدى زجاجات المشروب المفضل من الثلاجة في غرفته.

"متى تنويان الزواج؟" سأل بيل وهو يصب كأساً من المشروب المفضل لكل منهما. لقد شعر بالتعب وكأنه تسلق جبال الألب في نصف الساعة الأخيرة، وشعر جو بنفس الإرهاق أيضاً.

"لقد فكرنا أن نعقد زفافنا في حزيران (يونيو) أو تموز (يوليو). وسوف ألتحق بكلية الحقوق في جامعة نيويورك، ويمكننا أن نحصل فيها على مسكن للمتزوجين، وهكذا لن يؤثر زواجنا على التزامها بالجامعة". كانت ستبلغ العشرين وتصل إلى السنة قبل الأخيرة خلال خريف ذلك العام. أما هو فكان في الثالثة والعشرين. لقد كانا فتيين بالتأكيد، ولكن ثمة آخرين تزوجوا قبل هكذا عمر، وكان زواجهما ناجحاً. كان بيل يأمل أن يكون الحظ من نصيبهما في الزواج، وكان هذا كل ما يتمناه لهما.

"متى ستغادر هذا المشفى؟" سأله بيل.

"خلال شهر أو اثنين. فقد مضت سنة على وجودي هنا، ويعتقدون أنه آن لي أن أغادر. لقد كنت أفكر بأن أذهب إلى منزلنا في مينيبوليس لبرهة". أومأ بيل برأسه. لقد بدا كل شيء معقول، إذا كنت تستطيع أن تقول هكذا. لو لم يكن جو في كرسي ذي عجلات لكان بيل سيقفز من الفرح. ولكن الآن، على الأقل وافق على الزواج.

احتسى كلاهما بعض الشراب، واتصل جو بجين عندما عاد إلى غرفته. لقد كان يشعر بأنه مستنزف القوى تماماً. لقد كان مرتاعاً مما سيقوله بيل، ولكن سارت الأمور على ما يرام بشكل مذهل وإذ سمعت جين بالنبأ انفجرت بالدموع من الفرح. فقد كانت مباركة والدها للزفاف تساوي العالم بالنسبة لها. فلم تكن لتريد أن تتزوج ما لم يوافق، وهذا كان موقف جو أيضاً.

وما هي إلا خمس دقائق على مغادرة جو للغرفة حتى اتصلت جين ببيل، وكانت تبكي وتضحك في نفس الوقت وهي تشكره، ثم أعطت السماعة لسنثيا التي دخلت على الخط.

"نعم ما فعلت. لقد قلقتُ عليك لوهلة، ولكنك فعلت الصواب". لقد بدت هادئة وراشدة بشكل لافت للانتباه. لقد نضجن جميعاً في السنة الأخيرة، وليس فقط الأولاد.

"ما الذي يجعلك متأكدة إلى هذا الحد؟" سألها بيل ولا يزال يبدو القلق

عليه.

"لقد عرفت للتو. وأدرك أنك خائف قليلاً عليها. ولكن ليطمئن قلبك، فسيكون جيداً طيباً معها". لقد كان هذا جلّ ما يطلبانه. أما باقي الأشياء فمتروكة للقدر.

"يحسنُ به أن يكون هكذا. وإلا سيكون عليه مواجهتي أنا عندئذ".

"إني فخورة بك". قالت سنثيا.

"إياك وذلك، فالشاب ظريف، ولم يكن في وسعي أن أرفضه".

"يسرني ذلك".

وهذا ما قالته إيزابيل أيضاً عندما اتصلت بها لتعرف مجريات الأمور معه.

"ما كنت لأسامحك لو أنك رفضت". قالت له بحماس. لقد كان هذا الموضوع يقلق بالها طوال الليل، واستيقظت في الساعة الرابعة لكي تتمكن من الاتصال به. لقد كان الجميع يشجعونهما ويؤيدونهما. فالحب لا يمكن أبداً مقاومته، وكان من الواضح والمؤكد أن جو وجين كانا يحبان بعضهما البعض. وكان بيل يأمل أن تكون الحياة طيبة معهما. فعلى الأقل جو دفع رسوم الحياة.

في ذلك الوقت حل الربيع في باريس، ولم يكن قد طرأ أي تغيير على حياة إيزابيل في الشهرين الأخيرين. فهي لم تجابه غوردون باكتشافها للحقيقة. لقد كانت تكسب الوقت. ولكن كل شيء تغير بالنسبة لها مذ اكتشفت علاقته بلويزا. فما عادت تشعر بالذنب بسبب ما كانت تشعر به نحو بيل، وظلت بعيدة عن غوردون معظم الوقت. فلم تقدم له أي اعتذار، ولم ترجُ شيئاً منه. لقد غدا مجرد رجل ما عادت تعرفه يقطن في نفس العنوان. وكان بيل يخشى أن يكتشف غوردون أي تغيير عند إيزابيل. ولكن حتى الآن لم يبدُ عليه أنه لاحظ أي شيء.

كان بيل لا يزال يتصل بها كل يوم، ولكنه كان يعلم أن عليه اتخاذ بعض

القرارات في القريب العاجل. لقد مضى عليه سبعة أشهر في مركز إعادة التأهيل، ورغم أنه كان أقوى وأفضل صحة، إلا أنه لم تطرأ عليه أية تغييرات كبيرة هامة. لقد تماثل جسده للشفاء، وكان قد خطط أصلاً لأن يبقى سنة هناك، ولكن المعالجين الفيزيائيين القائمين على العناية به كانوا يقولون له بأنه سيكون قادراً على مغادرة المشفى قريباً. لقد كان يفكر متردداً بأن يغادر في أيار. لقد قالوا له أخيراً أنه ما عاد لديهم المزيد ليعملوه من أجله. لقد تحتم عليه أن يبقى مقيداً إلى كرسي مدولب طيلة حياته. لم تكن هناك إمكانية لاجتراح معجزة، وما من عملية جراحية كان ليمكن أن تفيده. صار عليه لزاماً أن يتأقلم مع العيش على هذا المنوال الذي هو عليه والذي سيبقى عليه. لقد كانت هذه الضربة الأقسى التي يمكن أن يتخيلها. أما أسوأ ضربة كانت ستصيبه فيما لو ماتت إيزابيل في الحادث عندما اصطدموا بالحافلة. بالنسبة له، عجزه عن المشي كان يعني عدم رؤيتها من جديد. لقد كان يؤثر الموت على أن يحملها عبء عجزه. وشعر كأنه مات عندما أخبروه أنه ليس في مقدورهم أن يعملوا أي شيء آخر له. لم يكن قد أخبرها بعد أن الأمر قد انتهى، ولكن كان يدرك أنه سيتوجب عليه ذلك في أقرب وقت، ولذلك فإنه لن يغير رأيه. لقد كان قد أقسم أن ينسحب من العلاقة معها بهدوء في أقرب فرصة.

كان أصدقاؤه لا يزالون يتصلون به من واشنطن، وأحد المرشحين الهامين لمجلس الشيوخ كان يطلب منه أن يتولى حملته الانتخابية في حزيران (يونيو). لقد كان هذا يتشوق إلى الوصول إلى سدة الرئاسة خلال أربع سنوات، وكان يعرف أن بيل هو الرجل الذي يستطيع أن يضمن له ذلك. وبرغم كل شيء وعده بيل بأنه سيفعل ذلك.

وتحدث عن هذا إلى إيزابيل، وقالت إنها أصبحت تعتقد أنه سيكون مفيداً له أن يعود إلى أجواء العمل. لقد كانت تدرك أنه ولا بد كان يشعر بالإحباط أحياناً لأنه لم يحقق تقدماً في مركز إعادة التأهيل البدني رغم أنهم بذلوا كل

جهدهم هناك. وكانت مصيبة في إحساسها بأنه يستصعب الانتقال. فمغادرته لمركز التأهيل كان كمثل ترك الجنين برحم أمه.

وأما بالنسبة لجروحها هي فقد كانت قد شفيت آنذاك. والاختبارات والتحاليل التي قامت بها أظهرت نتائج طبيعية، وما عادت تشعر بالصداع. لقد تماثلت تماماً للشفاء، ولم يبقَ أي أثر للحادث ما عدا ندبة رفيعة طويلة على ذراعها اليسرى حيث أجريت عملية خياطة لشريانها. فلم تبقَ هناك أية آثار من الحادثة إلا العلاقة التي نشأت بينهما في المشفى. وكانت لا تزال مشتاقة إليه، وطلبت منه أن يأتي لرؤيتها عندما يخرج من مركز إعادة التأهيل. ولكن كلما طلبت منه ذلك كان يجيب بطريقة مبهمة. لقد كانت تعلم أنه لم يحن الأوان بعد بالنسبة له ليقوم بمخططات سفر، ولكنها كانت ترجو أن يقوم بذلك عاجلاً. لم تَرَهُ خلال سبعة أشهر بدت دهرية لها. وكانت كذلك بالنسبة لبيل.

لقد كان هذا مصدر عذاب دائم له مع مرور الوقت، وكان يعاني من ذلك منذ زمن ليس بيسير. لقد كان يريد أن يراها، ولكنه لم يكن يجد هذا مناسباً له. فمنذ تفهم وتقبل حقيقة أنه لن يكون بمقدوره أن يمشي من جديد تغير كل شيء بالنسبة له. شعر وكأنه يخدعها. ففي نظره، لم يعد يملك ما يقدمه لها ما عدا الدعم المعنوي وبعض الدقائق الخاطفة التي كان يمكن أن يشاركها حبها بضع مرات في السنة. لم يكن لديه إلا القليل ليعطيه لها، وليس لديه أي شيء في المستقبل لها طالما أنها متزوجة ولا يمكن أن تحظى بالسلام هي أو طفلها المريض بسبب غوردون. ما كان لديه إلا الكلمات ليقدمها لها. الشيء الوحيد الذي لم يكن يريده منها هو الشفقة. فما كان ليحتمل ذلك. وكان يعلم أنه إذا ما اختار أن يتركها، ومن أجلها، فإنها يجب أن تظن أنه سليم معافى. وإلا فإنها ستشعر أنه بحاجة إليها وفي هذه الحال لن تسمح له بهجرها. لقد كان يعرف طبعها تمام المعرفة. ولكنه في كل مرة فكّر أن يهجرها، أو ألا يتصل بها، كان يشعر بقلبه يكاد يتحطم. لم يكن يريدها أن

تشعر أنها متروكة مهملة، ولكنه كان في قرارة نفسه يفكر أن هذا أفضل بالنسبة لها على المدى البعيد. لو أمكنه أن يقدم لها مستقبلاً ما على الشكل الذي يرغب به لكان انتظرها إلى الأبد. أما الآن وقد أدرك أنه لن يستطيع ذلك وأنه سيبقى معتمداً على الكرسي المدولب للأبد فقد كان يرتأي أن يتركها وشأنها وذلك من أجلها. وحتى لو كان جو وجين مجانين كفاية ليحاولا بناء حياة زوجية معاً، وهذا ما كان لا يتوقعه، فإنه لن يفعل ذلك مع إيزابيل. وشيئاً فشيئاً بدأ هذا الأمر يصبح مباراة مصارعة بين بيل وضميره كل يوم.

النعمة الوحيدة التي منّت بها السماء عليها، إضافة إلى بيل، كانت أن تيدي تحسن وضعه الصحي بشكل كبير جداً خلال الشهرين الأخيرين. لم تعرف إذا ما كان ذلك بتأثير الطقس، أم الحظ، ولكنه بدا أقوى وأفضل حالاً مما كان عليه طوال السنة. بل حتى لقد نزل إلى الطابق الأسفل ليتناول طعام العشاء معها في غرفة الطعام عدة مرات. وفي نيسان (أبريل)، أخذته إلى بوا دي بولون[1] لأول مرة منذ سنوات، وتوقفا لتناول المثلجات في جاردين دي أكليماتاسيون، وكانت في غاية الابتهاج عندما اتصلت ببيل وأخبرته بذلك. فلم تكن قد فعلت مثل هذا منذ كان تيدي صغيراً. وشكرت الله على فضله في حياتها عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره في الأول من أيار (مايو).

واتصل بيل بعد ظهر اليوم التالي، وبدأ يضع الأساس لما أقنع نفسه بأن عليه القيام به. فأخبرها بأول أكذوبة. لقد فكر بها كثيراً. ورغم صعوبة ذلك إلا أنه كان يعرف أنه يفعل ذلك من أجلها. لقد كان يحبها لدرجة أنه كان مستعداً ليضحي بحياته من أجلها. لقد غدا تيدي في حال أفضل، وغوردون تركها بسلام لعدة أشهر. فقد كان قلما يتواجد في المنزل. وشعر بيل أنه لن تسنح له فرصة أفضل من الآن للقيام بما كان يعتقد أن عليه القيام به. وبقلب منسحق اتصل بها ليحمل لها أخباراً طبية، وحاول أن يجعل نفسه يبدو مقنعاً.

(1) بوا دي بولون: (Bois de Boulogne): منطقة مترفة للاستجمام في ضواحي باريس.

لقد كانت تعرفه حق المعرفة، فكان يخشى أن تدرك أن ما يقوله لها ليس حقيقياً. ولكن صدقته وبأعجوبة عندما أخبرها أنه مشى على قدميه ذلك اليوم، وأنه استعاد قدرة دماغه على السيطرة على ساقيه. بَدَتْ مندهلة مما تسمع، وانفجرت بالدموع من الفرح لأجله، وهذا ما جعله يشعر بالأسى أكثر. ولكنه كان مصمماً على متابعة الخطة التي بدأها. لقد كان يعتقد أن عليه أن يدعها تمضي في سبيلها، كرمى لها، وأن يقنعها بأنه كان معافى. فلديها تيدي لتُعنى به، ولا يعوزها عبء بيل أيضاً لتحمله. لم يكن يشعر أن لديه ما يقدمه لها مهما كانت نتيجة علاقتها مع غوردون. لم يكن يريد أن يزيد من همومها وأثقالها. لقد كان يأبى أن يحطم حياتها ويحولها إلى حاضنة أو مربية أطفال له يوماً ما. خلافاً لجو وجين، كان لبيل معرفة أكبر بأمور الحياة. ما كان ليتقبل أن تشفق عليه، أو أن تنقذه، أو تعتني به. وبما أنه كان عاجزاً عن السير، فإنه كان يأبى أن يبقى في حياة إيزابيل. وما كان قد أخبرها به لتوه، في أنه سار ذلك اليوم، إلا الخطوة الأولى نحو إطلاقه لحالها. ففي نظره، كان هذا هو ما تبقى له ليعطيه. لقد كان ذلك بمثابة إطلاق الحرية لعصفور جميل.

تحدثا معاً وقتاً طويلاً، وسألته عن شعوره عندما خطا أول خطواته، وهل كان خائفاً أم مسروراً. لقد كان قد درس خطته بإحكام. ويوماً بعد يوم صار يعزّز قصته. لقد شعر بالألم والإرهاق لاتصاله بها، إذ كان يكره أن يكذب عليها. شعر أنه ليس لديه خيار، ولكن هذا أفسد كل اتصالاتهما الهاتفية، لأنه كان يكذب عليها. لقد كانت حميمة رائعة رقيقة وواثقة به، وكان يحبها للغاية، حتى إنه ما كان يطيق أن يبقى في حياتها على وضعه الحالي. لقد كان يرى أنه الآن نصف إنسان، أو أقل، وليس عنده بعد ما يقدمه لأي امرأة. حتى ولو كانت أجزاء من جسمه تقوم بوظائفها الآن ولكن كانت هناك أيضاً أعضاء مثبطة معطلة، وسوف لن تعمل أبداً. في نظره، إن التكهنات التي أعطاها له المعالجون الفيزيائيون قد حطمت فعلياً آماله في الحياة والعلاقة التي كان

يشاطر بها إيزابيل.

عــندما كــان بــيل لا يــتحدث إليها، كان يخطط لحياته المستقبلية في واشنطن. لقد بدأ يفكر ويضع مخططات لما سيفعله بعد أن يغادر مركز إعادة التأهــيل. كــان قــد وعد أن يأخذ على عاتقه الحملة الانتخابية لمرشح عضو مجلس الشيوخ في نهاية حزيران (يونيو).

كــان عليه أن يحصل على شقة قبل ذلك، وكان يجب أن يمضي بعض الوقت مع المرشح ويعرف كل ما أمكنه عنه. وقبل العودة إلى العمل كان هناك زفــاف جو وجين في حزيران (يونيو). لقد كانت تنوي أن تضع نصف دزينة مــن الأشــابين، وأن تكون أوليفيا إشبينة الشرف، وكانوا يعتزمون إقامة حفل زفــاف فــي المنزل في غرينويتش. كانوا سيستقبلون ثلاثمائة مدعو في خيمة علــى المــرجة الأمامية. كانت الحياة حافلة بالأحداث، وكانت سنثيا في سعي حثيــث لإجــراء الترتيبات مع متعهدي الحفلات وبائعي الزهور، والذهاب مع البنات إلى تجريب الثياب.

كــان جــو وجين على اتصال دائم. وكانا قد تسجّلا في مساكن الطلاب المتزوجين في جامعة نيويورك. وكانت قد ذهبت إلى مينيابوليس لتتعرف إلى والديه. وكانا يعتزمان قضاء شهر العسل في إيطاليا. وإذ كان يصغي إلى جو كلمــا ذهــب إلى جلسة العلاج معه كل يوم، كان بيل يشعر بالتعب والاستياء أكــثر بسبب ما ينوي القيام به بخصوص إيزابيل. ولكنه كان قد صمم الرأي وعقــد العــزم. وكان يشعر بشكل أكيد أن هذا هو الخيار الوحيد أمامه، وأنه العمل الصائب الذي ينبغي أن يقوم به. بالنسبة لــه، كان قد استقر على قراره الذي اتخذه، ولم يبقَ إلا أن يخبرها به.

'هــل أنت على ما يرام؟' سأله جو بعد ظهر ذات يوم بينما كانا يعودان أدراجهما إلى غرفهما. "إنك في غاية الهدوء في الآونة الأخيرة". لقد كان جو قلقــاً علــيه. لقد كان يدرك أن بيل وصل إلى طريق مسدود في رحلة شفائه، وكــان قلقاً بخصوص تأثير ذلك عليه. لقد كان هناك وقت كانا فيه معاً عندما

توجب عليهما مواجهة الحقيقة والواقع.

"أستعد للعودة إلى العالم الحقيقي. لدي أمور كثيرة أقوم بها بعد الزفاف". أوضــح لـــه بيل، ولكن جو كان قد لاحظ أن حماه المستقبلي قد فقد اهتمامه بالعلاج بشكل كامل تقريباً في الشهر الأخير، وأنه أيضاً توقف عن رؤية ليندا هاركورت في جلسات المعالجة. لم يبقَ عنده ما يقوله، ولم يعد لديه اهتمامات يكتــبها. لقد فقد كل أمل بالحياة مع إيزابيل ووافق بيل على المكوث في مركز إعــادة التأهيل لشهر آخر، ولكن بدا كأن قلبه ما عاد هناك. لقد صار خاضعاً لعقلــه. وبدا ذاهلاً وهادئاً، وعندما كان لا يلقي بالاً إلى الناس حوله، وقد غدا هذا كثيراً الآن، كان يبدو مكتئباً، وهكذا كان حاله بالفعل.

فــي نهايــة أيار (مايو) التقى بيل بالصدفة بهيلين في طريق العودة من ردهة الطعام، وكانت تبكي. لقد كانت تتجاوزه بكرسيها وكادت ترتطم به وهي تتجاوزه.

"هــيه. أن تصطدمي بأحد وتهربي هي جناية". ناداها بيل بصوت عالٍ، فأبطأت سيرها كي تتوقف دون أن تحاول أن تلتفت إليه. ووضعت يداها على وجهها وراحت تنشج بالبكاء. فاقترب بكرسيه لمحاذاتها ووضع يده على كتفها وقال لها: "هل أستطيع مساعدتك؟". هزت رأسها لوهلة، ولم تجب. ثم نظرت إلــيه بعينيــن دامعتين. وإذ أزاح يدها عن وجهها، أمكنه أن يرى أنها كانت قد خلعــت الخاتم من إصبعها، تلك الجوهرة الكبيرة الحجم التي كانت تضعها في إصــبعها والتــي رآها في يدها منذ التقيا لأول مرة قبل تسعة أشهر. وأمكنه بســهولة بالتالي أن يخمن ما حدث. "هل تودين أن نتحدث معاً قليلاً؟" فأومأت برأســها. فعادا عندئذ إلى غرفته، وناولها لفيفة من المناديل الورقية. وبعد أن تمخطت، شكرته بابتسامة حزينة.

واعــتذرت مــنه قائلة: "أنا آسفة، فأنا مشوشة". لقد كانت جميلة كالعادة حــتى وهــي تبكي. لقد كانت فتاةً تثير الإعجاب، رغم أنها كانت في كرسي مدولب.

"هل سأخمن ما حدث وحدي أم أنك تريدين أن تخبريني؟".

"إنه سيرجيو. لقد اتصل... إن الحظ العاثر يرافقنا مؤخراً. لقد كان يعمل في ميلان، وكان يغيب كثيراً. أجّلنا موعد الزفاف منذ عدة أشهر لأنه اعتقد أنه فـي حاجـة إلـى مـزيد من الوقت... تباً، يا بيل، لقد كنا نتواعد لمدة ست سـنوات... ولكنـنا لم نخطب إلا بعد الحادث. أعتقد أنه قام بهذه الخطوة لأنه شـعر بالذنـب إذ إنني سقطت عندما كنت أعمل لحسابه. في ذلك اليوم، كان يطلـب منـي أن أعود إلى الوراء أكثر وأكثر، وبعدها سقطت على درجات السـلم... و... والآن أخبرني أنه لا يستطيع الاستمرار في هذه العلاقة معي، لأنهـا صعبة جداً عليه، إذ إنني في حاجة إلى عناية شديدة. ويقول إنه يحتاج إلـى امرأة في حياته تكون مستقلة أكثر. إنه بسبب هذا". قالت ذلك وضربت جوانـب كرسـيها المدولـب، وشرعت بالبكاء من جديد، في حين وضع بيل ذراعـه حـول كتفيها. إن قدرتها على التلفّظ غير الواضح تحسنت كثيراً في الأشهر التسعة الأخيرة، خلافاً لباقي أحوالها التي لن تتحسن أبداً. لقد كان هذا مـا يخشاه بيل بخصوص جو وجين، وهذا هو السبب الذي لأجله أراد إطلاق حال إيزابيل الآن قبل أن يأتي وقت تكرهه فيه بسبب عجزه.

"لربما أفزعه هذا الوضع". قال بيل بعقلانية. كان سيرجيو أحد أكثر المصورين الشبان الناجحين في هذا المجال، وكان في التاسعة والعشرين من العمر. وكان بإمكانه أيضاً أن يحصل على أية عارضة أو فتاة موديل يريدها، حتى من لا تكون في كرسي مدولب. لقد كان جميلاً لو أمكنه أن يفي بوعده لهلين، ولكن، كما قال بيل لها، إذا كان هذا الأمر فوق طاقته فمن الأفضل أن يصارحها بذلك الآن. "هل تعلمين يا هيلينا؟، إذا كان لا يستطيع الالتزام معك فإن ما فعله هو الصواب. فأنت لا تريدينه أن يهجرك بعد أن تكونا قد تزوجتما. فمن الأفضل لك الآن أن تعرفي إذا كان هو الشخص المناسب لك أم لا". لقد كان هذا رأيه أيضاً بخصوص إيزابيل، فرغم أنه كان يعرف أنها لن تتخلى عنه أبداً، إلا أنه فكر أنها يجب أن تفعل ذلك. وإذا كانت لا تقبل أبداً أن

تقوم بذلك، فهو سيفعل ذلك ومن أجلها هي. لقد استسلم لنوبة اليأس التي انتابته في الأسابيع الماضية وأقنع نفسه أنه كان على صواب. وما فعل سيرجيو الآن إزاء هيلينا أكد لـه صحة كل ما كان يفكر به، فالناس "الأصحاء" ليس لهم أن يتواصلوا مع من هم أقل شأناً. "صدقيني يا هيلينا، يوماً ما سوف تُسرّين لأن هذا حدث". قال لها، وبدأت هي بالبكاء على نحو أشد. لم تكن لتفقه الموضوع على هذا النحو. فقد كانت تحبه وتظن أنه هو أيضاً كان يحبها. لقد كانت قد جهزت فستان زفافها، واختارت متعهد الحفلات، والمصور الفوتوغرافي، والفرقة الموسيقية. ولكن للزواج كان أكبر من ذلك بكثير، خاصة في ظروفهم هذه.

"لما سيسرني أن يكون هذا قد حدث؟" لم تكن لتجد أن كلام بيل معقولاً.

"ذلك لأنك لا تودين أن تكوني عبئاً عليه. فهكذا سيكرهك فقط".

"أنا لست عبئاً". قالت وهي تبدو ساخطة. "أنا لستُ مختلفة عما كنت عليه قبل الحادث. فأنا لا زلتُ نفس الشخص". كان جو وجين ليستحسنان ما كانت تقوله، أما بيل فلا. لقد كانت لديه وجهة النظر المعاكسة.

"ليس أحد منا هو ذاتُه. لا يمكننا أن نكون هكذا. إن لدينا عجزاً ومحدودية. فثمة أشياء لن نستطيع القيام بها ثانيةً". قال بيل في هدوء وهو يفكر بإيزابيل.

"مثل ماذا؟ الرقص؟ التزلج على الثلج؟ التزلج؟ من يهتم؟" وتمخطت من جديد.

"من الواضح أنه هو يهتم. هذا رأيي. على الأقل كان صادقاً معك، وهذا يعجبني في هذا الشاب".

"أمـا أنـا فلسـتُ معجبة به. فهو حثالة. فأنا لم أخطئ إليه حتى يتخلى عني".

"لا. كل ما هنالك هو أن حظك سيء. كلنا كذلك. ولهذا فنحن هنا".

"هل تريد القول أن ما من أحد سيحبنا لأننا على هذا الحال؟ إنك مخطئ، على ما أعتقد، ومن البغيض أن تقول ذلك. وماذا عن جو وجين؟ انظر إليهما".

"إنك أكثر نضجاً ورشداً وينبغي أن تكوني أكثر ذكاءً منهما". كانت في الثامنة والعشرين من عمرها، وكانت ترغب أن يكون لها حياة وزوج وأولاد. "لا أزال أعتقد أنهما يرتكبان خطأً، ويوماً ما سوف يدفعان ثمنه. ولربما ستفعل جين ما فعله سيرجيو لتوه. وماذا سيكون عليه الأمر عندئذ؟ في ذلك الوقت سيكون قد صار لديهما ولدان، وسوف يدمّران حياة الجميع".

"أهذا ما تعتقده؟ أنه ما من أحد سيبقى إلى جانبنا أو يرغب فينا؟ هذا هراء، فأنت تعرف ذلك. أو على الأقل آمل أنك تدرك ذلك. إن لنا الحق في أن نحظى ونتمتع بكل الأشياء التي ينالها الأخرون".

"ربما لا". قال لها وقد بدا متجهماً. "أو لنقل على الأقل، أنني لا أعتقد ذلك. لا يسعني أن أتحدث عن نفسي فقط. ولكن لا أعتقد أن لي الحق في أن أبلي الآخرين بهذه" قال ذلك وقد أشار بيده إلى الكرسي ذي العجلات. "فليس هذا من الإنصاف في شيء". لقد كان كلاهما يدرك أنه إنما يتحدث عن إيزابيل، وبدت هيلينا أكثر استياءً.

"هل تحدثت إلى الطبيب النفساني هنا يا بيل مؤخراً؟" سألته وقد أصابها فجأة قلق عليه أكثر من القلق على نفسها. "أعتقد أنك في حاجة إلى ذلك، لأني أظن أن موقفك هذا بغيض ومقيت. وفي رأيي أن سيرجيو نذل حقير، وربما تكون على حق في أنه كان من الأفضل لي أنه تركني الآن بدلاً من أن يهجرني فيما بعد، ولكن لا أعتقد أن لهذا علاقة بهذه" وأشارت بيدها إلى كرسيه المدولب بنفس الطريقة كما فعل. "أعتقد أن هذا يتعلق بحبه لي أو لا، وبنوع الزوجة التي يظن أني سأكونها. ربما يعتقد أني لستُ صالحة كفاية له".

"هذا رأيي". قال بيل بثقة، ونظرت إليه هيلينا بغضب.

"لا. ليس الأمر كذلك يا بيل. إنك مشوش. أنت تعتقد أننا فقدنا حقنا بأن نُحَبّ لأننا انتهينا إلى كرسي مدولب. لا أعتقد ذلك، وسوف لن أفكر هكذا أبداً.

هناك أناس كثيرون خارج هذا المكان لا يشكل أي فارق بالنسبة لهم أبداً فيما إذا كنا نستطيع الوقوف على أقدامنا أم أننا مقعدون. أنا أيضاً لا أحب أن أكون هكذا، فأنا أحب أن أركض مستندة إلى ساقيّ وأن أنتعل الأحذية ذات الكعب العالي. ولكني لستُ كذلك. فماذا إذاً؟ هل تريد أن تقول لي بأنك لا يمكن أن تحب امرأةً في كرسي مدولب؟ هل أنت محدود التفكير إلى هذا الحد؟ لا أعتقد أنك كذلك" ونظرت إليه نظرة ثاقبة حادة.

"ربما لا". قال بمراوغة متفادياً سؤالها، ولكن كان يدرك، رغم نفسه، أن ثمة بعض الحقيقة والصواب في ما كانت تقوله. فلو كانت إيزابيل انتهت إلى كرسي مدولب، لأحبّها بنفس المقدار بل ربما أكثر. ولكن لم تكن هذه هي الحالة. وما أود قوله هو أن بعض الناس ليست نفوسهم كبيرة ليفعلوا ذلك. وحتى لو كانوا كذلك، فعليك أن تمعني التفكير وتسألي نفسك إذا ما كنت تريدين أن تفعلي ذلك بهم. هل تريدين حقاً تعريضهم لذلك، وهل تحبينهم بما يكفي لتهجريهم؟" لقد كان يتحدث عن نفسه، وبدت هيلينا مشوشة محتارة.

"لماذا لا يلقون بنا جميعاً على جبل جليدي بعيد في مكان ما؟ فهذا قد يحل المشكلة. عندئذ لن نشكل مشكلة لأحد، وسوف لن يضطروا لأن يكونوا بشراً مهذبين، أو أن تكون لديهم أية مشاعر عاطفية نحونا، أو حتى لأن يكونوا راشدين ناضجين. هل تعلم؟ إني معجبة جداً بجين وجو على الخطوات التي يقومان بها. إنهما يؤمنان ببعضهما البعض، وهما على صواب. كل منهما يحب الآخر، وهذا يجعلهم جديرين بكل شيء. وما خلا ذلك، ووجود الكرسي المدولب، أو العكاكيز، أو انعدامها لا يهم البتة. على الأقل لا يهمني أنا هذا أبداً. فلا يهمني حتى لو كان الشخص الذي أتزوجه أصمّاً وأبكماً وأعمى، طالما أنه شخص جيد طيب، وأننا نحب بعضنا البعض، وأنه إنسان جدير بالاحترام، فهذا يكفيني. فهذا الكرسي المدولب لا تعني لي شيئاً البتة حتى وإن كان هناك شخص آخر مكاني فيها".

"حسناً. إذاً تزوجيني" قال بيل مازحاً، وأسندت رأسها إلى الخلف في

كرسيها وهي تبتسم وسط الدموع.

"أنت مزعج للغاية" ضحكت وهي تقول لـه ذلك. "وأراؤك بغيضة. ولا أزال أعتقد أن عليك أن تتحدث إلى الطبيب النفساني قبل أن تغادر هذا المكان، وإلا فإنك سترتكب بعض الحماقات". لقد كانت إحدى مريضات ليندا هاركورت أيضاً، وقد أحرزت نجاحاً كبيراً معها، لأنها كانت تريد ذلك.

"مثل ماذا؟" بدا يتخذ موقفاً دفاعياً. لقد كان يحبها، فقد كانت فتاة متألقة، وكانا قد أصبحا صديقين حميمين.

"كأن تتخلى عن الناس الذين يحبونك لأنك تشعر أنك عبء عليهم. لماذا لا تتركهم يقررون ذلك بأنفسهم بدلاً من أن تقرر أنت بنفسك عنهم؟ ليس لك الحق أبداً في أن تتدخل في تفكيرهم أو تتخذ القرارات عنهم".

"ربما أنا أعرف أكثر منهم. إذا كنتِ تحبين شخصاً فإنك ترغبين أن تحميه حتى من نفسه".

"لا يمكنك أن تحمي الناس" قالت هيلينا بوضوح. لقد بذلت جهداً كبيراً كي تشفى وواجهت أموراً كثيرة، حتى أكثر من بيل. لقد أمضى كل وقته يرفع الأثقال، وتحاشى الاحتكاك مع الطبيب النفساني في نهاية المطاف. وكانت هيلينا تعرف ذلك. واستأنفت تقول. " للناس الحق في أن يتخذوا قراراتهم بأنفسهم. لا يمكنك أن تحرمهم هذا الحق، كما ولا يمكنهم هم أيضاً ذلك. إنها مسألة احترام".

"ربما تكونين محقة". قال بيل وهو غارق في تفكير حزين. "ليست لدي الأجوبة. لدي فقط الأسئلة. أنا أكبر منك سناً بكثير. لربما كنت أكثر شجاعة لو كنت في مثل سنك. ربما تكونين على صواب. وربما يكون سيرجيو تافهاً. ولكن إذا كان كذلك، فإن الأفضل لك أن تكوني بدونه، ومن الأفضل لك أن تعلمي ذلك الآن".

"أوافقك الرأي من هذه الناحية". قالت لـه بحزن "ولكن الأمر مؤلم بأي حال من الأحوال".

"نعم. إنه كذلك. ولكن الحياة مؤلمة أيضاً. فثمة أمورٌ كثيرة تحدث تلسع الإنسان كنار الجحيم. بعض الناس يخذلونك. فمن الحسن أن تتخلصي منهم في أسرع وقت ممكن". قال لها ذلك، وأومأت هي برأسها موافقة. لقد كان يفكر بسنثيا، ولم يكن لهذا علاقة بكرسيه.

"أعتقد أن سيرجيو هو نموذج عن هؤلاء". قالت لـه متأملة متفكرة.

"لربما تحصلين في المرة القادمة على خاتم أصغر حجماً، وشاب أكبر حجماً". وأومأت برأسها، وراحا يتحدثان مع بعض لفترة، ثم عادت إلى غرفتها بعد أن ذكّرت بيل ثانيةً بأنها ترى أن يحاول رؤية الطبيب النفساني قبل رحيله. وعندما اتصلت به إيزابيل فيما بعد تلك الليلة بدا مضطرباً. فبعض الأشياء التي كانت قد قالته لـه هيلينا أربكته من جديد. لقد كانت نظرتها إلى محدوديتهم وعجزهم تثير الإعجاب إذ كانت ترى أن هذه العوائق لا تشكل حاجزاً بينهم وبين الناس الذين يحبونهم، وكان يتساءل إذا ما كانت مصيبة في رأيها، ولكن ليس تماماً. لقد كانت امرأة فتية، وإذا كان من رجل يريد أن يهتم بها هذا أمرٌ. وأما هو فكان رجلاً، وبالتالي فهذا أمر آخر، إذ كان يشعر أن عليه أن يكون أكثر قدرةً على العطاء من ذلك.

"تبدو متعباً". قالت إيزابيل وقد شعرت سريعاً أنه يشعر بالإحباط والإنهاك. "هل سرتَ كثيراً اليوم حتى أجهدتَ نفسك؟" لقد صدقَتْهُ تماماً، بخصوص ما قاله لها عن تمكنه من المشي من جديد. وإذ أصغى إليها نظر إلى كرسيه المدولب وهو يشعر بالذنب. لقد كانت هذه الكذبة هي ما جعل رؤيته لها أمراً مستحيلاً. لكأنه بذلك قد وضع لنفسه السم في الطعام، وما عاد يستطيع الاقتراب منه. ولكن كان هذا عزمه وخطته. وما كانت لديه نية بأن يتراجع عنها الآن رغم ما قالته هيلينا. لقد تجاوز الحد الذي يستطيع معه التراجع، وكان لا يزال مقتنعاً أن هجره لها هو الحل الصحيح الذي عليه القيام به. ولكن السؤال الوحيد الباقي في ذهنه هو متى يكون ذلك.

"نعم على ما أعتقد. لدي أمور كثيرة أعملها قبل رحيلي"، قال ذلك

بصيغة مبهمة.

"لقد أنجزوا عملاً عظيماً". قالت إيزابيل وقد بدت أكثر لطفاً ورقة وثقة من قبل ومجرد سماعه لها كان يمزق فؤاده. فرغم أنه ضللها، إلا أنه كان يريد أن يجعلها حرة من أي عبء كان يشير وبكل تأكيد أنه سيدمر حياتها. وكان يعرف أن هيلينا كانت لتقول لـه أن لإيزابيل الحق في أن تتخذ خياراتها الخاصة بنفسها، وأنه كان يحرمها من ذلك الحق. ولكنه كان مقتنعاً بأنه يعرف أفضل، وأن إيزابيل كانت في غاية اللطف والرقة حتى إنها لا يمكن أن تتخلى عنه. ولكن وعلى مدى أيام عديدة، شعرت بشيء غريب في صوته، ولم تستطع أن تعرف ما هو. لقد بدا مختلفاً وبعيداً وتعيساً. لقد كانت تخمن أنه متوتر الأعصاب بسبب مغادرته لبيئة مركز التأهيل التي كانت تعطيه إحساساً بالحماية، ولبدئه بحياة جديدة. أما الآن وقد صار قادراً على أن يمشي من جديد، وعلى حد علمها، فإن الأمور ستصبح أكثر سهولة بالنسبة لـه، ولذلك فقد كانت تشعر بارتياح شديد.

"كيف تسير أمور التحضير للزفاف؟" سألته بعد بضع دقائق، وهي ترجو أن تصرف انتباهه عما كان يزعجه ويقلقه.

"سنثيا شديدة الحماسة. وأما أنا فأحاول أن أبقى بعيداً عن هذه الأمور. كل ما ينبغي علي أن أفعله هو أن أدفع الفواتير. وهذا هو الجانب السهل من العملية". أما الجانب الصعب فكان ما يخطط بالقيام به تجاه إيزابيل. ولكنها ما كانت تعرف بذلك بعد. "كيف هو تيدي؟" سألها ليغير الموضوع بسرعة، لقد لاحظت أنه يفعل ذلك كثيراً هذه الأيام، فينتقل من موضع إلى آخر وكأنه يشعر فجأة بعدم الارتياح للدخول إلى عمق المواضيع فيغيرها. لقد بدا على غير طبيعته، وعلى غير عادته في الأحاديث التي كانا يتشاركان فيها حوالى خمس سنوات. لقد كانت تعرفه أكثر مما كان يظن، بل أفضل مما كان يتوقع منها.

"إنه على خير ما يرام". قالت إيزابيل، وهذا ما شجعه على المضي قدماً

في غايته. فما كان ليمكنه أن يضع حداً لعلاقته معها لو كان تيدي في حالة سيئة. لقد كانت بذلك وكأنها ترسم قدرها بنفسها فتخبر بيل أنه كان محقاً في رأيه. "لم يكن أبداً في حال جيدة كهذه".

"حسناً". ثم أخبرها بأنه كان ذاهباً إلى واشنطن كي يبحث لنفسه عن شقة في الأسبوع المقبل. وهذا ما جعلها تسأله عن إمكانية مجيئه إلى باريس من جديد.

"ربما يمكنك أن تجيء إلى هنا بعد الزفاف، إذا لم تكن متعباً جداً. بضعة أيام قد تكون كافية قبل أن تشرع في العمل". لقد كانت تود أن تطلب منه الكثير، ولكنها كانت تخشى ألا يتوفر لديه الوقت ليقوم بذلك. لقد كانت تدرك تماماً مدى تزاحم الأمور الملقاة عليه وتلك التي سيقوم بها الآن.

"سأرى إمكانية ذلك. فقد أبدأ الحملة الانتخابية ذلك الأسبوع". لقد كانت هذه أكذوبة أخرى. فما كان سيبدأ الحملة قبل نهاية شهر حزيران (يونيو)، وكان سيتسنى لـه الوقت ليذهب إلى هناك، ولكنه ما كان يستطيع المشي وما كان ليستطيع أن يخبرها عن ذلك. لقد جعل الأمر مستحيلاً عليه ليزورها. "سوف نفكر في الموضوع". كان هذا كل ما قاله، وعندما أنهيا المكالمة ووضعا السماعة، كانت تشعر بالقلق. لقد كان لديها إحساس واضح أنه كان يتحاشاها، ولم تدرِ لماذا. لقد بدأ ذلك فجأة بين ليلة وضحاها. ما كانت تجهله هو أن الغموض الذي صار يلفه كان قد بدأ في اليوم الذي أكد لـه المعالجون الفيزيائيون أنه لن يسير من جديد أبداً. كانت تلك نقطة التحول له. لقد كان قد عاهد نفسه أنه عندما يحدث هذا فإنه سيتوقف عن الاتصال بها وسيمتنع عن رؤيتها. ولكنه لم يعد يستطيع أن يحمل نفسه على عدم الاتصال بها. ومن جانبها، كانت تخشى أن تكون قد قالت شيئاً ما أزعجه. ولكنه لم يبْدُ غاضباً منها، بل مجرد بعيد عنها. كان قد مضى عليها تسعة أشهر لم تره فيها، وما كانت لديها أدنى فكرة متى يمكنه أن يأتي على باريس لزيارتها. وما كان بإمكانها أبداً بأي شكل من الأشكال أن تذهب إلى واشنطن أو نيويورك لرؤيته.

فما كان بإمكانها أن تترك تيدي كل ذلك الوقت أو تخاطر إلى ذلك الحد.

في الوقت الذي حل فيه موعد الزفاف، كانت إيزابيل في حالة من الذعر. فقد نسي أن يتصل بها عدة مرات، وعندما سألته عن سبب ذلك قال إنه كان مشغولاً جداً. لقد وجد شقة في واشنطن، والتقى بالسيناتور الشاب بشأن حملته الانتخابية. لقد بدا في غاية الإثارة عندما تحدث عن ذلك. ولم يتصل بيل بها إطلاقاً خلال اليومين اللذين أعقبا الزفاف. ولسبب غريزي غريب لم تجرؤ على الاتصال به. لقد شيّد فجأة جدراناً تفصله عنها.

لقد كان الزفاف جميلاً، وهتف الجميع عندما تبادل جو وجين القسم. لقد كان مشهد جو في كرسيه المدولب، وجين تقف بجانبه ممسكة بيده، مؤثراً جداً. وكان بيل أكثر واحد هتف لهما وهو يجلس في كرسيه ذي العجلات إلى جانب سنثيا على طرف المقعد الأول.

"هل أنت على ما يرام؟" سألته في حفل استقبال العروسين. لقد كان يجلس إلى جوارها، ووجدته هادئاً على غير العادة. "إنك تبدو مجهداً".

"كـل مـا هـنالك أني أفكر بالعمل. فسوف أغادر مركز إعادة التأهيل وأذهب إلى واشنطن خلال أيام. أنت تعرفين أحوالي". لقد بدا في حالة صحية جيدة من الناحية الجسدية، ولكنها شعرت أن هناك ما يزعجه.

"تبدو مستاء". وافترضت في النهاية أنه كان يشعر هكذا إذ يشاهد ابنته الحبيبة تتزوج.

جاءت أوليفيا وجلست إلى جانبه بعض الوقت، وعندما كان من المفترض بجين أن ترقص معه، رقصت مع جدها بدلاً عنه بينما راح هو وجو يتفرجان ويبتسمان لها. لم يَبْدُ الأمر مزعجاً بالنسبة لجو، ولكنه كان مزعجاً جداً لبيل. لقد كان زفافاً جميلاً، وحفلة رائعة، وأمضى الجميع وقتاً ممتعاً. وإذ ذهب بالسيارة عائداً إلى مركز إعادة التأهيل تلك الليلة، كانت إيزابيل هي كل ما كان يفكر به.

بقي في غرفته ولم يذهب إلى المعالج الفيزيائي طوال يومين، وبعد ذلك

استجمع شجاعته لكي يجري الاتصال الهاتفي. كانت آنذاك قلقة عليه، وكان قد امتنع عن الرد على اتصالها. لقد رن جرس الهاتف عدة مرات خلال اليومين الماضيين. وكان يعرف أنها إيزابيل. واكتفى بأن يستلقي في سريره ويفكر فيها ويتمنى لو كان ميتاً.

"أين كنت؟" سألته عندما اتصل بها أخيراً وصوتها يدل على مدى خوفها عليه. "لقد ظننتُ أنك ذهبت مع العروسين إلى شهر العسل" قالت لـه مازحة. ولكـنه اسـتطاع أن يـرى القلق بادياً في صوتها وتألم وشعر بأنه يكره نفسه بسبب ما سببه لها. وعرف أن القلق الذي كانت قد شعرت به لا يضاهي الألم الذي كان سيسببه لها. فبعد خمس سنوات من الأحاديث المشتركة بينهما، كان لا يُتصوَّر ألا يعود لإيزابيل وجود في حياته. ولكنه كان واثقاً الآن بأن هذا هو الهدية الأخيرة التي يدين لها بها. "كيف كان الزفاف؟" سألته ببراءة، فتنهّد.

"لقد كان جميلاً. لقد هتف الجميع في مراسيم الزفاف، وبعد ذلك أمضوا وقتاً ممتعاً".

"أخبرني عن ذلك". كان تيدي لا يزال نائماً، فقد كان ينام حتى وقت متأخر تلك الأيام، وكان لديها إذاً متسع من الوقت.

فحكى لها عن الزفاف، ثم التقط أنفاسه. لقد كان كمن يستعد للقفز من مكان عالٍ. "إيزابيل، ثمة شيء ينبغي أن أخبرك به". شعرت بقلبها يتوقف. لقد أحست، وقبل أن ينطق بكلمة أخرى، أن ثمة أمراً جللاً.

"لماذا أجدني أشعر بعدم الارتياح إزاء ما ستقول؟" قالت ذلك وهي تتمالك أعصابها، وتنتظر بقية كلامه.

"لقد جددتُ أنا وسنثيا عهدنا لبعضنا البعض". ساد صمت مطبق عليها بينما تحاول أن تستوعب ما قاله للتو.

"مـاذا تعني بالضبط؟" كانت تحاول أن تكون لطيفة، ولكنها كانت تود لو تصـرخ. ولكن كما هي على الدوام، فقد كانت لبقة وانتظرت أن يشرح لها ما

يقصده.

"لقد جددنا التزامنا بعهد الزواج بيننا". كانت هذه ثاني أسوأ أكذوبة يخبرها بها. أما الأولى فكانت عندما قال لها بأنه استطاع السير على قدميه من جديد. "لقد تغيرت الأمور منذ دخلت مركز إعادة التأهيل. وفكرنا أن هذا أمر هام من أجل البنات". كانت إحداهما قد تزوجت وأما الأخرى ففي الثانية والعشرين من عمرها. إلى أي درجة من الأهمية بالنسبة لامرأتين راشدتين ناضجتين أن يجدد والداهما عهود الزواج؟ ولكن إيزابيل لم تسأل هذا السؤال الواضح، فما كان يهمها هو ما فعلاه وسمعت عنه الآن.

"ومتى قررتما ذلك؟". كانت ترتجف من رأسها حتى أسفل قدميها، ولكنها بدت هادئة في الظاهر.

"في الأسابيع القليلة الماضية". لقد بدا يتحدث وكأنه فارس شهم وأجبر نفسه على ألا يفكر بما يمكن أن يحدثه كلامه في نفسها.

"لقد كنت أدرك أن ثمة خطب ما". وكانت محقة في ذلك. لقد كانت تعرفه حق المعرفة، وهذا ليس بالأمر الغريب بعد علاقة استمرت حوالى خمس سنوات. "أهذا هو السبب أنك لم ترد التفكير بالمجيء إلى باريس؟" لقد اتضحت الأمور لها الآن. لقد كانت تعرف أن ثمة ما يقلقه، ولم تكن تعرف ما هو. "وماذا يعني هذا بالنسبة لنا؟".

"لا أعتقد أنه ينبغي علينا أن نتحدث معاً بعد الآن". لقد كانت كلماته أقسى من الصدمة التي تلقتها من الباص. لقد عجزت لدقيقة عن الكلام، وراحت تفكر بما كان يقول وأوشكت على الإغماء. لم تستطع أن تتنفس، وشعرت أن قلبها ينقبض بشدة. لقد بدا الأمر وكأنه أسقط عليها كرة هدم المباني، وكانت مهشمة جداً لدرجة تعجز عن الرد. ولكنها كانت تعلم أنه يجب عليها أن تقول شيئاً. لم تكن لتتوقع ذلك. ولكن بالكاد كان بإمكانها أن تلومه. فهي رفضت أن تهجر غوردون كرمى لتيدي. لقد كان لديها القليل لتقدمه لبيل، ما عدا اتصالاتهما الهاتفية. فبدا معقولاً لها الآن أن يعيد وسنثيا تعهدهما نحو بعضهما بعضاً رغم

أن هذا سبب لها الألم. لقد رأت أنه له هذا الحق، وكانت هي تحبه لدرجة أنها تريد له أفضل ما يكون.

"لا أدري ما أقول. أنا سعيدة من أجلك يا بيل". لقد استعاد ليس فقط ساقيه بل زوجه أيضاً، وكانت تتمنى له كل الخير. لقد أمكنه أن يسمعها تبكي وكان يود لو يموت. ولكنه كان يعلم أن هذا هو الصواب بالنسبة لها سواء عرفت ذلك أم لا. حبه لها وحده هو الذي دفعه للقيام بهذا الأمر المريع. لقد كان يدرك أن ما قاله لها كان كفيلاً بتحطيم قلبه هو نفسه. لقد كانت هذه أقصى تضحية يمكن أن يقدمها كل منهما للآخر.

"أريدكِ أن تهتمي بنفسك. لا تدعي غوردون ينال منك. حافظي على ذخيرتك، وإذا حاول أن يضايقك، استخدميها ضده. وسوف لن يزعجك بعد ذلك. وطالما أن زوج لويزا على قيد الحياة فهو سيبقى راغباً في الإبقاء عليك زوجة له". لقد فكر كثيراً بهذا الموضوع، وكان هذا هو الأمر الوحيد الذي كان يثير قلقه الآن. لم يكن يريد لغوردون أن يعذبها، وسوف لن يعرف بعد الآن عن ذلك. وسوف لن يستطيع أن يحميها منه بأي شكل من الأشكال؛ ما عدا بواسطة حبه، الذي بدا ضئيلاً جداً الآن.

"إنه لطفٌ منك أن تهتم بذلك". قالت له وقد بدت مصدومة ومشوشة. "لستُ أفهم... أنت لم تقل لي أن الأمور كانت تتحسن بينك وبين سنثيا. كيف حدث هذا؟ ومتى؟".

"لا أدري. ربما عندما قرر الأولاد أن يتزوجوا، فقد فكرنا أننا في حاجة لأن نحسّن سلوكنا". في الواقع كان طلاقهما قد تم في آذار (مارس) أي بعد أن أخبرهما جين وجو بأنهما يعتزمان الزواج. لقد ظهرت سنثيا الآن جدية في علاقتها مع الرجل الذي تخرج معه منذ تسعة أشهر، وكان بيل سعيداً لأجلها.

"أريدك أن تكون سعيداً يا بيل" قالت له بسماحة خلق. "ومهما كان هذا يعنيك، ومهما كان يستحق فإنني أردت القول أني أحبك من كل أعماق قلبي".

"أعلم ذلك". قال لها ذلك والدموع تترقرق من عينيه، ولكنه لم يشعرها

من صوته أنه كان يبكي. إن حريتها تعتمد الآن على درجة إقناعه لها، ولقد كان عازماً على أن يفعل ذلك بالطريقة المناسبة. "وأنا أيضاً أحبك يا إيزابيل". وكان يود لو يقول لها بأنه سيحبها دائماً، ولكنه لم يستطع ذلك. "انتبهي لنفسك. إذا احتجتِ إلى شيء اتصلي بي. فسأكون دائماً إلى جانبك".

"لا أعتقد أن سنثيا ستقبل بذلك".

"إن ثلاثين سنة زمن طويل، ومن الصعب أن ينسى الإنسان ذلك". ولكنه قـد نسـي ذلك بالفعل وهجر زوجته. ولنفس الأسباب. ولكن إيزابيل هي من كانت تملك قلبه، وكان يعرف أنها ستبقى دائماً حبيبة قلبه. ولكنه هو فقط كان يعرف ذلك.

"سأشتاق إليك كثيراً". قالت لـه وبدأت تنشج بالبكاء. "ولكني أريدك أن تكون سعيداً... كن سعيداً... كن طيباً مع نفسك يا بيل. أنت تستحق الكثير". أما هو فكان يدرك أنه إنما يستحق أن يحرق في نار الجحيم لما كان يفعله بها، ولكنه كان لا يزال مقتنعاً أن هذه الهدية التي كان يمنحها لها كانت أعظم من الألم الذي شعرت به الآن. سوف تدرك ذلك يوماً ما، وهو على ثقة أكيدة من ذلك.

"إلى اللقاء". قال ببساطة، ثم وضع السماعة بلطف، بينما أغلقت إيزابيل السماعة وبدأت تبكي مطولاً من فرط الألم. لقد بدا وكأنها فقدت إنساناً عزيزاً، وقد كان الأمر هكذا بالفعل.

"ما الخطب يا ماما؟" هرع تيدي داخلاً غرفتها بعينين مذعورتين. لقد سمعها من الردهة، ولم يكن قد رآها في حياته على هذا الحال أبداً. لقد كان منقطع الأنفاس عندما وصل إلى حيث كانت تجلس بعد أن وضعت سماعة الهاتف.

لم تستطع أن تقول أية كلمة لدقيقة، ولكنها أدركت أن عليها أن تتمالك نفسها من أجل ابنها. "لقد توفي صديق قديم لي للتو". لم تدرِ ما تقول غير

ذلك، وبشكل من الأشكال هذا ما حدث. فبيل قد غدا ميتاً بالنسبة لها الآن. لقد قضى، وهو فقيد بالنسبة لها. ما كانت لتتخيل الحياة من دونه، وما كانت لتستطيع أن تتصور حياتها دون أن تكون بينهما اتصالات هاتفية. لقد كان هذا بمثابة حكم الإعدام على حياة كانت قد عاشتها لبرهة قصيرة فقط. ولما الآن فلم يتبقَّ لها سوى أطفالها. وإذ كان تيدي يرقبها، نهضت وأخذت معطفها ثم جاءت تعانقه. "أنا بخير. فقط حزينة. سوف أخرج في نزهة قصيرة". وأعادته إلى غرفته، ووضعته في سريره. ثم خرجت من المنزل، وتمشت لساعات. وعندما عادت كان وقت الغداء قد حان، وبدت شاحبة كالأموات، وكالحة الوجه. وحتى ممرضة تيدي خافت عليها.

"هل أنت على ما يرام يا سيدة فوريستر؟" سألتها باحترام. فطوال السنين التي عرفتها فيها لم تَرَها أبداً على هذا الشكل. أومأت إيزابيل برأسها بهدوء، وهي تبدي ابتسامة كئيبة. وكانت عيناها غائرتين من الحزن والألم.

"أنا بخير". قالت بطريقة آلية. لم يكن لديها أي شيء آخر لتقوله. ولكن بعد ظهر ذلك اليوم، وإذ راحت تقرأ لابنها، كان هناك سيل من الدموع ينهمر من عينيها ويسيل على وجنتيها، وربّت تيدي على يدها بهدوء. لم يدرِ ما يقول لها. وعندما ضمته وقد حان وقت نومه تلك الليلة انفجرت تنشج بالبكاء.

"آسف يا ماما". قال لها بلطف وهو يعانقها بشدة، وأومأت لـه بابتسامة حزينة.

"وأنا أيضاً يا حبيبي".

كل ما كانت تستطيع أن تفكر فيه تلك الليلة كان بيل. لقد كانت منهارة أكثر من أي وقت مضى في حياتها. لقد حُرِمت من الأمل والضحك والحب والراحة، واستحالت أيامها داكنة قاتمة. ما عاد لها من تلجأ إليه الآن، وأدركت أنها لن تَحظى بهكذا شخصية ثانية. وسوف تموت سجينةً لغوردون، وما عادت لتبالي بالأمر، أو بأي شيء. سوف تعيش لكي تقوم على خدمة تيدي وصوفي، وتنفق ما تبقى لها من العمر.

وأمـــا بـــيل فقد استلقى في غرفته المظلمة في مركز إعادة التأهيل. ولم يحـــرك ساكناً منذ أن اتصل بها. لم ينم أبداً تلك الليلة. فقط استلقى هناك وكان يبكـــي. ولكـــن كـــان ذلـــك هو الصواب الذي عليه أن يعمله. ومعرفته لذلك واقتناعه به كان العزاء الوحيد الذي لديه.

الفصل السادس عشر

بدت الأيام لإيزابيل وكأنها لا نهاية لها بعد أن غادر بيل حياتها. لم يكن ليومها بداية أو نهاية ولم تشعر في أي وقت من النهار بالراحة. راحت تعتني بتيدي مثل عادتها، وأما الآن فقد بدت هي نفسها مريضة. ما كانت تأكل وما كانت تنام، وكانت قلما تتكلم، رغم أنها بذلت جهدها من أجل تيدي. ولكنها كانت تشعر وكأنها سقطت في هاوية سحيقة ليس فيها شمس مشرقة أو ضوء. لقد كانت تتوق لسماع صوت بيل، ولكنها لم تعد حتى تدري أين يكون. عرفت أنه ذهب إلى واشنطن، وكانت تتساءل إذا ما ذهبت سنثيا معه. ولكن أينما كان، ما عاد يخصها، وعلمت الآن أنه لم يكن أبداً كذلك. لقد كان هبة مؤقتة في حياتها وكانت ممتنة لـــه. ولكن ألم فقدانه كان مبرّحاً جداً حتى صارت تتساءل إذا ما ستبقى حيّة. لقد كان فقدانها لبيل أقسى بكثير من نجاتها من الباص. فالصدمة التي تلقتها هذه المرة كانت لروحها.

وحتى غوردون لاحظ ذلك خلال الوقت القصير الذي كان يمضيه في المنزل. وتساءل إذا ما كان ما يراه هو تَرَدٍّ صحي من جراء الحادث، وعندما رأتها صوفي بعد رجوعها من الجامعة هالها ما رأته. فقد بدت إيزابيل كما لو كانت تحتضر.

"هل أنت مريضة؟" سألها غوردون أخيراً في أحد الأيام وهما يتناولان طعام الفطور. لقد كان قد أمضى الليلة في المنزل بالفعل. وكان لا يزال يجهل أن إيزابيل كانت تعرف أنه غالباً ما كان يقضي لياليه خارج المنزل. ولكن إيزابيل فقدت الكثير من وزنها حتى إن ثيابها صارت فضفاضة عليها أكثر منها بعد الحادث.

"لســت على ما يرام. فأنا أعاني من الشقيقة"[1]. قالت ذلك كي تعلل لون وجهها الشاحب. لقد كانت تراه أيضاً، ولكن يبدو أنها ما عادت تأكل أو تنام.

"لا بـد أنه انتكاس ناجم عن إصابتك". قال وقد بدا مهتماً بشكل غامض. "أريدك أن تتصلي بالطبيب لاستشارته". لقد كانت هذه أول علامة اهتمام يبديها منذ أشهر. "سوف أكون غائباً الأسبوع المقبل، وأعتقد أن عليك الاستفسار عن حالتك قبل أن أذهب". وتساءلت إذا ما كان سيذهب مع لويزا. كانت قد أدركت أن غــوردون، منذ زمن بعيد في الصيف الماضي عندما كانت في المشفى مع بـيل، قد أمضى كل الوقت مع لويزا. فغيابها كان خيراً له، وكانت واثقة من ذلــك. وما كان لامتناعه عن العودة لزيارتها علاقة بها أو ببيل أو بإصابته من ذلــك، بل كان الدافع لذلك هو انشغاله مع لويزا، وحاجته لإمضاء الوقت معها خــلال غياب إيزابيل. ولكنها ما عادت تهتم بذلك. لقد كان ذلك أمراً واقعاً في حياتهما، ومن الواضح أنه كان كذلك على مدى سنوات.

"إلى أين تذهب؟" سألته وهي تحاول أن تبدو مهتمة ولكنها لم تكن كذلك في الواقع، بل لم تعد مهتمة بأي شيء على الإطلاق. كل ما كان يهمها هو تيدي الآن، وكانت تشعر بالارتياح لأن صوفي قد جاءت إلى المنزل لتمضي بضعة أيام هنا.

"ســأذهب لرؤية بعض العملاء في جنوب فرنسا". وكانت هي متأكدة أن هــذا "العميل " لم يكن إلاّ لويزا، ولكنها لم تسأله عن ذلك بالطبع. "أريدك أن تتصــلي بالطبيب اليوم". قال لها مذكّراً إياها بينما كان يغادر، ولكنها لم تفعل. لقد كانت محطمة الفؤاد، ولم يكن لذلك أي علاقة بالحادث الذي وقع قبل سنة. لقــد مضى عليه سنة كاملة تماماً. لقد كان يصعب عليها أن تصدق أن بيل قد غدا خارج حياتها. وفي الأونة الأخيرة وجدت نفسها تتمنى لو أنها ماتت خلال الحادث. لقد كان ذلك أسهل بالنسبة لها مما تعانيه الآن. وتساءلت هل سيتوقف

---

(1) الشقيقة: (migraines): ألم يصيب نصف الرأس متكرر دورياً.

هذا الألم الذي تشعر به، ولكنها كانت تشك في ذلك. كان كل يوم يمر أسوأ من الذي سبقه. لم يكن لديها ما تتطلع إليه، أو ترغب فيه، أو ترجوه، وما عاد من شــيء تؤمن به، أو إيمان بأن الحياة ستكون لطيفة معها. فقد أخذ بيل منها كل أمـل وكـل رجاء ولم يبقَ لها إلا الذكريات والحزن. والأسوأ من ذلك أنها لم تكــن ســاخطة عليه. إنها كانت تحبه وعلمت أنها ستحبه إلى الأبد. لقد كانت كمثل حيوان فقد رفيقه فراح يبحث عن مكان هادئ ليموت فيه.

"ما الخطب يا ماما؟" سألتها صوفي بصوت مضطرب عندما التقتا خارج غرفة تيدي بعد ظهر ذلك اليوم.

"لا شــيء يــا حبيبتي. أنا متعبة فقط". لقد بدت في حالة مزرية، وأمكن للجمــيع أن يروا ذلك. كانت صوفي ومارتا، ممرضة تيدي، تتحدثان عن ذلك بعــد ظهر ذلك اليوم. قال تيدي إنها صارت تبدو مريضة منذ أن تلقت اتصالاً هاتفياً عرفت من خلاله أن صديقاً لها قد توفي. ولكنّ الآخرين كانوا يشعرون أن يأس إيزابيل كان يعود إلى سبب أعمق من ذلك، وكانوا خائفين بشكل كبير ليس على صحتها وحسب بل على حياتها.

عــندما استعلم غوردون عن أحوالها تلك الليلة، قالت إن الطبيب قال لها بأنهــا علــى ما يرام. ولكنها في الواقع لم تكلف نفسها عناء الاتصال، وكانت تعرف أن غوردون سوف لن يتحقق مما تقول.

لقد خطر في ذهنه أن ألماً ما عاطفياً شديد الوطأة قد سبب لها ذلك، ربما علاقــة فاشــلة غرامية، أو قلب محطم. وهنا قفز ذهنه إلى بيل، ولكنه طرد الفكرة في الحال. فما كانت لتجرؤ على أن تعيد الكرة، في نظر غوردون، بعد الــتحذيرات التــي أبداها لها. ولكنه لم يكن ليتفهم مدى قوة حبها لبيل أو من تكون هي حقاً.

غــادر غوردون في اليوم التالي إلى جنوب فرنسا وقد بدا غير مكترث. كــان العنوان الذي يتجه إليه هو فندق دو كاب. لقد كان ينوي أن يتغيب عن المــنزل لثلاثة أسابيع ولم تسأله إيزابيل عن ذلك. لقد كان من المريح لها ألا

يكون في المنزل. فلا يعود مفروضاً عليها أن تقدم تبريرات له عن المرض الذي ألمّ بها، أو الهيئة التي كانت عليها. لقد كان أسهل لها بكثير أن تكون وحدها.

وإذ عاد بعد ثلاثة أسابيع صُدِم لرؤيتها تبدو على حال أسوأ. أما هو فقد بدا في صحة وعافية وقد اسمرّت بشرته، وبدت هي وكأنها تعاني من مرض مميت على وشك أن يقضي على حياتها. لقد بدت هي وتيدي مريضين على نفس الدرجة. وبكت صوفي وهي تتحدث إليه عن ذلك. ولكنه قال إن والدتها قد رأت الطبيب قبل عدة أسابيع وقال بأنها على ما يرام. لم يكن يريد أن يعرف أكثر من ذلك لو أن يواجه احتمال أن يكون في المنزل شخص آخر مريض عاجز.

غادر غوردون من جديد في آب (أغسطس) منطلقاً في رحلة عمل طويلة يمضيها في إيطاليا وأسبانيا. أما صوفي فقد ذهبت إلى بريتاني[1] لبضعة أسابيع كي تزور أصدقاءها. وكانت إيزابيل راضية لأن تكون وحدها مع تيدي. لقد كانت تقرأ له من جديد وتبذل جهدها من أجله لئلا يُصاب بالقلق عليها، ولكنها ما كانت لتتصور أن تعود إلى طبيعتها وسجيتها من جديد. لقد كان التغلب على مضاعفات الحادث أسهل من فقدان بيل. كانت تستيقظ كل صباح وهي تفكر فيه وتتمنى لو أنها كانت ميتة.

وفي فترة غياب غوردون وصوفي أصيب تيدي بأنفلونزا صيفية مزعجة. وهذه بدت مثل حمى راشحة[2] في أول الأمر، ثم نزلت إلى صدره وأصيب بحمى مرتفعة، وأعطاه الطبيب مضادات حيوية لئلا تسوء حالته. ولكن الحرارة كانت آخذة في الارتفاع، ولم تفلح كل جهود إيزابيل أو الممرضة في خفضها. في اليوم

(1) بريتاني: (Brittany): إقليم على شكل شبه جزيرة في شمال غرب فرنسا بين خليج بيسكاي والقنال الإنكليزي.

(2) حمى راشحة: (head cold)إصابة فيروسية في الأنف والحنجرة والقصبات الهوائية، تظهر أعراضها من خلال سعال، وعطس، وصداع، واحتقان في الأنف.

الثالث صار بالكاد قادراً على التنفس وحتى الطبيب نفسه كان قلقاً بسبب عدم استجابته للعلاج. وبعد يومين آخرين، أصيب بذات الرئة. لقد كانت حالته تنتقل من سيء إلى أسوأ بسرعة. وبعد خمسة أيام من بدء المرض، وضعه الطبيب في المشفى، ومكثت إيزابيل هناك معه. وفكرت أن تتصل بغوردون ولكن بدا لها أن من الخطأ أن تزعجه. فلم يكن بحال من الأحوال مهتماً ببؤس تيدي وآلامه. فهذه كلها كانت تقع على عاتقها هي.

"هل سأموت؟" سألها تيدي بعينين متسعتين كالبلور في المشفى، فهزت رأسها، ووضعت قطع قماش باردة على جبينه ومعصميه. وكانت الممرضات ممتنات للعون الذي تقدمه لهن.

"بالطبع لا. ولكن عليك أن تتحسن الآن. فهذا مرض سخيف بسيط، وكفاك مرضاً حتى الآن". ولكن كانت درجة حرارته قد وصلت إلى 41.8 درجة مئوية تلك الليلة. واتصلت إيزابيل بغوردون في اليوم التالي.

"لا أدري ما هذا. إنه نوع من الفيروس. لكنه مريض جداً". وبدت حتى متعبة أكثر من ذي قبل وفي حال أسوأ.

"إنه مريض دائماً". قال غوردون بامتعاض. لقد كان في توسكانا[1]، وكان يصعب على إيزابيل أن تتخيل أي نوع من العمل لديه هناك. لقد كانت تلك إجازة يقضيها مع لويزا ولا ريب في ذلك، ولكن إيزابيل ما عادت تهتم. "لا أستطيع أن أفعل شيئاً من هنا".

"لقد فكرت أنك ربما تريد أن تعرف". قالت له وهي تتساءل لماذا كلفت نفسها عناء الاتصال به. لقد كان ذلك منها لباقةً منها أكثر منه مناشدة للمساعدة.

"اتصلي بي إذا ساءت حالته أكثر". وماذا سيفعل في تلك الحالة، قالت إيزابيل في قرارة نفسها. ماذا لو توفي، هل سأتصل به عندئذ؟ أم أن هذا

(1) توسكانا (Tuscaany): إقليم في شمال إيطاليا، وكان مركزاً حضارياً هاماً خلال عصر النهضة، عاصمة فلورنسا.

سيشكل عبئاً ثقيلاً عليه أيضاً؟ ولكنها لم تقل لــه شيئاً البتة.

انــتظرت يومــين آخرين، وبعدها اتصلت بصوفي. كان تيدي في ذلك الوقــت في حالة هذيان من الحمى، وكانت إيزابيل تشعر بالخوف الشديد وهي تحاول أن تتحدث إليه. لقد كانوا يعطونه مضادات حيوية ضمن الأوردة، ولكن فــي غضون ذلك كانت رئتاه قد بدأتا تقصران في وظيفتهما، وأصيب الدكتور بــالقلق بخصــوص قلبه. وفجأة انتابها الخوف من أن تكون هذه اللحظة التي كانــت تخشــاها دائماً. وخلافاً لوالدها، فإن صوفي جاءت إلى المنزل في تلك الليلة عائدة من بريتاني. وجلست المرأتان معه لساعات، ولم يغمض جفن لأي مــنهما، وكانــتا تمسكان يد بعضهما البعض، وتقفان على كلا طرفي السرير بينما غلبه النعاس. لقد كان يحكي في نومه أحياناً، ولكن لم يكن لمعظم ما قاله أي معنى.

وأخيراً بدا هادئاً ينعم بالسلام في صباح اليوم التالي عندما استيقظ. لقد كان ذلــك اليوم حاراً ورطباً، وكان يبدو مرتفع الحرارة عند اللمس، لكنه ظل يقول إنه كان يشعر بالبرد. وحل الظلام قبل أن يتحدث إليهما ذلك اليوم. كان الطبيب يتردد إليه، والممرضات تتفحصنه، وفي وقت متأخر من تلك الليلة أخبر الطبيب إيزابيل أن الأمور لا تبدو على ما يرام. فقد كانت حالته تسوء أكثر.

"ماذا تقصد؟".

"إنــي قلــق علــى قلبه. فلا يمكنه أن يصمد أمام هكذا إجهاد. إن الفتى مــريض جــداً". لقــد كانــت قد أدركت ذلك لتوها، ولكنها أحبطت لأنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا أي شيء له.

ولخوفهــا فقد أمضوا أسبوعاً آخراً على ذلك النحو، وتيدي يتأرجح فيما يــبدو بين الموت والحياة. وكانت صوفي وإيزابيل في قمة الإرهاق آنذاك. لقد بدتــا في حالة سيئة مثله. وهال إيزابيل أن غوردون لم يتصل أبداً ليسأل عن حــال تــيدي، بعد اتصالها به إلى توسكانا منذ قرابة أسبوعين. وتصورت أنه افــترض أن تيدي قد تماثل للشفاء. ومع بداية الأسبوع الثالث، غاب تيدي عن

الوعــي. لقد انتابته عدة نوبات مرضية، وكانت ذات الرئة هي الأسوأ. وكانت إيزابــيل تعجــز عن أن تتصور كيف لا يزال يصارع الموت كل هذا الوقت، وجلســت في الردهة وراحت تبكي، ثم عادت أدراجها إلى الغرفة لتجلس إلى جواره. واتصلت بغوردون في تلك الليلة من جديد.

وصدق تخمينها فقد افترض فعلاً أن الطفل قد صار على ما يرام، وأجفل إذ سمعها تخبره إلى أي درجة لا يزال مريضاً.

"لا أدري إذا كنت تود أن تعود إلى المنزل".

"هل من الضروري ذلك في رأيك؟" لم تعجبه الفكرة ولكنه بدا مهتماً. لقد كانت الحالة أسوأ بكثير مما كان يتوقع أن تكون عليه عندئذ.

"الأمر عائد إليك. إنه مريض جداً". لم يكن قد استعاد وعيه منذ ليلة ما قبل البارحة، وما عاد الأطباء على يقين من أنه قد يستعيده أبداً. وقال لها غوردون أن تتصل به في اليوم التالي.

لازمت إيزابيل وصوفي تيدي طوال الليلة تلك، وفي الساعة الخامسة فجراً فتح عينيه وابتسم لهما. فبكتا كلتاهما من الفرح لأنه استعاد وعيه ورأتا في ذلك علامة طيبة. ولكن الممرضة قالت إن حرارته ارتفعت بشكل أكبر خلال الليل. وقاربت الـــ 42 درجة مئوية. ولكنه كان يتحدث إليهما. وهذه المرة هزّ رأسه عندما جاء الطبيب. لقد كان قلب الصبي ينهار. لقد كانت إيزابيل تخاف هذه اللحظة طوال حياتها، وها قد جاءت الآن. فبدت إيزابيل محطمة مخلوعة الفؤاد، ولكنها كانت تشعر بهدوء في داخلها في انتظار ما تفعله يد القدر لهما.

راح يتحدث إليها بوضوح وقد أمسك يدها. ونظر إلى صوفي بابتسامة ملائكية. وقبلت إيزابيل وجنتيه، وشعرت كم كانت ساخنة ورطبة إلى أن اغتسلت بدموعها. ولم تستطع أن تكف عن البكاء.

"أحبك يا صغيري". لقد كان محباً لها دائماً، وصبوراً وحلواً. لقد أمضى

حياته كلها في ألم ولم يتذمر أبداً. ولم يتذمر الآن. لقد أمسك يدها بيده وهو بين النائم والمستيقظ. كان يختلج في نفسها باعث لا يمكن التغلب عليه يجعلها تتمسك به لتبقيه بعيداً عن حافة هاوية الجحيم حيث كانت ترفرف روحه. ما كانت لتطيق فكرة فقدانه. ولكن لم يكن في يدها حيلة إزاء ما كان يجري له.

وعندئذ نظر إليها وابتسم. "أنا سعيد يا ماما". قال في هدوء، ثم استدار نحو أخته وقال لها: "أحبك يا صوفي". وهنا أطلق زفرة متناهية في الصغر وفارق الروح في حين كانتا تمسكان بيديه. لقد كان هادئاً ومسالماً انعتاق روحه من الجسد الذي كان يعذبه طوال حياته، واحتضنته إيزابيل بين ذراعيها وعانقته وهي تبكي. وراحت صوفي تنظر إليها وهي تنشج بالبكاء، فعانقتها إيزابيل عندئذ. بدا تيدي جميلاً وهو يرقد في سريره، وعانقته المرأتان وقبلتاه لآخر مرة، ثم خرجتا من الغرفة في هدوء. لقد كان يوماً مشمساً حاراً وشعرت إيزابيل بالضياع عندما وصلت إلى الشارع. ما كانت لتقدر أن تتخيل أنه تركهما. لقد كان ذلك أعجز من أن تتخيله أو تفكر فيه أو تتحمله. لقد بدا حلواً جداً. وكانت تعرف أنها ستتذكر آخر عبارات نطق بها طوال حياتها. وقفت في الشارع تنشج في البكاء وقد عانقت ابنتها صوفي التي تشبثت بها بقوة.

ركبت المرأتان سيارة أجرة وذهبتا إلى المنزل، وانفجرت إيزابيل في البكاء عندما رأت حجرته. لقد كان حقاً مثل الأمير الصغير في كتاب سانت إكزوبيري، والآن قد مضى إلى عالمه الخاص، العالم الذي ما كان عليه أن يغادره ولكنه كان لها فرحاً كبيراً طوال حياته القصيرة الأجل.

أعدت فنجان شاي لصوفي، ثم اتصلت بغوردون، وقد بدت في غاية الهدوء. وانصعق لسماعه النبأ. وقال إنه سيكون في المنزل تلك الليلة. لم يبكِ ولم يقل لها إنه آسف أو حزين. بالواقع لم يقل شيئاً يستحق الذكر وأغلق السماعة. وفكرت إيزابيل بالاتصال ببيل، ولكنها كانت تعرف أنه لم يكن من داعٍ لذلك، فما عاد هناك من أجلها، وهو لم يلتقِ بالصبي على الإطلاق. كانت تعرف أنه عليها أن تترك بيل وشأنه. وشعرت أنه لم يعد لها الحق في أن

تتصل به أو تتطفل على حياته.

ذهبت وصوفي إلى صالة المأتم بعد ظهر ذلك اليوم وقامتا بإجراء ترتيبات من أجل جنازته، واختارتا تابوتاً أبيض بسيطاً، وطلبت إيزابيل أزهاراً، وزنابق الوادي ووروداً بيضاء، وكانت تعلم أنه ما من أحد سواهما وممرضاته سيأتي إلى جنازته. فهو لم يذهب أبداً إلى المدرسة، ولم يكن له أصدقاء، وعاشت إيزابيل حياة منعزلة على مدى سنين عديدة. لقد كنّ الوحيدات اللواتي عرفنه وأحببنه. ما كانت إيزابيل لتستطيع أن تتصور ما ستفعل من دونه. لم يكن فقط حياتها وقلبها، بل شغلها الشاغل على مدى سنين كثيرة. وعندما عادتا إلى المنزل كانت إيزابيل تبكي في هدوء وأما صوفي فكانت بلا عزاء. ووصل غوردون من روما في وقت متأخر تلك الليلة وكان يبدو مكتئباً ومغلوباً على أمره.

ذهب مع إيزابيل وصوفي إلى صالة المأتم في اليوم التالي. فقد كانت إيزابيل قد طلبت إغلاق التابوت. فلم تستطع أن تحتمل رؤيته على ذلك النحو، رغم أنه كان جميلاً في مماته كما كان أيضاً في حياته. وقال غوردون إنه لم يرد أن يراه، وكانت إيزابيل تتفهم ذلك. لم يكن ليتقبل ضعف تيدي أو مرضه، ورغم أنه كان أباه، إلاّ أنه بالكاد كان يعرفه. لقد كان طوال حياته يقاوم فكرة التعرف عليه، وكان الأوان قد فات الآن.

تناول الثلاثة طعام العشاء في حجرة الطعام تلك الليلة. لم تقل إيزابيل أي كلمة فيما صوفي وغوردون كانا يتحدثان. لم يذكر أحد شيئاً عن تيدي، فقد كان ذلك مؤلماً للغاية. بعد ذلك ذهبت إيزابيل إلى غرفتها واستلقت على سريرها، وكل ما كانت لتستطيع أن تفكر فيه إذ ذاك هو ذلك الطفل الذي حملت به والذي كانت حياته ضعيفة هشة للغاية وعلى الدوام. لقد كان مثل فراشة هربت منهم أخيراً وطارت مبتعدة. لقد كانت ممتنة لأنها أحبته وعرفته.

كانت الجنازة في اليوم التالي، ومما أنهك إيزابيل حتى كادت تنهار، هو الموكب إلى المقبرة، فما كانت لتستطيع أن تتحمل أن تتركه هناك وأرادت لو

ترمي نفسها على تابوته. لقد لمسته مئات المرات قبل أن تغادر المكان، وأخذت معها إحدى الورود البيضاء الناعمة لكي تضعها في كتاب. لقد كانت تشعر وكأنها تسبح تحت الماء أو تستيقظ من غيبوبة أخرى. لم تكن لديها فكرة كيف كانت تبدو متعبة ومريضة عندما وصلوا إلى المنزل. كانت بالكاد تستطيع أن تتنفس أو تتحرك. وكل لحظة كانت تمر كانت مؤلمة بشكل لا يطاق بالنسبة لها.

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم دخل غوردون إلى غرفة نومها، وقطب حاجبيه ونظر إليها. لقد كانت راقدة في سريرها وكان وجهها أبيض كالرخام. "لا أدري ما خطبك". قال لها وقد بدا منزعجاً أكثر منه مهتماً أو قلقاً عليها. لقد بدأ يكره أن يكون قربها. لقد كانت دائماً ومنذ فترة تبدو مريضة جداً. "إنك تبدين وكأننا قمنا بدفنك أنت اليوم بدلاً من تيدي. ما بك يا إيزابيل؟".

"لقــد فقدت ابني وحسب". كانت عيناها منكسرتين وهي تنظر إليه، وهي لا تكاد تصدق ما تسمعه.

"وأنا أيضاً. ولكنك تبدين على هذه الحال منذ شهرين".

"أحقاً؟ يؤسفني ذلك". قالت ذلك وأشاحت بوجهها عنه. لم تكن لتريد أن تراه، وكانت ترغب لو يتركها.

"إن الأمر صعب جداً على صوفي أن تراك على هذا الشكل".

"إن الأمر صعب جداً عليّ أن أفقد ابني" قالت دون أي تعبير في صوتها.

"لقد كنا نتوقع ذلك منذ سنين". ذكّرها وقد استأنف يقول: "رغم أني أعلم أنها صدمة، وخاصة بعد الإصابة التي تعرض لها جسدك في العام الماضي". لقد بدأ يفكر الآن بأنها لم تستعد عافيتها كلياً. ولكنها كانت مصدومة، وهي ترقبه، بسبب البرودة وانعدام العواطف التي كانت تظهر عليه. فما من أحد كان ليصدق أنه فقد ابنه لتوه. لقد بدا كزائر للمنزل أكثر منه فرد من الأسرة، وبالتأكيد ليس كوالد للطفل. نظر إلى إيزابيل بفضول وسألها سؤالاً غريباً: "ماذا ستفعلين الآن؟".

"بخصوص ماذا؟" غرفته؟ حياته؟ ثيابه؟ ما كانت لتقوى على أن تفكر في ذلك".

"إن العــناية بتــيدي هي كل ما كنت تفعلينه في السنوات الخمس عشرة الأخيرة. لا يمكن أن تدفني نفسك معه الآن".

لمَ لا؟ فكرت هكذا ولكن لم تقل لــه شيئاً. فعلى كل حال، كانت آخذة في الاحتضــار. بعد فقدان تيدي، وبيل، ما عاد لديها الكثير لتحيا من أجله إلا ما عدا صوفي. ولكن غوردون صعقها بما قاله بعدئذ. "أعتقد أن عليك أن تذهبي للمكوث مع صوفي في غرينوبل عندما تعود إلى الجامعة بعد أسبوعين. أعتقد أنها فكرة جيدة حقاً. فأنت بحاجة لأن تخرجي من هذا المنزل في نهاية الأمر، حســناً أن تكونــي معهــا هناك". فهمت إيزابيل من حديثه في الحال أنه كان يطردها إلى الأقاليم كي يستطيع البقاء مع لويزا. لقد كانت خطة بارعة، وسهل تفسيرها بعد أن توفي تيدي. لقد كان غوردون ذكياً بارعاً.

"هــل أنت جدي؟" كانت تضحك لمرأى وجهه. فقد بدا جزعاً وتواقاً جداً لأن تغــادر المنزل. لا بد أنه كان يخشى الآن، بعد وفاة تيدي الذي كان يشغل وقــتها، أن تحاول المطالبة بمكانتها كزوجة. "وماذا تتوقع مني أن أفعل هناك؟ فأنــا متأكدة بأن صوفي سيصيبها الهلع عندما تراني محتقرة". وكان هذا آخر شيء تريد إيزابيل أن تقوم به الآن.

"لا يمكــنك الاكتفاء بالاستلقاء هنا وحسب"، قال لها وقد بدا منزعجاً من جديد.

"هــل تظــن أن هــذا ما أفعله؟" كان هناك حد للحوار بينهما. فقد كان لإيزابيل ما يكفي من الادعاء والخزي اللذين عاشاه خلال سنين كثيرة وسوف لن ترضى بأن تطرح جانباً وتداس الآن بحجة أنه يعتقد أنها يجب أن تكون مع صــوفي. لقد انصعقت من فقدان تيدي، ولكنها سوف لن تقبل أن تكون مصدر إزعــاج لابنتها وهي تندب ابنها. فلديها إحساس وكرامة أكثر من ذلك بكثير. وكانت من الذكاء بمكان بحيث لا يخفى عليها ما يدور في ذهنه.

"لـيس لـدي فكرة عما تفعلين". قال بلهجة استياء "ما عدا العناية بذلك الطفل".

"ذلك الطفل الذي تحكي عنه كان ابنك، وهو ميت الآن. أفلا تبدي بعض الاحترام. من أجله ومن أجلي". كانت هذه أول مرة تجرؤ فيها على توجيه الحديث إليه على هذا الشكل. ولم يكن مسروراً من ذلك.

"إيزابيل، لا تقولي لي كيف أتصرف، إذا كنت تذكرين، فقد كنت متساهلاً ومتسامحاً جداً إزاء سلوكك الماجن في العام المنصرم في وقت الحادث وما تلاه. وسوف لن أتقبل أي هراء منك بعد".

"حقاً؟" سألته إيزابيل وبريق خطير يلتمع في عينيها. لقد كان قد بدأ يتجاوز الحد الذي يمكنها أن تتساهل معه، وبسرعة مذهلة. "وأي نوع من السلوك الماجن كان ذلك؟".

"تعرفين ما أقصد بالضبط. لقد تساهلت في علاقتك الغرامية مع بيل روبنسون. وكان من حسن حظك أنني لم أطلقك". ها قد بدأ تلقيم الأسلحة. وبما أن إيزابيل فقدت الكثير فما عادت لتخاف منه. فبموت تيدي خسر غوردون سطوته عليها، وربما للأبد. وعلى الأقل الآن، وبشكل أكيد.

"ولحسـن حظـك أنت أنني تساهلت معك في طريقة معاملتك لي خلال السـنوات العشـرين الماضـية، وعلى طريقتك المروعة في تعاملك مع ابنك للسـنوات الخمـس عشرة الماضية". لقد اشتبكا في عراك مميت، فإيزابيل لم تـتوقع أن يـدور الحديث معه بهذه السرعة بعد وفاة تيدي، ولكنها كانت على أهـبة الاسـتعداد له. وتذكرت ما كان قد قاله بيل لها عندما رحل، عن ادخار الذخـيرة أو الـبارود إلى أن يهاجمها غوردون من جديد، وها قد فعل أخيراً، وفي يوم جنازة تيدي. لقد كانت هذه قسوة مريعة وقلة احترام كبيرة، ولكنها لم تستغرب أن يبدر هذا عنه.

وقف غوردون ينظر إليها وكأنه يريد أن يصفعها، ولكنه لم يجرؤ. "سوف لن أتساهل معك في ذلك. وسوف تجدين نفسك ملقاة على قارعة

الطريق يا إيزابيل إذا لم تكوني حذرة".

"ما عدت تخيفني يا غوردون". لم يبقَ لها ما تخسره. فما عادت بحاجة لحماية تيدي، وما عادت لتبالي إن ألقى بها غوردون خارج المنزل. وفي نهاية الأمر سيكون هذا لصالحها. "إنك لا تخيفني على الإطلاق". وأمكنه أن يرى أنها فعلاً ما تقول.

"وأين ستذهبين إذا ما ألقيت بك خارجاً؟" قال لها هذه الكلمات، وبدت إيزابيل في غاية الهدوء، والتقت عيناها بعينيه وثبتت نظرها فيه وقالت: "أعتقد أنه سيكون من لطفك أنت والكونتيسة دي لين أن تسمحا لي بالمكوث في شقتكما في شارع رو دي باك. إذ أظن أنك، إذا ما ألقيت بي خارجاً، فإنها ستبقى معك هنا". قالت لـه بصوت هادئ مليء بالكبرياء فهدر غوردون من الغضب. لقد بدا كالأسد الجريح، واقترب منها للغاية فاستطاعت حتى أن ترى مسامه. لقد كان مهتاجاً للغاية ويرتجف من الانفعال.

"أنت لا تعرفين عما تتحدثين". صرخ في وجهها ولقد انصعق بما قالته. لقد كانت هذه لطمة لم يكن يتوقعها، ولوهلة أفقدته توازنه.

"ربما لا. ولكن بالتأكيد نصف باريس يعرفون ذلك وطوال السنوات العشر الماضية. لقد اتصلت بك هنا خطأً في ليلة عيد رأس السنة. أعتقد أنها كانت منذهلة، ولكنها فتحت عيني لما كان يجب أن أراه منذ سنين. لذلك لا تحدثني عن بيل روبنسون يا غوردون. فهو خارج الموضوع.

"ألا يـزال في حياتك؟" لم يكن يحق لـه أن يعرف، ولكنها أخبرته على كل حال. وقد كان منذهلاً لكونها تعرف عن لويزا ولم تقل لـه شيء عن ذلك أبداً.

"لا، لم يعد في حياتي. ولكن أعتقد أن الكونتيسة لها اعتبار كبير في حياتك. وأظن أنها كانت معك في إيطاليا". لم يعترف لإيزابيل بذلك ولكن ظنها كان في مكانه، وكان عدد من الناس يعرف بذلك، واستأنفت تقول: "لقد قيل لي أنه لا تستطيع وسوف لن تتزوج بك إلا بعد وفاة زوجها، وأعتقد أن الأمر

صعباً بالنسبة لك. فما الذي كنت تخطط لتفعل بي عندئذ يا غوردون؟ كيف كنت تنوي التخلص مني عدا نقلي إلى غرينوبل لأبقى مع صوفي؟".

"أنت مجنونة، أنت مشوشة من جراء فقدانك لابنك. وسوف لن أصغي إلى هذه الترهات". بدا غوردون على وشك أن يخرج. فلم يشأ أن يسمع أي كلمة أخرى منها.

"لا"، قالت بهدوء. "بل أنا محطمة الفؤاد، ولست مجنونة. ولكن لا بد أني كذلك وإلا لرأيت ما كنت تفعله كل تلك السنين. فأنت ما كنت تنام هنا، وكنت من الغباء حتى لم أعرف ذلك، لأنك كنت طوال الوقت تحاول أن ترعبني وترهبني. على كل حال، لقد ولت هذه الأيام".

"أخرجي من منزلي". صرخ فيها وهو يرتجف من الحنق.

"سأفعل، ولكن ليس قبل أن أكون مستعدة لذلك. وإبان ذلك، أقترح عليك أن تبقى معها". فخرج من غرفة نومها وهو يهدر كالرعد، وبعد دقيقة سمعته يصفق الباب الأمامي. لقد كان مشهداً لا يصدق، وأدركت فجأة أنه كان يحاول سحقها، ولم تبالي بذلك. لقد بدا وكأن فقدانها لتيدي قد حررها أخيراً. لقد فقدت الكثير بفقدانها لتيدي وبيل وما عاد لديها شيء تخسره ما عدا صوفي. وبرحيلها، سيكون غوردون قد حررها من البؤس والأكاذيب التي كانت ترزح تحتها على مدى سنين كثيرة.

"ماذا قال لك يا ماما؟" سألتها صوفي بهدوء. لم تكن إيزابيل قد رأتها تدخل إلى غرفتها. كانت قد دخلت بعد أن غادر والدها، وبدت خائفة. فلم تكن قد سمعتهما يتشاجران على هذا النحو طوال حياتها.

"ليس بالأمر الهام". قالت إيزابيل وهي تجلس إلى سريرها من جديد. لقد شعرت بأنها مصدومة ولكنها مرتاحة.

"بل هام يا ماما. إنه مخيف في سلوكه معك. إنه أبي وأنا أحبه ولكني لا أريده أن يعاملك معاملة سيئة بعد الآن". وخاصة اليوم، بعد جنازة تيدي، فقد كان سلوكه شائناً.

وإذ نظرت إلى ابنتها، أدركت إيزابيل فجأة كل ما حدث للتو. "كل ما في الأمر أنه طلب إليّ أن أرحل". لقد كانت هادئة ورابطة الجأش بشكل غريب وهي تقول لها ذلك، وكانت صوفي بحاجة لأن تعرف ما حدث.

"وهل ستفعلين ذلك؟" واتسعت عينا صوفي في حين راحت إيزابيل تفكر بالأمر. بقد بدت صوفي خائفة بعكس إيزابيل. لقد كانت هادئة بشكل غريب.

"أعتقد ذلك. فهذا منزله" لقد انتهى زواجهما في يوم جنازة تيدي، وكان يجب أن يحدث هذا. فأخيراً قضي الأمر.

"أين ستذهبين؟" سألت صوفي والدموع في عينيها.

"أعتقد أن علي أن أستأجر شقة. كان يجب أن أفعل ذلك منذ زمن بعيد، ولكن ما كنت أستطيع الاعتناء بتيدي دون مساعدته". طأطأت صوفي رأسها، وفهمت إيزابيل أن كل شيء حولها قد انتهى. لقد خسرت الكثير: تيدي، وبيل، ومنزلها، وزواجها. كل ما عرفته أو أحبته أو تعلقت به أو اعتمدت عليه أو آمنت به قد انتهى. لم يبقَ لها ما تفعله سوى أن تبدأ من جديد. وإذ نظرت إلى ابنتها، دنت صوفي منها وأحاطتها بذراعيها، وتعانقت المرأتان دون أن تنبسا ببنت شفة.

تيدي هو من حررها من غوردون في نهاية الأمر. تيدي هو من أخذ بيدها واقتادها بعيداً. ما كان بيل يستطيع ذلك، وقد تركها أولاً. وما كانت لتملك الشجاعة لتفعل ذلك من نفسها. ولكن تيدي، بتحرير نفسه من جسده الأرضي الترابي الذي كان مصدر عذاب له طويلاً، قد حرر والدته من الحياة التي كانت تتعذب فيها. لقد بدا وكأنها تشعر به إلى جوارها، مسروراً مما فعله. فبعد كل ما فعلته لأجله لخمس عشرة سنة كانت هذه هدية نهائية يقدمها لها. وتحررت أخيراً.

الفصل السابع عشر

لم يعد غوردون إلى المنزل في شارع رو دي غرينيل لعدة أيام. وكانت إيزابيل تعرف أنها تستطيع أن تجده إذا أرادت، لكنها لم تحاول. لم يكن من داعٍ إلى ذلك. لم يبقَ هناك ما يقولانه، وكانت على ثقة بأنه مع الكونتيسة دي لين.

راحت إيزابيل تجول أرجاء المنزل دون هدف معين لبرهة وهي تحاول أن تستوعب كل ما حدث. وجلست في غرفة تيدي لساعات، وبكت، ثم ابتسمت فجأة عبر دموعها إذ تذكرت أشياء كان قد فعلها أو قالها. لقد بدت مأخوذة إلى عالم آخر. وإذ كانت وحدها، وفي وقت متأخر من إحدى الليالي، شرعت تجمع أغراضه. لقد كانت هذه قليلة، وكأنه كان يعبر هذا العالم عبوراً فقط. كان لديه كتب، وألعاب تركيبية ودمى من طفولته، وثياب نوم لا تحصى، وبعض المقالات الدينية التي كانت الممرضات قد أعطتها له عبر السنين. راحت إيزابيل تتنشق ثيابه ووسادته قبل أن توضبها. ولكن لم يكن لديه الكثير فعلياً. فقد كان أكثر ما يهمه هو الصور الفوتوغرافية التي كان يحتفظ بها لأمه وصوفي. وكانت هناك صورة جميلة جداً لإيزابيل وغوردون في يوم زفافهما. لقد كانت هذه الصورة الوحيدة التي يحتفظ بها أو يريدها لوالده.

حزمت هذه الأغراض جميعاً، وظلت ساهرة حتى الصباح. وفي الوقت الذي استيقظت فيه صوفي صباحاً كانت إيزابيل قد أنهت ذلك. كانت هناك علب كرتون محزنة ومكدسة في غرفته. وعندما انتهت من ذلك، رجعت إيزابيل إلى غرفة نومها ونامت.

واستمعت إلى غوردون في وقت متأخر من ذلك اليوم. لقد كان يريد أن يعرف بمخططاتها.

"لم أعرف بعد. لقد كنت أحزم أغراض تيدي".

"يا لهذا السعي الذي يولد المرض. لماذا لا تدعين الممرضات يفعلن ذلك؟" لقد فعلت ذلك بنفسها بدافع الاحترام للطفل الذي أحبته للغاية. لكن غوردون لم يكن ليفهم ذلك. فهو ما أحبَّ أحداً إلا نفسه، ولم يحب أحداً أبداً. ولم تكن إيزابيل لتتخيل طبيعة علاقته مع لويزا. لقد كانت متأكدة من أن تلك العلاقة قامت على أساس مكانتها الاجتماعية ولقبها. لقد كانت نفس الدوافع التي اجتذبته يوماً إلى إيزابيل. ولكنه لم يكن يحتمل الشخص أو الواقع. لم يعد بحاجة لهما. "لقد أسأت التصرف تلك الليلة". قال يتهم إياها ويحاول أن يخوفها بنبرة صوته. كانت قد سمعته يتحدث هكذا كثيراً وما عادت تتأثر بكلامه. وما أفزعه هو جرأتها على مواجهته لعلاقته الغرامية مع لويزا. لقد انذهل من أنها اكتشفت ذلك بعد كل تلك السنين. وعندما سأل لويزا إذا كانت قد اتصلت بمنزله فعلاً ليلة عيد رأس السنة عندما فاتتها رحلة الطيران إلى سانت موريتيز قالت إنها فعلت ذلك على الأرجح. لقد كانت غلطة بريئة غير مقصودة. ولكنها حلت اللغز وكشفت أكاذيبه المنمقة المدروسة بعناية التي كان يمارسها عليها لعشر سنوات. ولم يجرؤ على أن يشكي لها عن ذلك.

"لقد كان هذا وضعاً رديئاً على مدى زمان طويل". قالت إيزابيل ببساطة، وكانت هذه هي الحقيقة. "لقد كنت دائماً أعتقد أني خذلتك نوعاً ما وأن هذا هو سبب برودتك وقسوتك نحوي. لقد كنت أعتقد أنه ذنبي، لأني كنت دائماً منشغلة بتيدي. ولكني فهمت أخيراً أن ليس لذلك أي علاقة بي أو به. وكل ما هنالك هو أنك وبكل بساطة لم ترد أن نكون هنا".

"بل أنت السبب في كل ذلك. فلو بذلت جهدك لتكوني زوجة صالحة لما حدث كل ذلك". لم يكن ليقر بشيء لها بل يلومها على كل شيء. فقد كان من ذلك النوع من الرجال.

"لقد كنت زوجة صالحة لك يا غوردون. لقد كنت هنا دائماً من أجلك وفي خدمتك. وفي الواقع لقد أحببتك في البداية. ولكنك أنت من عزلني عنك

وأخرجني من حياتك وشيد جدراناً بيني وبينك، وأنت من هجر غرفة نومنا ونبذني. وليس لي علاقة في كل ذلك وأعتقد أنك تعرف ذلك".

"ليس بإمكانك أن تبرري تصرفاتك بتلك السهولة. فما كنت لأقدم على أي شيء من ذلك لو أنك تعلمت واجباتك منذ البداية".

لقد كان أستاذاً لها، وهي التلميذة. وأرادها أن تعرف أنها أخفقت بالمنهاج بشكل كبير. فكل حبها وإخلاصها وولائها لم يكن له أي اعتبار عنده. ولم يكن ليهتم بشخصها أو يعرف من تكون. لقد كان هذا واضحاً جداً. لقد كانت تؤدي له حركات بهلوانية على مدى سنوات بينما كان هو يصرخ قائلاً: "أعلى"، "أسرع"، ولم تكن جيدة أو ماهرة كفاية بالنسبة له. فبعد أن استغل الخلفية الاجتماعية والعلاقات والارتباطات التي كانت لأهلها وأسس نفسه، لم يعد له فائدة ترتجى منها. وكانت تعلم أنه سيقوم بنفس الأمر مع لويزا. فعندما يعلم الناس أنه تزوج من كونتيسة، وأنها كانت امرأة ثرية وناجحة، واستغلها لإرضاء رغباته وتحقيق مصالحه، فإنه سيلقي بها أيضاً إلى الخارج. وما كانت إيزابيل لتتصور أن غوردون يهتم لأحد، أو لها، أو لأولاده، أو حتى لعشيقته. لقد كان نرجسياً[1] إلى أقصى الحدود.

"أعتقد أن دماغك قد تخرب منذ الحادث" قال ببرود، واستطاعت في الحال أن تتخيل الصورة التي كان سيرسمها، بأنها ليست على ما يرام تماماً بعد الغيبوبة، وأنها كانت دائماً غريبة الأطوار، وأنها تعرضت لخلل نفسي قاس بعد وفاة ابنها. لقد كان هذا المبرر المثالي ليتخلص منها. لقد بدت وكأنها لمحت فجأة كهفاً عميقاً مظلماً ورأت الوحش الذي يعيش فيه. في سابق الأيام كان هذا يخيفها ويرعبها ولكن ما عاد كذلك. لم تكن تريد أن يكون لها أي علاقة مع ذلك الوحش. "أتوقع منك أن تنتقلي بسرعة". قال ببرودة. لقد كان يستغني عنها، وكل ما كان يريده منها الآن هو أن تختفي. وكان هذا يلائمه

(1) النرجسي (narcissistic): من لديه خلل في شخصيته يتمثل بتقديره المفرط لذاته ومظهره وقدراته وحاجة كبيرة لأن يكون موضع إعجاب.

تماماً. فما عادت لـه فائدة منها وقد أصبحت مشكلة الآن، وأراد إقصائها. فقد كشـفته، ولم يكن ليتساهل معها. وقد سلطت ضوءاً ساطعاً عليه ورفضت أن تكون حمقاء. لقد خدعها على مدى سنوات عديدة، ولم تعد كذلك الآن.

"سـوف أغادر عندما أجد شقة يا غوردون". قالت لـه وقد بدت متعبة. فقـد كانت مستيقظة طوال ليلة أمس وهي تجمع أغراض تيدي، "أنت تعلم ولا شـك، أنك إذا ما ألقيتني في الشارع بعد وفاة تيدي فإن الناس سوف ينتقدونك بشدة".

"سـأقول لهم عندئذ أنك قد فقدت عقلك بسبب موته وأنك هربت لأسباب أجهلها متأثرة بالطبع بالإصابة في دماغك". لقد كانت فكرة بارعة منه بالفعل، وقد تبين أنه يفكر بهذا منذ زمن. وكانت تتساءل يا ترى هل استعان بلويزا.

"أنت تفترض أن الناس يصدقونك، وأنا أشك في ذلك. نعم ربما بعضهم لكن من يعرفني يدرك أني لست (مجنونة دي شايلوت) المختبئة في العلية. أنا امـرأة كذبـت أنت عليها وخنتها وعاملتها بكل قسوة. يوماً ما سيعرف الناس حقيقـتك كمـا فعل أبناؤك. فلا يمكنك أن تغش الناس وتخدعهم إلى الأبد، ولا حتى أنا". كانت خيانته لها كمثل ضربة قوية تلقتها منه. وما كان يفعله الآن بدا أسـوأ إذا مـا أخذنا بعين الاعتبار الصدمة التي تلقتها بوفاة تيدي. لقد هجرها بـيل، بعـد خمس سنوات، والآن غوردون، والذي كان في الواقع قد هجرها عاطفياً قبل سنين، ورحل تيدي عنها لأنه لم يكن لديه خيار. ولكن على جميع الأحوال كانت هذه الصدمات قوية ومؤثرة على إيزابيل. وكانت تعرف، وهي تصغي إليه يتحدث عن نواياه بأن يسيء إلى سمعتها، أنها سوف لن تكون في منأى كليا عن خذل الناس الذين أحبتهم كثيراً لها. لقد قضى هذا على كل إيمان لديها بأن الحياة منصفة عادلة وأن الأمور تنتهي إلى نهاية سعيدة. فلم تكن ثمة نهايـات سعيدة في عالمها. بل حتى ما عادت تتوقعها. كل ما كانت تريده هو أن تنعم بالسلام وحسب.

"ارحلـي مـتى شئت. ولكن أعلميني بذلك وحسب. لقد اتصلت بمحامي

الـيوم. وسوف يضع مسودة عقد اتفاق بيني وبينك". لقد تحرك بسرعة كبيرة جداً. وتساءلت إذا ما كانت حالة الكونت دي لين تنهار. لقد بدا غوردون على عجلة من أمره فجأة. وسوف يناسبه جداً إذا ما كانت على استعداد لأن ترحل إلـى غريـنوبل. فقد كان يمكنه أن يقول إنها كانت في مصحة، لو أنها فقدت صـوابها، أو أنهـا كانـت تعاني من اكتئاب. كان بمقدوره أن يقول أي شيء طالمـا مـا عـاد أحد يراها. ولكنها لم تكن تنوي أن تجعل الأمور بمثل تلك السـهولة له. وأدركت، وهي تصغي إليه، أن عليها أن تجد محامياً ما. ووجه غـوردون إليها تحذيراً آخراً: "انتبهي عندما تحزمين أغراضك يا إيزابيل أنك تسـتطيعين فقط أخذ ما هو لك، وكل ما جلبته معك عند الزواج. أما كل شيء عدا ذلك فهو يخصني أنا".

"لقـد كان هذا في نيتي". قالت لـه في برود. كم كان سريعاً أن تصغر علاقتهما إلى درجة تحديد ما يخص كل منهما. لقد كان كل ما تريد أخذه معها هـو ثيابها، وأغراض تيدي، وبعض اللوحات والأشياء الأثرية التي تعود إلى والديهـا، وبعض قطع المجوهرات التي كان غوردون قد قدمها لها. وما كانت تريد حتى أن ترى بقية الأشياء من جديد وكانت ستأخذ المجوهرات معها فقط لكي تقدمها لصوفي في المستقبل. "سوف أعلمك متى وجدت مكاناً أسكن فيه".

راحت تبحث عن شقة بسعي محموم خلال الأسبوعين التاليين، وقد كان ذلـك أسهل عليها عندما عادت صوفي إلى الجامعة. لقد كانت صوفي منذهلة مـن كـل ما حدث، وبأن إيزابيل لم ترد أن تزعجها أيضاً. وفي نهاية أيلول (سـبتمبر) وجدت إيزابيل شقة مناسبة جداً لكلتيهما في شارع رو دي فارين، لـيس بعيداً عن المنزل الذي كانت تعيش فيه مع غوردون في شارع رو دي غرينـيل. كانـت الشقة مؤلفة من غرفتي نوم، وغرفة جلوس كبيرة مشمسة، وغرفة طعام صغيرة، ومطبخٍ عتيقِ الطراز نوعاً ما مع خزانة للمؤن وشُرفة صـغيرة يطل على موسي رودن. لقد كانت هذه الشقة في الواقع هي الطابق الثالـث فـي فـندق بارتيكولـير القديم. وكان هناك موقف للسيارة كان يوماً

اسطبلاً، وكان في حالة مقبولة نوعاً ما. لقد كان هذا المنزل بحد ذاته أنيقاً يوماً ما، كمثل البيوت الكبيرة الجميلة التي تعود إلى القرن الثامن عشر الواقعة على الضفة الشمالية، وكان الناس الذين يملكونه عبر الأجيال قد أفلسوا فما عادوا يستطيعون صيانته منذ زمن بعيد. كان هناك مصعد صغير بدا كقفص عصفور وأسقف مرتفعة، وأرضيات جميلة ولكن بالية، وكان مالكو المنزل عائلة أرستقراطية سبق لها أن التقت بهم يوماً. لقد كان حياً جميلاً وعنواناً جيداً، وأدركت أنها ستعيش في سلام وأمان هناك. وكانت تعلم أن لديها ما يكفي من الأثاث من والديها لكي تزين البيت بشكل أنيق. اتصلت بمحامي غوردون بعد أن وقعت عقد إيجار الشقة، وقالت له إنها ستنتقل خلال أسبوعين. ثم اتصلت بصوفي.

لقد بدا الأمر لصوفي وكأنه سرور مختلط. فقد كانت سعيدة لأن والدتها قد وجدت هذه الشقة، ولكن كان من المستغرب أن تعيش في مكان آخر. كانت لتبقى في رو دي غرينيل عندما تزور والدها، ولكن بما أن والدتها وتيدي قد غادرا المنزل، فإن مجرد التفكير في ذلك كان يشعرها بالاكتئاب.

حصلت إيزابيل على عقد الاتفاق من غوردون بعدئذ. كان يقدم لها هبة ضئيلة، والتي ما كانت أبداً لتتناسب مع الحياة التي شاطرته فيها على مدى إحدى وعشرين سنة. واقترح محاميه أن تحاول الحصول على عمل، وكان هذا ما تنوي فعله على كل حال، بدلاً من أن تطلب العون من غوردون. كان كل ما في العرض الذي قدماه يسير لصالحه، وقد كان في الواقع صفعة كبيرة لها على وجهها. في الواقع، إنها لم ترد أي شيء منه، وقد تأكد لها صحة ما فكرت به عندما كانت تأبى أن تنفصل عن غوردون خشية على تيدي. فقد كانت تدرك أنه سيجعلهما يتضوران جوعاً إذا ما هجرته. وأما الآن فلم تكن تريد منه إلا النذر اليسير، فقط ما يكفي لتغطية النفقات فيما إذا حدث طارئ ما لها أو أصيبت بالمرض.

لقد كان محاميها غاضباً جداً بما كان قد قدمه غوردون، وأرادها أن

تحارب لتحصل على نصيبها العادي، وحتى أن تكسب المنزل في رو دي غرينيل. ولكن إيزابيل كانت تدرك أن هذا الانتصار أجوف فارغ لا قيمة له. لقد كانت راضية بأن تتركه بأقل ما يكون معها وذلك لسد حاجاتها وليس أكثر. وتقريباً لم تكن تريد منه أي شيء.

انتقلت إلى الشقة في شارع رو دي فارين في منتصف شهر تشرين الأول (أكتوبر)، ودهشت لرؤية الشقة بذلك الجمال بعد أن قامت بإجراء بعض الإصلاحات فيها. أما الأمر الوحيد الذي كان يؤلمها بتركها منزلها القديم فهو أن تترك تلك الغرف التي أمضت فيها مع تيدي كل حياته. ولكن كانت تعلم أنها وبانتقالها إنما كانت تنقل معها ذكرياتها أيضاً. وألقت نظرة أخيرة من فوق كتفها إلى المكان وخرجت من المنزل في حين كانت جوزفين، مدبرة المنزل، تبكي. لقد وعدتها إيزابيل أن تأخذها لزيارتها في عنوانها الجديد.

وحتى صوفي اندهشت في أول مرة تأتي إلى الشقة في عطلة نهاية الأسبوع. لقد كانت عطلة all Saints' day[1]، وكان لديها أربعة أيام عطلة عن الجامعة.

"إنها تبدو رائعة يا ماما". أشرق وجه صوفي بابتسامة عندما رأت غرفتها. كانت إيزابيل قد استخدمت بعض القماش في تزيين الغرفة، فعملته من الحرير ذي اللون الأرجواني الغامق ورسمت عليه أزهار الليلك والبنفسج وطلت الجدران بلون عاجي دافئ مع تقليمة رفيعة بلون أرجواني شاحب. كانت غرفة مثالية لفتاة. وكانت قد طلت غرفتها بالأصفر، وكانت غرفة الجلوس مليئة بالقطع الأثرية التي كانت يوماً لوالدة إيزابيل، والتي كانت قطعاً فنية جميلة يعود معظمها إلى عهد الملك لويس الخامس عشر والسادس عشر. ما كان قد مضى عليها سوى أسبوعين هناك، ومع ذلك فقد كانت تشعر بالارتياح إلى المكان، وبشكل ما أكثر من رو دي غرينيل. فقد كانت هذه الشقة

(1) all Saints' day: يقع في الأول من تشرين الثاني(نوفمبر).

ملكاً لها.

والأكثر من ذلك، إن ما أثار دهشة إيزابيل هو مدى السهولة التي تأقلمت فيها مع حياتها الجديدة. لم تفتقد غوردون، ومن افتقدته كثيراً جداً كان تيدي، وكان قلبها ينفطر كلما تذكرته. العيش في الشقة الجديدة سبب لها بعض التسلية، ولكن لم يكن ممكناً أن تتذكر حقيقة أنه رحل. ولكن أن تكون في مكان جديد كان أسهل بالنسبة لها، فهنا لن تتجول في الأماكن التي سارت معه فيها يوماً، أو تجلس في الحجرة التي أمضت معه ساعات فيها. ورغم انتقالها إلى مكان جديد، فإنها أخذت معها ليس حزنها على تيدي وحسب بل أيضاً توقها اللامتناهي إلى بيل. فما كانت لتتقبل بسهولة فكرة أنها لن تراه من جديد أبداً بعد أن أمضت معه خمس سنوات تتحدث إليه، وينصحها، ويريحها. فقد كان الناصح المخلص، والصديق الصدوق لها، وأخيراً الحبيب. فلا يمكنها بعد كل ذلك أن تستوعب فكرة أن يتركها ويمشي. لقد كان هذا آخر ما كانت تتوقعه منه، وتلك القسوة الوحيدة التي بدرت منه، والتي كانت أسوأ ما تعرفت له في حياتها. وكانت تدرك أنها لن تنساه على مدى العمر. وما كانت لتقدر أن تتصور أن تحب شخصاً آخر أو تثق بشخص آخر من جديد. وبالنتيجة، لم يكن غوردون الذي حطم قلبها ودمر إيمانها، ذلك لأنها ما كانت لترجو شيئاً منه، ولم تكن كذلك لسنين، بل بيل هو الذي قد آلمها أكثر لأنها أحبته حقاً ووثقت به. ولكنها كانت تعلم أن عليها أن تتعايش مع هذا الوضع مهما كلف الأمر.

بعد أسبوعين من انتقالها إلى الشقة، وحتى قبل مجيء صوفي إلى البيت في عيد التوسانت[1]، رأت صورة له في الهيرالد تريبيون. كانت المقالة

(1) عيد التوسانت (the toussaint): نسبة إلى توسان لوفرتور (Toussaint L'Ouverture): وهو فرانسوا دومينك (Francois Dominique) (1743- 1803): جندي ورجل دولة هاييتي، ولد في العبودية، وكان ناشطاً في الحركة التي أدت إلى إلغاء الاسترقاق في هاييتي (1791). وصار حاكماً لهاييتي منذ عام 1797. ولكن الفرنسيين أسروه عام 1802.

تتحدث عن الانتخابات الوشيكة في الولايات المتحدة، وعن دوره في تنافس هام بين أعضاء مجلس الشيوخ. لقد كانت المقالة إطراءً له، وجلست تحدق إلى الصورة مطولاً، ورأت أنه يبدو بحال جيدة. لم تكن تستطيع أن تعرف على وجه الدقة، لكنه كان يبدو كما لو كان واقفاً ضمن مجموعة من الرجال، والمرشح الذي يناصر قضيته كان يقف إلى جانبه. وذكرت المقالة باختصار أنه تعرض لحادث سيارة كاد يودي بحياته في لندن العام المنصرم وأنه حقق شفاءً ملحوظاً، وعاد إلى الحياة السياسية أقوى من قبل. ورغم أن المقالة ما كانت تذكر في إذا ما كان يسير أو يركض في سباقات الماراثون، إلا أنها بدت تدعم ما كان قد قاله بيل لها عندما كذب عليها بشأن قدرته على المشي من جديد. لقد بدا وكأنه في كامل صحته وعافيته وأنه استرد طاقته كلها. وفي النهاية، بعد أن حدقت إلى الجريدة ليومين وهي تعذب نفسها، ألقت بالجريدة جانباً.

كانت صوفي قد عادت لتوها إلى الجامعة بعد عطلة عيد التوسانت عندما رأت إيزابيل بيل على التلفزيون على محطة سي إن إن[1]. لقد كان في جلسة للشيوخ في واشنطن، وقد جلس إلى طاولة طويلة يخاطب لجنة من الشيوخ في جلسة مخصصة. ما كانوا يقولونه بدا تقنياً للغاية ومملاً بالنسبة لها، ولكنها تسمرت إلى التلفزيون كالملوم مغناطيسياً عندما رأت وجهه. لقد كانت قد عانت من يوم سيء لتذكرها تيدي، وأخيراً استسلمت لمحاولة بأن تسرّي عن نفسها. فذهبت إلى سريرها وأدارت التلفزيون لتتذهل لما تراه. ولم تستطع أن تبعد نظرها عنه وهو يتحدث وقد ألقى خطاباً مثيراً للعواطف، ثم استدار نحو الكاميرا وكأنه كان يتحدث إليها.

فهمست في رقة: "يا لك من نذل". لقد كانت تود أن تتمنى له كل الخير بعد أن جدد نذوره نحو سنثيا، ولكنها لم تستطع. لقد كانت لا تزال متألمة جداً

(1) سي إن إن (CNN): هية اختصار لـ (Cable News Network): وهي من أشهر المحطات التلفزيون الأمريكية.

منه بسبب ما فعله بها. وكانت لا تزال تتذكر كل كلمة قالها عندما أخبرها أن الأمر انتهى بينهما. لم تكن لتستحق ذلك، فقد أحبته حباً جماً، وكانا سعيدين للغاية. كانت تتعذب وهي تتذكر كل ذلك، عندما ارتد المصور بالكاميرا إلى الخلف في نهاية الخطاب، ورأت أحدهم يدفع عربته خارجاً. ففغرت فاها وهي تشاهد ذلك. كان قد أخبرها أنه استعاد قدرته على استخدام ساقيه بشكل كامل، وكان من الواضح مما تراه أنه كان لا يزال مقيداً إلى كرسي مدولب. ولكن لماذا؟ لماذا أخبرها أنه صار يستطيع المشي إن لم يكن كذلك؟ ما الهدف من ذلك؟ وعندها وهي تشاهده يختفي من على الشاشة مع مجموعة من الناس في الحشد، تذكرت ما كان قد قاله لها في البداية. فقد لمح لها قليلاً وهما في لندن انه إذا لم يستطع أن يسير من جديد، فسوف لن يبقى معها لئلا يشكل عبئاً عليها. لم يقل ذلك بالحرف الواحد، ولكنها فهمت ما كان يقصده، وقد فكرت أنه كان مكتئباً. لم تصدقه حقاً آنذاك، وكانت تفكر أنه إنما يتحدث بطريقة مسرحية، ولكنه صارت تتساءل الآن إذا ما كان يعني تماماً ما قاله. وبدا كما لو أنها كانت تسمع كلماته الآن بوضوح شديد جداً. لم تفكر أبداً في هذا الموضوع لأنه قال لها بوضوح أنه كان يسير من جديد. وفجأة سألت إذا ما كان يكذب عليها بشأن كل شيء آخر.

جلست في سريرها طويلاً وهي تفكر بما ستفعل الآن. وكيف تستطيع أن تكتشف ما قد حدث. أرادت أن ترفع سماعة الهاتف وتسأله. ولكن لو أنه كان يريدها أن تعرف الحقيقة لأخبرها من قبل خمسة أشهر بدلاً من أن يكذب عليها. لكنها كانت مشوشة الفكر تماماً. ألقت عنها الأغطية ونهضت من سريرها ورلحت تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً فيما التلفاز يعمل. وأطفأته لكي تستطيع أن تفكر بصفاء ذهن، ثم نظرت إلى ساعتها. لقد كان ذلك وقت الظهيرة في واشنطن والساعة السادسة مساءً في باريس. ثم خطرت لها فكرة. فهرعت، نحو المطبخ، والتقطت سماعة الهاتف.

طلبت رقم الاستعلامات في واشنطن وسألت عن رقم هاتف مكتبه،

وأعطوها الرقم في الحال. ما كانت لتعرف ما ستفعل بعد ذلك، ولكن عندما أجاب صوت، وقد بدا منشغلاً، سألت عن مساعد السيد روبنسون، فجاءها صوت ذكري على الهاتف. فأوضحت للمتلقي أن السيد روبنسون قد شجعها على الاتصال به من أجل جمعية محو الأمية عند الأطفال في ديب ساوث، وأمكنها أن تسمع المساعد يصغي بانتباه. لقد كانت إيزابيل تعلم أن محو الأمية في كل أرجاء أمريكا كان أمراً مهماً بالنسبة له، وكان يحث كل مرشحيه على مناصرة هذه القضية الهامة.

"بالطبع". قال المساعد مؤيداً فكرة إيزابيل.

"لقد كنا نرجو أن يحضر وزوجته حفلنا الذي سيقام في كانون الأول (ديسمبر). ونود أن تكون زوجته ضيفة الشرف عندنا". ساد صمت لبرهة فيما كان المساعد يلتقط أنفاسه وتستجمع إيزابيل أفكارها وشجاعتها وهي تصلي أن يكون حدسها في محله.

"بالتأكيد سيود السيد روبنسون المشاركة في ذلك. سوف أتحقق من جدول مواعيده عندما تحددي لي التاريخ والوقت ولكن أخشى... أن... ألا تستطيع السيدة روبنسون أن تكون ضيفة الشرف. أو بالواقع، قد يمكن هذا، ولكن... حسناً. إنهما مطلقان. في الواقع"، قال ذلك وقد بدا مرتبكاً محرجاً قليلاً، "وهي سوف تتزوج من جديد الشهر القادم. وأعتقد أنها ولا ريب ستهتم بالأمر إذا ما كنت تودين أن تسأليها. يمكنني أن أعطيك رقم هاتفها إذا أحببت الاتصال بها. ومن جهة أخرى، أعتقد أن السيد روبنسون سيكون مهتماً بحضور حفلكم كضيف شرف، إذا ما أرسلت لي بعض البيانات عنها وأعطيتني الموعد".

"من كل بد. سوف أرسلها لك اليوم". قالت إيزابيل ويدها ترتعش وهي تمسك بسماعة الهاتف وتغمض عينيها. لقد كذب عليها في كلا الأمرين. فهو وسنثيا ليسا معاً، وليس بمقدوره أن يمشي، وتأكدت الآن من أنها عرفت ما كان قد فعل. لقد حررها، كرمى لها، من فكرة مجنونة كان يريد أن ينجيها

منها، لأنه أحبها. ولكن ربما ما عاد يحبها... ولكنّ الأمرين كانا مؤكدين، فما عاد متزوجاً إلى سنثيا، وما زال بعد في كرسي متدولب.

"شكراً جزيلاً". قالت لمساعده على الهاتف.

"هلا تتفضلت من جديد وذكرت لي الموعد؟".

"الثانية عشرة من كانون الأول (ديسمبر)".

"سأضع هذا في جدول مواعيده من أجلك وأعلمه بالأمر".

"شكراً".

"ما هو اسمك؟ عفواً... لم أحفظه...".

"لا بأس. سالي جومز".

"شكراً آنسة جومز. شكراً على اتصالك".

جلست في سريرها بعد ذلك طويلاً وهي تفكر ملياً فيما ستفعله في الخطوة التالية. جلست هناك وهي تفكر فيه، وهي متأكدة أكثر مما قد فعل وعرفت السبب في ذلك. وشعرت وكأن كل شيء قد تغير في لمح البصر. ولكن في هذه المرة، وبدلاً من أن تتمنى الموت كما حدث معها قبل خمسة أشهر، فقد شعرت بنفسها على قيد الحياة من جديد.

وعند منتصف الليل، وبعد أن أعملت فكرها في ذلك ولساعات، عرفت ما عليها أن تفعله. فرفعت سماعة الهاتف، واتصلت بشركة الطيران، وقامت بالحجز على رحلة الطيران بعد ظهر اليوم التالي. لقد كانت انتخاباته بعد أربعة أيام فقط، وربما كان التوقيت غير مناسب، ولكن ما كانت لتطيق صبراً على الانتظار. فحجزت مقعداً في رحلة الساعة الثانية لليوم التالي. ثم اتصلت بصوفي وأخبرتها بأنها ذاهبة إلى واشنطن لبضعة أيام.

"لماذا؟" سألتها صوفي وقد بدت مندهشة ولكنها كانت مسرورة. فقد كانت والدتها فاقدة الحياة، وحزينة، ومضطربة وذاهلة منذ أشهر، وخاصة بعد موت تيدي، فشعرت بالارتياح لفكرة ذهابها إلى أي مكان.

فأوضحت إيزابيل: "سأذهب لأرى صديقاً قديماً".

"وهل أعرفه؟" سألت صوفي وهي تحاول أن تحزر. كانت والدتها تتصرف بشكل غريب إلى حد ما. لقد بدت سعيدة ومنفعلة وخائفة.

"بيل روبنسون. لقد كنا معاً أثناء الحادث". قالت إيزابيل بلطف، فابتسمت صوفي على الطرف الآخر.

"أعرف يا ماما. لقد كان لطيفاً معي في لندن عندما زرتك في المشفى. إن لديه ابنتين وزوجة رائعة".

"هذا صحيح تقريباً". ما عدا ما يتعلق بزوجته.

"إنه يحبك كثيراً". قالت صوفي ببراءة، وابتسمت إيزابيل.

"وأنا أيضاً أحبه. سأتصل وأعلمك أين أكون ومتى أعود إلى البيت. حسناً؟ انتبهي جيداً إلى نفسك يا حبيبتي". سأرجع عما قريب.

"لا تتسرعي في العودة فلست قادمة إلى المنزل حتى العيد القادم. فاستمتعي بوقتك".

"شكراً". قالت إيزابيل وأغلقت السماعة.

لم تستطع النوم تلك الليلة، وغادرت إلى المطار لليوم التالي الساعة الحادية عشرة. كان يجب أن تكون هناك عند الظهيرة. وكانت بالكاد تستطيع أن تتمالك نفسها في الطائرة. لم تكن لديها أدنى فكرة عن كيف تراه، أو ما ستقوله له عندما تراه. وربما يستاء منها عندما يجد أنها اكتشفت أمره وطاردته. وقالت في قرارة نفسها أنه لو كان يريد أن يكون معها، لكان عليه أن يفعل ذلك. لقد أوضح فكرته تماماً، وكانت تناقش الأمر في نفسها وهي تعبر فوق الأطلسي. ولكنه كان مخطئاً. هذا هو الموضوع. لقد كان مخطئاً تماماً وبالكلية. ما كان عليه أن يفعل لها ذلك، أو أن يضحي بنفسه. فما كانت لتهتم حتى ولو لم يمشِ على الإطلاق، إلا من أجله هو، وليس من أجلها هي. كل ما كان يمكنها أن تفعل الآن هو أن تجده وأن تخبره بذلك. ولكنها تعرف

أنهـا لـن تكون مسألة سهلة. فقد كان رجلاً عنيداً جداً. وتذكرت الآن بشكل واضح اعتراضاته الكثيرة من زواج جو من جين.

مـا إن حطـت الطائرة في مطار دوليس حتى أغمضت إيزابيل عينيها وتلت صلاة صامتة راجية من الله أن يصغي إليها. فما كانت لتعلم إذا ما كان سيستمع إليها أم لا. ولكنها ستحاول ولو مرة على الأقل.

كانـت تحمل عنوان مكتبه في جيبها وكانت ترتجف من الجو القارص، ووثبـت إلـى سيارة أجرة وأعطت السائق عنوان فندق الفصول الأربعة في جورجتاون، حيث كانت قد حجزت ليلة أمس. كل ما سيتوجب عليها الآن هو أن تكتشف أين يكون.

الفصل الثامن عشر

كانت الساعة قد قاربت الرابعة عندما وصلت إيزابيل إلى غرفتها في الفندق. وكانت تعرف أن عليها أن تتصل بمكتبه في أقرب وقت لكي تعرف أين سيذهب تلك الليلة، أو ربما عليها فقط أن تدخل إلى مكتبه مباشرة. وربما هي فكرة مجنونة أن تأتي بنفسها إلى هنا. كان في ذهنها سيناريوهات عديدة، ولم تعرف كيف ستنفذ أياً منها. وإذ نظرت إلى الهاتف، بدأت تشعر أنها ارتكبت خطأً فادحاً. فلربما ما عاد يحبها. وأخيراً، وبعد نصف ساعة أخرى من الخوف، التقطت سماعة الهاتف.

ردت موظفة الاستقبال على الهاتف وأوحت إيزابيل لها بأنها منهمكة جداً وعلى عجلة من أمرها.

"مرحباً. أنا مع جماعة الأمن لهذه الليلة، في أي وقت سيصل السيد روبنسون"؟ قالت ذلك وهي تبذل جهدها أن تبدو أمريكية، لئلا تعرف المرأة أنها فرنسية.

"بالله عليك، لا أعلم"، قالت الفتاة وقد بدت أكثر إجهاداً مما ادعت إيزابيل. "سيذهبون إلى ستة مواعيد مختلفة. من معي من جديد؟".

"الأمن. كما تعلمين، نسأل من أجل العشاء".

"آه. نعم. طبعاً... أفٌ... لقد ظننت أنه ألغى ذلك... لا، هذا صحيح... حسناً... إنه قادم إليكم الساعة التاسعة... ويؤسفه أنه تأخر، ولكن لا يستطيع أن يكون هناك قبل هذا الوقت. أنتم محطته الرابعة. وسوف لن يطيل المكوث... وأنتم تعلمون أنه في كرسي مدولب، أليس كذلك؟".

"حسناً. لقـد كتبـت ذلك في دفتر ملاحظاتي". قالت إيزابيل وقد بدت رسمية ومطلعة على الأمور.

"عليكم أن تأخذوا الكرسي من على الطاولة لكي يضع كرسيه المدولب مكانها بنفسه. هو لا يحب أن يحدث جلبة. ولا يحب أن يصور وهو في كرسيه. بل فقط صور جانبية منخفضة. سوف يدخل هو والسيناتور جونسون من باب جانبي، وسيغادران بنفس الطريقة".

"حسناً". قالت إيزابيل، ولكنها لم تعلم بعد أين سيكون العشاء ولا يمكنها أن تسأل عن ذلك.

"السيناتور جونسون له حرسه الخاص، وسيلتقون بكم عند المدخل الجانبي لمركز كينيدي مثل المرة الماضية تماماً..." الحمد لله، همست إيزابيل بينها وبين نفسها. إنه مركز كينيدي إذاً.

"هلا يضع ربطة عنق سوداء؟... حتى نعرفه مباشرة..." لقد أرادت أن تعرف ما تلبس.

"لا، هو متأسف... لن يفعل ذلك... ولكني متأكدة أن الأمور ستسري على ما يرام".

"حسناً".

تحدثا في التفاصيل لعشر دقائق أخرى، وما عادت إيزابيل تهتم بما كانت موظفة الاستقبال تقول. كل ما كانت تريد معرفته هو أنه سيكون في مركز كينيدي الساعة التاسعة ليلاً. وسوف يغادر في الساعة العاشرة إلى محطته التالية. فكان أمامها إما أن تواجهه في طريقه داخلاً، أو في طريقه خارجاً، أو تحدث جلبة على العشاء، مثل أن تختبئ تحت طاولته، أو تشهر مسدساً في وجهه... كل الاحتمالات كانت ممكنة ولا نهاية لها، ولكن معظمها بدت ميئوس منها الآن وقد صارت هناك. لم تكن لديها فكرة عن كيفية القيام بذلك، ولكنها كانت تعلم أنها يجب أن تحاول.

في النهاية، كانت قررت أن تقابله خارجاً، بعد العشاء، في طريق الخروج. وهذا سيكون في الساعة العاشرة. كان أمامها ست ساعات بعد، وهي أطول ست ساعات في حياتها. فأجرت اتصالاتها واستأجرت سيارة ليموزين

من أجل تلك الليلة. وبعدئذ جلست في غرفتها وهي تفكر قلقة فيما ستقوله له لو إذا ما كان سيمنحها الفرصة لتتحدث إليه. لقد كان من الممكن جداً أن يصرفها قائلاً لها إن ليس لديه ما يقوله. فبيل هو الذي قال لها بأنه سوف لن يريد أن يراها ثانية، ولكنه كذب عليها. وأخبرها أنه صار بمقدوره أن يمشي وأنه وسيندي قد جددا عهودهما. وظلت خمسة أشهر لا تفهم كيف أمكنه أن يقطع كل الروابط بها بهذه السهولة. ولكنها الآن فهمت تماماً. لقد كان كل ذلك لأنه لا يريد لنفسه أن يكون عبئاً عليها. ولهذا لم يكن يريد أن يراها في باريس، لأنه لم يرد أن يجعلها تعرف أنه كان لا يزال عاجزاً عن السير، وأنه سيبقى كذلك أبداً. لقد فكرت في كل هذه الأمور. ولكن ما لم تفكر به هو كيف تقنعه لأن يغير رأيه. وكانت تعلم أن لديها فقط دقائق معدودة تمضيها معه، حيث سيكون السيناتور واقفاً على حدة، قبل أن يصعد إلى السيارة ويمضي بعيداً. لم تكن لديها أدنى فكرة عما ستقوله. كلمة أحبك ستكون البداية ولكنه عرف ذلك على كل حال، وكان يعرف ذلك عندما أنهى العلاقة بينهما، ولم تردعه هذه آنذاك. فكيف تردعه الآن؟

لقد كانت هناك أشياء كثيرة لم يعرفها: فيما يتعلق بتيدي، وعن هجرها لغوردون وتركها للمنزل. ولم يعرف أنه قد حطم فؤادها عندما غادرها. وفوق كل ذلك، لم يعرف أنها ما كانت لتبالي كونه في كرسي متولب بقية حياته. فكل ما كانت تريده هو أن تكون معه، وأن تحبه ما دام على قيد الحياة.

وإذ جلست هناك، تفكر فيه، بدأت تتساءل إذا كان من الخطأ أن تحاول رؤيته تلك الليلة. لربما كان يجب أن تحاول رؤيته في المكتب، أو تتصل به بالهاتف. فقد كانت تعرف أنه ولا بد سيكون جزعاً متوتراً نزقاً لأن الانتخابات ستكون بعد ثلاثة أيام. وقالت لنفسها ربما ينبغي أن تنتظر إلى ما بعد ذلك، ولكنه قد يغادر البلدة أو يختفي. ما كانت تريد أن تنتظر. فقد انتظرا زمناً طويلاً بما فيه الكفاية.

لم تستطع أن تأكل تلك الليلة، وحاولت أن تأخذ قيلولة، لكنها كانت يقظة

منتبهة. في النهاية، أخذت حماماً وارتدت ثيابها، وفي التاسعة والنصف كانت في سيارة الليموزين تنهب الطريق نحو مركز كينيدي. وبدأت تشعر بالذعر عندما وصلت إلى المدخل الجانبي. فماذا لو غادر المكان لتوه؟ لقد أصابها القلق وهي تترجل من السيارة، وتذهب للوقوف جانباً في مكان تستطيع منه مراقبة المدخل، ورؤيته عندما يخرج. لقد كان الجو قارساً. ولكنها ما كانت لتهتم له، وبعد ذلك، وكما لو كان نذير شؤم، بدأ الثلج يتساقط.

كانت قشور كبيرة شبيهة بالمخرمات تسقط من السماء وكانت من ذلك النوع الذي يلصق بالثياب وأهداب العين والشعر. وقد تساقط الثلج دونما إنذار، وكانت هناك ريح نشطة تذريه في كل الأرجاء. دقت الساعة معلنة العاشرة والربع دون أن يظهر له أي أثر، وشعرت أنه بالتأكيد قد غادر المكان من باب آخر. فلربما حدث تعديل في الخطة. كانت إيزابيل ترتدي معطفاً ثقيلاً كبيراً أسود اللون وقبعة من فرو السمور، وحذاءً عالي الساق سويدياً أسود، وقفازات. كانت لا تزال تشعر بالبرد القارس رغم ذلك، وكان الثلج يغطيها.

في الساعة العاشرة والنصف كانت قد فقدت الأمل، وشعرت أن عليها أن تحاول من جديد بطريقة أخرى. سوف تجرب حيلة أخرى في اليوم التالي. قالت في قرارة نفسها أنها ستمكث حتى الساعة الحادية عشرة لكي تكون راضية في نفسها، ولكنها كانت متأكدة أن بيل والسيناتور قد غادرا المكان منذ بعض الوقت إلى محطتهم التالية.

ولكن في الساعة الحادية عشرة إلا عشر دقائق حدثت جلبة وحركة مضطربة قرب الباب. وخرج رجلا أمن من الباب، وتلاهما حارس بزي رسمي وعلى أذنه جهاز اتصال، ثم تلاهما رجل حسن الهيئة قد طأطأ رأسه يواجه الريح وهذا خطا خارجاً من المبنى واتجه نحو سيارة تنتظره ظهرت لا تدري من أين. لم تكن إيزابيل قد رأتها قبلاً. لقد بدا وكأن هذا هو السيناتور ولكنها لم تعرفه بشكل مؤكد من زاوية وجهه التي رأتها. وراحت تراقبه لوهلة، ولم يخرج أي أحد آخر. وراحت تتساءل إذا ما كان بيل لم يحضر

أصلاً، أو قرر أن يبقى. وإذ راحت تراقب المكان، رأت كرسياً مدولباً يبرز خارجاً ببطء ورأت أناساً مستغرقين في الحديث معه، وكان يومىء لهم برأسه وقد أصغى إلى ما كانوا يقولونه. لقد كان يدفع عجلات كرسيه بنفسه. كان يرتدي لفاحاً سميكاً ومعطفاً غامقاً وعرفت أنه بيل في الحال. وشعرت بقلبها يخفق بقوة وهي تنظر إليه يدفع كرسيه نحو الدرجات، ثم يتجه نحو الرصيف المنحدر إلى حيث كانت تقف. لم يكن قد انتبه إليها، وتركه الآخرون وانصرفوا عائدين إلى الداخل هرباً من الثلج. وكان السيناتور ورجاله قد صاروا الآن في سيارة الليموزين ينتظرونه.

وإذ شعرت بأنها تحمل حياتها على راحة يدها، سارت نحو الرصيف المنحدر وبدأت تصعد إلى حيث كان. فالتقت به في منتصف الطريق واعترضت طريقه. كان قد أحنى رأسه إزاء الريح، فلم يرَ إلا معطفها وساقيها، ودمدم يقول : "عذراً". وهو شارد الذهن، ولكنها لم تتحرك من مكانها.

نظرت إيزابيل إليه، فسمع صوتها قبل أن يرى وجهها. "لقد كذبت عليّ"، قالت له بصوت لطالما حلم بسماعه خلال الأشهر الخمسة الماضية، وكان يظن في قرارة نفسه أنه لن يسمعه من جديد. رفع نظره والتقت أعينهما، ولم يستطع أن ينطق بكلمة. بل نظر إليها فقط وهو مذهول وحاول أن يستعيد رباطة جأشه بأسرع ما يمكن.

"مرحباً يا إيزابيل. ما هذه الصدفة التي نراك فيها هنا". لقد افترض لأول وهلة أنها قد جاءت إلى البلدة مع غوردون لعمل ما، وأنها ترافقه. لم يفسر لها وجوده على كرسي مدولب، رغم ما قاله لها قبل خمسة أشهر.

"في الواقع إنها ليست مصادفة". قالت له بصدق. لم يعد هناك مجال للمزيد من الأكاذيب. "لقد طرت من باريس إلى هنا كي أراك". احتار في أمره ماذا يقول لها والريح تعصف بوجهيهما، وقد تجمع الثلج على قبعتها. لقد بدت له كمثل بطاقة معايدة في العيد، أو كأميرة روسية. لقد بدت جميلة جداً وهذا

ما حطم فؤاده، ولكن لم يعبر وجهه عن شيء. لقد حمل نفسه على أن يبدو غير عاطفي وغير مبالٍ، وذلك لكي يخفي كل ما كان يشعر به. وقد صار متمرساً في ذلك.

"عليّ أن أذهب. فسنثيا تنتظرني في السيارة". لقد كان هذا أول عذر خطر في ذهنه ليهرب سريعاً. لقد كان يعرف أن عليه أن ينسل بعيداً عنها بأسرع ما أمكنه قبل أن يفقد عزمه.

"لا، ليس كذلك"، قالت إيزابيل وهي تلف نفسها بمعطفها بإحكام. "فأنتما مطلقان. وقد كذبت في ذلك أيضاً".

"أعتقد أني كذبت في أمور كثيرة، ما عدا أن الأمر قضي بالنسبة لي. هذا الجانب كان صحيحاً". كان كل ما فيه يدل على مقاومته لها ولكن عيناه كلتا تخونانه.

"لماذا قضي الأمر بالنسبة لك؟" كانت مصممة في بحثها عن الحقيقة، ولو قال لها بأنه لا يحبها إذاً لكانت ستتركه وتمشي إلى الأبد. ولكن كان عليها أن تراه للمرة الأخيرة. وقد أرادت أن تستغل فرصة قدومها الآن من أجل ذلك. ولكن إذا كان سيتخلى عنها من جديد، فعلى الأقل كانت تريده أن يقول لها ذلك وجه لوجه.

"تحدث الأمور على هذا الشكل أحياناً. كيف حال تيدي؟" سألها لكي يحطم جدار التوتر بينهما، ولكي يغير الموضوع، ولكنه لم يكن يتوقع أو على استعداد لما قالته بعد ذلك.

"لقد مات منذ ثلاثة أشهر. فقد أصيب بأنفلونزا حادة. ويؤسفني أنك لم تتعرف عليه". قالت في حزن وهي تجاهد لتتمالك روعها فما كانت تنوي أن تثقل عليه بحزنها. ولكن فكرت أنه عليه أن يعرف.

"أنا آسف". قال برقة وقد بدا متألماً من أجلها. ولوهلة ارتبك من اللطمة التي تلقتها بموت تيدي من غير ريب، ومن إحساسه الشخصي بالذنب لأنه لم يكن إلى جانبها آنذاك. "أأنت على ما يرام؟" لقد كان يود لو يصل إليها

ويحيطها بذراعيه، ولكنه لم يجرؤ. وكان من المحرج والمريب له أنها اكتشفت أكاذيبه وأن تراه في كرسيه. لقد كان مقتنعاً جداً أن طرقهما سوف لن تلتقي أبداً من جديد وأنها لن تعرف أبداً.

"ليس بعد، ولكنني سأكون على ما يرام في نهاية الأمر. لقد اشتقت إليه كثيراً. واشتقت إليك أنت أيضاً". كان صوتها حزيناً وناعماً. "كيف حالك؟" لقد كانت تود أن تسأله عما إذا كان قد اشتاق إليها أو ندم على ما فعل، ولكنه كان تواقاً لأن ينصرف. لقد كانت تعلم أن السيناتور ينتظره. ولكن كانت هذه فرصتها الوحيدة.

"أنا بخير. أفضل من أيما وقت مضى. لقد عدت إلى عملي. الانتخابات بعد ثلاثة أيام". وهنا نظر إلى ساعته. لقد كانوا متأخرين ساعة عن موعدهم التالي، فنظر إلى إيزابيل نظرة استئذان بالانصراف، ولكن لم تبدُ عليه أية علامة على أنه يريد أي شيء منها. "علي أن أذهب الآن فعلاً".

"لا أزال أحبك يا بيل"، قالت له وهي تشعر بأنها ضعيفة أمامه، وقد كان هذا هو سبب مجيئها. وقد كانت تريده أن يعرف. "أنا لا يهمني إن كنت تستطيع التزلج بالمزلاج أو إذا كنت تستطيع أن ترقص. وعلى كل حال، فلست براقصة ماهرة ولم أكن كذلك يوماً".

ابتسم لها وشعر بالتوق إلى الماضي الذي لا يمكن استعادته ثم دنا نحوها ولمس يدها. "هل أنت جادة في قولك أنك جئت إلى هنا كي تريني؟" كان صوته لطيفاً، لقد كان هذا الصوت الذي تتذكره جيداً وكان دائماً في عقلها. كل ما أمكنها أن تفعله هو أن تومىء برأسها فيما اغرورقت عيناها بالدموع ثم تمالكت نفسها، ونزلت بضع دمعات شاردة على وجنتيها فمسحتها بيدها التي ترتدي فيها قفازاً.

"لقد رأيتك البارحة في محطة السي إن إن، وظننت أني علمت لماذا كذبت علي وأردتك أن تعرف أني لا أبالي".

"أعلم أنك لا تبالين، وأنك لم تبالي أبداً. ولكن أنا أبالي. لن أسمح لك أبداً

أن تفعلي ذلك بنفسك. أحبك جداً حتى لا أطيق أن أدعك تدمرين حياتك بتحميلك عبء هذه". قال ذلك ونظر إلى الأسفل إلى كرسيه. "وحتى لو تركت غوردون يوماً ما، وخاصة عندئذ. هل يعاملك برفق؟" وجال ببصره يبحث عنه في البداية، وأدرك أنه لم يكن هناك. لا بد أنها تملصت منه بطريقة ما أو تركته في الفندق.

ابتسمت لسؤاله وقالت "لقد استخدمت ذخيرة البارود ضده، كما قلت لي، عندما توفي تيدي. لقد ألقى بي خارجاً. وانتقلت أنا وصوفي إلى شقة في شارع رو دي فارين". لقد حدثت تغيرات كثيرة في حياة كل منهما. ولكنها لم تغير طريقة تفكيره وشعوره نحوها، أو القرار الذي كان قد اتخذه. بل في الواقع، إن رؤيته لها زادت من عزمه. لقد كانت حرة الآن، وكانت تستحق أكثر بكثير مما يستطيع هو أن يقدمه لها، أو هذا ما فكر به.

"يسرني أنك على ما يرام". ولكن اكتفى بذلك ولم يقل المزيد.

"أعلم أن عليك أن تذهب" قالت له وهي تنفض قشور الثلج عن عينيها. "سأكون في فندق الفصول الأربعة. إذا أردت أن نتحدث معاً، اتصل بي".

أما هو فقد هز رأسه. لقد كان الثلج يغطي شعره، وأدركت أنه شعر بالبرد بالتأكيد. قال: "سوف لن أتصل يا إيزابيل. لقد قمنا بالعمل الصائب قبل خمسة أشهر. لقد فعلت الصواب. ولكلينا. وعلينا أن نتعايش مع هذا الواقع الآن".

"أنا لا أوافقك الرأي، فالأمر برمته خطأ. ولكلينا فلنا الحق أن نحب بعضنا يا بيل. وحتى لو بقيت خارج حياتي فسوف لن أكف عن حبك. أبداً".

"سوف تنسين في نهاية الأمر". قال لها وهزت رأسها نفياً وتنحت عن طريقه. ونظر إليها مطولاً وهو متألم وقال: "انتبهي جيداً لنفسك". لقد كان يريد أن يقول لها من جديد إنه آسف من أجل تيدي، ولكن لم يفعل. فما أمكنه أن يقول المزيد. فرفع عربته وقطع ما تبقى من الطريق نزولاً إلى الرصيف المنحدر، دون أن ينظر إليها في الخلف، وركب السيارة. اعتذر للسيناتور

بسبب التأخير، وقال إنه التقى بالصدفة بصديق قديم. لم يقل شيئاً آخر أبداً طوال الطريق إلى محطته التالية، وشعر السيناتور بمزاجه المكتئب. لقد بدا شارداً جداً.

كان الوقت بعد منتصف الليل عندما وصل بيل إلى منزله، ولم يتصل بها. لقد كان الوقت متأخراً، وقال في نفسه من جديد أنه سوف لن يتصل. لقد كان مقتنعاً بما فعله من أجلها ومدركاً بأن هذا هو فعل الحب الذي يجب أن يقوم به. لو كان حبه لها أقل من ذلك إذاً لكان سيحملها عبء نفسه أيضاً، ولكن حبه الكبير لها منعه من ذلك، وكان يعرف أنه سيحبها على هذا النحو إلى الأبد. لقد كان محطم الفؤاد من أجلها لوفاة ابنها، وشعر كم كان موته مدمراً لها. وارتاح على الأقل لأن غوردون لم يعد في حياتها. وقد شعر أنها بالتأكيد ستجد شخصاً آخر عما قريب. لم يسبق له أن رآها جميلة جداً هكذا أو حزينة جداً على النحو الذي رآها عليه وهي تقف هناك تحت الثلج. كان هذا كل ما أمكنه أن يفكر به وهو مستلق في سريره تلك الليلة.

كان الثلج لا يزال يتساقط بينما جلست إيزابيل في غرفتها في الفندق تفكر فيه. وكانت تعلم أنه سوف لن يتصل بها. فكل ما رأته في وجهه كان يعلمها بعزمه الوطيد على ألا يتواصل معها من جديد. عيناه فقط أعلمتاها أنه كان لا يزال مهتماً. ولقد وجب عليها أن تتقبل ذلك الآن. وحتى ولو كان قد كذب عليها، فإن هذا ما كان يريده في نهاية الأمر. لقد كانت محقة في رأيها خلال الأشهر الماضية بأنه ليس من نهايات سعيدة في الحياة. كان هناك فقط دروس وخسائر وكان لها نصيب كبير في ذلك.

بقيت مستيقظة معظم الليل، وعندما غفت أخيراً، كانت تحلم به. كانت تغط في نوم عميق عندما رن جرس الهاتف إلى جانبها في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل. لقد كان بيل هو المتصل. ورغم أن غشاوة النوم في عينيها كانت تلفها إلا أنها كانت تميز صوته.

"آسف لاتصالي بك في هذا الوقت المتأخر. هل كنت نائمة؟" بدا حزيناً

معذبا تماماً مثلها عندما أوت إلى سريرها.

"لتوي". وكانت يقظة تماماً إذ سمعت صوته الذي بدا مألوفاً جداً لها. ثم خطر لها أمر. "أين أنت؟". سألته برقة وأحست أنه تردد.

"في الطابق الأسفل. في ردهة الفندق حيث أنت. أنا مجنون مثلك، ولكن لم أعرف موعد رحيلك، ويجب أن أكون في نيويورك غداً. ففكرت بما أنك تحملت مشقة الرحلة من باريس إلى هنا، فيجب أن نتحدث". لم يكن أي منهما ليظن أن الوقت غير مناسب.

"يسرني أنك هنا. لماذا لا تصعد إلى الطابق الأعلى؟".

وسرحت شعرها ونظفت أسنانها بالفرشاة، ونضحت وجهها ببعض الماء في حين راحت تنتظره حتى يصعد. بعد خمس دقائق كان هناك قرع على بابها. كان بيل ينظر إليها وهو جالس إلى كرسيه، ودفعها ببطء داخلاً في حين أمسكت الباب لـــه لكي يدخل ثم أغلقته بهدوء خلفه. لقد كانت تود لو تقترب منه وتلمسه، ولكنها لم تجرؤ.

"آسف إني جئت إليك في هذا الوقت يا إيزابيل. فلم أستطع أن أنام. لقد صدمت إذ رأيتك هناك الليلة. وأنه ضرب من الجنون أن تفعلي ذلك". ولكنه لم يبدُ مستاءً منها، بل كان متأثراً، وفي الوقت نفسه منزعجاً من أجلها. لقد أيقظت الكثير من المشاعر النائمة التي أمضى شهوراً يحاول أن يهرب منها. وعندما رآها هناك خارج مركز كينيدي تحت الثلج استيقظت تلك المشاعر وعادت إليه. "أنا آسف جداً بخصوص تيدي. ما الذي حصل؟".

جلست على الأريكة قبالته، وأخبرته باختصار عن أيام ابنها الأخيرة. كانت هناك عذوبة في صوتها وهي تحكي عن ذلك، وكانت عيناها ممتلئتين بدموع لا تتساقط ثم كفكفت دمعة سالت على خدها. وبدون أن يفكر رفع يده ولمس يدها.

وهمس قائلاً: "أنا آسف".

ابتسمت وسط الدموع. "وأنا أيضاً. يقول الآخرون إن الموت كان رحمةً

له، وأظن ذلك أيضاً، ولكنه أيضاً استمتع ببعض لحظات السعادة. وإني أفتقده كثـيراً. لـم أكن أدرك كم كانت حياتي تدور حوله. ولا أدري ما أفعل بنفسي الآن وقد مضى، وصوفي ذهبت إلى الجامعة".

"ســوف يستغرق الأمر وقتاً حتى تتأقلمي مع الحياة الجديدة. وستعتادين علـيها، فهـذا التغيـير كان كبيراً بالنسبة لك". لقد تغير كل شيء في حياتها، مـنزلها، طلاقهـا، موت ابنها وفقدان بيل. وكل ما قد فعلته هو مواجهة آلام التغيـيرات التي طرأت على حياتها في العام المنصرم. وهذا ما كان من أمره هـو أيضاً. "لا أدري ما أقول لك". قال لها بيل وقد بدا غير مرتاح. "ما كنت أعـتقد أنـنا سنلتقي من جديد. ولم أعتقد أن علينا ذلك. ما كنت أظن أني لي الحـق بأن أدمر حياتك يا إيزابيل. إنك تستحقين أكثر بكثير مما أستطيع أنا أن أقدمه. أنت تحتاجين إلى شخص رائع في حياتك، شخص سليم معافى... وليس رجل مثلي".

"أنــت سليم معافى"، قالت في رقة وقد ثبتت ناظريها إليه. لم تكن متأكدة بعد مما يريد أن يقوله لها، ولم تكن متأكدة بأنها تريد أن تعرف. لقد بدا وكأنه وداع جديد، أو تبريرات أخرى يقدمها ليعلل السبب الذي يمنعه أن يكون معها. ولكــن على الأقل لم تكن هذه أكاذيب هذه المرة، بل فهمه للحقيقة مهما كانت مشوهة.

"كلانـــا نعـــرف أن لـــيس هـــذه هي المشكلة". لم يكن يريد أن يذكرها بمحاولتهما المأساوية في ممارسة الحب في المشفى في لندن. وخلافاً لصهره، فقــد كان يشعر أن عجزه يمثل عائقاً كبيراً أمام زواجه بها. وما أراد أن يقدم لها أقل من ذلك. لقد كان مقتنعاً أن ليس لديه ما يعطيه ويكون منصفاً ومعقولاً بالنســبة لها. لقد تذكر وبشكل مبهم كل ما قالته هيلينا يوماً، ولكنها كانت فتية مثالية خيالية أيضاً. ربما كان الحب فقط للشباب. وعلى كل حال، لقد جاء إلى الفندق تلك الليلة لكي يراها ويودعها بلباقة. على الأقل كان يدين لها بذلك وهذا مـــا كـــان يفكر به في قرارة نفسه قبل مجيئه إلى فندق الفصول الأربعة. كان

يعرف أن الطريقة التي تركها فيها قبلاً كانت قاسية للغاية. وما كانت لتستحق منه ذلك، وخاصة وأنها الآن قد فقدت تيدي. "لقد أردت أن أودعك وأن أقول لك بأنني آسف. ما كان يجب أن أشجعك لتذهبي إلى لندن وأشعر أنها كانت غلطتي من البداية".

"لقد منحتني الحب الحقيقي الوحيد الذي أعطاني إياه رجل". قالت بلطف. "وهذا ليس شيئاً تدين لي باعتذار لأجله يا بيل".

"يؤسفني أن لا أستطيع أن أكون أكثر مما أنا عليه..." وكانت هناك دموعٌ في عينيه وقد نظر إليها وأمسك بيدها. "أنا آسف على كل هذا". قال لها بحزن، وهنا انحنت إلى الأمام نحوه وقبلته بينما كان جالساً في كرسيه فشدها إليه برفق وجلست في حضنه وهو يقبلها. لقد كانت قبلاتهما مليئة بالحنان والشغف، وذكرى كل ما كانا يرجوانه وتذوقاه ثم فقداه سريعاً. وإذ عانقها، نسي لوهلة أنه فقد رجولته، وشعر برغبة تجتاح كيانه كمثل المد الذي لا يمكن لشيء أن يوقفه أو يرده إلى الوراء، ولم يكن في نية أي منهما أن يفعل ذلك. إن قوة ما كانا يشعران به كلاهما نحو بعضهما البعض كانت لا تقاوم وتفوق إرادتهما. وفجأة، وللحظة وحيدة ساطعة، لم يعد خائفاً. تبادلا القبل طويلاً وكانا يلهثان ودونما شرح أو أية كلمة، ساعدته إلى الانتقال إلى الأريكة، ونزعت عنه ثيابه برفق، وخلع عن كتفيها ثوب النوم الساتاني ورماه إلى الأرض.

تردد لوهلة صغيرة ولكنه لم يستطع أن يكبح جماح نفسه هذه المرة. فقد كان يرغب فيها بكل جوارح جسده وروحه. وهذه المرة، لم يطرح أي سؤال عما حدث. فلم يستطع أن يتذكر أنه طارح امرأة الغرام كما فعل معها، أو يرغب بأي امرأة مثلها. لقد كان هذا كل ما كانا يحلمان به، ويرغبان به، وقد أظهر الشوق والصراحة والعاطفة التي لم يسبق أنه قد اختبرها أبداً في حياته حتى قبل الحادث، أو في فترة شبابه. لم يكن في العالم كله من هو مثلها. لقد جعلته يشعر برجولته من جديد، وكانت الرغبة تحركهما.

بعد ذلك استلقى وقد أحاطها بذراعيه وابتسم. لقد تلاشت أسوأ مخاوفه

وانزاحت بفعل حنانها وحبها. وما حدث بينهما للتو كان أجمل مما كان يتصوره أي منهما. لقد كان واضحاً إذاً أن كل أعضائه قد تماثلت للشفاء. وحتى لو لم يكن قادراً على أن يمشي على قدميه، إلا أنه شعر بنفسه سليماً معافى، وقد كان كذلك فعلاً.

"يا للروعة". قالت له برقة بعد ذلك وقد التصقت به، فابتسم. لقد شعر وكأنه صبي صغير من جديد بين ذراعيها. "لقد كان هذا مذهلاً".

"وأنت أيضاً كذلك". ولكن بعد أن دفعت بعربته إلى الحمام بعد ساعة وتركته هناك، وارتدى ملابسه بشكل كامل بعد أربعين دقيقة، لمحت في عينيه نظرة أثارت القلق عندها.

"لقد كان جنوناً مني أن آتي إلى هنا". قال لها باكتئاب، وقد وقع فريسة الإحساس بالذنب ونوبات مخاوفه. "ما كان يجب أن أفعل ذلك". ما كان يريد أن يضللها أو أن يعطيها أملاً كاذباً. لقد كان لا يزال مصمماً على فكرته بأنها تستحق حياة أفضل من التي يقدمها لها، وممارسة الحب معها كان سيعقد الأمور على كليهما. أمضى نصف ساعة تحت رذاذ الدوش وهو يتعذب، ويؤنب نفسه، وفي الوقت نفسه كان يشعر بالارتياح الشديد لما شاركها به قبل قليل. لقد تأكد له أن استخدام قدميه ما عاد ممكناً أبداً، ولكنه استعاد رجولته بكل طاقته.

"لا أفهم السبب الذي يجعلك تعتقد أنه ما كان علينا أن نفعل ذلك" قالت إيزابيل بهدوء. "فنحن كلانا راشدان، ونحن أحرار. أنت مطلق، وأنا شبه مطلقة فسيكون طلاقي كاملاً خلال بضعة أشهر. فليس لدينا أطفال صغار يعترضون. وليس لنا أن تسبّب مشاكل ليست موجودة. فالحياة معقدة بما فيه الكفاية دون أن نحاول أن نجعلها أسوأ". ثم قالت بجدية وهي تنظر في عينيه، "إن الحياة ثمينة وقصيرة. كان من الممكن أن نموت معاً في لندن، أو أسوأ من ذلك أن يموت أحد منا. ولكن لم يحدث هذا. ولربما يجب ألا نهدر هذا النعيم الذي أغرقت به السماء علينا".

"أنا لست نعيماً، يا إيزابيل" قال وقد بدا الحسم عليه. "فالحياة مع رجل في كرسي مدولب ليست نعيماً، بأي شكل من الأشكال".

"الحياة بين شخصين متحابين هي نعيم حقاً". لقد ذهبا إلى هاوية الجحيم ثم عادا على أعقابهما، وكانت إيزابيل تشعر أن لهما الحق في أن ينعما قليلاً بجزء من السماء معاً، رغم أن الأمر قد يبدو غير عادي. لقد كانت تحبه تماماً كما كان يحبها، دون تردد أو تحفظ، وكانت على أهبة الاستعداد لأن تقف إلى جانبه طوال بقيّة حياتها، وتريد ذلك فعلاً.

"لا أستطيع أن أدعك تفعلين ذلك بنفسك يا إيزابيل". قال لها بحزم. "لن أفعل ذلك. أياً يكن ما حدث للتو هنا. ما كان ينبغي أن أسمح بحدوث هذا. لقد كان هذا من الحماقة وانعدام المسؤولية من جهتي".

"وإنساني بشري. هل تترك لنفسك مساحة لتعيش هكذا؟ ألا يمكن أن تسمح لنفسك بأن تكون سعيداً من فترة إلى أخرى وأن تكف عن ضرب نفسك حتى الموت؟" ابتسم لما قالته وهو يعلم أن بعضاً مما تقول، إن لم يكن كله، كان صحيحاً. "لماذا تريد أن تجعل من الموضوع أمراً صعباً عليك في حين أنه ليس كذلك وليس من داعٍ لأن يكون هكذا؟ نحن نحب بعضنا. ألا يمكنك أن تعتبر أن هذا يكفي؟" لقد كانت عقلانية أكثر منه.

"أحياناً لا يكون الحب كافياً. أنت لا تعلمين يا إيزابيل عواقب هذا الأمر".

"بل أعلم". قالت له تجادله. كانت الساعة آنذاك قد قاربت على السادسة صباحاً، وكانت تعلم أن عليه أن يغادر عاجلاً. "لقد أمضيت خمس عشرة سنة أعتني بتيدي. وأعرف ما يعني أن يهتم المرء ويحب شخصاً مريضاً حقاً. وأنت لست بمريض. أنت قوي البنية، أنت قوي البنية وفي صحة وعافية. لا تستطيع أن تمشي. ولكن هذا لا يشكل فرقاً بالنسبة لي وما كنت لأبالي لو عجزت عن ممارسة الحب من جديد. فهذا شيء جميل إضافي محبب، ولكنني على استعداد لأن أعيش دون ذلك أيضاً. فما يجمعنا يعني لي أكثر من ذلك".

"ما كان يجب أن أدعك" قال بحزم وقد بدأ يبدو متجهماً. "ولكني لا

أستطيع أن أتركك تقبلين بذلك أيضاً. فلست مستعداً لذلك. لقد جئت إلى هنا كي أودعك، وهذا ما يجب علينا أن نفعله".

"هذا عمل أخرق جداً وهدر للوقت. سوف لن أسمح لك بأن تفعل ذلك".

"ليس لك خيار في ذلك. فأنا لن أراك ثانية". وكان كلاهما يعرف أنه يستطيع ذلك.

"ثم ماذا؟ أنت تحكم علينا أن نعيش في وحدة وعزلة ما بقي لنا من العمر، ونحن نفكر بما لدينا وفقدناه، وأنه كان بإمكاننا الاحتفاظ به لو لم نكن عنيدين؟ وما الغاية من ذلك؟ وأي انتصار هو هذا؟ هل يمنحوننا مكافآت في السماء لأننا نعاقب أنفسنا وبعضنا بعضاً، لقاء حرمان أنفسنا؟ حسناً. قد لا تكون الأمور سهلة دائماً. ولن تكون "مثالية". ولكن ليس من شيء كامل في الحياة. وكما أرى فإن ما بيننا ليس بالشيء القليل. فلماذا لا تسمح لنا بأن نحصل على ما نستحق ونريد؟ لقد عوقبتَ بما فيه الكفاية، فكم من الأسى أيضاً سوف تضيفه إلى حياتك وإلى حياتي؟ لقد خسرت الكثير في حياتي وأنت أيضاً كذلك. فكن منطقياً معقولاً كرمى لله...". واغرورقت عيناها بالدموع وسالت على وجنتيها وهي تنظر إليه، ولكنه أبى أن يتأثر.

"أنا آسف". همس قائلاً لها وقبّل أعلى رأسها، ثم دفع بعجلات كرسيه نحو الباب واستدار لينظر إليها.

"لماذا فعلت ذلك؟" قالت وهي تبكي. "ما الغاية من ذلك؟ هل لتعذبنا كلانا؟ لتذكر كل منا لأي درجة نحب بعضنا بعضاً وتتخلى عن كل ذلك مرة أخرى حتى نعيش في الحزن والأسى إلى الأبد؟ لماذا، بينما نحن سعيدان جداً معاً ونحب بعضنا البعض جداً؟ لماذا لا تدعنا نحظى بذلك؟ هل هذا صعب عليك جداً؟".

"ربما كنت لا أحبك بما فيه الكفاية" قال لها بحزن. "أو ربما لم أحب نفسي كفاية، أو ربما لأنك لن تكوني قادرة على أن تحبيني بالقدر الذي تظنين".

"لا تعقّـد المســألة. إنها ليست كذلك. أنا أحبك. وهذا هو المهم. ومهما أحببتني فهذا يكفيني".

"لســت كافياً وأهلاً لك، هذه هي المسألة برمتها"، قال لها وقد بدا معذباً وهو يقف في مدخل الغرفة، ويود لو يعود إليها ويأخذها بين ذراعيه، ولكنه ما كان ليسمح لنفسه بذلك.

"دعنـــي أنا من أقرر ذلك. دعني أحدد من أحب، ومن لا أحب. ليس لك الحق في أن تقرر بالنيابة عني".

"بــل لي الحق". قال وهو ينظر إليها لآخر مرة، ثم دفع بعجلات كرسيه خارجــاً من الغرفة. وانغلق الباب وراءه بعنف، في حين جلست إيزابيل تبكي على الأريكة ولم تتحرك من مكانها.

الفصل التاسع عشر

مكثت إيزابيل في واشنطن لأربعة أيام. وفاز السيناتور بالانتخابات وكانت مسرورة من أجل بيل. لقد رأته على التلفزيون في نشرة الأخبار يجلس إلى كرسيه المدولب جانباً، فقد كان ذا نفوذ ولكن من وراء الكواليس. لم يتصل بها على الإطلاق، ولم تتصل به من جديد. لقد صارت تصدقه الآن. وكانت تعلم أنه، ومهما كانت أفكاره خاطئة، إلا أن عليها أن تحترم مشاعره. لقد كان من الصعب أن يصدق المرء إلى أي درجة كان بيل عنيداً حتى إنه ضحّى بكل ما كان لديهما. ولكنه بدا على استعداد لأن يتخلى عن كل ما كان بإمكانهما أن يحصلا عليه معاً. لقد انفطر قلبها لقبولها بذلك، ولكنها ما كانت لتجبره على العودة إليها. كان عليها أن تقبل الخيار الذي لجأ إليه مهما كانت تختلف عنه في الرأي إزاء ذلك. لقد كان هذا من حقه، تماماً كما أن من حقها أن تعتقد أنه كان بإمكانهما أن ينعما بحياة رائعة. لقد كانت لتفخر بأن تكون معه بكرسي مدولب أم لا. فما كانت لتأبه لذلك، أما هو فبلى. لقد كان لـــه الحق أن يعيش بحسب اختياره.

اتصلت بصوفي ليلة الثلاثاء بعد الانتخابات، وأخبرتها أنها عائدة إلى الديار. وبدت إيزابيل حزينة، ولم تسألها صوفي عن السبب. لقد كان لديهما أكثر من سبب. كانت صوفي قد جاهدت كي تتغلب على صدمة خسارة أخيها، بقدر والدتها تقريباً.

"هل رأيت صديقك؟" سألتها وهي تحاول أن تسرّي عنها.

"نعم". قالت إيزابيل بهدوء. "إنه بخير".

"هل يمشي من جديد؟".

"لا".

"ما كنت أعتقد أنه ليستطيع ذلك. فقد كان في حالة بائسة مزرية عندما رأيتُه في المشفى، وأنت أيضاً كنت كذلك".

"إن أموره كلها تبدو جيدة ما عدا هذه الناحية. سأكون في المنزل طيلة غدٍ يا حبيبتي، إذا ما كنتِ بحاجة إليّ". لقد كانت تحب أن تُعلم صوفي بمكان وجودها دائماً. وكانت هذه عادة من عادات ماضي السنوات التي كانت تُعنى فيها بتيدي على الدوام. وفي الواقع ما كانت صوفي بحاجة لأن تعرف أين والدتها في كل وقت، ولكن كان هذا يجعلهما تشعران بالطمأنينة والأمان أكثر. "سأراك خلال بضعة أسابيع".

"سأتصل بك في عطلة نهاية الأسبوع هذه يا ماما. هل استمتعت بوقتك؟" كانت صوفي ترجو ذلك ولكن والدتها لم تكن تبدو مبتهجة.

"ليس تماماً" قالت إيزابيل بصدق. "ولكنني مسرورة لأني جئت". لقد اضطرتها هذه الرحلة لأن تتقبل ما لم تكن قادرة عليه كل ذلك الوقت. وزارت بعض المتاحف والمعارض. كانت تنوي العودة إلى أعمال ترميم اللوحات في متحف اللوفر بعد أول السنة، وكانت قد بدأت تنغمس في الفن من جديد. لقد كان هذا يذكّرها بالأيام التي أمضتها في لندن برفقته منذ أكثر من سنة. لقد كان كل شيء يذكّرها ببيل. اللوحات، المتاحف، بار هاري، الرقص، الموسيقى، الضحك، الهواء. ولربما سيتوقف هذا يوماً. كانت ترجو ذلك. فإن لم يكن في حياتها من جديد سيتوجب عليها أن تنساه بأسرع ما يمكنها. ولربما حتى ستكف عن حبه يوماً ما. وإذا حصل هذا فإن رحمة من السماء ستكون قد حلت عليها.

في صباح يوم الأربعاء حزمت إيزابيل حاجياتها القليلة التي كانت قد أحضرتها معها، واتصلت بالبواب ليساعدها في حمل حقيبتها. كان موعد رحلتها في الساعة الواحدة، وغادرت الفندق إلى المطار في العاشرة. وإذ أغلقت باب حجرتها رن جرس الهاتف فيها. واستغرقها الوقت دقيقة لتفتح الباب من جديد، وعندما وصلت إلى الهاتف، كان قد توقف. وعندما تحققت من

الأمر، قال لها موظف الاستقبال أنه قد اتصل بها تواً ليسألها عن موعد تركها للغرفة إذ كان ثمة شخص في انتظار ذلك.

كانت رحلتها إلى المطار هادئة وطويلة. لقد كان الثلج قد تساقط مرة أخرى ليلة أمس، وبدت واشنطن جميلة وقد غطتها الثلوج. تحققت من رحلة الطيران، وبعد برهة، مضت لتبتاع بعض المجلات وكتاب لكي يكون معها ما تقرأ فيه خلال رحلة الطائرة. كانت تشعر بالهدوء والحزن، وبنوع من الحرية والانعتاق. فأخيراً تركته يمضي في سلام، وكانت مسرورة لأنها جاءت إلى واشنطن. لم تكن لتتوقع أن تشعر بالسلام إزاء هذا الموضوع كما كانت الآن. وحملت نفسها على ألا تفكر فيه بينما كانت تدفع ثمن المجلات والكتب. كانت تشكر المرأة على الفكة التي أعادتها لها، وإذا بها تسمع صوتاً خلفها تماماً.

"هل تعلمين أنك مجنونة؟ كنت أعرف ذلك على الدوام". أغمضت عينيها وهي تكاد لا تصدق ما تسمع. فقد كان هذا من غير الممكن. ولكنه حدث. وعندما استدارت رأت بيل وراحت تنظر إليه. "لستِ فقط مجنونة بل مخطئة أيضاً"، قال في هدوء. لقد بدا مألوفاً لها وقوياً وهو يجلس هناك، فابتسمت له رغماً عنها.

"هل تطاردني، أم أنك مسافر؟" وراح قلبها يخفق بقوة لمجرد رؤيتها له من جديد. لم تدرِ هل كان ذلك صدفة أم معجزة، ولكنها لم تجرؤ أن تسأله عن ذلك.

"لقد اتصلتُ بك في الفندق ولكنك كنتِ قد غادرتِ".

"هذا مضحك، لا بد أن اتصالك فاتني". قالت، وهي تحاول أن تبدو رابطة الجأش. كانت يداها ترتجفان وقد أمسكت بإحكام المجلة والكتب التي كانت قد اشترتهما لتوها. "قال لي موظف الاستقبال أنه اتصل ليستعلم عن الغرفة".

"لا بد أني اتصلتُ بعده تماماً". وافترضت أنه اتصل كي يودعها، ولكن لماذا هو هنا؟ "أعلم أني فعلت الصواب". قال لها وهو يدفع عجلات كرسيه

ليتنحى عن الطريق وقد وقفت قبالته. كان الناس يجولون ويدورون حولهما، ولكن لم يأبه أي منهما لذلك. كانت أعينهما قد تلاقت وقد راحا ينظران إلى بعضهما بعضاً مطولاً. بدت إيزابيل شاحبة. وبدا هو وكأنه لم ينم منذ أيام. "أنت تستحقين أفضل من ذلك".

"أعرف أن هذا هو رأيك". قالت له، وهي تشعر أن قلبها ينفطر من جديد. "كم من مرة سيقول لها الأمر نفسه؟ ولكن ليس هناك أفضل من ذلك. فهذا أفضل ما يكون... أو لنقل على الأقل بالنسبة لي. لقد فقدتُ تيدي. وفقدتُك. وما عاد لدي ما أخسره بعد، ما عدا صوفي. لا أعتقد أنك تغلبت على الحب بغير صعوبة، أو بالحري يجب أن لا يفعل أحد ذلك. فهو شيء ثمين ونادر جداً. ولكن من الواضح أنك هكذا". كانت تعلم أنه ما من شيء يمكن أن يقنعه بتغيير رأيه. لقد كان له أن يفكر كما يحلو له، وهي كما تشاء.

"أريد لك ما هو أفضل من ذلك. أريدك أن تحظي بحياة حقيقية مع رجل يستطيع أن يطاردك في أرجاء الغرفة ويرقص معك ليلة رأس السنة".

"أريد أكثر من ذلك بكثير. أريد شخصاً أحبه ويحبني، شخصاً أستطيع أن أحترمه وأن أعتني به وأضحك معه ما حييت. فأنا أستطيع أن أحب بكل سهولة. أما أنت فلا تقدر على ذلك". قالت ذلك وقد تقبلت القدر الذي كان قد اختاره لكليهما.

"ما الذي يجعلك متأكدة على هذا النحو؟".

"هل كنت ستحبني لو كنتُ أنا مكانك في هذا الكرسي؟" كانت الدموع تترقرق من عينيها، وكان صوتها رقيقاً عذباً، فأومأ ولم ينطق ببنت شفة. ثم أجابها، وفهم في نهاية الأمر.

"نعم".

"إذاً فلا تستغرب أن أستطيع أن أحبك وأنت في حالتك هذه".

لم يقل لها شيئاً بل اكتفى بأن شدها إليه وأجلسها في حضنه ونظر إليها،

وأحاطها بذراعيه، وقبّل شفتيها، وكانت لاهثة عندما توقف.

"لماذا فعلتَ ذلك؟" كان لا بد أن تسأل. "هل كانت هذه تحية ترحيب أم وداع؟".

"اختاري أنت. أنت تعلمين بما أفكر. إني أحبك. ولك الحق أن تقرري كما تشائين". لقد كانت هيلينا قد أخبرته ذلك ومنذ زمن طويل، وقد كانت على صواب، وأدرك ذلك أخيراً. كان قد حاول أن يحمي إيزابيل، ولكن ما عاد باستطاعته ذلك. إن لها الحق في اختيار مصيرها بنفسها، وهذه المرة ربما مصيره هو أيضاً.

ابتسمت له إيزابيل وهمست "هالو" فيما قبّلته وعانقها بقوة.